تأليف
دى ڤوجانى

ترجمة
مدحت عايد فهمى

القاهرة وضواحيها





مكتبة مدبولى

القاهرة وضواحيها

هذا الكتاب من الكتب التى تعرضت بالوصف والتحليل والنقد لعادات ومعتقدات المصريين فى العصور الوسطى بواسطة أحد المستشرقين الفرنسيين ، وما أكثر الكتب التى تعرضت لحياة المصريين وثقافتهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم سواء ما أبدعه علماء الحملة الفرنسية أو إدوار لين أو السابقين على كل هؤلاء ..

ولعل ما يميز هذا الكتاب أنه لم يقتصر على القاهرة فقط ولكنه امتد إلى الضواحى بمعنى أنه يضم الحضر مع الريف فالعادات المتعلقة بالملبس والمأكل والاحتفالات فى المناسبات المختلفة سواء كانت قومية أو دينية للمسلمين أو المسيحيين معًا فضلاً عن أساليب التواصل بين أفراد الشعب فى حفلات الزواج والأفراح والختان والموالد وما يتخلل هذه الاحتفالات من ممارسات بعضها يتمسح فى الدين والبعض الآخر يعطى صورة حقيقية عن وضعية الشعب وحالته التعليمية والثقافية بصرف النظر عن اختلاف العرق أو الدين أو الملة .

إنه كتاب يعبّر عن مدى اهتمام الغرب بمصر وما يجرى فيها على مر العصور ، معها أو ضدها ، ولكن المؤكد أن مصر بشعبها وموقعها وقدرتها على هضم وتمثّل كل تيار وافد جعلها ويجعلها دائماً قبلة الدارسين وموضع اهتمام كل علماء التاريخ والاستراتيجية على مر العصور .

الناشر

القاهرة وضواحيها

الكتاب : القاهرة وضواحيها
المؤلف : دى ڤوجانى
المترجم : مدحت عايد فهمى
الطبعة : الأولى عام ٢٠٠٤
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٥٧٤٧
الترقيم الدولى : 977-208-448-1

القاهرة وضواحيها

تأليف
دى ڤوجانى

ترجمة
مدحت عايد فهمى

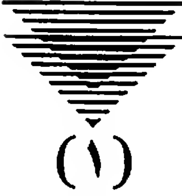
الناشر
مكتبة مدبولى

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة



(١)

مصر والنيل

تقع مصر فى موقع يتوسط العالم القديم بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، فى الأطراف الشمالية الشرقية من القارة الأفريقية بين خطى طول ٢٢°، ٣٢° إلى الشرق من باريس . وهى عبارة عن واحة كبيرة تحيطها من كل جانب الصحراء والبحر .

تبدأ حدود مصر فى الواقع عند مدينة آسوان (حجر صوان : الشلال الأول) بخط عرض ٢٤° ٥َ ٢٣ً شمالاً . ومن أسوان حتى القاهرة يعرض البلد منظرًا لواد طويل متعرج ضيق حيث تنساب مياه النيل فى سلام بين سلسلة الجبال الشرقية والصحراء الليبية غربًا . وفيما وراء القاهرة على ما يبدو عند بقعة تسمى « القناطر الخيرية » ينقسم النهر إلى فرعين ، فتتلاشى الجبال رويدًا رويدًا حتى تختفى تمامًا ، ثم ينبسط وادى عريض تشقه ألوف القنوات مثل سجادة شاسعة من الخضرة وسط الرمال التى تحتضنها حتى البحر الأبيض المتوسط ، وقد تسمى هذا الجزء من مصر باسم « الدلتا » بسبب مظهره ، وهو يسمى فى العادة بمصر السفلى أو الوجه البحرى .

ولا تمثل « الدلتا » أى ارتفاع طبيعى فيما عدا بعض الكثبان الرملية التى تحف الساحل ، وبعض الهضاب الصناعية التى بنيت فوقها القرى ، وبعض تلال من الأنقاض أو من أطلال المدن القديمة التى انهارت ، تلك هى النقاط المرتفعة التى نقابلها فوق أرض منبسطة تمامًا .

ملحوظة : نشر هذا الكتاب بباريس فى عام ١٨٨٢م . لذا فتعبيرات « فى الوقت الحالى » أو « حديثًا » الواردة فى الترجمة تعنى وقت طبع الكتاب أى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر (المترجم) .

والنيل هو النهر الوحيد الذى يروى مصر العربية وأقاليمها الجنوبية . وكانت مصادره غير معروفة قديمًا . ولكن تم اكتشافها حديثًا . فالنيل يخرج من بحيرة «فيكتوريا» فى المناطق الاستوائية ، ثم يهبط أولاً من سطح إلى سطح آخر أقل منه ارتفاعًا عن طريق سلسلة من الشلالات ، فتارة يسير وسط حشائش « السافانا » ، وتارة أخرى وسط غابات أشجار التمر هندى ، والجميز ، أو وسط مستنقعات تنمو فوقها نباتات الخيزران المائية . وهو يروى مناطق « الفارو » ، و « الجندوكورو » ، وبلد «الشيوك» و « الباكاراس » ، ثم يصل إلى الخرطوم باسم « النيل الأبيض » حيث يلتقى بالنيل الأزرق ، ويزيد المجرى اتساعًا مجموعة الأنهار التى يجلبها معه من الجنوب ، ثم ينساب النهر بعمق محصورًا بين مرتفعات شديدة الانحدار وصخور عمودية ذات أطراف حادة . ويعبر النهر كثيرًا من المنحدرات السريعة التى لا يعد أى منها بمثابة شلال حقيقى ، ثم يعبر النهر كل بلاد النوبة ، ويدخل مصر عند أسوان بين جبلين من البازلت تفصلهما مياهه ، ويتسع واديه فى هذا المكان ، وخاصة على الضفة الغربية التى يقل انحدارها كثيرًا عن الضفة الشرقية . ويروى النهر « إدفو » ، و « إسنا » ، و« الأقصر » ، و « قنا » ، و « جرجا » ، و « أسيوط » ، و « منفلوط » ، و « المنيا » ، و«بنى سويف» و « القاهرة » . فالنهر الذى يبلغ عرض مجراه ١٢٠٠ متر عند أسوان ، والذى لا ينضم إليه أى مجرى مائى داخل جمهورية مصر العربية ، ذلك هو نهر النيل الذى يفقد مياهه بصفة مستمرة عن طريق القنوات والتبخر ليبلغ عرض مجراه ٦٠٠ متر عند القاهرة . ثم ينقسم النهر بعد ذلك إلى فرعين ، ويعبر الدلتا ، ويصب فى البحر الأبيض المتوسط عند مدينتى رشيد ، ودمياط .

والأمطار التى تنهمر بطريقة متكررة من شهر إبريل حتى شهر أكتوبر فى مناطق البحيرات الكبرى أو العظمى وفى الحبشة (أثيوبيا) (وكانت أثيوبيا تسمى قديمًا «عباسينى») تؤدى إلى زيادة مياه النهر التى تنساب سنويًا بمصر . ويسبب هذا الفيضان خصوبة أرض مصر ، التى تتكون تربتها من الطمى الذى يجلبه نهر النيل ، ولا تتكون من شىء سواه . أما الأماكن التى لا تصل إليها مياه النيل فلا يوجد بها سوى الصحراء . ويقول « ماسبيرو » : « إنه قديمًا كانت كل الأرض المعروفة باسم « الدلتا » مغمورة بالمياه . وكانت أمواج البحر الأبيض المتوسط تأتى حتى أسفل الهضبة الرملية التى بنى عليها هرم الجيزة الأكبر . وعلى مدى الأحقاب الطويلة كانت المواد الطينية

التى يحملها النهر معه تتراكم على هيئة طبقات من الطمى فوق الأعماق السفلى ، وانتهت بتشكيل السهل المثلث الذى يحيط به فرعاه ، وكل جزء من هذا السهل كان قد أحضر حبة حبة من أعماق أفريقيا » .

ويضيف عالم المصريات « ماسبيرو » فيما بعد : « لم يخلق النيل تربة مصر فقط بل حدد المظهر العام للبلد ، ونوع منتجاته » .وبسبب هذه الفيضانات الدورية يحق للنيل المراسم والاحتفالات التى تقدمها له مصر فى كل وقت . فعن طريق فترة إقامة مدتها ثلاثة أشهر فى الأراضى المنخفضة يرسب النيل غذاء النباتات ، ويجعل من الصحراء العقيمة أرضًا غنية وخصبة . وإذا زاد المعدل الطبيعى للفيضان بضعة أقدام أو قل بهذا المقدار فسوف يؤدى ذلك إلى تهديد الأراضى الزراعية . فإذا كان الفيضان عاليًا وقويًا فسوف يؤدى ذلك إلى خراب الأراضى . أما إذا كان الفيضان منخفضًا وضعيفًا فلن يخصب التربة بدرجة كافية ويبدأ الشعور بالمجاعة . نستطيع إذن أن نقول دون مغالاة أن النيل هو مقياس الرفاهية ومصدر الحياة لمصر ، كما يمكن أن يكون سبب دمارها . وكذلك فإن بداية الفيضان ومجىء النهر بالارتفاع المناسب هما أحداث تزف إلى الناس بواسطة الأعياد الشعبية .

ويبدأ الفيضان فى شهر يونيو تقريبًا ، ومنذ زمن « هيروديت » كان الفيضان يحدث بصفة منتظمة عند بداية فصل الصيف . فالأقباط أو المصريون القدماء كانوا يعتقدون أن المياه ترتفع دائمًا يوم ٢٠ يونيو . فأثناء الليلة التى تسبق هذا اليوم تسقط كما يقولون « النقطة المعجزة التى تطهر الهواء وتتبىء بقدوم فيضان سعيد » . فالتجربة الطويلة قد علمت سكان مصر أن يخافوا من الفيضان الضعيف جدًا والقوى جدًا ، وأثبت لهم أن الفيضان المتوسط يمنح الفلاح أو المزارع محصولاً وفيرًا . والفن يستطيع بجسارة أن يداوى الفيضانات المرتفعة عن طريق الآبار والقناطر التى تصرف المياه الزائدة عن الحاجة إلى البحر أو فى الأجزاء المنخفضة من الصحراء، وأثناء الفيضانات القليلة أو التى لا تكفى نستطيع كذلك أن نحتفظ بالمياه وأن نمنع سريانها حتى لا تفقد. فالقناطر المزمع إنشاؤها بتكلفة عالية أثناء حكم « محمد على » يجب أن يؤدى هذا الهدف ، ولكن للأسف هذا المشروع العملاق تم إهماله ثم ترك أخيرًا . وفكرة تنظيم الفيضان وفقًا للمياه المرتفعة والمنخفضة ليست حديثة . ففى حوالى القرن التاسع والعشرين قبل ميلاد السيد المسيح توصل الفرعون أمنمحات الثالث إلى هذا الهدف

بإنشاء وإبداع بحيرة « موريس » ، وفى هذه البحيرة كانت المياه تتراكم خلال سنوات الوفرة ، وتظل محصورة بالبحيرة لتروى جزءًا من البلد فى اليوم الذى يكون مهددًا فيه بالعقم أو عدم الخصوبة بواسطة فيضان ضعيف جدًا .

ومبدأ خصوبة النيل يعتمد على الطمى الذى يحمله ، فهذا الطمى متماسك جدًا وأسمر اللون . ومن بين مائة جزء يحتوى على ٤٨٪ ألومونيوم ، و١٨٪ كربونات الجير ، و٩٪ كربون ، و٤٪ كربونات المنجنيز ، و٦٪ أكسيد الحديد ، و٤٪ من السليكا أو الرمل ، و١١٪ من الماء النقى . والتربة التى تم ريها تغطى بطبقة من الطين الأسود ، وكل فيضان يضع عليها بالضرورة طبقة جديدة. وينتج من هذه الظاهرة أن أحدًا لا يستطيع أن يرفض قبول أن قاع النهر يرتفع بكمية تتساوى تقريبًا مع ارتفاع الوادى الملاصق للنهر ، وذلك يتناسب مع كمية المياه التى تبقى مع كل فيضان ، وكنتيجة لذلك مع كتلة المواد الأرضية التى تحتويها المياه . وقد حدد المهندسون الفرنسيون الذين أتوا مع الحملة الفرنسية إلى مصر الارتفاع الذى يحدث كل قرن بسبب ترسبات الطمى بـ ١٢٦, ٠ متر . ونتيجة لهذا الارتفاع فى الأرض أصبحت قواعد عدد كبير من الآثار الموجودة بصعيد مصر تتواجد اليوم على ارتفاع يقل عن مستوى النيل بأمتار عديدة .

وعندما فتح العرب مصر أرسل « عمرو بن العاص » القائد العام للجيوش الإسلامية إلى الخليفة « عمر بن الخطاب » وصفًا يصف فيه الآثار العجيبة للفيضان ، وأوضح له أن السبب الرئيسى لرفاهية البلاد هو صيانة الترع والقنوات . وبعد ذلك باثنى عشر قرنًا قال نابليون فى جزء كبير من كتاب عن جغرافية مصر بواقعية شديدة: « ليس للإدارة فى أى بلد تأثير مباشر على الرفاهية العامة . فإذا كانت الإدارة جيدة تصير القنوات محفورة بطريقة جيدة ، ومتمتعة بصيانة جيدة ، وقواعد الرى منفذة بعدالة . والفيضان أكثر اتساعًا . أما إذا كانت الإدارة رديئة ، فاسدة أو ضعيفة فتصير القنوات مسدودة بالطين ، والترع غير مصانة ، وتنتهك أنظمة الرى ، وتنقض مبادئ نظام الفيضان بواسطة الفتن والمصالح الخاصة للأشخاص والإدارات المحلية . وليس للحكومة أى تأثير على المطر أو الجليد الذى يتساقط فوق أقاليم فرنسا ، أما فى مصر فالحكومة لها تأثير مباشر على اتساع الفيضان الذى يحدث بسببها » .

* * *



تعداد السكان - المحافظات

يبلغ عدد سكان مصر فى الوقت الحالى أكثر من خمسة ملايين ونصف نسمة - أى مائة وتسعة وسبعون فردًا فى الكيلو متر المربع الواحد ، وهذا الرقم يزيد على مثيله فى معظم بلدان أوروبا . أما بالنسبة للأقاليم التابعة لمصر فإن عدد السكان يمكن تحديده بطريقة تقريبية على النحو الآتى :

واحة سيوة وبلدة زيلع ٢٥,٠٠٠ نسمة .

والنوبة والسودان المصرى ٩,٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، مما يجعل العدد الكلى للسكان أربعة عشر مليونًا ونصف لجميع أنحاء البلاد .

أما من الناحية الإدارية ، فإن مصر تنقسم إلى محافظات ، وإلى أقاليم أو مديريات . وتنقسم المديريات إلى مراكز أو أقسام . ويُسمى الموظفون المعينون على رأس هذه الأقسام بالمحافظين ، أو المديرين أو « نظراء الأقسام » .

المحافظات

الإسكندرية	العريش	سواقين
رشيد	إسماعيلية	مصوع
دمياط	سويس	زيلع
بورسعيد	القصير	سيوة (شيخ)

مديريات الوجه البحرى (مصر السفلى)

القليوبية : أهم المدن « بنها العسل » .

الشرقية : أهم المدن « الزقازيق » .

الدقهلية : أهم المدن « المنصورة » .

الغربية : أهم المدن « طنطا » .

البحيرة : أهم المدن « دمنهور » .

المنوفية : أهم المدن « شبين الكوم » .

مديريات صعيد مصر (مصر العليا)

الجيزة : أهم المدن « الجيزة » .

بنى سويف : أهم المدن « بنى سويف » .

فيوم : أهم المدن « مدينة الفيوم » .

منيا وبنى مزار : أهم المدن « المنيا » .

سيوط او اسيوط : أهم المدن « أسيوط » .

جرجا : أهم المدن « جرجا » .

قنا : أهم المدن « قنا » .

إسنا : أهم المدن « إسنا » .

مديريات السودان

دنقلة : أهم المدن « دنقلة الجديدة » .

بربر : أهم المدن « بربر » .

الخرطوم : أهم المدن « الخرطوم » .

سنار : أهم المدن « سنار » .

فازوجل : أهم المدن « مخكا » .

البحر الأبيض : أهم المدن « فاشودة » .

تاكا : أهم المدن « كسلا » .

كردفان : أهم المدن « الأوبيد » « الأبيض » .

درفور : أهم المدن « تندلتى » .

* * *



المنـــاخ

يحتسب مناخ مصر ضمن مناخ البلدان الأكثر سخونة . ويرجع ارتفاع درجة حرارة البلد بدرجة أقل إلى قربه من الشواطئ ، وبدرجة أكثر إلى الصحراء التى تحد «مصر». ومن الطبيعى أن الهواء الذى يغلف الأراضى المستوية الشاسعة « لليبيا » والبلدان العربية المجاورة لها ، حيث لا توجد أنهار ، أو بحيرات ، أو غابات .

هذا الهواء يسخن بفعل أو تأثير الشمس الحامية التى تتزايد شدة تأثيرها بسبب الأشعة المنعكسة من الرمال ، وترفع درجة الحرارة والجفاف إلى أقصى ما يمكنها . ويتوقف مؤشر الترمومتر فى القاهرة عند ارتفاع متوسط يعادل ^{o}٢٨ درجة مئوية أثناء شهور الصيف . ففى هذا الفصل تكون الحرارة شديدة لدرجة أن الهواء يبدو ملتهبًا ، ويمكن أن يصبح هذا الهواء مميتًا بالنسبة إلى الرجال الذين ولدوا تحت مناخ مختلف ، لأنه مع الملابس الخفيفة جدًا ، وفى حالة الاسترخاء التام ، يكون الجسم معرض للعرق، وأقل تبريد مفاجئ يؤدى إلى أمراض خطيرة .

ويمكننا أن نعتقد أنه فى حرارة مثل هذه ، وأرض تظل طينية لفترة تقرب من ثلاثة أشهر بعد انسحاب مياه الفيضان تصير بلدًا غير صحى ، ومع ذلك فمصر ليست كذلك ، وذلك بسبب قربها من الصحراء التى تحفظ الهواء فى حالة جافة كالمعتاد ، وتيارات الرياح الأبدية التى تعبر الأجواء دون أن تقابل أى عوائق . بالإضافة إلى ملوحة التربة المصرية بسبب وجود « النترون » . وكل ذلك يؤدى إلى تحسين التربة المصرية . وبلا أدنى شك فتلك الصفات الخاصة للهواء وللتربة . بالإضافة إلى الحرارة تعطى للنبات نشاطًا غير معروف فى أقاليم أوروبا .

ويتناسب اتجاه الرياح مع الفصول بالضبط . فمنذ حدوث فيضان النيل (فى حوالى ٢٠ يونيو) حتى شهر إبريل التالى تسود الرياح الشمالية مع تغييرات فى اتجاه الشرق وفيما بعد فى اتجاه الغرب . ومن شهر إبريل حتى شهر مايو تعلن رياح الخماسين عن نفسها . وهى رياح ساخنة تسمى هكذا لأن الفترة التى تحدث خلالها ويشعر بها الناس هى خمسون يومًا . ولا نستطيع أن نأخذ فكرة عن الخماسين إلا إذا عانينا من تأثيراتها . وهذه الرياح تعلن عن نفسها يوميًا بطريقة فجائية كالعاصفة باضطراب عام فى المناخ . فالسماء التى كانت هادئة يصير لونها رماديًا فجأة . وكل الأشياء ، والرمال والنخيل ، والمنازل يصير لونها أصفر غامقًا ، وتبدو كأنها ترى من خلال زجاج ملون بهذا اللون . وإذا رفعنا عيوننا لنبحث عن الشمس سوف نرى ذرات مضيئة تتطاير على هيئة عمود مائل ، وهو التراب غير الملموس الذى ترفعه رياح الخماسين من الصحراء ، ويرتفع مؤشر الترمومتر من ١٠ إلى ١٥ درجة خلال بضعة ساعات ، وتصبح الحرارة خانقة ، والتنفس قصير الزمن وصعب ، ويتوقف خروج العرق من الجسد ، ونصير فريسة لعطش شديد لا يستطيع أى مشروب أن يطفئه . ويتجمع سكان المدن والقرى على عجل فى بيوتهم ويغلقون أبوابها بدقة ليحتموا فيها من التراب الدقيق والنفاذ الذى ترفعه العاصفة . وتنتشر فى الجو رائحة التراب التى تشبه الرائحة التى تحدث عند بداية أى عاصفة بعد جفاف طويل .

وتقل قطرات الندى أو تزيد وفقًا لاتجاه الريح ، وتتغلغل كثيرًا فى البيوت عندما تكون تحت تأثير الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية ، ويكثر الشعور بها كلما اقتربنا من البحر والبحيرات . وينظر المزارع المصرى إلى قطرات الندى كأنها خير نازل من السماء يصلح مفاسد الأمطار التى يعتبرها وباء يؤدى إلى إنبات مجموعة من النباتات الضارة بالحبوب . والأمطار غير معروفة تقريبًا فى صعيد مصر . حيث لا تكتسى السماء بأى غيوم ، لكن الأمطار تحدث كثيرًا فى المناطق القريبة من البحر مثل الإسكندرية ، وعلى كل شواطئ الدلتا ، ولكن لمدة قصيرة ، وعلى فترات من شهر ديسمبر حتى شهر فبراير . ولم يتعود سكان القاهرة خلال نفس الأشهر سوى على بعض الأمطار النادرة التى لا تدوم مطلقًا ليوم كامل .

والحرارة الشديدة والبرودة المفاجئة خلال الأمسيات هما عدوان يجب أن نأخذ حذرنا منهما . وبسبب إهمال بعض الاحتياطات والتعرض بدون حرص لتأثير أشعة الفجر التى تحدث انخفاضًا ملحوظًا فى درجات الحرارة عانى منه كثير من الأوروبيين وسبب لهم أمراضًا مؤلمة . وهناك عادة مفيدة للصحة منتشرة فى مصر فى كل بلاد المشرق ، ألا وهى حمامات البخار . فعند الشعور بأقل أعراض لأى مرض يستعمل سكان البلاد هذه الوسيلة التى تنجح فى أغلب الأحيان فى تحطيم كثير من الأمراض وفقًا لمبدئهم .

فالأجنبى الذى ينوى الإقامة لفترة طويلة فى مصر يجب أن يتأقلم منذ الأيام الأولى لوصوله على طريقة حياة سكان البلد . وكما يقول دكتور « دى فوكيه » : « يجب أن يتغلغل فينا هذا المبدأ ، ألا وهو أن أسلوب وطريقة الحياة يجب أن يتغير مع تغير المناخ . ويجب أن يتبع بعض قواعد الصحة التى أثبتت التجارب حقيقتها المطلقة . فاختيار السكن والملابس يجب أن يكون بعناية خاصة ، ولكن النقطة الأكثر أهمية هى الغذاء . فمنذ البداية يجب أن يفرض على نفسه نظامًا قاسيًا . فالوجبات الأساسية يجب أن يتناولها بصفة خاصة فى الصباح وفى المساء بطريقة لا تحمل المعدة أثناء حرارة النهار الشديدة . واستخدام النبيذ المخفف بالمياه يعد ممتازًا أثناء الوجبات . أما استخدام السوائل الكحولية ، وخاصة بعد الوجبات فيجب أن نبتعد عنه تمامًا . وبفضل هذه الاحتياطات نصون أنفسنا من أمراض الكبد والأعضاء الباطنية الأخرى التى تنتشر فى البلدان ذات الطقس الساخن » .

« ويجب صيانة وظائف الجلد بكل عناية بغسله بسوائل الغسيل على فترات متقاربة . والحمامات التى يعد استخدامها غير منظم يجب أن تؤخذ بكل فطنة ، فنبدأ بالماء الدافئ أولاً ثم الأكثر برودة ، ثم تقلل كمية المياه ، وبعد ذلك يتم التدليك على الناشف للحصول على رد فعل معتدل » .

وبعيداً عن الأمراض التى نتجنبها بالطبع باتباع رجيم غذائى توجد أمراض أخرى من الصعب الاحتياط منها ، وهى تتطور فى المدن بصفة خاصة أكثر مما تتطور فى الأرياف ، ألا وهى أمراض العيون . وهذه الحالة المرضية الدائمة تصيب كل الناس ،

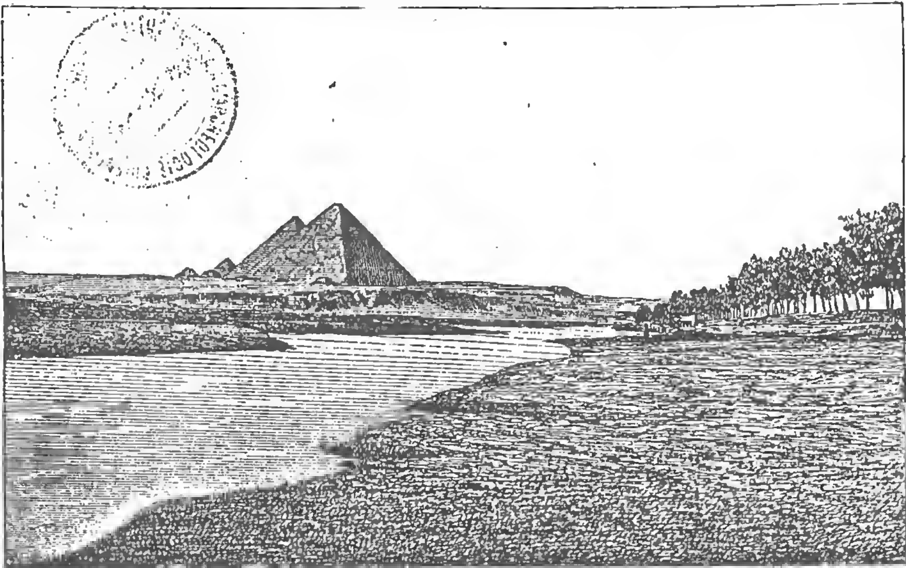
وهى تتطور مع كل درجات الحرارة ، عند الرجال ، وعند البهائم ، وهى تسود خلال جميع فصول السنة ، ولكنها تظهر فى أغلب الأحيان على هيئة خاصية حميدة من السهل إزالتها ، وفى أوقات أخرى تكون الحالة المرضية عنيفة جدًا وتتحول سريعًا إلى الرمد الحبيبى الذى تكون له نتائج مدمرة إذا أهمل المرض .

وترجع أمراض العيون فى مصر إلى أسباب عديدة . وبعض الأطباء اعتقدوا أنها تحدث بسبب انعكاس الشمس المتوهجة على أرض صحراوية ، أو على البيوت البيضاء المبنية من الحجر الجيرى . وأطباء آخرون ادعوا أن هذه الأمراض تحدث بسبب التراب الناعم الذى ترفعه إلى أعلى رياح الخماسين ، أو بسبب الجزيئات النشيطة المالحة التى يحملها الهواء . ولكن هذه التفسيرات ليست كافية . فإذا كانت أمراض العيون تحدث بسبب شدة أشعة الشمس فلماذا يندر حدوثها فى المناطق التى تكون فيها هذه الأشعة أكثر شدة ، فى صعيد مصر على سبيل المثال أو فى بلاد النوبة ؟ ومن ناحية أخرى إذا كان هذا المرض يحدث بسبب دخول جزيئات الرمال أو الملح فى العين فلماذا لا يحدث فى الصحراء ؟ ولماذا لا يصاب به العمال الذين يعملون فى الأراضى التى تحتوى على النترات أو الأزوت أكثر من الآخرين ؟ فمن المعقول دون شك أن نرجع سبب مرض العيون إلى أشياء طبيعية توجد فى الواقع . إما فى الهواء أو فى تكوين التربة ، ولكن لم تتوصل إليها الأبحاث حتى الوقت الحالى . فهل قذارة الفقراء الذين يعيشون فى مناطق رطبة منعزلة ، أو وسط الطين والقاذورات الجافة التى تحمل أقل رياح ذراتها المعدية ليست هى سبب مرض العيون ؟ وعن هذا الموضوع يقول الدكتور فوكيه : « يجب علينا الا نبحث عن طبيعة المرض لا فى عمل الأشعة الشمسية أو ذرات التراب الصحراوية ، ولا فى الإشعاعات الليلية ، أو انتشار الذرات المتطايرة لكلوريد الأمونيوم والمواد الأزوتية المتحللة التى يمكن أن تؤدى دورًا مسببًا للمرض ، ولكن يجب علينا أن نرجع سبب المرض إلى وجود « فيروس » خاص يحمله الهواء ، أو يدخل مباشرة إلى جسم المريض بواسطة مجموعات الذباب التى تغطى دائمًا عيون أطفال الناس » . ويجب ملاحظة أنه منذ أن خضعت القاهرة لمجموعة مختلفة من قوانين الصحة العامة أصبحت أمراض العيون أقل انتشارًا فيها . ويقول نفس الطبيب إضافة إلى ما سبق : « يظهر مرض

العيون فى ثلاثة أشكال : الكتاركت ، والصديد ، والحبيبى ، وينتهى الشكل أو الحالة الأكثر خطورة فى أغلب الأحيان بعمى بالقرنية لا يمكن شفاؤه ، أو بانصهار بياض العين. ويقابل المسافر فى كل خطوة فى شوارع القاهرة أمثلة صارخة لذلك . ومع ذلك لا تمر الحالات دائمًا مرور الكرام ، وفى أغلب الحالات إذا تم علاج المريض جيدًا . خصوصًا عند بداية ظهوره فإن المريض يشفى بالعلاج ويتلاشى المرض دون أن يترك أى أثر . أما الأمراض السابقة مثل الضعف ، والقذارة والسكر فهى الأسباب الرئيسية التى تؤدى إلى زيادة حدة المرض » .

« وأحسن وسائل الوقاية تكون غسيلاً متكررًا قويًا . ويمنع التلوث الميكروبى سواء مع كمية باردة من الشاى أو مع محلول حامضى ضعيف جدًا . وعندما يتم التأكد من المرض فالعلاج الذى يتطلبه دقيق جدًا لدرجة أنه يجب استدعاء الطبيب ليعطيه له . ويجب الا ننسى أن الإصابة الأولى بالمرض لا تؤدى إلى عدم تكراره . ولم يتم حصر السبب المباشر للمرض حتى الآن ، ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار طريقة انتشار المرض والنتائج السعيدة التى نحصل عليها من جراء إعطاء المريض علاجًا مانعًا للتلوث الميكروبى ، فمن الصعوبة بمكان أن نشكك فى أصل الڤيروس المسبب للمرض » .

* * *



أهرامـات الجـيزة



(٤)

عرض تاريخى

ينقسم التاريخ القديم لمصر إلى ثلاث أحقاب كبرى :

١ - الدولة القديمة التى تشمل الأسرات العشرة الأولى ، وتبدأ مع « مينا » قبل زماننا الحالى بحوالى خمسة آلاف عام . وقال هيرودوت : (أول رجل يحكم مصر هو « مينا » . وتقدم لنا النصوص الهيروغليفية التى تم تفسيرها منذ ذلك الحين هذا الرجل كمؤسس للمملكة المصرية . وقد وحد مينا الأقاليم المصرية المختلفة تحت رئاسة واحدة ، ويحكمها أمراء من رتبة الكهنة . وأسس مدينة منف على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من بداية الدلتا ، وأقام فى هذه المدينة معبدًا مخصصًا للإله « بتاح ») .

وبدءًا من « مينا » دعى الفراعنة ملوكًا على صعيد مصر وعلى الوجه البحراى . وأشهر ملوك الدولة القديمة هم ملوك الأسرة الرابعة ، ألا وهم خوفو ، وخفرع ، ومنكاورع الذين شيدوا الأهرام الكبرى الثلاثة بمنطقة الجيزة. والفرعون « بيبى الأول » (الأسرة السادسة) الذى صد هجمات قبائل البدو الرحل إلى ما وراء الحدود الشرقية .

٢ - ثانيًا : تمتد إمبراطورية الدولة الوسطى من الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة (٣٠٦٤ حتى ١٧٠٣ قبل الميلاد) وتحت حكم أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة ، ألا وهو أمنمحات الثالث تم تنفيذ خزان ضخم سمى باسم « ميرى » «Méri» (البحيرة) وسماه اليونانيون موريس «Moeris» . وكان هذا الخزان يتصل من جهة بالنيل، ومن جهة أخرى ببحيرة طبيعية توجد حتى اليوم تسمى بركة قارون . وكان خزان موريس يستخدم فى حفظ جزء من ماء النيل أثناء الفيضان السنوى ، وتكمل أو تسد

النقص الحادث فى المياه فى حالة الجفاف لرى إقليم الفيوم . وبالقرب من هذه البحيرة قام نفس الفرعون ببناء قصر ضخم يحتوى على حوالى ثلاثة آلاف غرفة مظلمة ترتبط إحداها بالأخرى بأروقة ارتباطًا حكيمًا ، لدرجة أن أى أجنبى لا يستطيع الخروج منها بدون دليل . ويسمى هذا القصر « لوب - رو - حونت » وقد سماه اليونانيون فيما بعد باسم « اللابيرنث » أو « قصر التيه » .

وتنتمى الثلاث أسرات الأخيرة من الدولة الوسطى ألى « البرابرة الرحل » الذين غزو مصر من ناحية خايج السويس . وقد أطلقت الآثار على هذه القبائل التى تنهب وتسلب اسم الشاسو Shasou وتمت تسميتهم بصفة عامة بالهكسوس أو « الرعاة » وهؤلاء الهكسوس بعد أن هدموا المعابد وفرضوا سيطرتهم بالحديد والنار خضعوا بدورهم لمدينة المنتصرين ، واعتنقوا دين أسيادهم الجدد ، وسلكوا مثلهم وتحدثوا لغتهم وأصبحوا فراعنة حقيقيين . وفى زمن الهكسوس جاء « إبراهيم » إلى مصر ، كما ترتبط بهذه الفترة رواية يوسف كما وردت فى « الكتاب المقدس » حوالى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد . ومع ذلك فأمراء الأسر الشرعيين الذين لم يستطيعوا الانسحاب من مناصبهم ولم يستطيعوا تحمل نير الغزاة انسحبوا إلى طيبة حيث مارسوا نوعًا من السلطة النسبية . وحاولوا مرات كثيرة أن يعيدوا غزو مصر السفلى ولكن دون نجاح . وأخيرًا بعد حرب ضروس تم طرد الهكسوس بواسطة « أحمس الأول » ، وكانوا قد سيطروا على مصر لفترة تزيد على خمسة قرون .

٣ - وتبدأ الدولة الحديثة مع الأسرة الثامنة عشرة ، وتنتهى بنهاية الأسرة الحادية والعشرين ، وفى هذه الفترة استولى الإسكندر على مصر (١٧٠٣ حتى ٣٣٢ قبل ميلاد المسيح) ، وأثناء الأسرة الثامنة عشرة وسع أمنحتب الأول ابن أحمس محرر مصر البلاد من ناحية « أثيوبيا » . ومد تحتمس الأول غزواته حتى آشور كما تؤكد الآثار الخالدة . وكانت ابنته « حتشبسوت » مسئولة عن الحكم أثناء فترة غياب أخوها تحتمس الثالث .

فحملت « حتشبسوت » أسلحتها حتى جنوب شبه الجزيرة العربية ، واكتشفت بلاد « بونت » الذى تشمل الحجاز واليمن على الجانب المقابل لأرض الصومال . ودفع تحتمس الثالث حملاته العسكرية ، من ناحية حتى دجلة وحتى جبال أرمينيا ، ومن

ناحية أخرى حتى بلاد كوش (أثيوبيا) . والآثار التى تحكى هذه الحملات العسكرية البعيدة موجودة حتى اليوم فى « طيبة » .

وظهر رمسيس الثانى من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، وهو أحد أكبر وأشهر غزاة مصر القديمة . وهذا هو الفرعون الذى يسميه المؤرخون اليونانيون باسم سيزوستريس . ويقع حكمه الذى دام ستة وستين عامًا بين سنوات ١٤٠٧ و ١٣٤١ قبل الميلاد . والغزوات التى تنسب إلى رمسيس الثانى مغالى فيها بالطبع . فوفقًا لما رواه «هيرودوت» فقد توغلت قواته فى أوروبا حتى « سيثى » «Seythie» ، ووفقًا لما رواه «ديودور» فقد وصلت قواته حتى الهند وباكستان (بحر عمان) وحتى خليج البنغال ، بل توغلت إلى أبعد من ذلك .

ومما أدى إلى خداع اليونانيين عن أهمية الفترة التى ملك فيها هذا الفرعون هو العدد الكثير من الآثار التى تحكى عنه . ويقول مارييت : « يمكن القول أنه من المستحيل أن تقابل فى مصر أطلالاً ، أو آثار دون أن تقرأ عليها اسم رمسيس الثانى » ويتهم رمسيس الثانى بأنه قام بمسح أسماء من سبقوه من فوق الآثار ليضع اسمه بدلاً منها ، وهذا الاتهام لم يتم جزافًا دون بعض الأسباب . فالآثار الموجودة بالأقصر ، والرمسيوم بطيبة ، ومعبد أبو سمبل الموجود فى بطن الجبل بالنوبة ، كل ذلك نقل إلينا القصة الرسمية لانتصاره على الحيثيين سكان خيتا - شعب بشمال سوريا - . وذلك فى العام الخامس من ملكه .

ووفقًا للرأى المعتمد رسميًا فإنه أثناء ملك الفرعون « مرنتباخ » الذى أتى بعده خروج العبرانيين - الذين أقاموا فى مصر منذ زمن الهكسوس - البلاد تحت قيادة موسى .

وبعد الأسرة العشرين بدأت حقبة مليئة بالاضطراب والظلام . فبعد شاشانق ، وهو شيشك المذكور بالكتاب المقدس الذى جعل مملكتى يهوذا وإسرائيل يدفعون له الجزية ، ثم انقسمت مصر إلى شمال وجنوب بعد أن فقدت الأسر المالكة ، ثم انقسمت كذلك إلى دويلات صغيرة يحكمها رؤساء جعل كل واحد منهم نفسه ملكًا . وبسبب هذا الانقسام أصبح البلد محطًا لغزوات الأثيوبيين والآشوريين .

ومع الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٥ - ٥٢٧) قبل الميلاد اختفى الغزاة . وخضعت « مصر » التى انقسمت من جديد إلى دويلات صغيرة لملك سايس ويدعى بسماتيك الذى قلب الاتحاد المكون من اثنى عشر أميرًا بالدلتا وحكم وحده . وأثناء حكم بسماتيك شيد اليونانيون للمرة الأولى منازل للسكنى فى مصر السفلى .

وفى عام ٥٢٧ قبل الميلاد غزا مصر الملك « قمبيز » فأصبحت إقليمًا من الإمبراطورية الفارسية . وخلال هذه الحقبة المشئومة تم تدمير عدد كبير من المعابد فى « منف » و « طيبة » . وقد حاول المصريون بجدية أن يتحرروا من السيطرة الأجنبية ، ونجحوا فى الحصول على استقلالهم أثناء حكم الأسر الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين من عام ٤٠٦ إلى ٣٤٠ قبل الميلاد ، ولكن جهود الملك الشرعى الأخير نختانبو الثانى تحطمت على صخرة الجيش الفارسى . وانتهى الأمر بأن خضعت مصر ابتداءً من هذا التاريخ وعاشت باستمرار تحت حكم الحكام الأجانب .

ففى عام ٣٣٢ قبل الميلاد قلب « الإسكندر » الأسرة الحادية والثلاثين التى أسسها الفرس ثم غزا مصر وبنى الإسكندرية . وتحت حكم البطالمة الذين أتوا بعد «الإسكندر» من عام ٣٠٦ حتى ٣٠ قبل الميلاد أصبحت مصر مملكة يونانية ارتفعت إلى درجة عالية من العظمة والقدرة والغنى ، وهى الأشياء التى كانت يفتقدها منذ زمن بعيد . وصارت الإسكندرية العاصمة الجديدة مركزًا مقتدرًا للأنشطة الفكرية . وازدهرت العمارة ببريق جديد فتم تشييد عدد كبير من المعابد فى طيبة ، ودندرة ، وإسنا ، وكوم أمبو ، وإدفو وفيلة مما يذكرنا بالأزمنة الجميلة للفن الفرعونى .

ووضعت معركة أكتيوم (٢ سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد) التى انهزم فيها تحالف أنطونيو مع كليوباترا على يد أكتافيوس وضعت نهاية للسيطرة اليونانية وبعد ذلك ببضعة أشهر انضمت مصر للإمبراطورية الرومانية فى عام ٣٠ قبل ميلاد المسيح . وفى عام ٣٨١ بعد ميلاد المسيح أعلن الإمبراطور « تيودور » الذى كان يملك فى عاصمة ملكه القسطنطينية (وتسمى حاليًا اسطنبول) أعلن ونشر قراره المشهور الذى أعلن بمقتضاه « الدين المسيحى » دينًا رسميًا لمصر منذ ذلك الحين .

* * *

(٥)

الفتح الإسلامى

فى عام ٦٤٠ بعد ميلاد المسيح (العام ١٨ من الهجرة) بدأ « عمرو بن العاص » قائد الخليفة « عمر بن الخطاب » فتحه لمصر بأن استولى على « منف » بدون حرب ، وفيما بعد أجبر الإسكندرية على الخضوع بعد حصار دام أربعة عشر شهرًا . وانبهر «عمرو بن العاص» عند رؤيته لمظاهر الغنى الموجودة فى هذا المكان الهام (الإسكندرية) فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة « عمر بن الخطاب » : « لقد فتحت مدينة من الغرب ، ولا أستطيع حصر كل ما تحتويه داخلها ، فهى تحتوى على أربعة آلاف حمام ، وأثنى عشر ألف بائع للخضار ، وأربعة آلاف يهودى يدفعون الجزية ، وأربعة آلاف عازف موسيقى وبهلوان إلخ » . ومنع « عمرو بن العاص » النهب ، وهذا الإجراء الحكيم جذب كثيرًا من المؤيدين لينضموا إلى الغزاة .

أما المسيحيون الذين يريدون أن يظلوا أوفياء لدينهم فيستطيعون ذلك بشرط دفع الجزية السنوية ، ويحتفظون بحق ممارسة شعائرهم الدينية بحرية . وبدت مصر تحت حكم الحكام الجدد وكأنها تدخل فى حقبة جديدة من الرفاهية ، وأصبحت أحد الأقاليم الهامة للإسلام .

وأسس معاوية بن أبى سفيان فى عام ٦٦١ بعد الميلاد (عام ٤١ من الهجرة) أسرة الخلفاء الأمويين . وخلال حكم هذه الأسرة توسعت وتأسست الإمبراطورية الإسلامية فى آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا ، وامتدت من أطراف أو حدود الهند حتى منتصف فرنسا . فبعد أن ساد العرب على أسبانيا هددوا بغزو باقى القارة الأوروبية ، ولكن الملك « شارل مارتل » دفعهم إلى ما وراء « جبال البرانس » .

وتحت خلافة أو ملك مروان الثانى ثار أحد حكام الأقاليم ويدعى أبو العباس وهو من ذرية هاشم ومن ذرية النبى (ﷺ) ، ثار ضد الخليفة وجعل شعب سورية يؤدى له يمين الولاء ، وأسس الخلافة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية التى قلبها (فى عام ٧٥٠ بعد الميلاد - أو ١٣٢ من الهجرة) . وبنى المنصور أخو العباسى الذى حكم بعده شيد مدينة سماها « مدينة السلام » فى عام ٧٦٢ بعد الميلاد أو عام ١٤٥ من الهجرة) وتحول اسم هذه المدينة إلى بغداد ، وصارت عاصمة الخلفاء (أو الخلافة) الذين أتوا من بعده ، وفى عام ٧٨٦ (١٧٠ من الهجرة) بدأت خلافة الخليفة « هارون الرشيد » الذى يشتهر بانتصاراته الساحقة على اليونانيين وبغزواته الهامة . ولقد خصه التاريخ بلقب « الرشيد » لحبه المستمر للعدالة والمساواة ، ويحكى عن أعماله الخيرية فى أغلب الأحيان فى المشرق أكثر مما يحكى عن الإنجازات الساطعة لأسلحته .

وبدءًا من الخليفة « محمد المعتصم » الابن الثالث لهارون الرشيد بدأ انهيار الخلافة العباسية (سنة ٨٣٣ ميلادية أو ٢١٨ من الهجرة) . وقد أعد المعتصم بنفسه انهيار أسرته أو الخلافة العباسية ، وذلك بأن قام بتكوين مجموعة من المتميزين . كان جنود هذه الجماعة يختارون أساسًا من بين أجمل العبيد الأتراك والتتار الذين يأسرون فى الحرب ثم يرسلون تحت الجزية إلى الحاكم أو الخليفة . فهؤلاء العبيد الذين كانوا يلاحظون فى فناء الخلفاء من خلال أجسامهم الفارعة الجميلة أعجب بهم أسيادهم وصاروا بعد قليل من أفراد الحراسة الخاصة . وبعد فترة وجيزة أصبح هؤلاء العبيد قادرون على الاضطلاع بالمسئوليات الرئيسية ، ورويدًا رويدًا قاموا بالاستيلاء على كل فروع الحكومة ، ودامت لهم السيادة المطلقة عليها . وكان أحمد بن طولون هو أول هؤلاء العبيد ، وأعلن استقلاله فى عام ٨٧٠ بعد الميلاد (سنة ٢٥٧ من الهجرة) .

وامتد نفوذه على مصر وعلى سوريا وأسس الأسرة الطولونية .

كانت الإمبراطورية الإسلامية تنقسم إلى ثلاث أسرات من الخلفاء يحكمون فى آن واحد ولكل منها الحقوق الشرعية المطلقة ، ألا وهى الأسرة الأموية فى أسبانيا ، والأسرة العباسية فى بغداد ، والأسرة الفاطمية على سواحل موريتانيا ، وهذه الأسرة الأخيرة كانت تشتق اسمها من السيدة فاطمة ابنة الرسول محمد (ﷺ) الذى تدعى

أنها من ذريته . وفى عام ٩٧١ بعد الميلاد أو ٣٦١ من الهجرة جاء إلى مصر « الخليفة المعز » الذى كان يسيطر على دول البربر (شمال أفريقيا : المغرب ، والجزائر ، وتونس)، وشيد مكان إقامته بالقاهرة ، وكان هذا المسكن قد تم بناؤه قبل ذلك بثلاث سنوات بواسطة القائد جوهر الصقلى ، وأسس فى مصر أسرة الفاطميين .

وفى عام ١١٧١ بعد الميلاد (عام ٥٦٧ من الهجرة) جاء إلى مصر صلاح الدين ابن أيوب وزير « الأتابكة » فى سوريا جاء بصفته حاكمًا . وبعد ذلك بثلاث سنوات ، وبعد حملاته فى سوريا ، والانتصارات التى حققها على ملك الموصل أعلن استقلاله وأسس أسرة الأيوبيين . وقد لعب صلاح الدين دورًا بارزًا أثناء الحملات الصليبية الأولى والثانية . وتحت حكم « الملك العادل » الخليفة الثالث لصلاح الدين وأخوه ، استولى الصليبيون على دمياط فى عام ١٢١٨ بعد الميلاد و ٦١٥ من الهجرة . وقدم الخليفة « الملك الكامل » - الذى خلف والده « الملك العادل » - للمسيحيين مقترحات سلام . وبعد أن رفضوا الدخول فى مفاوضات معه قامت مجموعة صغيرة من المسلمين بالالتفاف سرًا حول معسكر الصليبيين ، وقطعوا أو سدوا ترعة قناة المحلة ، فانتشرت مياه النيل ، التى كانت قد وصلت فى هذه اللحظة إلى أعلى نقطة من الفيضان ، فوق كل المنطقة بين دمياط والمنصورة . فالصليبيون الذين كانوا يجهلون تأثير أو توابع الفيضان السنوى انسحبوا من الإقليم وسلموا مدينة دمياط إلى المسلمين عام ١٢٢١ بعد الميلاد أو عام ٦١٨ من الهجرة .

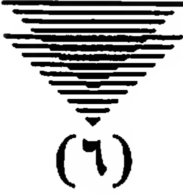
وأثناء الحملة الصليبية السابعة طرد « القديس لويس » الأمير فخر الدين وأخذ الصليبيون دمياط من جديد فى عام ١٢٤٧ بعد الميلاد أو سنة ٦٤٥ من الهجرة . وتابع الصليبيون زحفهم نحو القاهرة ، ولكن تم إيقاف الصليبيين عند المنصورة وأجبروا على العودة إلى دمياط . وفى معركة فارسكور تم أسر القديس لويس بواسطة الخصى «محاسم» فى عام ١٢٥٠ بعد الميلاد أو سنة ٦٤٨ من الهجرة .

وخلفت أسرة المماليك أسرة الأيوبيين . وظهر هؤلاء المماليك لأول مرة على الساحة السياسية مع ظهور « أحمد بن طولون » فى زمن الخلفاء العباسيين . وكانوا كما يوضح اسمهم عبيدًا ثم شراؤهم أو تعيينهم من بين أسرى الحرب ، ومن أسواق

آسيا ، وكون منهم حكام مصر مجموعة عسكرية أصبحت مهابة لكى تفرض إرادتها على البلاد . وتعطيها رؤساء من عرقها . وكانت فترة المائتى وسبعة وستين عامًا (عام ١٢٥٠ حتى عام ١٥١٧) التى سيطر خلالها المماليك على الحكم ، عبارة عن سلسلة طويلة من الاضطرابات ، ومن الحروب الداخلية ، ومن الجرائم ، ومن الثورات داخل القصر . فالأمراء الذين تولوا العرش ماتوا كلهم تقريبًا بوسائل عنيفة . وكثير منهم يتميزون بالأبنية البديعة التى شيدوها .

فى عام ١٥١٧ بعد الميلاد استولى السلطان سليم الأول الذى كان يحكم فى القسطنطينية (الآستانة - إسطنبول حاليًا) على مصر . ونظم إدارة البلاد عن طريق خليط من الحكومات يمنحها النظام صلاحيات لفترة ما . وأصبحت مصر الخاضعة لتركيا باشاليك بمعنى أن السلطة العليا تؤول إلى شخص يسمى « باشا » ، ويكون تحت إمرة هذا الباشا اثنا عشر بيكا ، يتم تعيينهم من بين الأمراء والمماليك الذين تم إخضاعهم . وزاد عدد المماليك مع مرور الوقت ، فاختاروا لأنفسهم رئيسًا لقبوه بشيخ البلد ، وكانت سلطة الباشا مجهولة تمامًا . وفى عام ١٧٦٧ بعد الميلاد أعلن شيخ البلد «على بك» استقلاله وسك لنفسه عملة خاصة . وفى العام التالى كانت سلطة البلد بين يدى أربعة وعشرين من البكوات أذاقوا شعب البلد كل أصناف العذاب . وكان أكثر هواء البكوات تأثيرًا هما « مراد وإبراهيم » . فجشعهما لا يعرف الشبع ، فبعد أن استهلكوا ثروات سكان البلد هاجموا التجار الأجانب ، وخاصة التجار المقيمين فى القاهرة ، والإسكندرية ، ورشيد ، فكانت منازلهم هدفًا للنهب . عندئذ ظهر « بونابرت » ومن بعده محمد على مؤسس الأسرة الحاكمة التى رفعت مصر من الحالة المؤسفة التى هبطت إليها .





(٦)

المصريون المحدثون

الأقباط :

من ضمن العناصر المختلفة التى تتكون منها الأمة المصرية فى الوقت الحالى ، ولكل من هذه العناصر دينه ، ولغته ، وأخلاقه الخاصة ، يتفق كل من التاريخ والتقليد على التأكيد على أن الأقباط يقدمون النموذج المثالى لسكان مصر القديمة ، ولكن إذا تذكرنا الاضطهادات العديدة التى عانى منها الأقباط ، والتحالفات التى خضعوا لها حتى اعتنق غالبيتهم الدين الإسلامى فى فترة ما ، فمن الصعب إذن التحدث عن نقاوة عرق الأقباط .

ويُدّعى أن اسم الأقباط يأتى من مدينة قفط التى تقع بالقرب من طيبة فى صعيد مصر ، والتى كانت عاصمة لمصر القديمة ، والتى لجئوا إليها عندما اضطهدهم اليونانيون . ومع ذلك فمن الحق أن نقترح للأقباط أصلاً أكثر قدمًا وأكثر عقلانية . فيبدو أن المصطلح العربى قبطى يعد تغييرًا لمعنى مصرى باللغة اليونانية ، والكلمة اليونانية مأخوذة من كلمة « ها - كا - بتاح » التى تعنى « مكان إقامة بتاح » ، وهو الاسم المصرى لمنف . فإذا اتفقنا على أنه بالرغم من تحالفات المسيحيين مع المسلمين والتى تكررت فى الحقيقة على فترات طويلة ، يوجد من بين الأقباط من ظل وفيًا لدينه ولعاداته ، فيكون الأقباط حقيقة ممثلين عن المصريين القدماء ، أو بالأحرى عن هذا الخليط من الناس الذى أقام سكناه على ضفاف النيل أثناء فترة السيطرة الرومانية . فقد حفظت التقاليد كما هى تقريبًا دون تغيير فى العائلات القبطية ، والدين المتبع هو الدين المسيحى وفقًا لمذهب « أوتيشس » «Eutychés» أو المذهب الأرثوذكسى ، وخاصة اللغة القبطية التى يقرأونها اليوم بدون فهم تؤكد على أصلهم على ما يبدو .

وأخيرًا نستطيع كذلك أن نقترح أنه بعد الفتح الإسلامى ، لا يمكن أن يوجد أجانب اعتنقوا الدين المسيحى بينما يسود الدين الجديد (الدين الإسلامى) فوق كل نقطة من نقاط المشرق .

لم يقبل أى شعب فى المشرق المذهب المسيحى بحمية وغيرة مثل شعوب وادى النيل . فقد تعودت هذه الشعوب منذ الأزمنة السحيقة فى القدم على النظر إلى الحياة على أنها رحلة هدفها الموت . ولقد وجد هذا الشعب فى المسيحية مذهبًا أكثر طهارة بعد أن أبعده الكهنة عن كل اعتقاد نقى ، ولم تكن له سوى أفكار مضطربة عن حياة المستقبل ، وكانت روحه متعبة من الصفات المعقدة وغير المفهومة عن الألوهية ، كما وجد هذا الشعب فى المسيحية مذهبًا يرتبط مع أفكاره ، وبعد قليل أصبحت طيبة مكانًا لإقامة الناس الأتقياء المتمسكين بدينهم الذين انعزلوا عن الحياة الاجتماعية ليعطوا مثالاً للرفض العميق للحياة . ومارسوا العبادة ليستحقوا الثواب الإلهى الموعود فى الحياة الآخرة . وسار الإصلاح المسيحى خطوات واسعة ضد الإلحاد . فقد كانت هناك حرب بين الإلحاء ورسل المسيحية الاثنى عشر ، وشهداء المسيحية وعلماء لاهوت مدرسة الإسكندرية ، كما أن هناك حربًا بين المسيحية والكتابات التى كانت تأتى من محكمة القسطنطينية .

لقد خلف الدين المسيحى السلمى حضارة جديدة فى هذه المناطق ، حتى الزمن الذى أدت فيه الانقسامات الداخلية ، والحروب اللاهوتية وعدم الحكمة ، والإهمال التام ، وضعف الحكام . كل ذلك أدى إلى تسليم مصر للمسلمين .

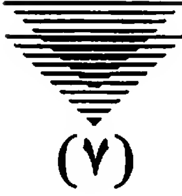
عند وصول « عمرو بن العاص » كان أقباط منف ومسيحيو الإسكندرية منقسمين فى آرائهم حول بعض نقاط من المذهب ، وكان لكل منهما طريقته الخاصة فى العبادة ، بل كانوا فى حرب مستمرة. فاستقبل « المقوقس » حاكم منف المسلمين كمحررين ، وفتح لهم أبواب عاصمة مصر القديمة وأعطاهم مفاتيح حصن بابليون (عام ٦٤٠ بعد الميلاد، أو عام ١٨ من الهجرة) . وصار عمرو بن العاص سيدًا لجزء كبير من البلاد دون أن يدير معركة واحدة . فعمل معاهدة مع الأقباط تعهد بموجبها أن يضمن حريتهم الدينية ، واحترام أملاكهم وأمنهم الشخصى بشرط الخضوع الكامل له . والأقباط

الذين كانوا فريسة لكراهية دينية ، ويتطلعون قبل كل شىء إلى طرد اليونانيين من الإسكندرية انضموا على عجل إلى المعاهدة مع احتفاظهم بفكرتهم الخاصة بأنه بعد التخلص ممن كانوا يسمونهم أعداءهم يستطيعون بسهولة أن يتغلبوا على أبناء الصحراء الذين أعلنوا مساندتهم . ولكن نادرًا ما تسقط أنانية الأمة المزهوة بعرقها إلى الحضيض . ففضل الأقباط سيادة الأجانب على سيادة الذين يعتنقون نفس دينهم .

واليوم يبلغ عدد الأقباط وفقًا للحساب الرسمى حوالى مائتى وخمسين ألفًا يعيش الجزء الأكبر منهم فى صعيد مصر . ويتصف الأقباط بالحزن ، وقلة الكلام ، والغموض، وسبب ذلك يرجع إلى قساوة وشدة تربيتهم وممارساتهم الدينية أو طقوسهم الدينية . ومثل كل الأعراق أصبحوا منطوين على أنفسهم وخاضعين أمام من هم أعلى منهم مرتبة أو أكثر ثروة منهم ، وفخورين ، وقاسين وأشداء تجاه من هم أقل منهم . ففى القرى يقوم الأقباط بأعمال الحقل ويشاركون فى الحياة السلمية للفلاح . وفى المدن يُلاحظون بقدراتهم ومواهبهم الخاصة فى كل ما يخص الحساب والمحاسبة والتجارة والخدمات الإدارية .

وملابس الأقباط تشبه ملابس مسلمى مصر ، وما يميزهم فى أغلب الأحيان هو اللون الأسود والأزرق الغامق لعمامتهم . وتغطى النساء وجوههن بدقة ، ليس أمام العامة فقط ولكن فى منازلهن . وبعض الأقباط وخاصة الذين نقابلهم فى صعيد مصر يقدمون النموذج المثالى للتشابه الصارخ مع الأشكال المنحوتة على الآثار القديمة ، مع أن هذا النموذج المثالى قد تغير بخليط من الأعراق الآسيوية والإفريقية للشعوب التى عاشوا معها . فالجبهة مستوية مزينة بشعر مجعد ، وعيون كبيرة سوداء تفتح قليلاً وتصعد حتى الحواجب ، وأنف قصير يفطس بخفة ، وفم كبير مستو تحدوه شفاه كبيرة مرسومة بدقة . والصدغان بارزان ، والذقن بها قليل من الشعر ، والأعضاء طويلة ورفيعة وعلى شكل زاوية .

* * *



(٧)

الفلاحــــون

لم يترك العرب ضفاف النيل بعد فتحهم لمصر . فانضم المنتصرون إلى المهزومين ، وجاء عدد كبير من العائلات الإسلامية ليطلب من أرض إيزيس غنى كانت محرومة منه فى شواطئ أوطانها غير الصالحة للزراعة . وبعد جيلين أو ثلاثة صارت شعوب الأرياف تتكون من عدد متساو تقريبًا من المصريين والعرب . وكانت نماذجهم المثالية أو أشكالهم تختلط أكثر فأكثر . وأخيرًا خضعوا لمناخ مصر وللحياة البديعة التى اختبروها وسط سهول خصبة تعطيهم الطعام الوفير فى مقابل قليل من العمل والعناية. ففقد الغزاة أصلهم وأصبحوا مصريين . وفى عملية خلط الأعراق تغلب الدم المصرى على النموذج المثالى الأولى للعرب ، ونشأ جيل جديد فوق ضفاف النيل فصار أساسًا للمصريين المحدثين الذين توجد نماذجهم المثالية الخاصة لدى الفلاح المزارع .

والفلاح بصفة عامة له قوام مميز ، وصدر واسع ، وأعضاء ذات عضلات ومتناسبة جدًا ، وسماته منتظمة ، فالجبهة عريضة والعيون سوداء وبها حيوية وغائرة إلى داخل رمش بارز ، وفم مرسوم جيدًا تحدوه شفايف قوية تبرز من خلالها أسنان ذات بياض ناصع . وزوجة الفلاح خفيفة ونشيطة ، وقوامها جميل ، ولكن سمات وجهها تبدو بلا رقة وينقصها التعبير على الرغم من جمال عينيها اللتين تحدوهما رموش طويلة ، وقدماها ويداها تعمل فى أغلب الأحيان بطريقة نموذجية .

أما من ناحية الخاصية فالفلاح مطيع جدًا ، وحذر ، ومستعد ومترقب منذ نعومة أظفاره . ويفقد فيما بعد حيويته ويصبح غير مبال . فالنظام القديم الذى عاش أبواه

تحت ظله ترك انطباعًا عميقًا على نفسيته . فاحتفظ الفلاح دائمًا بشعور فطرى بعدم الثقة فى المكان الذى توجد فيه ممتلكاته . وكان الفلاح المصرى من قبل مالكًا للخير الذى يحصل عليه أو الذى اشتراه ، ولم يكن سوى مزارعٍ للأرض ورث حق استخدام الأرض فقط ولم يرث حق وراثتها . وعدم الأمان فى الغد ولد عنده اللامبالاة . والخوف من الطاغية الذى كان يجب أن يتدخل طبيعيًا فى نظام مشابه أدى إلى « عدم الثقة » . وعدم ثبات الملكية قتل فيه روح الصنعة والحاجة إلى الامتلاك . ونتيجة كل ذلك كانت شيئًا من عدم الاطمئنان تجاه المنفعة المادية . وبما أنه لم يستطع الاعتماد على الغد فقد اعتاد على الحياة يومًا بيوم . وفى ذلك يتشابه كل من الفلاح والقبطى تشابهًا صارخًا .

ومساكن الفلاح فقيرة جدًا ، فيتكون أغلبها من أربعة حوائط من الطوب الطينى ، أو فى أغلب الأحيان من الرمل المختلط بطمى النيل ، ومن سقف مستو مصنوع من قش نبات الذرة . وفى الداخل توجد بعض أنسجة من قش نبات الذرة ودفاية من الجلد، وقدرة وزير ، وبعض الأطباق المصنوعة من الخزف هى كل ما يمتلكه الفلاح فى بيته من أثاث . وبالنسبة للفلاح يعد المنزل الريفى الذى يغطى سقفه بالقش ملاذًا له أثناء الليل. ويعيش المزارعون المرفهون أو الأغنياء فى بيوت مريحة جدًا . ولكن طريقة حياة الفلاحين الأغنياء والفقراء بسيطة جدًا . فهو يأكل خبزًا سميكًا مخبوزًا بطريقة رديئة ، وتخميره غير كاف ، وفول مسلوق بالماء ، وجبنة مالحة ، وخضروات نيئة أو محوجة بمكونات ذات طعم ردئ . وبلح ، وبطيخ . فكل ذلك يكون غذاءه . وسواء كان غنيًا أو فقيرًا فهو يدمن السجاير (البايب) والقهوة . كما أنه صبور ولا يتعب ، ويعمل من الصباح حتى المساء وهو معرض للشمس ، وفى الماء ، وفى الطين إذا كان يأمل فى مكسب مضمون . ولكن المكسب الذى يحصل عليه يستهلك خلال فترة البطالة الكاملة ، فيترك لله سبحانه وتعالى حمل الاعتناء به وتزويده باحتياجاته الخاصة .

* * *



(٨)

سكان المدن

كان سكان المدن المصريون أقل حظًا من الفلاح فى الاحتفاظ بنقاوة دمهم . وذلك بسبب زيجاتهم الكثيرة من نساء ذات أعراق مختلفة . ففى القاهرة على سبيل المثال نقابل من بين طبقة البورجوازيين المصريين أناسًا تتفاوت ألوانهم بدء من اللون الأسمر الغامق حتى اللون الأوروبى مرورًا بكل الدرجات المتوسطة ، بدء من سمات عابدى أوزوريس حتى الشكل القاطع للبدو ، وبدءًا من الجسم الرشيق للفلاح حتى الجسم الممتلئ للأتراك . وعند الطبقات الدنيا أدت الزيجات الكثيرة للمصريين مع الزنجيات إلى الاضطراب الكامل لنظام السمات .

والمصرى فطرى طيب ورقيق يجذب إليه كل من يعيشون بالفطرة والقادرون على أن يحبوا من قلوبهم . وهو ذكى ويمتلك ذاكرة قوية ، ويتعلم بسهولة مدهشة ، وهو قادر على الحماس والصداقة ، ويطيع كل المذاهب الجيدة منذ الزمن الذى استطاع أن يهزم خلاله عدم الثقة المتأصل فيه . وهو يضيف الصبر الشرقى الحقيقى إلى سرعته فى التفكير ، وبطء محسوب عند التنفيذ ، فذلك هو الذى يجعله يفضل بين كل الأعمال التى تتطلب تطبيقًا دقيقًا جدًا مثل الزخرفة ، والتصميم ، والنقش أو الكتابة على الجلد. وفى الصناعة يثق المصرى ثقة عمياء فى طرقه القديمة ، وينظر فى لامبالاه إلى الآلات الحديثة أو إلى المهن الميكانيكية ، فهو يحرك عمود مخرطته بالعصا بمهارة لا تصدق ، كما يحرك أدواته بأصابع قدميه . وهو كذلك يصنع أنسجة من الحرير المزخرف بالذهب بأدوات مكونة بطريقة بدائية . وكتاجر يشعر المصرى بسهولة فى دكانه الصغير الذى تبلغ مساحته خمسة أقدام مربعة . يشعر أين تراكمت أقمشة

الكشمير البديعة ، بجانب أقمشة الحرير المزخرفة بالذهب التى جاءت من سوريا ، وزخارف القسطنطينية (اسطنبول حاليًا) . وهو يمر أمام المحلات الكبرى الزاهية لمنافسيه الأوروبيين دون أن يلقى نظرة شهوة أو حسد .

والمصرى العربى شاعر بالفطرة ، ولكنه شاعر دون ضوابط أو قانون ، ومتحمس لكل ما هو كبير وعظيم وجميل ، ولكنه محروم من كل تعليم جمالى ، وكذلك يحب المصرى العربى أن يحلم ، وأن يترك روحه تطوف فى حقول الفضاء ، دون أن تكون له ثقافة ذهنية كافية لكى يقودها فى مغامراتها . ومسابقاتها . ويصبح الحلم إذن فى أغلب الأحيان خيالاً . والمصرى القبطى ليس محرومًا من الخيال ، ولكن ليس لديه الشعر العربى ، ولكنه يحلم مثل المصرى العربى . والمصرى القبطى منطو على نفسه ، وفى حالة حزن ، ويضعفه الحزن فى بعض الأحيان ، ويبدو أن أفكاره مثلها مثل أفكار آبائه مازالت تركز على المدافن ، ومجازاة الأنفس أو الأرواح أو الأسرار الكهنوتية أو الدينية . فلا يوجد شىء غير طبيعى مثل التشابه فى خصائص كل من المصرى العربى والمصرى القبطى اللذين يلتقيان على أرضية غامضة من الأحلام ، أحدهما لأنه ترك أفكاره تطير عاليًا جدًا . والآخر لأنه ترك أفكاره تهبط بثبات فى اتجاه القبر .

فمن هنا تنتج لدى المصرى العربى مثلما تنتج لدى المصرى القبطى حالة من الحزن الهادئ ، وبطء محسوب للحركات والخطوات قريب من الكرامة . ومن هنا كذلك توجد فى الأعماق خاصية الرقة العظيمة التى توجد بصفة مدهشة لدى الأطفال فى هذا المناخ الملتهب .

* * *



(٩)

المتدينون المسلمون - الأولياء

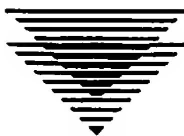
المسلمون لديهم تبجيل وتقدير عظيمين للمسلمين الذين يموتون فى حالة قداسة . ومراسم وضع أحد المسلمين فى عداد الأولياء ليست مصحوبة بطقوس وحفلات مثلما لدى المسيحيين . فالرأى العام هو المحكمة التى تعلن القداسة . وقبور الأولياء المبنية داخل المدن تظل أماكن مقدسة يتوقف أمامها المارة ليتلون صلاة سريعة ، ولا يعد شيئًا نادرًا أن نرى بالقرب من هذه القبور بناء ذا منفعة عامة ، كمدرسة أو نافورة أو طلمبة وفى أحيان تكون هذه الأشياء الثلاثة مجتمعة فى هذا المكان . ويعد ذلك إذنًا نتاجًا لتعلق المؤمنين بدينهم ، وليست نتاجًا لمعتقد خاص . فيعتقد والدا الولى المتوفى ، وأصدقاؤه وجيرانه بأنهم سوف يشرفون جيبهم بتخليد ذكراه . ونقابل فى الأرياف فى الأغلب نوعًا من أماكن الوعظ تعلوها قبة تم تشييدها احترامًا وتكريمًا لبعض الأولياء . أو نرى شجرة جميز تحمى بظلها الطبيعى أثرًا لأحد الأولياء . وبجانب هذه الشجرة توضع أزيار (جمع زير) كبيرة مملوء بالماء يستطيع المسافر أن يرطب نفسه منها عندما يرتاح بجانبها . وهذا المثال الملموس للحب والعطاء الشعبى بالإضافة إلى احترام الموتى لا يتوقف هنا . ففى أغلب الأحيان توضع بالقرب من الأزيار (جمع زير) بعض الخبز والنقود من أجل المسافرين المحتاجين إليها .

وينظر الشعب إلى البلهاء والمجانين غير العدوانيين كأنها مخلوقات محبوبة من الله ، وهى تحمل سمة القداسة غير المرفوضة . ويقال أن روحهم فى السماء . والجزء الأكثر غباوة من وجودهم هو وحده المختلط بفقر الإنسانية . فهؤلاء الرجال الذين نسميهم أولياء يتصرفون بكل حرية ولا أحد يفكر أو يحلم بأن يغضب من تجاوزاتهم . وهم يعيشون من الهبات ويجذبون الانتباه بألف حركة غبية وغير واقعية .

والمؤمنــون غيــر المصــابين بالبـلاهـة يسـمـون أوليـاء بمعنى « أحـبـاب السـمـاء » . ويؤدون كلهم حركات مختلفة ، فالبعض منهم يحرك نفسه فى كل اتجاه ، والبعض الآخر منغلق على نفســه فى صمت كامل ، ويحـركون عضـلات أجسـامهم بطـريقة مضـحكة . وهـم يقلدون مسلمى الهند أصحاب مـذهب الفقيـر . فمنهم من يسلم نفسـه إلى شدائد لا تصـدق . فـبـعـضـهم يأكل كل مـا يقع تحت يديه . أو يربط نفسـه بسلسلة ويقـضى سنوات كثيرة فى هذه الحالة . ونحن نعرف واحدًا منهم فى بولاق كان فى حـالة انحناء وهو بلا مـلابس داخل حفـرة من الخـشب . وهو ينتظر رداء من الله سـبـحـانه وتـعـالى . والناس يجيئون لاستشارته من بعيد . كما نرى كثيرًا منهم يظل واقفًا ليلاً ونهارًا ، وينام وظهره مسنود على الحـائط . والبعض منهم لا يحلقون رؤوسهم ويتركون شـعورهم تنمو بلا نظام أحيـانًا . ويصـففون شعورهم باعتناء أحيـانًا أخـرى . كما نقابل منهم من هم عراة تقريبًا يحملون فوق أكتافهم ببساطة جلود الخراف أو الغزلان . وعلى نقيض هؤلاء يلبسون ثوبًا كبيـرًا مفـتوحًـا مثل المعطف المنسـوج من القطن ، ويتكون من ألف قطعـة من النسيج من مختلف الألوان .

ويشتهر الأوليـاء بعمل الكرامات ولهم رئيس يسمى قطب يتحـرك حوله كل أعـضـاء الجماعـة . والقطب له خاصية غير طبيعية ، ويستطيع الانتقال بإرادته وحده إلى المكان الذى يعجبه ، ويتجاسـر فى بعض الأحيـان فيظهر لبعض المؤمنين ليستخدمهم فى مـهمة سرية أو ليكشف لهم بعض الكرامات ، ولكن هـذه الظهورات تكون على فترات قصـيرة . وفى أغلب الأحـيـان يسـعـد القـطب بالتـفـوه بـبـعض الكلمـات الغـامـضـة التى تتـرجم دائمًا وفـقًـا لحـاجـة الموقـف . ويفضل أن يقف القطب فى مكة بجـوار الكعبـة المقـدسـة . ويتلو أدعية طلبًا لله . وعندما يعود إلى القـاهرة فإنه يظل بجوار باب زويلة ، ويظل مختـفـيًا . ولكن وجـوده مـعـروف دائمًـا ، ويعلن عن وجـوده بـبـعـض الاكـتـشـافـات السـرية أو بعض الظواهـر الجوية أو الكونية ، وهكذا فى الألف طريقـة التى فسرها البسطاء بالمذنب فى ١٨٨٢ وواحدة منها كانت وصول رئيس الأولياء إلى مصر .

* * *



(١٠)

السحر

لدى العرب الذين لم ينالوا قسطًا كافيًا من التعليم ثقة لا نهائية فى الأشياء التى تجلب الحظ . فالشرور أو الأوجاع ، والحوادث من كل نوع يجب أن تزول أمام الشخص الذى يحمل حجابًا معلقًا برقبته أو بذراعه . والحجاب الحامى الأكثر تقديرًا عبارة عن كيس صغير من الجلد يحتوى على كتابة لبعض آيات أو مقاطع من القرآن الكريم تغلف بدقة داخل قطعة قديمة من الحرير . والتراب الذى يتم جمعه عند قبر النبى (ﷺ) ، وماء زمزم فى مكة هما أشياء تجلب السعادة ذات شهرة عظيمة . وبعض الأجزاء الصغيرة من السجاد الذى يغطى الكعبة إذا ما تم وضعها على جسم مريض فسوف يشعر بارتياح كبير من آلامه ، وحالته يجب أن تتحسن يومًا بعد يوم ، وبعد قليل سوف يؤكد شفاؤه الكامل مثل تأثير السحر ... إلا إذا كان المريض محكومًا عليه بالموت . والنساء فى كثير من الحالات يعملن خليطًا من المواد الكيميائية المعدة ، والتى تباع فقط فى الأيام الأولى من شهر محرم ، وهذا الخليط يسمى « ملح مبارك » ، وهو حامٍ عالى القيمة ضد النظرة الرديئة . فالنظرة الرديئة مهابة جدًا ، وكذلك لا يستطيع الناس أن يحتاطوا بدرجة كافية لطرد الأضرار التى تهدد الشخص الذى يحبونه حبًا جمًا . فإذا لاحظنا لدى الأطفال قذارة مقززة فهذا يحدث بهدف منع أحد الأغراب من أن يصرخ قائلاً على سبل المثال « ما أجمل هذا الطفل ! » أو أن يطلق أى صيحة أخرى من صيحات الإعجاب يكون لها تأثيرات سيئة بالنسبة للشخص الموجهة له . بيد أن لو حدث وأصبح شخص ما متهمًا بطريقة لا إرادية بإلقاء نظرة ، فيمكنه إزالة تأثير هذه النظرة بأن يقول : « ما شاء الله » .

ويضع تجار القاهرة أمام دكاكينهم نقوشًا ذات طابع دينى لكى يصبحوا تحت الحماية الإلهية . فيقرأ المارة كل يوم تقريبًا تعبيرات مقدسة مثل : « لا إله إلا الله ، محمدًا رسول الله » . أو كذلك « بسم الله الرحمن الرحيم » .

* * *



الأيام السعيدة والأيام التعيسة

توجد أيام سعيدة وأيام تعيسة ، والأيام السعيدة هى يوم الإثنين المخصص للزواج ، ويوم الخميس المسمى المبارك ، ويوم الجمعة الذى يعد أول الأيام ، ويوم الأربعاء لا يهم، والأيام التعيسة هى يوم الأحد ، بما فى ذلك ليلة الأحد التى مات خلالها النبى (ﷺ)، ويسمى يوم الثلاثاء بيوم الدم لأن كثيرًا من شهداء الإسلام استشهدوا فى هذا اليوم ويوم السبت يوم ملعون . ويوجد كثير من الأيام التعيسة أثناء العام نستطيع أن نعبرها دون أدنى شعور من الخوف ، واليوم الأكثر مهابة هو يوم الأربعاء الأخير من شهر «صفر» يبذل العديد من الناس قصارى جهدهم حتى لا يخرجوا من منازلهم خلال هذا اليوم لكى يحفظوا أنفسهم من الأحزان الكثيرة التى تنزل هذا اليوم على الإنسانية .

* * *



(١٢)

الأحـــــلام

يتم التنبوء بالمستقبل وفقًا لطريقة تفسير اللاأحلام . تجمع الأحلام فى كتب سحر يفسرها أناس يقولون بكل جدية بأن الحصان الأسود يعلن عن فقدان النقود والقط الهزيل أو الرفيع ينبئ عن الطلاق . وتنتشر هذه الطريقة التى تستغل ميل الشعب لتصديق أى شيء انتشارًا كبيرًا . وتعطى الاستشارات فى أغلب الأحيان فى أحد أركان الشارع أو أسفل حائط حديقة .

وتفسيرات الحلم تقود بالضرورة الزبون إلى أن يطلب من الساحر بعض معلومات عن المستقبل . ويخط الساحر علامات سحرية فوق قليل من الرمل الناعم المفروش أو المبسوط فوق قطعة قماش من الحرير ، أو يدرس ترتيب مجموعة من القواقع المنتشرة على الأرض . وتنتهى الجلسة بأن يبيع الساحر للزبون بأعلى سعر ممكن قطعة من قشور القواقع ، أو منديلاً ذا طرف أحمر يجب على الزبون أن يحمله بطريقة ما حتى يكون بمنأى عن كل خطر .

* * *



الحـــــواة

لدى السحرة شهرة دائمة فى مصر ، ويتحدث « سترابون » عن قدرتهم فى فن السيطرة على الزواحف السامة جدًا ، وعن قدرتهم فى الوقت الحالى على إبعاد الثعابين التى أدهشت أكثر من مسافر .

ولا يعد الحواة جزءًا من البهلوانات (البلياتشو) أو السحرة الذين تقابلهم فى شوارع القاهرة والذين يلعبون بالثعابين ، والعقارب والسحالى إلخ ، فهم يتخصصون فى البحث عن الثعابين المختبئة فى المنازل . كما أنهم يدعون بأنهم يستطيعون أن يجذبوها إليهم بفضيلة خاصة . وهم يتسحلون بعصا قصيرة ، ويبحثون بكل دقة فى الشق الذى يختبئ فيه الثعبان ، ويحدثون صوتًا بلسانهم ، ويصفرون ، أو يبصقون على الأرض وينطقون الكلمات الآتية :

« أحلفك باسم الله الحى إذا كنت هنا إظهر، أو أحلفك باسم أكبر وأعظم الأسماء أطع وأظهر وإلا فمت . ولا يقاوم الثعبان الشديد هذا الحلف ويصل زاحفًا تحت يد الساحر .

وأردت يومًا ما أن أختبر قدرة الحواة فدعوت أنا وزملائى واحدًا منهم ليخلصنا من أحد الثعابين الذى كان وجوده يضايقنا . فقام الساحر أو الحاوى الذى يعرف مهنته والذى يريد أن يكسب نقوده بشرف قام بالكشف بدقة على أركان المنزل ، وعند وصوله إلى المطبخ أصغى بكل انتباه ، وأعلن بصوت مقنع إن الحيوان الخطير الذى نهابه موجود هنا .. وما أن هم بتلاوة التلاوة العادية حتى ظهر لنا ثعبان صغير كان ينظر

إلينا فى دهشة ثم توجه بكل طاعة نحو سيده . وقام أحدنا بقطع الثعبان إلى قسمين بآلة حادة ، ولكن الساحر تضايق فقد قتلنا أو قطعنا رزقه . وفى الواقع كان الحيوان معتادًا على هذه الأنواع من التمارين ، وتم نزع أسنانه السامة .

فتستطيع إذن فى أغلب الأحيان أن نتعرف على السحرة الذين يغالون فى أجرتهم وهذا من حقهم فهم يجدون الوسيلة قبل بداية العمل لإدخال الثعابين بطريقة مخادعة إلى المنازل حيث يدعون لممارسة موهبتهم . وبما أن هذه الحيوانات كما يقولون تخشى ضوء النهار ، فإن هؤلاء السحرة يدعون الحيوانات فى الأماكن الأكثر إظلامًا من المنزل أو الشقة . وتحت إشراف أشبه بالمستحيل يستطيع هؤلاء السحرة أن يضعوا فى بعض الأماكن الثعابين التى يخفونها تحت إبطهم (جمع الإبط) . ومع ذلك بعيدًا عن هذه الممارسات يجب أن نقتنع بالحواه المهنيين الذين لديهم بعض التأثير على الثعابين ، ويشهد على ذلك السيد « م. ت. » . فقد أحضر من صعيد مصر ثعبانًا ضخمًا كان يغلق عليه فى صندوق . وتم دعوة أحد الحواه . وكان عليه أن يغرى الحيوان الذى كان فى حالة كاملة من الخمول . وأن يجعله حساسًا لكلمات السحر التى ينطق بها الحاوى . ولم يكن للكلمات العادية أى تأثير . وضع الحاوى الصندوق مفتوحًا على المنضدة وانسحب إلى أحد أطراف الحجرة وأخذ يغنى بنغمة بطيئة ومنتظمة أو ذات درجة موسيقية موحدة ، ثم أخرج من جيبه عودًا وأحدث به أصواتًا رقيقة . كما كانت هذه الأصوات خشنة على فترات وحزينة على فترات ، وحادة على فترات ، وناحبة أو شاكية على فترات . وكانت تتناقص شدتها رويدًا رويدًا ، وبدت كما أنها تفقد فى الصدى البعيد . وكنت أنا وزملائى أستمع بنوع من الإعجاب وبميل فطرى لاإرادى . أو كما يقال إننا تعرضنا كذلك لتأثير السحر . واستمر العود فى إحداث الأصوات ... وبعد عشر دقائق خرج الثعبان من بلادته وهرول بجسمه الطويل وهبط بثقله على السجادة ... فتقدم الحاوى برقة وهو مستمر فى اللعب على العود ، وقبض بأصابعه بشدة على رأس الثعبان الذى تمدد بصلابة كما لو كان قد أغمى عليه .

* * *



الأخلاق والعادات - الطفولة

إن الهدف الرئيسى من الزواج فى مصر هو الإنجاب ، وينظر إلى العقم على أنه لعنة من السماء ، كما يعد مجيئ المولود الأول مصدرًا لسعادة كبرى فى العائلة .

وبعد ولادته مباشرة يوضع الطفل بين ذراعى أحد الرجال ، الذى يؤدى فى أذنه اليمنى الأذان أو دعوة إلى الصلاة ، والهدف من هذه الممارسة هو إبعاد الأرواح الشريرة (الجن أو الجنية) والنظرة الرديئة . ويعطى الاسم بلا طقوس للابن بواسطة الأب وللابنة بواسطة الأم . وتحن الأم على ابنها وتشفق عليه وتنظر إليه نظرات عطف، وترضعه بنفسها . ويمنعها القانون من فطامه قبل سن سنتين إلا إذا سمح لها زوجها بذلك أو أمرها به ويبدو أن رأى النبى (ﷺ) هذا قد أمر به لسبب حكيم ، ففى بلد يموت فيه الأطفال بأعداد كبيرة بسبب الأمراض المعوية يصبح لبن الأم بالطبع أحسن غذاء يمكنهم الحصول عليه .

ومنذ نعومة أظفار الأطفال لا تقمط هذه الأطفال مثل الأطفال الفرنسيين بل تنموا بحرية محمولة على أكتاف أمهاتها ، وليس على أذرعهن ، وهم يمشون بعد ستة أشهر. ويظلون هزيلين أو رفيعى الأجسام حتى سن سبع أو ثمانى سنوات ومصابين بالقذارة ، وذلك حتى يبعدوا النظرة الرديئة . وبطونهم منفوخة أو ممتلئة ، ويعد ذلك بلا شك بسبب التغذية الرديئة التى يخضعون لها . ولا شىء فيهم يعلن عن النموذج المثالى للخصائص التى تميزهم عندما يصلوا إلى سن الشباب . وفى الطبقات الدنيا يلبس الأطفال ملابس بدائية ، فهم يرتدون قميصًا بسيطًا يكون لونه أزرق فى العادة ، وبعض الأحيان لدى الطبقات الأكثر فقرًا لا يوجد هذا القميص ، ففى القرى يمشى

جميع الأطفال عراه حتى سن الثامنة تقريبًا ، وعندما تمتلك الفتيات الصغيرات صدفة قطعة من الملابس المقطعة أو المهرولة ، فإنهن يغطين بإرادتهن رؤوسهن ثم يضعنها على وجوههن حتى يعجبن المارة . فالمحافظة هى شىء متفق عليه . والعرب بصفة عامة يحلقون رؤوسهم . فعند سن سنتين أو ثلاث سنوات يخضع الوالدان أولادهم لهذه العادة، ولا يتركون لهم سوى بعض خصلات من الشعر أعلى الرأس يعتقد الأباء أن الملاك سوف يحملهم منها بعد الموت .

ويعيش أطفال الأعيان فى الحرملك حتى اليوم الذى يجب أن يختتوا فيه . وهناك لا يتعلمون سوى بعض الممارسات الدينية والسور الأولى من القرآن التى يتم تفسيرها لهم بواسطة إمام هرم . وتمارس التنشئة الأولى بعض التأثير على الإنسان . فمن الواضح أن التنشئة التى يحصل عليها شباب المسلمين فى المجتمع الخاص بالنساء يجب أن تترك آثارًا عميقة على كل حياتهم ، وبصفة عامة يحصل الأطفال فى الحرملك على تربية رقيقة جدًا . فهم ليسوا سعداء ومتمتعين بالحيوية مثل الأطفال الآخرين الذين من نفس سنهم . بل على العكس من ذلك يتم تشكيل خصائصهم بالهدوء والتحفظ ، وتنشئتهم على الصوت الجيد للإتيكيت أو الأصل الإسلامى . مع نقص التعليم الصحيح فإنهم يلتزمون فى الحرملك باحترام عميق لوالديهم . وبين الطبقات المرهفة يحيى الطفل والده فى الصباح ويقبل يده ، ثم ينتظر فى وضع محترم أن يضع الوالد يده عليه برقه أو أن يأمره أو أن يعطيه الإذن بالابتعاد ، والأطفال الصغار يظهرون نفس الاحترام لمن يكبرونهم فى السن .

وخرافة الشعب لها للأسف تأثير خطير على الطفل . وبسبب الخوف الدائم من النظرة الرديئة تهمل الأمهات نظافة أطفالهن ونظافة المراحيض لأنهن يعتقدن أن ذلك يبعد عن الطفل نظرات الحسد . كما أنهن يعتقدن أن غسل العيون يؤدى إلى النظر لذلك فهن يتركن رموش أطفالهن فى حالة من القذارة مما يؤثر على نظرهم . فيصبح هؤلاء الأطفال التعساء فريسة دائمة لمجموعات الذباب التى تلتصق بوجوههم . فيبحثون عن التخلص من العذاب الذى يتعودون عليه بعد قليل . والالتهاب الذى يحدث فى مثل هذه الحالات هو المصدر الرئيسى لمرض العيون الذى يعيث فسادًا فى مصر .

* * *



الختـــــان

ويحدث الختان فيما بين سن السادسة وسن التاسعة ، وينطبق مع الفترة التى يخرج فيها الطفل من الحرملك . ولم يتم تحديد الفترة التى تحدث فيها هذه الحفلة . بيد أنه يجب أن تحدث قبل أن يبلغ الطفل سن الرشد ، لأنه حينئذ تفرض عليه الصلاة، ولا ينظر إليه على أنه فى حالة البراءة التى يوصى بها الدين أن لم يكن قد ختن .

وتقضى العادة بأنه قبل إجراء عملية الختان يخرج الغلام الصغير (المطاهر) فى الشوارع القريبة من مسكن والديه على أنغام موسيقى صاخبة . وفى أغلب الأحيان وبسبب اقتصادى فإن كثيرًا من العائلات يقيمون حفلة واحدة للختان أو ينتظرون حدوث زواج فى الحى ويقيمون الحفلتين فى نفس الوقت . وفى القديم كان الطفل يتنزه فوق حصان مزين بالمنسوجات والمعادن المذهبة ، أما فى الوقت الحالى (وقت كتابة هذا الكتاب) فيتم وضع الطفل فى عربة مكشوفة ، ولطرد النظرة الرديئة يلبس بدلة عنية مزدانة بزينة مبهرة يجب أن تجذب النظرات وتبعدها عن الطفل ، ولزيادة الاحتياط نجعل الطفل يضع على فمه بيده اليمنى منديلاً أبيض مزركشًا يخفى كل وجهه تقريبًا . وتنثر إحدى النساء حوله الملح المبارك .

وخادم الحلاق الذى يجب أن يقوم بالعملية يفتح باب السلم ، ويحمل على رأسه كنوع من العلامات « الحمل » وهو نوع من الصناديق نصف الاسطوانية مزدانة بشرائح من النحاس ويعلوها من ثمان إلى عشرة أجراس صغيرة من نفس المعدن . وهذا

الصندوق يحتوى على - أو يجب أن يحتوى على أدوات الحلاق - . وفى بعض الأحيان نقوم (أنا وزملائى) بزيارة لأقرب مسجد حيث يقوم بعض التلاميذ الصغار يقودهم عريف (منظم) بإنشاد الصلوات التى تجذب على المُطاهر حماية الله عز وجل وشفاعه النبى (ﷺ) ثم يحضر الطفل إلى عائلته حيث يتم إعداد العشاء . وبعد الانتهاء من العشاء فى العادة يقوم الحلاق الذى يلعب دور الشخصية المهمة فى الحدث يقوم باصطحاب الطفل إلى شقة بعيدة ويجرى عليه العملية وسط صوت الدفوف الذى يغطى على صوت صرخات الطفل . ويهنىء المدعوون أولاً المختون الجديد ثم يقدمون له بعض الهدايا ، ويقضون جزءًا من الليل فى الشرب وفى التدخين دون أن يهتموا كثيرًا بالحادث .

ويعد الختان علامة تفصل بين مرحلتين من مراحل الحياة ، فهو ينهى مرحلة الطفولة ، لأن بعد الختان يعتبر الشاب المسلم رجلاً تقريبًا . فإذا كان غنيًا أو من الأعيان يخرج من الحرملك حيث حصل على تعليمه الأولى ، وتأخذ دراساته مسلكًا أكثر جدية ، أما إذا كان فقيرًا فيبدأ فى مساعدة والديه على ممارسة مهنتهم .

* * *



(١٦)

الزواج - حفلات الزواج - الطلاق

يعد الزواج بالنسبة للمسلم فرضًا معنويًا . ومن الشر أن يبحث على تجنبه . ويدون فرض الزواج يريد الدين مع ذلك أن يتخذ الرجل امرأة منذ أن يصل إلى سن التعقل ، إذا لم يكن هناك عائق كبير يمنعه من ذلك . وفى أغلب الأحيان يزوج الآباء أبناءهم منذ نعومة أظفارهم . سواء من أجل زيجة مميزة وخوفًا من أن تفلت الزيجة من يدهم فيما بعد ، أو سواء من أجل منفعة مادية أو لمسألة اتفاق ، ويحفظون الزوجين الشابين كل منهما فى عائلته حتى سن الرشد ، وها هو ما هو مكتوب بخصوص هذا الموضوع فى البند ٥٦ من القانون الإسلامى أو الشريعة الإسلامية :

« الزوجة التى تزوجت وهى صغيرة لا يجب أن تقاد إلى منزل زوجها قبل أن تصبح فى حالة تمكنها من تحقيق الهدف من الزواج . ووالدها الذى لا يمكن أن يجبر على تسليمها لديه الحق فى طلب ، وفى الحصول على الجزء المفروض الخاص بها من المهر » .

وفى حالة حدوث عدم اتفاق بين الزوج ووالد المرأة الشابة بخصوص هذه المسألة يقترح القاضى سيدة عجوز أو سيدتين عجوزين من أهل الثقة لدراسة شكل وتكوين الفتاة الشابة . فإذا كان التقرير المقدم من السيدتين العجوزين يؤكد ادعاء الزوج يتم قيادة الزوجة إلى منزل الزوجية . أما إذا كان التقرير لا يؤكد ادعاءات الزوج تظل المرأة لفترة مؤقتة فى منزل أبويها . إن الشكل الطبيعى للمرأة ، وليس السن هو الذى يعتمد عليه فى التشريع .

ويستطيع المسلم أن يوقع عقد زواج مع فتاة مسيحية أو يهودية . سواء أكانت مصرية أو أجنبية ، والأطفال الذين يثمرون من هذا الزواج يجب أن يتبعوا دين والدهم. واختلاف الدين يلغى كل حق فى وراثة الزوج للزوجة أو فى وراثة الزوجة للزوج . أما بالنسبة للمرأة المسلمة فإنها لا تستطيع أن تتزوج إلا من مسلم .

والقانون الإسلامى أو الشريعة الإسلامية ذو شدة متناهية فيما يخص رقة وحساسية الزواج (الاتحاد بين الرجل والمرأة) وهكذا بالإضافة إلى الحالات الطبيعية التى يمنع فيها الزواج - لا يستطيع المسلم أن يتزوج من بنت أخيه أو بنت أخته ، أو من زوجة ابنه ، أو من أخته فى الرضاعة . ولا يستطيع كذلك أن يتزوج من زوجة طلقها ثلاث مرات إلا إذا تزوجت بعد ذلك وطلقت من زوجها الأخير ، والزواج الموقع مع أخت الزوجة دون أن تكون مطلقة يصبح كذلك باطلاً .

ولرب الأسرة أو الأب السلطة فى فرض الزواج على أولاده القصر - الأولاد والبنات ، أما إذا كانت الابنة حرة وبلغت سن الرشد فيجب استشارتها ، ويطلب منها أن توافق . وورد فى البند ٥٣ من الشريعة الإسلامية « إنه إذا تم استشارة الفتاة قبل الزواج عن طريق قريب من العائلة أو وكيلها أو شخص ثالث محل ثقة ، فالفتاة البكر أو العذراء تصمت بإرادتها بعد أن عرفت الزوج الذى ستكون قسمتها معه أو الذى اتحدث به ، وكذلك كمية المهر المقننة لها ، وإذا ابتسمت دون استهزاء ، أو إذا بكت دون صراخ ، لأن الصمت والابتسامة والدموع يعنون الموافقة إذا حدثوا قبل التوقيع على عقد الزواج ، كما يعنون التأكيد على الزواج إذا حدثوا بعد التوقيع على عقد الزواج » ، ويضيف البند التالى :

« والمرأة (الفتاة) « السايب » لا يمكنها أن تتزوج إلا إذا وافقت بالكلمات أو بحركة ما تترك انطباعًا على موافقتها ، وإذا استشيرت كما هو موضح بعاليه وصمتت فلا يعد صمتها معادلاً لموافقتها » .

وعندما يطلب رجل فتاة صغيرة للزواج ، وتكون شروط المهر مقبولة يستطيع هذا الرجل أن يرى شكل ويدى خطيبته . لأن الوجه هو مركز الجمال كما يقول المسلمون ،

واليدان يجعلونك تعرف شكل الجسد ، فالزواج فى مصر هو نوع من الاتفاق الخاص الذى لا يتطلب عقوبات دينية أو شكليات مدنية . وذلك لأن الزواج يتوقف بموافقة الزوجين التى يعبر عنها أمام اثنين من الشهود . وفى حالة الزواج يتم تمثيل الفتاة التى تريد الزواج بولى أو وكيل لها حق اختياره ، إذا كانت قد بلغت سن الرشد . أما إذا كانت لم تبلغ سن الرشد فيكون هذا الوكيل فى العادة والدها أو الوصى عليها . ويقول ممثل الزوجة لمن يريد الزواج منها بكل بساطة : « زوجتك موكلتى » ، فيجيبه من يريد الزواج: « أجبتك » أو « قبلت الزواج منها » . وفى بعض المرات عندما تكون المرأة (الفتاة التى تريد الزواج) حاضره عند توقيع عقد الزواج يتم استخدام صيغ أكثر وضوحًا . فعلى سبيل المثال يقول من يريد الزواج للولى الذى اختارته المرأة ليتحدث باسمها : « أتوافق على زواجى من فلانة بشرط أن أتحمل مهرًا مقداره هكذا أعطيه للفتاة ؟ » فيجيبه الوالى : « أوافق على زواجك منها على أن تتكلف بأن تدفع لها مهرًا قدره هكذا » . وفى هذا الوقت عينه تعد ابتسامة الفتاة الشابة أو صمتها أو بكاؤها علامات على موافقتها. ثم يذهب الزوجان الجديدان لإعلان زواجهما عند قاض مسلم . ويهمل عدد كبير منهم فى عمل هذا الإجراء الذى لا يعد ضروريًا من أجل صلاحية الزواج .

المهر : يجب أن يحضر الزوج لزوجته مهرًا ، والحد الأدنى لهذا المهر منصوص عليه فى القانون الإسلامى . وفى مجتمع يسمح فيه بالطلاق يعد هذا القانون (أو الشريعة الإسلامية) إجراء حكيمًا بعيد النظر . لأنه يضمن للزوجة المطلقة بعض التنعويضات ، ويمكن أن تعتبر الأراضى والبيوت كمهر ، وكذلك الأثاث وما يسهل حمله، والجواهر ، والماشية ، وحتى عوائد الممتلكات الثابتة والمتحركة . ويمكن أن يدفع المهر كاملاً عند الاحتفال بالزواج أو بعده عند تاريخ قريب أو بعيد أو مقسمًا إلى قسمين ، قسم يدفع عند كتابة العقد ، والقسم الآخر فيما بعد وفقًا لعادات كل حى أو منطقة . ويؤول المهر إلى « الزوجة وحدها » . فلها الحق فى أن تحصل عليه فى كل الحالات دون حاجة إلى سماح من زوجها ، وهى تستطيع أن تبيعه ، أو ترهنه ، أو، تؤجره ، أو أن تهبه إلى زوجها وإلى عائلته ، أو إلى أشخاص آخرين .

حفلات الزواج : بعد فترة تتراوح من ثمانية إلى عشرة أيام من تاريخ توقيع عقد الزواج تبدأ احتفالات الزواج . والأيام المختارة للاحتفال بالزواج هى الاثنين ، والأربعاء والخميس والجمعة ، وتشتهر الأيام الأخرى بأنها مشئومة . ويعلن الزواج للعامة بواسطة كمية من الأعلام الصغيرة الحمراء والخضراء وبها هلال أبيض ، وتنتشر عليها النجوم ، وتثبت بخيوط مائلة من أحد جوانب الشارع إلى الجانب الآخر بالقرب من منزل أحد العروسين إلى منزل العروس الآخر . وفى الليلة التى تسبق الزواج تذهب الفتاة الشابة أو العروس إلى الحمام فى زفة كبيرة تحت سقف من الخشب مسنود بعمودين . ويتشح جسدها بقطعة كبيرة من القماش الأحمر . ويزدان رأسها وصدرها بالمجوهرات . ويتكون المشيعون من عائلة وأصدقاء الزوجة ، ويتقدمهم العازفون على الآلات الموسيقية والبهلوانات . وعند الحمام تستحم الزوجة ، وتتهندم وتعطر وينتف شعرها للمرة الأولى. بالإضافة إلى ذلك تدهن بالحنة أظفارها وباطن يديها ، وأصابع قدميها وباطن قدميها ، وتترك الحنة على الجلد لونًا أحمر برتقاليًا تدوم صبغته عدة أيام ، ثم يؤتى بالعروس عند والدها بعد ذلك حيث يكون المنزل منورًا بنور ساطع ، وحيث يفرح المدعوون ويسعدون على الطريقة الشرقية .

وعندما تقاد أو تسير العروس إلى منزل زوجها تتبع نفس مراسم الاحتفالات التى أجريت عند زيارتها للحمام . ويسير المشيعون ببطء ويميلون عن المسار الرئيسى مرات كثيرة ليعطوا مزيدًا من الإبهار على الحفلة ويزيدوا من بريقها . وتطلق النساء من وقت لآخر نوعًا من الأصوات الحادة المرعشة وتسمى « زغاريد » كعلامة من علامات الفرح .

وفى الوقت الذى تتنزه فيه العروس هكذا يكون العريس جالسًا مع المدعويين . ويكون فناء المنزل مزينًا ومضيئًا بكثير من الشمعدانات مصنوعة من الكريستال وحلقان ضخمة مصنوعة من الزجاج الملون . ووسط الفناء يوجد نوع من القطع الخشبية المربعة تشكل مقاعد يجلس عليها المغنون وعازفوا الموسيقى . ويتقبل العريس التهانى من أصدقائه ويسهر على خدمتهم . ويدور الخدم بالقهوة ، والدخان ، وعصير الفواكه المثلج

بكميات كثيرة ويتم خدمة المائدة تلو الأخرى خدمة مريحة وسريعة . وتتكون المائدة من قطعة كبيرة ومستديرة من الخشب توضع على قاعدة من الخشب ، ويجلس حول كل مائدة من عشرة إلى اثنى عشر مدعوًا . ويتطلب الأسلوب أو الإتيكيت فى الحالات المشابهة إلا فى استثناءات نادرة يتطلب أن يأكل المدعوون بأصابعهم وأن يشربوا من ماء النيل الثمين فى كوب زجاجى موحد لكل المائدة . ثم يغسل الاثنى عشر أو الخمسة عشر طبقًا (غالبًا ما يكون العدد أكثر من ذلك) اللاتى يتكون منها العشاء الشرقى من ماء النيل كذلك .

وهناك وليمة ليست أقل غنى تنتظر العروس عند وصولها . ولا يحضرها العريس. بل يظل مع المدعوون حتى ساعة متأخرة من الليل. وأخيرًا يقاد العريس الذى لا يحتمل الصبر إلى شقة زوجته . ولكن قبل ذلك يقوم بالتنزه مع أصدقائه خارج البيت على ضوء الشموع وعلى الأصوات غير المنسجمة لآلات الموسيقى التى يقودها فنيون ينفذون فى هذا الزمن السامى الذى يرتبط فيه إله الحب بفتاته الجميلة ينفذون أحد أكثر القطع الموسيقية تجانسًا . وعند نهاية هذه النزهة التى حدثت على ضوء المشاعل يدخل العريس فى الحرملك حيث تنتظره عروسه .

وبفضل عادة قديمة جدًا لها قوة القانون لا يتصل الزوج بزوجته إلا بعد سبعة أيام من تأكده من طهارتها . والوسيلة التى يستخدمها لكى يصل إلى هذا الإدراك ليست محاطة بأدب جم . ففى حضور عدد من الأمهات ، وكثير من الأقارب من السيدات وكثير من النساء العجائز يتأكد الزوج من طهارة زوجته عن طريق إصبع الإبهام من اليد اليمنى مغلفا بمنديل من قماش أبيض شفاف ، ثم يعرض على الحاضرات بعد ذلك . أما الفتاة التعيسة التى تمنعها غلطة أو مرض أو عيب خلقى - يمنعها ذلك من تقديم الشاهد على عذريتها فيطردها زوجها . ولحسن الحظ هذه الحالات تعد نادرة جدًا ، ومن السهل تعويض العلامات الطبيعية التى قد تفتقدها الفتاة الشابة بسبب حادث ما بوسائل صناعية .

واجبات العريس : وفقًا للقانون الإسلامى أو الشريعة الإسلامية لا يجبر الزوج قانونًا على الا يعيش مع زوجته سوى مرة واحدة (بند ١٥١) . ويجب على الزوج أن يعامل زوجته بكل حب ورعاية واهتمام ، وأن يلبى جميع احتياجاتها من قوت وكسوة ومعاشرة (بند ١٥٠) . كما أن كل رجل حر يستطيع أن يتزوج حتى أربع نساء حتى بعقد واحد (بند ١٩) ، ولكنه مجبر على أن يمر على مسكن كل منهن كل أربع وعشرين ساعة ، أو كل ثلاثة أيام ، أو كل سبعة أيام وفقًا لفترة الدورة والنظام الذى له الحق فى أن يثبته وأن يقوم به بنفسه (بند ١٥٤) دون أى تمييز لواحدة منهن على حساب أخرى، أو ليسىء لواحدة أخرى إلا إذا وافقت تلك المرأة الأخرى على ذلك (بند ١٥٥) أو إذا تنازلت عن حقوقها لمصلحة واحدة من الزوجات الأخريات .

حل الزواج أو الطلاق : للزوج وحده الحق فى اللجوء لطريق القضاء لحل الزواج . وإذا تم النطق بالطلاق ، سواء أكان هذا النطق جادًا أو عبثًا فيحدث هذا النطق تأثيره إذا استخدم الزوج بعض الصيغ التى تحتوى كلمة الطلاق بند ٢١٧-٢٢٥ . ويستطيع الزوج أن يطلق عن طريق القضاء بشرط أن يعطى تعويضًا لزوجته . وهذا التعويض كمية من النقود أزيد من المهر الذى دفعه لها . (بند ٢٧٦) . وفى حالة ترك أى من الزوجين المسلمين دينه لدين آخر ، يكون الطلاق حقًا فى هذه الحالة دون أن يكون هناك حاجة لقرار من المحكمة (بند ٣٠٣) .

ولدى الأقباط يقوم الكاهن بعمل العقد ويحدد الوقت الضرورى لاستعدادات حفل الزواج . ويصاغ العقد (عقد الزواج) بعد كمية من النقود يدفعها العريس . ولا تحصل العروس سوى على نصف هذه الكمية وتسمى « دخلة » أما النصف الآخر ويسمى خارجة (من هذا العالم) فهو مخصص لدفنه . وإذا مات الزوج أولاً تحصل الزوجة على هذه النقود كجزء من « الميراث » .

وقبل الزواج بثلاثة أيام يجب أن يعلم العريس عائلة العروس أو الخطيبة وتقاد أو تصطحب الخطيبة مباشرة إلى الحمام بنفس المراسم الاحتفالية التى لدى المسلمين . وفى اليوم الذى تحتفل فيه بالزواج تقاد الفتاة الشابة (العروس) مكشوفة الوجه إلى

منزل العريس فى الساعة الثانية من الليل (بعد غروب الشمس بساعتين) . وفى الوقت الذى تهم فيه بالدخول داخل المنزل يذبح أمامها خروف لتمر فوق دمه ؛ وهذه علامة على أيام طويلة سعيدة . ويحصل العروسان على بركة الزواج من الكاهن فى حضور الأهل والمدعووين . وبعد ذلك يضع الكاهن فى إصبع كل منهما دبلة مباركة . وفى منتصف الوليمة يتم إحضار عصفورين محبوسين تحت سقف خفيف من الحلوى . ويقوم أكبر المدعوين سنًا بكسر هذا السقف بالعصا ، فيطير العصفوران فى الحال . وهذه علامة أخرى للسعادة التى لن يعكر صفوها شىء ما . وتمر الليلة فى التسالى والتسامر . وقبل الفجر يأخذ والد العروس ابنته بين ذراعيه ويحضرها إلى غرفة الزواج (غرفة النوم) . أما عن بقية المراسم الاحتفالية فيتبع الأقباط نفس العادات التى يتبعها المسلمين ، فهم يخضعون مثلهم لنفس القوانين .

والمشرق هو أرض عدم الثقة لأنه كان دائمًا أرض الأمر والنهى . ونخفى ممتلكاتنا فى هذه الأرض مثلما يحدث فى أى مكان آخر ، ونعلم المكان الذى نخفى فيه ممتلكاتنا بعلامة . ونحن نتذكر هذا الزمان القريب منا الذى كنا نحذر فيه من الحصول على رزقنا فى وضح الناس لئلا نوقظ شهوة الأسياط المستعدين للاستيلاء عليها ، وينتج من هذا الحذر الدولى أو العالمى الذى لا يوجد مبرر لاستمراره حتى اليوم عادة غريبة الشكل . فكثير من المصريين المسلمين ، والمسيحيين أو اليهود يضعون جزءًا كبيرًا من ثرواتهم تحت الحجارة ويمررونها تحت رؤوس زوجاتهم ، ومنذ هذه اللحظة تصبح هذه الثروة غير قابلة للانتهاك أو السرقة ، كما تصبح مقدسة ، وتتجنب بهذا الشكل كل خطر للنهب ، والشريعة الإسلامية تحمى ممتلكات الزوجات .





(١٧)

الجنازات

طالما كان المسلم الذى فى حالة إغماء يتنفس ظل الحاضرون المحيطين به هادئين وباردى الأعصاب. وباطلاً يحذرهم الطبيب بأن الموت يقترب لأن هذه الكلمات لا تحرك ساكنًا لديهم . فهم مقتنعون تمامًا أن الله وحده يستطيع أن يعرف ما يجب أن يحدث . وأنه ليس لأى إنسان أن يتحدث عن موت إنسان آخر حتى فى الدقيقة الأخيرة ، وعلى الرغم من الأعراض الخطيرة طالما بقى هذا الإنسان الآخر على قيد الحياة . ولكن عندما يسلم هذا الإنسان الآخر الروح تظهر علامات الحزن فجأة بصرخات مدوية مصحوبة بعلامات من فقدان الأمل الشديد . وتقرع النساء على صدورهن وتلطمن خدودهن وتقلعن شعورهن ويسمعن أصواتًا حزينة يتخللها إعجاب بالميت . وعند وفاة رب الأسرة على سبيل المثال تصرخ النساء قائلات : « آه يا سيدنا ! أيها الجمل الذى كان يحمل غذاءنا ويسند نير وجودنا ! يا أيها الأسد المأسوف عليه ، وسندنا الوحيد ... إلخ . لماذا تركتنا ؟ ما الذى كان ينقصك بيننا ؟ هل سئمت من الاعتناء بنا ؟ ألم يكن خضوعنا لك بلاد حدود ؟ ألم يتأثر قلبك بشهادات حبنا لك ... ؟ وتأتى الجارات ليساندن بنحيبهن الأرملة فى شكواها . وفى أغلب الأحيان يتم استدعاء « الندابات » (الباكيات) اللاتى يعددن بطريقة مبالغ فيها المزايا الطبيعية والنفسية للمتوفى مع تشنجات خانقة . ويحتفظ الرجال فى أغلب الأحيان تقريبًا بأعصابهم متماسكة وهادئة فى هذه الأوقات الصعبة . فحزنهم لا يظهر بعلامات خارجية ، كما أنهم يتجنبون الاجتماع مع أصدقائهم لفترات طويلة بعد الجنازة ، وذلك حتى يركزوا حزنهم فى أنفسهم ، وحتى يتأملوا عزلتهم فى المصاب الأليم الذى جربوا به .

وقبل الدفن يترك الميت للحظات بدون غطاء ويوجه وجهه فى اتجاه مكة . ويتم إمرار منديل أسفل الذقن ويعقد أعلى الرأس حتى يحفظ فمه مغلقًا . ويأتى الفقهاء (الشيوخ) حتى عتبة الباب يرتلون آيات من القرآن الكريم وبصحبتهم بعض التلاميذ الصغار . وأثناء هذه الصلوات يتم غسل جسد الميت ونتف شعره وتطهيره من كل جراحاته ثم يغلف فى كفن من قماش جديد من القطن أو الحرير . ثم يوضع فى تابوت مغطى بشال أو ملاءة حمراء مزركشة . ومن قبل يعلو هذا التابوت قائمًا من الخشب ، ويحمل هذا القائم الشىء الذى يميز درجة وشخصية المتوفى فإذا كان المتوفى رجلاً يحمل هذا القائم طربوشه ، وحزامه ، وسيفه إلخ ... أما إذا كان المتوفى سيدة فيحمل هذا القائم أقمشتها القطنية المزركشة بالعملات القطنية وكل جواهرها . ثم يحمل الجسد على أكتاف عشرات من الرجال وأكثر من ذلك فى أغلب الأحيان ، ويتزاحم هؤلاء الرجال حول النعش . وتسبق قافلة المشيعين جماعة من العميان والأطفال يرتلون إعلان الإيمان الإسلامى « لا إله إلا الله » أو « محمد رسول الله » . ثم يأتى بعدهم خدام الميت ، ثم الندابات أو الباكيات وهن يلبسن سراويل طويلة زرقاء ، ويلطخن وجوههن وأياديهن بالرماد ، أو يصبغن أياديهن ووجوههن بصبغة زرقاء . ويحركن مناديل ملونة يقمن بعصرها بعمل حركات عضلية مضحكة ، ويبكين ويطلقن أصواتًا حادة . ويتوقف النعش لحظة أمام جامع ثم يواصل مسيرته فى اتجاه القبر . وعلى حافة القبر يتم سحب الجسد مغلفًا بالأكفان من التابوت ، ويوضع فى مثواه الأخير ، وتدار رأس الميت تجاه المشرق .

وفى مدافن الدرجة الأولى تسبق قافلة الجنازة « كفارة » . وهى نوع من التكفير مكون من « جمال » تحمل على ظهورها صناديق مملوءة بالعيش ، والبرتقال ، والبلح إلخ. وتوزع هذه الأشياء على الفقراء أثناء المسيرة ، كما أن هناك عددًا من الجاموس معد للذبح على قبر الميت . ويقف أصدقاء الميت على صفين ويرتدون نوعًا من الملابس الرسمية على شكل شال كبير من الحرير به خطوط من الألوان الزاهية ويمسكون بأياديهم « أسكيا » وهو نوع من الآنية المصنوعة من الفضة التى تحرق فيها العطور (الشورية) ويعلق بسلاسل ، وتحرق فيه النباتات العطرية أو البخور .

وتدوم الصلوات والبكاء على الأموات ثلاثة أيام متتالية ، ثم تبدأ من جديد يوم الخميس من كل أسبوع لمدة أربعين يومًا . واعتاد الناس على الذهاب إلى قبور الأموات العزيزين عليهم أو الأثيرين لديهم فى الصباح الباكر من كل يوم جمعة ويحضرون معهم بعض الخبز والفاكهة لتوزيعها على الفقراء لجذب مراحم السماء على روح الشخص الميت (غير الموجود) .

* * *



(١٨)

العـــــبيد

لا توجد تجارة للعبيد فى مصر . ويرجع شرف سن قانون يمنع تجارة العبيد فى محافظات مصر إلى الخديوى إسماعيل . فتم توجيه الحملات العسكرية ضد جلابى Gallaby العبيد الذين يستغلون هذه التجارة المزرية ، وتم مصادرة العديد من قوافل هذه التجارة اللاإنسانية ، وقفل الأسواق العامة لهذه التجارة للأبد .

وعلى الرغم من تنفيــذ هذه الإجــراءات التى تعـد مظهــرًا من مظاهـر الحب للإنسانية وشدة قوانين قمع هذه التجارة فمازالت توجد الأسواق السرية لهذه التجارة فى القاهرة . أما فى « صعيد مصر » وخاصة فى « قنا » أو « إسنا » فلا يوجد شىء أسهل من شراء عبد أسود .

وكلمة عبد تحمل معها معنى لا يجب تطبيقه على « الخدم » كما يفهمه المسلمون . فلدى المسلمين لا تعد «حالة العبيد» مؤلمة أو غير شريفة ، فهم لا يعتبرون العبد جمادًا أو شيئًا ماديًا كما هو مكتوب فى القانون اليونانى أو الرومانى . كما أنهم لا يعاملون العبيد بطريقة غير مدنية - كما نلاحظ فى أغلب الأحيان ذلك لدى مستوطنى أمريكا على سبيل المثال الذين لا يرون فى الشخص الزنجى سوى قيمة مادية فقط . فالمسلم على النقيض من ذلك يرى دائمًا فى عبده إنسانًا أو رجلاً مثله . وإن حالته كعبد منظمة بدقة بالقانون الدينى (أو الشريعة الإسلامية) . فالمسلم يعامل عبده بطريقة جيدة لدرجة أننا نسطيع القول بأن العبد فى مصر يعد فى أغلب الأحيان أكثر قربًا من سيده من الخادم فى أوروبا . أما اليوم فالحرية الممنوحة للعبيد تسمح لهم بالحياة الطبيعية

دون قلق أو اضطراب . إلا أن قليلين منهم يتمتعون أو يستفيدون بهذا الامتياز ، فهم يفضلون حالتهم كعبيد خالية من أى نوع من الاضطهاد على حالة من « عدم الأمان » تصبح فى أغلب الأحيان بالنسبة لهم مصدرًا للعقاب والاضطراب .

وحالة العبيد ترفعهم دائمًا وفى أغلب الأحيان إلى درجة أعلى من الحالة التى أخذوا منها ، وتبعدهم عن التعاسة . فكثير منهم - وخاصة البيض - وصلوا إلى أعلى المراكز بالدولة . فالطفل المولود من الأمة له نفس حقوق الطفل الشرعى ، وإذا كان بكرًا للعائلة فله الحق فى كل الامتيازات المرتبطة بهذه البكورية . فمليشيا أو جماعة المماليك الشهيرة التى حكمت لفترة طويلة فى مصر لم يتم انتقاؤها سوى من بين العبيد . فقد تم بيع كل من « على بيه » ، و « إبراهيم بيه » ، و « مراد بيه » البربرى وغير المدنى الذى هزم فى معركة الأهرامات تم بيع هؤلاء جميعًا فى أسواق العبيد . واليوم لم يعد نادرًا أن نقابل ضابطًا ذا رتبة عالية أو موظفًا مرموق المركز كان عبدًا فى شبابه ، ونرى من العبيد كذلك من أصبح ابنًا بالتبنى ، وحصل على تربية وتعليم راقيين وتزوج من ابنة سيده .

* * *



(١٩)

الحــــرملك

الحـرملك هو ذلك الجزء من المنزل الذى يقتصـر علـى سكنى النسـاء . أو الحـريم . وفى أوروبا لدينا بصـفـة عـامة فكـرة خاطئة عن الحـرملك ، فـهـذه الكلمة تـختلط بـصـفـة عـامـة مع « السـراية » التى تعنى القـصـر . ولا يعنى الشـرقـيون بكلمـة الحـرملك مـجـرد الشقة المخصصة للنساء بل يعنون كذلك كل الخدم الذين يعيشون فى هذه الشقة .

والتوزيع الداخلى للحرملك؛ لا يوجد به شىء خاص ، فهو يتكون أولاً من صالة بها أرائك تجتمع فيها سيدات المنزل وتتعامل وتستقبل الزوار من الصديقات . ثم توجد به حجرات خاصة ، وحجرات مخصصة للجوارى وحاجات المنزل . ويتجنب الشرقيون على قـدر الإمكان أن توجد بـالحـرملك نوافـذ تطل على الشـارع ، فـهـذه النوافـذ تطل كلهـا تقريبًا على حديقة أو على فناء داخلى . ويتم حماية هذه النوافذ بشبكة خفيفة مضفرة من الخـشب ذات أطراف حـادة وقـريبـة من بعـضـهـا ، وهـى تشكل حـاجـزًا للنـظرات الخارجية الجسورة .

كـثيـر من الناس يتـخيلون بإرادتهم بأن الحـرملك هو نوع من الأمـاكن التـى يسلك فيها الحريم سلوكًا خارجًا متسيبًا ، حيث وضعت حرية الشعب المشحون ملجأ للمتع الراقية المثيرة . وهذا خطأ كبيـر . فالمظهر الأخـلاقى والاجتمـاعى للحيـاة فى الحـرملك وخاصـة ما يخص العائلة يجب أن يمتحن بكل صراحة وبدون خلفيات إذا أردنا أن نكون فكرة عـادلـة . ولقـد كنا فى أغلب الأحـيـان نرجع بطريقـة خـاطئـة سـبب إيجـاد تعـدد الزوجات والحرملك على وجه الخصوص للمسلمين دون أن نتذكر أن تعاليمهم الدينية

والاجتماعية مشتقة من تعاليم اليهود الدينية والاجتماعية . ألم تعترف الشريعة اليهودية القديمة بابن الجارية مثلما اعترفت بابن الحرة ؟ ألا يوجد تحت أيدينا بين آلاف من الأمثلة : حياة إبراهيم ، سارة وهاجر ، ويعقوب وليئة وراحيل ؟ ذلك دون أن نتكلم عن داوود وسليمان . وعن الآباء أو الأسباط الاثنى عشر - أربعة كانت أمهاتهم جوارى (إماء) ، وشاركوا مع إخوتهم شرف كونهم أجداد (أصل) شعب الله .

ولا يجب أن نعتقد أنه داخل الحرملكات (جمع حرملك) حتى فى الحرملك الذى يعيش فيه عدد كبير من النساء . بأن هذا العدد الكبير هو من أجل لذة الزوج أو السيد. وحرملك الرجل الغنى يتطلب عددًا كبيرًا من البيوت . وتعلم درجات العبودية بواسطة رتب مميزة . فتحتل الجوارى اللائى ينتمين للسيد الصف الأول ، ويأتى بعدهن الزوجات الشرعيات ، ثم الزوجات اللائى يرتبطن بأولاد وفقًا لسن كل واحدة منهن ، ثم الأمهات من الجوارى ، ثم أخيرًا جوارى (إماء) العبيد ، وتلك الدرجة الأخيرة تتكون دائمًا تقريبًا من الزنجيات ذات أصل حبشى أو من أقاليم السودان المصرى .

والجوارى الرئيسيات من كل درجة يسمون « كالفا » ، ولهن احترام كبير ، وبعد عدد معين من سنوات الخدمة يوجد لهم زوج ، وفى نفس الوقت يحصلون على منزل مع جوارٍ ، ومنحة شهرية . والأمل فى هذا المنزل يجعلهن تهتممن فى جذب النعم الكثيرة من سيدها أو سيدتها . وينتج عن ذلك الكثير من اللاعدل من جانب « الكالفا » تجاه الجوارى الأقل درجة اللائى يسئلن عن ملاحظتهن وعن لباسهن كما يلقين أخطاءهن الخاصة عليهن .

ويرتبط الجوارى بصفة خاصة بخدمة من يأمرهن ، ولكل منهن صفاتها ووظيفتها الخاصة التى لا تنفصل عنها أبدًا. وهكذا فالسيدة تحذر أن تعطى « للهزنجية » (المرأة المسئولة عن ترتيب الغرف) أمرًا خاصًا بالشبوكية وهى المرأة المسئولة عن البايب والدخان ، ولا تسمح حتى لنفسها بطلب شىء غير مهم من أمة سيدة زائرة . وإذا تواجدت إحدى الإماء على مسار سيدها فى الوقت الذى يقوم فيه بعبور الحرملك . فمن واجبها أن تقف بلا حركة وتربع يديها حتى يختفى سيدها عن النظر ، واستمرارها

فى العمل الذى بدأته يعد « عدم احترام » لسيدها . وفى الواقع لا يملك السيد فى الحرملك سوى غرفة واحدة ، ويدخل عن طريق باب يتصل مع السلاملك إلى صالون استقبال الرجال . ولجواريه فقط حق دخول غرفته ليخدمنه ؛ أما الجاريات الأخريات فلا يقترين حتى من الممر الذى يوصل إلى هذه الغرفة .

وطبقًا للشريعة الإسلامية يعد أبناء الجوارى شرعيون ، وعند وفاة الوالد يحصلون على النصيب الذى يخصهم من ميراثه مع أولاد الزوجة الشرعية . ولدى الأمهات الجوارى رتبة معروفة فى الحرملك ، ومركزًا بارزًا ، غير أنه يرتبط دائمًا بمركز الزوجة الشرعية التى يقفن أثناء وجودها كعلامة احترام . وتعتمد رتبة الجارية الأم على نوع الجنين ، فهى تحصل على لقب أم البيه أو أم الهانم ، تبعًا لكونها أمًا لولد أو لبنت .

وأثناء الوجبات تخدم الجوارى الأمهات أولادهن بأنفسهن ، وتقف خلفهن خادمات يحضرن الطعام . وتحرص « الكياهية » أو الوكيلة على أن تكون الخدمة على ما يرام .

ويعد الجوارى اللاتى ينتمين لسيدة أكثر سعادة من الجوارى اللاتى يكن فى خدمة السيد . لأنهن لا يتعرضن لتأثيرات الغيرة . وهن بصفة عامة فتيات صغيرات يعشن فى عزلة شديدة ، وعندما ينتهى عملهن الصباحى بالضبط يجتمعن فى إحدى غرف الحرملك حيث يأتى شيخ (كبير السن) عربى ليعطيهن دروسًا فى الموسيقى تحت مراقبة غبية لأحد الخصيان مقطبى الوجه .

والسيدات الشرعيات تحتل شققًا منفصلة ، أو منازل يتصل أحدها بالآخر ، ولكل زوجة مجموعة من الجوارى المعجبات أو الأسيرات المرتبطات بشخصها ، ولكل منهن مسئولية خدمة خاصة . وتتشرف كل سيدة بأن يكون لها عدد كبير من الجوارى . وقديمًا عندما كانت تخرج تصطحبهن وراءها فى مظاهرة جميلة مبهرة .

ولا تعد المسلمات تعيسات فى حياة الانغلاق التى يفرضها عليهن الحرملك . وقد ولد معظمهن فى هذا الحرملك وكبرن فيه دون أن يعرفن بأنه توجد ضمن السيدات الأخريات طريقة أخرى للحياة أكثر تفضيلاً . كما ينظرن إلى الحرية التى يتمتع بها

الأوروبيات على أنها غير جيدة . فالحرملك كان مسرحًا لألعاب طفولتهن ، ولسعادتهن الأولى ، ولا هتماماتهن الأولى . فالعادة كما يقال هى طبيعة ثانية ، والحياة فى الحرملك تعد من هذا المنظور طبيعية بالنسبة لبنات المشرق . فقد اعتدن على الحركة فى دائرة يعرفون حدودها ، لا تخطر على بالهن أى فكرة للخروج منه . وعندما يأتى وقت الزواج يعبرن من حرملك أمهن إلى حرملك زوجهن ، وهن محاطات بمتع جديدة ، وقلبهن الذى لم تشغل فيه التربية الدقيقة التى حصلوا عليها لم تشعِل فيه أى عواطف مضطربة وخطيرة ، فهذا القلب يذهب أمامهم إلى السعادة التى تمنحها لهم الحياة التى ينفتحوا عليها . فالعناية التى يغدقها الزوج عليهن تجعل هذه السعادة من السهل الحصول عليها . فكل ما يملكه المسلم من جمال وغنى يكرسه للحرملك الخاص به ، وهو يحب أن ينشر فى شقق زوجاته غناه المبهر - على الرغم من أنه يسعد بأن يخصص لنفسه سكنًا متواضعًا نسبيًا ، ويخصص مبلغًا بصفة خاصة فى شراء الخيول ولوازمها المبهرة . وعلى الرغم من أن السيدات تعد عبيدًا فى المشرق فهن يمارسن تأثيرًا كبيرًا هنا مثلما فى أى مكان آخر وأكثر من حدث سياسى كان له امتداد مخفى فى أسرار الحرملك . وأكثر من رئيس دولة قام بتعيين موظف أو رقى أحد ضباط قصره ترقية سريعة تلبية للإغراءات التى لا تقاوم لزوجته الأثيرة لديه .

والحياة اليومية للجوارى الأمهات تسير على أسلوب واحد بطريقة زائدة عن الحد، فليست لديهن واجبات خاصة مثل « الكالفا » ولا يتمتعن فى أغلب الأحيان بأولادهن الذين يخرجون فى أغلب الأحيان من الحرملك للتنزه بصحبة معلمة أو رئيسة يمشى خلفها أحد الخصيان . فتقضى الجوارى الأمهات اللاتى يعشن فى وحدة حزينة أوقاتهن فى زيارة بعضهن البعض . ويقضين أوقات فراغهن فى اللعب ، ويسعدن كثيرًا عندما تحصل إحدى البائعات على تصريح بأن تحضر لهن الأقمشة ، والمنسوجات المزركشة ، ومختلف الأشياء الأخرى . مما يمنحهن الفرصة لصرف بعض الجنيهات من المنح التى يحصلن عليها شهريًا . ولا يكسر هذا النظام سوى نزهة يوم الجمعة .

والسيدات الشرعيات لديهن حياة أقل انتظامًا . هُن يستقبلن الزيارات ويقمن بزيارة من يودونهن . وأثناء هذه الزيارات يتمددن على الأرائك ، ويلقبن بعضهن بعضًا

«خارداج» أو أخت ، ويحكين وهى يدخن السجائر ، وهى عادة حل محلها فى الوقت الحالى تدخين الشبوك (البايب) يحكين حوادث حياتهن الداخلية والجديد اللاتى تعلمنه من السيدات الأوروبيات اللاتى جئن لزيارتهن . وعند شعورهن يقمن بدعوة الأمهات الجوارى حتى يأتين ليتسامرن معهن بكلمات صبيانية أو ليلعبن معهن بالكارت (الكوتشينة) أو أى لعبة أخرى . وبصفة عامة لا يحصلن على أى تعليم ، كما توجد بينهن من هن كثيرات الجهل اللاتى يجبرن على طلب مساعدة « الكاتب » وهى سكرتيرة أنثى مسئولة عن حسابات المنزل وعن مراسلاته . ومنذ أقل من ثلاثين سنة كان من النادر أن نقابل مسلمة تعرف القراءة والكتابة، فكن يهتممن بالحياكة والنسج والزركشة، ولكن فى الوقت الحالى أصبح التعليم أكثر انتشارًا فى الحرملك أو الحرملكات ، وكثيرًا ما نرى سيدات أو فتيات صغيرات يتحدثن ويكتبن اللغة العربية ، واللغة الفرنسية ، واللغة الإنجليزية ، واللغة التركية . وفى أغلب الأحيان داخل نفس الحرملك عندما يجتمع كثير من السيدات المسلمات المميزات تدور المناقشة باللغة الفرنسية . ولا تجبر الشريعة الإسلامية النساء على ملاحظة واجباتهن الدينية بصفة خاصة ؛ فالسيدة ذات المرتبة العالية لا تذهب إلى الجامع ، فهى تصلى الصلوات الخمس اليومية فى منزلها .

لكل من جوارى طبقة « الكالفا » مهنتها الخاصة التى تمنع عنها الضجر والملل . ولا يجب أن ننسى أنهن درجة أقل من أم - البيه وأم - الهانم . وبعض من جوارى رتبة أم - البيه وأم - الهانم هبطوا إلى درجة « الكالفا » بعد أن فقدن أبناءهن وهن ينتظرن زيجة تجذبهن من هذا الوضع غير الطبيعى . والكالفا اللاتى ينتمين لباشا يخضعن لزوجاته مثلما كانت « هاجر » خاضعة لسارة . واعترف إبراهيم نفسه بهذا الخضوع عندما قال لسارة : «خادمتك أو جاريتك بين يديك ، أفعلى بها كل ما تريدين». ولكن هاجر لم تكن تعيش منغلقة على نفسها ، فإذا أساءت سيدتها معاملتها كانت تستطيع الفرار ، ولكن ليس الحال كذلك مع الجوارى فى مصر ، إذا حاولت إحداهن الهروب . فسوف تكشف بعد قليل وتعاقب بشدة . ثم لنفرض أنها نجحت فى الهرب فماذا ستصبح ؟ لقد شطب مبدأ نظام العبيد فتستطيع أن تذهب إلى قسم البوليس وتستخرج « كارت تحرر » فهذا حقها ، ولكن ماذا بعد ؟ هذه المرأة التى لم تعرف مطلقًا

الحرية لن تعرف ماذا تفعل ، وباستثناء بعض الحالات النادرة جداً التى حدث فيها انقلاب ، يكون الأسهل بالنسبة لها أن تذهب لتتضرع لسيدتها وتطلب منها العفو ، وأن تترجى سيدتها القديمة لتأخذها كجارية .

وإذا أصبحت واحدة من طبقة « الكالفا » أمًا ، يصبح لها منذ ذلك الوقت شققها الخاصة مع جوارٍ لخدمتها هى وطفلها . وتستطيع الزوجة الشرعية بسبب الغيرة أن تهمل الجارية الأم . ولكنها تعلن عن اهتمامها الحقيقى أو المتأثر بالطفل الذى يتم إحضاره لها كل يوم لكى تداعبه . وعندما يبلغ الطفل الرضيع من العمر ثمانية أيام . يستقبل هو وأمه الزيارات والمدائح ، والمتع والموسيقى الإجبارية والضرورية والتى بدونها لا تكون هناك حفلات . وأثناء هذه المناسبات يجب على الزوجات الشرعيات أن يظهرن مرة واحدة على الأقل فى شقة الأم ، فزيارتهن وإن كانت قصيرة تعد تحية وعلامة على اهتمامهن بالمولود على الأقل .

وهناك ملاحظة تثير الاهتمام عن حياة الحريم . ألا وهى القمع الدائم لكل شعور خارجى لدى الجوارى عندما يكن فى حضور سيدهن . فهن يمارسن سيطرة على ذواتهن لدرجة أنه يستحيل للحظات أن نقرأ على سماتهن الطبيعية أو فى عيونهن ما يدور فى قلوبهن . وموهبة الإخفاء هذه هى حماية تبررها الظروف فى بعض الحالات . وعندما تصبح الجارية بعيدة عن النظر أو وسط أندادها من الجوارى تخلع الجارية القناع وتتصرف على طبيعتها ووفقًا لمزاجها الشخصى .

والمصريات اللاتى نشأن فى حالات من اللامبالاة يصبحن كسالى ومدلعات . وهدفهن الرئيسى هو إعجاب الزوج. وبصفة عامة يملن بشدة للانحراف. وهن مجبرات على أن يظللن بتولات حتى وقت زواجهن . لأنهن يجب أن يعطين لعائلاتهن ولزوجهن إثباتات غير مرفوضة عن عذريتهن . لذا فهن يصبحن أقل دقة عندما يتزوجن، ولكن بما أنه ليست لديهن أى علاقة مع الرجال ، فمن النادر أن يستطعن تكوين علاقات عاطفية سرية ، وشرف الأزواج هو أكثر ضمانًا فى المشرق عنه فى أوروبا .

* * *



(٢٠)

الخصيان

ينتمى معظم الخصيان أو كلهم تقريبًا للنوبة والسودان ، فلهم وحدهم مع سيد المنزل الحق فى التوغل داخل الحرملك . ويرجع استخدام الخصيان إلى فترة قديمة جدًا . فيقال أن « سميراميس » ملكة آشور هى الأولى التى تخيلت هذا النوع من البتر أو القطع الذى يميز هؤلاء الخصيان غير المحظوظين حراس فضيلة النساء . وتجرى العملية فى العادة فى فصل الخريف ، فينظر إلى هذا الفصل على أنه أكثر مناسبة لهذا النوع من العمليات . وتوجد طريقتان لإجراء العملية ، الأقل خطورة والتى تنجح أكثر هى بكل بساطة القطع (قطع جزء من العضو الذكرى) والخصيان الذين يعاملون هكذا يعدون حالات قليلة ، ويتم استخدامهم فى الخدمات الخارجية ، وفى الحدائق ، وعند أبواب القصور . ولكن منذ حادثة لأحد كبار المسئولين « بشبه الجزيرة العربية » أصبح اليوم القطع الكلى والكامل والمطلق للعضو الذكرى شيئًا إجباريًا لكل خصى مسئول عن المراقبة الداخلية للحرملك . وها هى الدوافع التى أدت إلى اتخاذ هذه الإجراءات شديدة الحرص . فقد لاحظ أحد الشرفاء بين الناس الذين يسيرون خلفه زنجيًا بديعًا، قوامه مثل قوام « هرقل » ، ويدعى « طاهر » ، فجعله فى الحال رئيسًا لحراس الحرملك الخاص به وأمر أن تجرى له العملية فى هذه الساعة ، وكانت خطيرة جدًا بالنسبة لسنه ، ولكنها كانت ضرورية جدًا لكى يشغل المركز المرموق الذى تشرف بالدعوة لشغله . فحدث أن طاهر كان من بين الكائنات غير الطبيعية التى يميزها التاريخ الطبيعى باسم « أحادى الخصية » ، فبعد الكشف عليه أعلن الحلاق الجراح مع مساعديه الاثنين ، أعلن بصراحة أن القطع الجزئى وهو الذى كان مطلوبًا حينئذ كان قد حدث منذ الطفولة . فالتحق « طاهر » فى الحال بوظيفته كرئيس للخصيان . وكان له حق المرور فى كل مكان يريده فى الحرملك ، كما كان عليه الدخول فى الشقق الأكثر

انعزالاً للسيدات . وكانت مهمته هى حراسة الثروة الأكثر ثمنًا لسيده . وكان عليه نتيجة لذلك أن يتأكد فى كل ساعات الليل والنهار من انتظام خدمة أتباعه . وفى يوم ما قدم طفل ناتج من زواج رجل زنجى مع زوجة بيضاء إلى « الشريف » الذى كان أبيضًا تمامًا، وكانت الأم الوالدة شركسية ، فاندهش « الشريف » جدًا وقام بامتحان النبوات ، واستجواب علماء الفلك ، ولما لم يجد شيئًا يعلن عن هذه الظاهرة شك شكًا مرعبًا . فتمت مراقبة رئيس الخصيان ، وضبط وهو يمارس الفعل الفاضح فقطعت رأسه . وكان على الأزواج أن يفكروا جيدًا ويبحثوا عن دواء لهذا العيب الخطير ، ومنذ ذلك الحين تم إقرار القطع الكامل للعضو .

ويمارس الإخصاء (القطع الكامل للعضو الذكرى) بواسطة موس (آلة حادة) ويتم القطع من ضربة واحدة ودون الاهتمام بالشرايين . ثم يسكب بعد ذلك الزيت المغلى على الجرح . ويمد المريض الصغير على منضدة ويمسك مساعدو الحلاق بأعضائه . وتكون آلامه شنيعة . وحتى لا تعرقل وظائف التبول يتم إدخال جزء من نبات برمائى (كالقصب) فى المثانة وهو يبرز بخمسة أو ستة سنتيمترات ، ويوضع على الجرح قماش مغموس بالحنة ، ثم يدفن الشاب الذى قطع عضوه الذكرى حتى نصف جسمه . ويظل هكذا لمدة يومين مع عدم الإمكانية المطلقة لعمل أى حركة . وبعد ذلك لا يخشى من النزيف (نزيف الدم) .

ويتم التعرف على الخصى من سمات وجهه . فهو بلا ذقن ، ويعانى من سمنة زائدة ، وصوته كصوت الأنثى ، وساقاه يمتدان بلا مقياس ، وجزءاه تأخذان نسبًا غير محببة . وتسيطر على وجهه حالة من الغباوة . وهو فخور بنفسه ، ولكن فخره يشوبه الغموض . وهو شرير ، ويخاف من ظله ، وسريع الغضب . وعيوبه هى نتيجة للثقة التى يكنها لانحطاطه . ولا يستطيع أى إحساس نبيل أن يهزم قلبه المملوء بالكراهية . وهو يشعر بأنه منفصل عن الإنسانية بسبب فقده لذكورته أو لعضوه الذكرى ، ويتقزز من الإنسانية أو يكرهها ، ويكره الدموع ، والآلام ، وعقوبات أسياده . هذا هو كل ما يسعد هذه الشخصية الذى قطع منها العضو الذكرى .

ويستطيع الخصيان أن يتطلعوا إلى الوظائف الأكثر أهمية . فقد رأينا من الخصيان من أصبح كولونيلاً أو جنرالاً بالجيش ، أو وزيرًا أو حاكمًا ، ومنهم من صار يمتلك حريمًا .

* * *



(٢١)

الموسيقى والرقص

يتذوق المصريون جيدًا الموسيقى كما تفهم فى المشرق . ولكنهم ينظرون إلى الرجل الجاد الذى يكرس جزءًا من وقته لدراستها على أنه شخصية غير محترمة . ومع ذلك تتغلب عليهم ميولهم الطبيعية تجاه هذا الفن ، وكل الرجال ، والسيدات والأطفال يسرون ويفرحون بالغناء خلال أوقات فراغهم أو أثناء أعمالهم . وبدون موسيقى لا يوجد أى عيد مدنى أو دينى ، عام أو خاص ، ولا نخرج مطلقًا فى شوارع القاهرة ، وخاصة أثناء المساء ، دون أن نسمع الغناء أو اللعب على بعض الآلات الموسيقية .

والمصريون مفطورون على النظام والقياس . فعندما يعمل كثير من الرجال معًا تكون لهم بالفطرة سهولة فى تنظيم حركاتهم بدقة مما يجعلهم ينهون أعمالهم بسرعة . ففى كل الأعمال التى تتطلب كثيرًا من الأذرع وجماعية فى التنفيذ يحصلون على هذا التوافق عن طريق الغناء الموحد . وكثير من المهن لها الموسيقى الخاصة بأغانيها . وتحدث الشعراء القدماء مثل أشيل» «Eschyle» ، و « مارسيل » «Martiel» ، و«أوفيد» «Ovid» عن جمال أغانى النيل ، ودون أن نبعد كثيرًا عن الحقيقة ، وإذا اعتبرنا (لاحظنا) إن العادات فى المشرق تخضع قليلاً للتغيير نستطيع أن نقول إنه يحتمل أن تكون الأصوات التى نسمعها تخرج من فم بحارة نهر النيل هى نفسها التى كانت تصدح على ضفاف النيل منذ آلاف السنين على الأقل بالنسبة للنغمة .

والموسيقى العربية بدائية تمامًا ، وبصفة عامة لا يبدى الأوروبيون أى شعور بالسعادة عند سماعها ، بيد أن خاصية الحزن التى تتميز بها ، وببساطة أناشيدها

يعطيانها فى أغلب الأحيان رقة مقبولة . ولهذه الموسيقى بالنسبة للمصريين سحر غير محدود ، ومن وقت لآخر يقطع صوت « آه » أحد موسيقى الأغانى كعلامة على الإعجاب وليثبت أن السامع قد انتقل إلى ملء النشوة . وأيًا كان رأى الغربيين فى الموسيقى العربية فكلهم يعرفون ما بها من عيوب ، ومن مميزات ، وما تنفرد به فى نداء المؤذن الذى يؤذن ببطء من فوق المئذنة داعيًا إلى الصلاة .

أما الآلاتية الذين يمتهنون الغناء فيشكلون طبقة حقيرة ، ونقابلهم فى بعض القهاوى العربية حيث يغنون بصوت يخرج من أنوفهم أغانى يشغل فيها الحب والصبر كل مقومات الشعر وذلك بطريقة متنيرة . و« الكوبليهات » أو القطع التى تقطع بواسطة جملة موسيقية منفذة بآلات مصنوعة من الحبال وطار (الرق) أو طبلة وطار. وتكرر هذه الكوبليهات خمس أو ست مرات أو أكثر من ذلك حتى يصبح الحاضرون مشبعون جدًا بجمال الكلمات وبأحاسيس النشيد . وتسمى المغنيات عوالم (جمع عالمة) ، وهو اسم يعنى امرأة متعلمة أطلقه الأوروبيون بطريقة عشوائية على كل الراقصات . ومن قبل شكلت العوالم مجتمعًا راقيًا وكانت تتمتع ببعض التقدير ، وكانت الفنانات الحقيقيات بالمشرق . ولكى تصبح أى فتاة عضوة فى جماعتهن يجب أن تتعلم لغتهن ، وأن تعرف كل القواعد ، وأن تكون لها المقدرة على تأليف وغناء الكوبليهات التى تتوافق مع الظروف فى المكان الذى تغنى فيه . وكانت العوالم تحفظ عن ظهر قلب كل الأغانى الجديدة وأشعار الشعراء المشهورين . وكن يغنين فى كل الأعياد وفى كل دعوة للغذاء . وفى بعض الأحيان كن بعدما يغنين أثناء الوجبة ينزلن من على خشبة المسرح حيث كن واقفات وينفذن بعض الرقصات التى لا يعلم عنها الراقصات أو المغنيات الفرنسيات شيئًا . فكانت هذه الرقصات عبارة عن باليهات وبانتوميم (حركات صامتة) كان هؤلاء الراقصات يمثلن بواسطتها أفعالاً من الحياة العامة . كما كانت تلك الراقصات تدعى فى كل الحرملكات وتعلم النساء فيها الموسيقى (النغمات) الجديدة . كما كانت هؤلاء الراقصات تقصصن على حريم الحرملك قصصًا أو ينشدون أمامهن أشعارًا مثيرة لدرجة أن حريم الحرملك يعطينهن قائمة بعاداتهن وأخلاقهن . كما كانت هؤلاء الفتيات

يتحدثن بطريقة جذابة وبطهارة . وجعلتهن عادة إنشاد الشعر يتعودن على التعبيرات الأكثر رقة والأكثر خيالاً . كما كانت أجورهن مرتفعة جدًا ، ولا يذهبن سوى إلى العظماء والأغنياء .

وبناء على ما كانت عليه العوالم فى الماضى يجب أن نقتنع بأنهن قد انحططن اليوم (فى الوقت الحالى) عن وضعهن أو مركزهن القديم ، وهبطن إلى رتبة فتيات الليل العاديات .

وقام عباس باشا الذى أراد الحفاظ على أخلاق أقاليم الدلتا وأخلاق العاصمة بصفة خاصة - قام بنفيهن إلى الصعيد . لذلك فالمغنيات العاديات اللاتى نقابلهن فى قنا، وفى الأقصر ، وخاصة فى إسنا لا يستحققن بالطبع لقب عالمة . فقد اختلط لقب عوالم بلقب غوازى (راقصات) وأصبحنا نرى نفس النساء يغنين ويرقص الواحدة وراء الأخرى أو بجماعة من اثنين أو أربعة . وغناؤهن وحيد النغمة وبطىء ، وبدائى وفريد وغريب عن كل الأفكار الموسيقية الفرنسية ، كما أن لغنائهن سحر لا نهائى ، ونغمته الوحيدة تصنع قدرته واقتداره ، فتلك النغمة تغوص بالنفس على المدى الطويل فى نوع من الإعجاب الحى وتجعلها تحلم أحلامًا عميقة وحزينة .

والآلات الموسيقية التى تصاحب الغناء والرقص هى : الصاجات ، وهى آلة مكونة من قطعتين صغيرتين من المعدن المحفور ، والتى نجعلها ترن عن طريق ضرب أحدها بالأخرى ، والدربوكة ، وهى عبارة عن مخروط من الخزف ينتهى بنوع من الفرو المشدود، والطار ، عبارة عن اسطوانة من القماس ، والعود وله سبعة حبال ، والكمنجة ، والصفارة ، وهى تصنع من عيدان قصب السكر (الناى) ، والربابة ذات حبل واحد من الفرو .

ولدى العدد القليل من العوالم الذى مازال بالقاهرة كثير من التحفظ عن العوالم اللاتى مازلن بصعيد مصر . فهن يقطن الأحياء التى نادرًا ما يرتادها الأجانب . ولا يراهن المسافر سوى صدفة فى إحدى الأمسيات التى ينظمها بعض الأغنياء المصريين . والغوازى نادرات الوجود بالقاهرة كالعوالم ، ونقابلهن فيما بعد أسيوط ، فى

فنا ، ولكنهن فقدن سماتهن الأصلية تحت تأثير الأوروبيين ، وينفذن رقصاتهن بكل الاكسسوارات التى يلزم أن تتبعهن ، غير أنهن يتحفظن فى حركاتهن أثناء وجود السيدات .

والرقص المصرى لا يشبه على الإطلاق الرقص الذى نسمع عنه فى أوروبا ، وهو يتكون من تتابع من الأوضاع ، وتحريك عنيف للعضلات ، وحركات عادية ، ولكل ذلك هدف وحيد ، ألا وهو إثارة الشهوات الحسية . وترتدى الراقصات أو الغوازى بصفة عامة أثوابًا من الحرير ذات ألوان زاهية يختلط فيها الأحمر والأصفر مع الأخضر الفاتح والأزرق السماوى ، والذراعان والقدمان عاريات تزينها حلقات واسعة ، وشريط خفيف من القماش يغطى نصف صدورهن . وعيونهن تشع حيوية يحدد أطرافها الكحل المرسوم على جلدهن الذى فقد بريقه . ويحيط بجبهة كل منهن شريط مزين بقطع من الذهب . وفى شعورهن السوداء التى ترفرف على أكتافهن يبرق عدد كبير من القطع الذهبية الصغيرة التى تمر فى خيط . ويزيد سخاء المشاهدين من استمرار هذه الأنهار الزاهية . والرقصات وجزء من بدلة الرقص هى نفسها التى نشاهدها ممثلة فى رسومات الآثار القديمة ، ولا أحد يشك من أنها قد حفظت عن طريق التقليد .

وعندما تدعى الغوازى أو الراقصات إلى منزل فإنهن لا يظهرن مطلقًا أمام الرجال والنساء مجتمعين . ولدى الرجال يحدث الرقص فى العادة فى المندرة (صالون بالدور الأرضى) ويوضع أوركسترا صغير مكون من آلات موسيقية ذات حبال ، ومن «الطار» ومن « الدربوكة » التى تستخدم فى تنظيم عمل الآلات وتكرار النغمات ، يوضع هذا الأوركسترا الصغير فى ركن ، وتحتل الراقصات جزءًا من الصالون يسمى «دورقة»، ويجلس الحاضرون فى صمت على الأرائك ليتذوقوا رقة المشهد الذى يدور أمامهم . والفنانات اللواتى يكن بصفة عامة سيدات شابات وجميلات يبدأت تمارين الرقص ببعض الحركات البطيئة والمحسوبة والدوران حول الصالة ، ويجعلن أذرعهن تتحرك حركات دائرية بديعة . ويصحب تلك الرقصات « صاجات » (آلة موسيقية من النحاس) تثبت بالإصبع الوسطى والإبهام من كل يد ويلعبن بها بكفاءة عجيبة . ويرد صوت رنين الصاجات على حركات الجذع أو الأرداف غير المنتظمة . وبعد عمل دورتين أو ثلاث

حول أنفسهن بتحريك أجسامهن فى كل الاتجاهات ، ويتخذن الأوضاع الأكثر إثارة ، وتظل الساقان ثابتين ، وكذلك الجزء العلوى من الجسم ما عدا الأذرع التى يقمن بتحريكها وفقًا للمراحل المختلفة من الشعور الراقى أو المثير الذى يحركهن . وهن يهتززن اهتزازًا لا يتوقف يزدن من حدته بطاقة جريئة حماسية أو يبطئن من حدته بسبب التعب ، واكتسبت أجسامهن رقة وليونة لا مثيل لها ، فهن يهتززن مثل الأوراق تحت تأثير انطباع عصبى له معان مختلفة ، ومن المحال أن نتخيل « بانتوميا » (حركات صامتة) أكثر حيوية وأكثر واقعية ، والمواقف الأكثر إغراء والأكثر خبرة أو التى تعتمد على التدريب ، والدوران العنيف للعضلات يعبر بتحفظ عن كل المشاعر الطبيعية ، ورعشة الجذوع أو الأرداف ، والانحناء والوقوف بسرعة لا يمكن تخيلها ، فكل ذلك يعد نوعًا من الحركات العنيفة المحببة التى لا توصف . والتى وصف بها « مارسيال » «Martial» رقصة بنات « جادش » «Gades» .

وتوجد أنواع كثيرة من الرقصات التى تتشابه تقريبًا فى أساسها ، وكل هذه الرقصات يتم تنفيذها بكفاءة ، وخفة وحمية غير عادية . وواحدة من تلك الرقصات التى يتذوقها الهواة هى رقصة النحلة فيتظاهر الغوازى بأن نحلة قد قرصتهن فيقمن بالبحث عنها تحت بدلتهن (بدلة الرقص) ويطلقن صرخات هامسة (صوتها منخفض) لكى يتم القبض على الحشرة الخيالية . وبدون أن يوقفن الرقص يرفعن بحركة سريعة أول قطعة من ملابسهن ويقذفن بها على السجادة ، ثم يتعرين من قطعة أخرى وهن ينادين : نحلة ، نحلة . بحركات تعبر رويدًا رويدًا عن الخوف من أن يكن قد قرصن من النحلة وعن الأمل فى مشاهدة العدو (النحلة) وهى تبتعد عن المكان . وبعد البحث غير المثمر عن النحلة الخيالية لا يبق فوق أجسادهن سوى قطعة خفيفة من القماش يجعلنها تتطاير وفقًا لحركاتهن . رويدًا رويدًا يصبح الرقص أكثر حيوية ، وتمتلئ الوجوه بالحيوية وبحركة لاإرادية تقع القطعة الأخيرة من البدلة (بدلة الرقص) وتلتحق بالقطع الأخرى . حينئذ تقترب الراقصات من بعضها بعضًا ثم ينسحبن ويتلاقين ثم يتلاصقن لإثارة حروب الحب ، ثم يخضعن لمشاعرهن ويقفن فى أوضاع مثيرة جدًا . وقدُّ كل منهن مياس مثل النباتات البحرية ، ويدرن عدة مرات حول أنفسهن ثم يعدن ويقفن فى واجهة بعضهن البعض بلا حركة ، والجسم مائل للخلف والأذرع ممدودة ،

وأياديهن مرتعشة ، وشعورهن تتطاير بخفة ، ويسلمن أنفسهن بلا تحفظ للانطباعات التى تحدثها بهم الشدة اللامتناهية للألم ، وفى هذه اللحظة تصبح الموسيقى أكثر رقة وهدوءًا ، ولا نسمع سوى صوت تنفس وتنهدات الممثلات وصوت القطع الذهبية المزروعة فى شعورهن . وعندما يدركن فجأة الحالة التى هن عليها يقمن بجمع أقمشتهن من على الأرض بحركة مؤدبة ثم يقمن بلف الأقمشة حول أجسامهن ثم تتوقف الرقصة للحظة تدور أثناءها الأكواب الصغيرة الممتلئة بالعرقى . ثم تأتى الغوازى اللاتى يتمتعن بطبع رقيق - يأتين ليبدأن فى الحديث بطلاقة مع المدعووين اللاتى يرغبن فى الحصول على حمايتهم ورعايتهم أو يثرن سخاءهم . ويستمر الرقص بعد ذلك بحيوية جديدة . فيتم رفع الإيشارب الشفاف الموجود على أردافهن فيطير فى فراغ المنزل ، وتصبح الأوضاع أكثر إغراء ، وهن يشبهن السكارى القديمات اللاتى كن يحتفلن بأعياد المشترى (كوكب المشترى) . وبعد زمن محدد من هذا التمرين يجمعن رويدًا رويدًا ملابسهن دون أن يوقفن الرقص .

وعند انتهاء العرض تأتى الفنانات ليجلسن بلا تكلف بجانب المشاهدين أو على ركب الذين يتأثرن بمعاكستهن . ويجب على الرجال الذين أصبحوا أداة لهذا التمييز ، وفقًا لقواعد الناس الراقين ، أن يبلوا بعض القطع الذهبية الصغيرة ثم يضعونها برقة على جبهات الراقصات اللاتى اختاروهم أو على رقبتهن أو على أذرعهن .

وفى بعض الأحيان لإكساب العرض مزيدًا من الجاذبية ، تعرض أثناء الاستراحات بعض الرقصات من النوع الآتى : فمثلاً تقوم إحدى فتيات النوبة المشهورة بحكمتها وقدرتها على تنفيذ رقصة « السيفة » ، وهى رقصة ذات خاصية عظيمة تتطلب كثيرًا من الخفة وكذلك كثيرًا من الليونة لأن حركات القدمين والأذرع والجسم كله يجب أن تتوافق ، وأن يصاحب بعضها بعضًا بمعنى آخر . وأن تتجانس بلا مجهود ، وبلا تشنج ، وعن طريق فن يميل إلى عدم التكلف . فتارة يدور السيف بكثرة فوق رأس الراقصة مع ومضات سريعة للضوء ، وتارة تنزل الراقصة السيف وتمسك به مثبتًا بالقرب من الأرض كما لو كانت ستضرب عدوًا منطرحًا على الأرض . وتقرع « الدرابوكة » و«الطار» باستمرار ، وتنتهى الحرب بنفس طريقة رقصة النحل .

وهناك نوع آخر من الباليهات الأصيلة ويسمى « زار السودانية » ويتم تنفيذه بواسطة « غوازى » السودان . فيتم اختيار سبع أو ثمانى فتيات وجوههن سوداء تماماً من بين عرق خاص ذو أنف منتصبة (منصوبة) ، وشفاه رفيعة ، ويتميزن بالوجه البيضاوى الخالى من التجاعيد مثل أوجه الباريسيات الجميلات، ويشكل هؤلاء الفتيات دائرة ويرقصن بالصوت الواحدة تلو الأخرى بدون طبلة ولا صاجات . واللواتى ليس عليهن الدور يوقفن نغمات الموسيقى . وهن لا يرتدين أى ملابس فيما عدا حزام ضيق يسمى « رآت » . وعندما يزيد الرقص وينتعش يزيد الغناء ويتحول إلى زئير . وفى أثناء ذلك تقف الراقصة وحيدة وسط رفيقاتها مثل تمثال من الخشب الأسود يبدو غاطساً فى نشوة عميقة . ورأسه مقلوبة إلى الخلف ، والصدر منتصب ، والأذرع مشدودة ، ويبدو أنها تقوم بحرب داخلية ، ويحاربن قوى لا تهزم تقودها حيث لا تشاء الذهاب . ثم ينتفخ صدرها فجأة وكل جسمها يهتز برعشات عصبية ، ثم تتقدم بخطوات قصيرة ، ولكن بانتظام كما لو كانت مدفوعة على الرغم منها ، تجاه أحد المشاهدين الذى اختارته أو الذى تم اختياره . وبحركة أخيرة تأتى الراقصة الأفريقية أمامه أخيراً ، فتقف وهى تهتز بحركات عنيفة ثم تقع ، ويستقبلها بين ذراعيه بشرط أن يكون مؤدباً . وهذه الكوميديا واضحة جداً ، وشديدة الشفافية لكى تفهم ، حتى من خلال القراءة بدون حاجة إلى معلق . وعندما تنتهى رقصة أو مسرحية راقصة تبدأ الرقصة الأخرى . وتكرر بطريقة ثابتة كل الأوضاع والحركات وكل الدرجات ، وكل مفاجآت هذه المسرحية الراقصة التى تمثل بكل بساطة وتلقائية ، ويتبعها دائماً نفس الفشل . وكل ذلك يبدو وكأنه قد طبع مقدماً كبرنامج لا يسمح بالابتعاد عنه .

والراقصات المشهورات بالحكمة هن هؤلاء اللاتى يضعن المزيد من الحقيقة على الوهم ، ويمثلن على طبيعتهن مع الوفاء والأمانة الأكثر إثارة ، ويرفعن الخيال حتى الواقع . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك دون أن نكشف أخطاء الآخرين . إن الواقع يتبع الخيال فى أغلب الأحيان .





(٢٢)

تاريخ القاهرة

وعندما غزا الفرس تحت قيادة قمبيز مصر (عام ٥٢٧ قبل ميلاد المسيح) ، قام الجنود البابليون ببناء نوع من المعسكرات الحصينة المحاطة بالأسوار القوية على الضفة الغربية للنيل إلى الشمال من « ممفيس » ، وأعطوا لهذا المعسكر اسم وطنهم . وفيما بعد أثناء السيطرة الرومانية كانت بابل الجديدة قد أصبحت قلعة محمية بأبراج عالية سميكة ، وتعد حيًا عامًا لأحد المحميات الثلاث التى تحتل مصر .

وفى عام ٦٣٨ بعد الميلاد سقطت بابل تحت سيطرة العرب بقيادة عمرو ابن العاص، وبعد ذلك بعامين ألقى الجنرال المسلم أسفل أسوار الحصن نفسه بأساسات مدينة أعطاها اسم « الفسطاط » التى أصبحت مقر الحكومة ومحل إقامة القادة العسكريين الذين يمثلون السلطة العليا للخلفاء. وكبرت مدينة الفسطاط بسرعة.

وامتد أحد ضواحيها الذى يسكنه العسكر بصفة خاصة . والذى سمى لهذا السبب « العسكر » - امتد إلى الشمال الشرقى ، وكان يشبه مدينة صغيرة تحدوها هضبة ذات ارتفاع منخفض سميت جبل «يهقار» «Yechkar» . وفوق هذه الهضبة بنى فيما بعد جامع « طولون » . ومؤسس هذا الجامع هو « أحمد بن طولون » وكانت مصر مستقلة أثناء حكمه (ولايته) وأثناء حكم الخليفة العباسى « المعتمد بن المتوكل » (٨٧٠ حتى ٨٩٣ بعد الميلاد) ووسع الحاكم « أحمد بن طولون » حدود الفسطاط من جهة المشرق لمساحات شاسعة ، وأنشأ حيًا جديدًا كان بمثابة مدينة ثالثة بجانب مدينتى الفسطاط والعسكر ، وسميت هذه المدينة القطائع Qataiah أو « الملكية » « القطائع » جمع « قطيعة » .

وفى عام ٩٦٩ بعد الميلاد استولى جوهر القائد العسكرى للخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » استولى على مدينة الفسطاط وبنى مدينة جديدة . كما أبدع مدنًا جديدة وحرص على تجميلها بالقصور البديعة الفخمة التى كانت حينئذ بالمشرق صيحة عامة جديدة . وترك الحكام ونوابهم المدن الموجودة فى ذلك الحين تنهار وتصبح صحراء جرداء ، ولكن بالقرب من المدينة المتروكة ومن أطلالها . كان هؤلاء الحكام يبنون فى أغلب الأحيان مدنًا جديدة يعطونها أسماءهم أو أسماء رمزية على هيئة صور أو تماثيل مسبوكة . وعندما كانت هذه المدن تنهار أو تتحول إلى أطلال بدورها . كانت تستخدم موادها لبناء مدينة جديدة . وفى مصر غيرت العواصم مكانها وفقًا للظروف ، وهكذا حلت « طيبة » محل « ممفيس » أو منف وأصبحت بدورها عاصمة للبلاد ، وفيما بعد أصبحت الإسكندرية عاصمة للبلاد ، وأقام الغزو (الفتح) الإسلامى « الفسطاط » عاصمة للبلاد بدلاً من الإسكندرية وفقدت الفسطاط (مدينة عمرو) كل أهميتها بجانب المدن العسكرية « العسكر والقطائع » اللذين غزاهما الغازى الجديد لمصر الذى أراد بدوره أن يحفظ للقرون التى تليه ذكرى غزوته عن طريق تأسيس عاصمة للخلافة الفاطمية تنافس « بغداد » عاصمة الخلافة العباسية .

وفى عام ٩٧٠ بعد الميلاد (أو ٣٥٩ من الهجرة) تم تخطيط المدينة الجديدة ، وكان يجب أن تبدأ حصونها من الأسوار القديمة لمدينة الفسطاط فى مواجهة جزيرة «روضة» ، ثم تصعد المدينة نحو الشمال مبتعدة عن النهر ، ثم تدور فجأة فى اتجاه الغرب ، لتصل إلى الجنوب حتى أسفل جبل المقطم ، وتتلاقى كذلك مع النيل ، لاتحيط هكذا بحقل واسع يحده من الجنوب مدينة الفسطاط وأحياؤها «القطائع» و «العسكر». ووفقًا للعادة يجب حفر الحفر التى تستخدم لوضع أساسات الأسوار الخارجية قبل بداية أى بناء آخر . والزمن المعين لافتتاح (أو بداية) الأعمال يجب أن يحدده علماء الفلك ويجب أن يتفق بناء على أوامر الخليفة مع زمن صعود كوكب « المريخ » والاسم العربى « القاهر » يعنى « المنتصر » .. وسميت المدينة الجديدة لهذا السبب « مصر القاهرة » (العاصمة المنتصرة) . واسم مصر مشتق من مصرايم ابن سام بن نوح .

ويجب أن نلاحظ أنه فى المشرق الاسم الذى يطلق على البلد يطلق كذلك على مدينته الرئيسية . وهكذا فاسم مصر يعد مشتركًا بين البلد وعاصمته . وتم اختصار هذا الاسم من كثرة الاستخدام إلى « القاهرة » ، وهو الاسم الذى احتفظت به حتى أيامنا هذه (وقت كتابة هذا الكتاب) ، وذلك ليس كما يقول الكتاب الشرقيون كشاهد على الانتصار الذى حدث آنذاك بواسطة الفاطميين ، ولكن كنبوءة عن الانتصارات التى ستمنحها السماء فيما بعد للفاطميين على أعدائهم .

وكان الاحتفال بتأسيس القاهرة علامة غير طبيعية ، وأمضى علماء الفلك الموجودون فوق مرتفعات « يايكر » ، وفوق جبل المقطم أمضو لياليهم فى ملاحظة وتجسس أعماق السماء باهتمام كبير حتى لا يتأخروا فى الإعلان عن ظهور الكوكب الذى يجب أن يكون له تأثير كبير على مصير العاصمة التى سميت باسمه . وكانت مواقع علماء الفلك مرتبطة فيما بينها بالمراسلات التى تنقل إلى العلماء انطباعاتهم الخاصة ، وحسابات كل منهم حتى لا يتعرضوا لأقل خطأ ، وأخيرًا كان هناك منادون شعبيون يعلنون للشعب أن اللحظة العظمى أو السامية تقترب ، وكان العمال مستعدين ، وزينت الحبال بأجراس ، وكانت تلك الحبال تحيط بتخطيط المدينة لتحذر جميع العمال فى آن واحد . وعند إعطاء الإشارة تتحرك آلاف الأذرع ، وأطلق جمهور كبير صيحات السعادة ، ووجه رؤساء الدين المجتمعين أمام باب جامع « طولون » وجهوا أو أقاموا صلوات الله ، وعبروا عن أمانيهم من أجل رفاهية المدينة الجديدة .

ووفقًا لما رواه بعض المؤرخين العرب فلقد أعطيت إشارة بدء الأعمال بطريقة غير عادية ، ففى أثناء قيام علماء الفلك بالتشاور حول مسألة ذات أهمية كبرى دون شك بخصوص كوكب المريخ جاءت الطيور الجارحة أو المفترسة (النسر - الصقر - الحدأة) ووقفت على الحبال وجعلت الأجراس ترن . وبدأ العمال فى العمل فى الحال دون أن يهتموا عما إذا كان هذا التحذير قد حدث بالصدفة ، أو أنه حدث كنتيجة لحسابات فلكية .

وأثناء العمل بحماس لا يكل فى بناء الحصون قام جوهر بتشييد قصر للخليفة المعز ، وقصر آخر لوزيره فى الجزء الشمالى من المدينة . والحى الذى شيدت فيه هذه الآثار مازال يسمى حتى اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) « القصرين » . وفى زمن قليل صارت العاصمة الجديدة مزينة بمبانٍ فخمة وعظيمة . وحول هذه المبانى قام ضباط الجيش الرئيسيون ببناء المساكن الفخمة البديعة ومعها الحدائق الغناء الجميلة . ولقبت القاهرة بمصر ذلك اللقب الذى كانت تحملة الفسطاط حينذاك . غير أنه تم الاستمرار فى إعطاء هذا الاسم (مصر) لمدينة « عمرو بن العاص » احترامًا لهذه المدينة . وأضيف إلى هذا الاسم العتيقة أو القديمة ، والآن كذلك « مصر العتيقة » وهو الاسم الذى ترجم ترجمة خاطئة فى روايات بعض المسافرين أو السياح باسم القاهرة العتيقة أو القديمة ، وهذا الاسم الأخير لم يطلق مطلقًا على الفسطاط .

يرى السيد « بريس دافنن » «Prisse d'Avennes» فى مدينة القاهرة أصلاً أعمق كثيرًا لم يحلم أحد بأن يحدد بدقة المراحل التى كانت بطيئة ومتطورة . وهو يقول « إن سكان البلد الأصليين يحبون أن ينسب إليهم تأسيس عاصمتهم » . كما أنه يضيف « إن الأقباط التعساء لا يشعرون بالحماس أو بوسائل مناقشة مسئوليتهم عن تأسيس المدينة التى أصبحت عاصمة مصر الإسلامية . لهذا لا يبدو أن أحدًا استطاع أن يلاحظ أن الموقع الجيد لهذه العاصمة لا يمكن أن يختفى عن كل الأسرات التى حكمت مصر على التوالى ، عن الفراعنة ، وعن البطالمة وعن القياصرة . ومع ذلك فبسبب الميزة الثلاثية لهذا الموقع ، فهو عند مدخل الصحراء العربية ، وعند بداية الدلتا ، وعند طرف الوادى الطويل الخصب الذى يعبر مصر من الجنوب إلى الشمال . فكان هذا الموقع يجب أن يبدو فى زمن الرومان أكثر أهمية من المفيس » (منف) .

وفى وصف لمصر « كتاب الخطط » يذكر المقريزى على فترات كثيرة أن المنشآت المسيحية ، والكنائس اليعقوبية أو النسطورية والأديرة قد تحطمت أثناء حكم الخلفاء سلاطين المماليك ، ولكى يعطى موقعه أو مواده إلى المبانى الأخرى بالقاهرة . ولكن إذا توغلنا بطريقة عميقة فى الأشياء ، وفى أصول أسماء الأحياء ، والميادين والشوارع فسوف نرى كثيرًا من الأسماء القبطية التى تبدو بدون أى معنى ، والتى لا تعنى شيئًا

باللغة العربية . وهكذا فاسم ميدان الأزبكية على سبيل المثال مشتق كما يقول الكتاب المصريون من اسم « أمير » بنى فيه جامعًا وقصرًا . ولكن يجب أن يقال العكس ، فالاسم المميز للأمير مشتق من هذا الموقع الذى بنى فيه جامع ومسكن لأن كلمة «أزبكى» تعنى باللغة القبطية « المدينة القديمة » فى مواجهة المدينة العربية التى تم بناؤها . وكلمة « الخرنفش » الاسم الحالى لأحد أحياء المدينة والذى ليس له أى ترجمة باللغة العربية يعنى باللغة القبطية «حى الانفصال » وبالمثل كلمة « مارجوش » تعنى «مكان الحراسة والملاحظة» . وحتى اسم المدينة الذى يدعى العرب أنهم أخذوه من اسم كوكب المريخ (القاهرة) هو ببساطة شديدة الاسم القبطى لإقليم قاهرة « أرض الشمس » .

وتم بناء مدينة القاهرة بالكامل تقريبًا بعد ثلاث سنوات من وضع أساسها . وفى عام ٩٧٢ بعد الميلاد (٣٦٢ من الهجرة) ترك الخليفة المعز الدول المتخلفة ليجىء إلى مصر ويتمتع بغزوته وبالعاصمة الجديدة التى أعدها له قائد جيشه . وأعطى حضور الخليفة نشاطًا وحماسًا كبيرين للأعمال . فتضاعفت أعمال البناء بسرعة ، وتم استغلال مناجم جبل المقطم من جديد ، وتم استقدام المعادن النفيسة من العاصمة القديمة ممفيس ، وتم استخدام جزء من هذه المعادن فى تشييد جامع مشهور أعطاه مؤسسه « جوهر الصقلى » اسم « جامع الأزهر » .

وتحت حكم أو ولاية «الحاكم» (٩٩٦ حتى ١٠٢١ بعد الميلاد) تم حرق نصف مدينة القاهرة بأمر من الخليفة فى لحظة جنون . وفى عام ١٠٦٧ بعد الميلاد كانت العاصمة مسرحًا لحرب مدنية أثارها « ناصر الدولة » أحد جنرالات « المستنصر ابن زاهر » وجعل كل من الخراب الذى تبع هذه الاضطرابات وفيضان النيل الضعيف (القليل) فى هذا العام جعل القمح نادرًا لدرجة أن ثمن الإردب صار مائة دينار (١٥٠٠ فرنك فرنسى) . كما كانت البيضة تباع بالمزاد بدينار ، والقط يباع بثلاثة دينارات ، وبعد قليل أصبح امتلاك أقل شىء ممكن من الغذاء من المحال . ودامت المجاعة سبع سنوات. ولكن عام ١٠٧٠ بعد الميلاد كان العام الذى تم الشعور فيه بالوطأة الشديدة للمجاعة .

والتفاصيل التى يسردها لنا المؤرخون العرب ترجف الأبدان حقيقة ، فالسكان كانوا يأكلون بعضهم بعضًا . وكان يتم خطف الأطفال والنساء وحتى الرجال السائرين فى الشوارع . وتم قلب الوزير من على بغلته (دابته) عند عودته لقصره ، والتهمت دابته بنهم أمام عينيه . وشوهد الخليفة نفسه وهو مجبر على بيع بعض جواهره الثمينة بسعر بخس بسبب وطأة الجوع ، وهذه الجواهر كانت قد اختفت عن أعين الانقلابيين الجوعى . وحتى ملابس النساء كانت تباع ليأكلن بثمنها ، وكانت النساء تخرجن من القصر عاريات تقريبًا ليذهبن خارج المدينة حيث يسقطن موتى من الجوع ... والوباء ، رفيق الجوع الذى لا ينفصل عنه أكمل خراب القاهرة .

وبنى صلاح الدين (١١٧١ حتى ١١٩٣ بعد الميلاد) القلعة على أحد منحدرات جبل المقطم وقام بتوسيع المدينة خاصة من ناحية الشمال وأحاطها بأسوار قوية وحصينة ، وكثير من أبواب الحصون الأولى كانت موجودة آنذاك داخل المدينة نفسها . أما المواد الضرورية لتنفيذ هذه الأعمال فكان يتم تدبيرها بوفرة عن طريق هدم الأهرامات الصغيرة ، ومنذ فترة طويلة كانت الآثار الفرعونية القديمة تستخدم كأماكن يبنى عندها الخلفاء ، ومنذ عام ١١٧٦ حتى عام ١٨٦٧ لم يطرأ على القاهرة أى توسيع سوى امتداد حى الحسينية . وبعد قرنين من الزمان وصل إلى حدوده الحالية . وقديمًا كان ينظر للجزء الذى يقع خارج « باب النصر » على أنه أحد ضواحى المدينة . وبالمثل الموقع الذى يوجد بين « باب الزويلة » والقلعة والمساكن الباقية حتى الآن من مدينة «القطائع» القديمة لأحمد بن طولون التى كانت تمتد من جهة مدافن الإمام الشافعى . ومن القاهرة حتى النيل ارتفع عدد كبير من الأبنية المحاطة بالحدائق الواسعة التى يغمرها الفيضان كل عام .

وفى عام ١٢٦٢ ميلادية (أو ٦٦٠ من الهجرة) جاء من بقى من عائلة العباسيين الذين نجوا من نير أو حديد التتار أثناء اضطراب عاصمتهم بغداد - جاءوا إلى القاهرة ليلجأوا لبلاط « بيبرس » السلطان المملوكى آنذاك . ومن بين هؤلاء الهاربين كان ابن الخليفة « الزاهر بعمر الله » الذى كرمه « بيبرس » كثيرًا ، وجعله خليفة تحت اسم

المستنصر بالله . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الفرع الثانى للخليفة العباسى مقيمًا بالقاهرة ، ولكن كل سلطان وقتى يفقد من ذلك الحين ، ولم يعد هذا الفرع سوى جماعة روحية مكرمة تمارس سلطتها فى الظلام لمدة حوالى ثلاثة قرون تحت حماية سلاطين مصر . وجمل بيبرس القاهرة بكثير من الآثار البارزة . وقام بإصلاحات هامة لجامع الأزهر الكبير ، وبنى مدارس مختلفة مع مكتبات عامة . وفى عام ١٢٦٢ حدثت مجاعة مخيفة أدت إلى خراب البلاد ، وخاصة شعب القاهرة . وكانت المجاعة شديدة جدًا لدرجة أن الفقراء كانوا يجوبون الشوارع ويتضرعون لله طلبًا للرحمة . وبعد ذلك بعشرين عامًا قام جنود المماليك باجتياح العاصمة وضربوا مواطنيها بالسيف بأمر من السلطان « المنصور قلاوون » لأنهم رفضوا إطاعة أحد أوامره مما سبب له غضبًا زائدًا عن الحد . وتم قتل المذنب مع البرئ فى حركة اغتيالات دموية . ودامت المذبحة ثلاثة أيام . وامتلأت الشوارع بجثث الرجال والنساء والأطفال . وللتكفير عن هذا العمل البربرى قام السلطان ببناء مستشفى « المورستان » فيما بعد . وتحت حكم «الملك الناصر» ابن السلطان قلاوون وخليفته أقيم الكثير من الآثار فوق كل بقاع المدينة ، وكانت هذه الفترة غنية بالأبنية والإنشاءات من كل نوع ، ولم يكن لهذه الفترة مثيل من قبل . وازدهرت العلوم والفنون تحت حكم أسر المماليك ، ولم يكن هذا الازدهار عند العامة من الشعب هذا حقيقة ، ولكن كان على أشده عند الطبقة المثقفة . وانتشرت الأبنية الفخمة التى نستطيع أن نذكر من بينها جوامع السلطان « برقوق » و « قايتباى » وعدد كبير آخر نلاحظه عند مدافن شرق القاهرة ، وتعد هذه نماذج من الفن الأنيق ، وتظهر لنا حتى اليوم أن فن الديكور (التجميل) قد وصل حينئذ إلى أعلى نقطة له من الإبداع والجلال والكمال .

ولم يكن حكم السلاطين المماليك سوى فترات متتابعة ، (لا تتوقف) من الثورات، والنهب والسرقات ، والاغتيالات . وكان معظم هؤلاء الأمراء أو السلاطين يسكنون القلعة بسبب أمنهم الشخصى . وتحت حكم « الملك الناصر » الذى تم خلعه مرتين ثم أعيد إلى عرشه مرتين أغلقت الكنائس ، وكان المسيحيون مضطهدين بشدة لدرجة أن

الكثيـر منهم اعتنق الدين الإسـلامى . وفى عـام ١٣٨٩ بعـد الميـلاد تم القـبض على «برقـوق» بعـد الانقـلاب عليـه ، وتم إرسـاله إلى حـصن « الكرك » الذى أصبح المنفى العادى لرؤوساء مصر . وأثناء حكم المماليك سادت الفوضى الكاسحة للقاهرة ، وكسر المجرمون أبواب السجون وصاروا قادة للشعب ، نهبوا قصور الأمراء والمنازل الخاصة . وبعد أن انخفضت حدة هذه الاضطرابات استولى المماليك المؤيدون « لبرقوق » استولوا على القلعة وأجلسوا السلطان برقوق على العرش .

وحتى الغزو العثمانى صارت مصر ، أو بالأحرى القاهرة على وتيرة واحدة من الثورات والانقلابات . وكان الأمراء المماليك يستفيدون كثيرًا من تأديب مليشياتهم حتى يعاقبوهم بقدر أكبر مما يستحقون من الشدة . وكذلك لا يجب الاعتماد على إخلاص الجنود الذين يقودهم رؤساؤهم الممتلئون من الطموح وفقًا لرغباتهم . فمجرد مشادة بسيطة بين الجنود والتجار أو بين الجنود والموظفين تتحول فى أغلب الأحيان إلى انتفاضة شعبية دموية نتيجتها النهب والحرق فى بعض الأحيان . وإذا نتج عن الانقلاب انقسام فى الأحزاب فلن توجد حينئذ حدود للفوضى والاضطراب ، ولا شىء يمكن أن يوقف غضب المنتصرين الذين تعميهم غريزة الانتقام فينقادون بلا ضوابط للقتل والتمثيل بالجثث والتشنيع وإلى التجاوزات الأكثر إثارة للاشمئزاز .

وفى ١٥١٧ بعد الميلاد استولى السلطان سليم الأول على مصر ، واندلعت الحرب القاطعة عند حدود القاهرة يوم الجمعة ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هجرية الموافق ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ ميلادية ، وسُحق الجيش المصرى تحت العدد الكثير من الأعداء. وأعاد طومان باى الثانى الذى كان يملك حينئذ إلى القاهرة البقية المهزومة من قواته واشترى مساندة العديد من القبائل العربية بثمن غال ، وجاء بشجاعة الأمل المفقود ليهاجم السلطان المنتصر الذى كان قد أقام معسكره فى جزيرة « روضة » على أبواب العاصمة. ولكنه خسر وتراجع أمام جنود السلطان سليم فعاد مرة ثانية إلى القاهرة ، وأغلق جميع المنافذ وأقام المتاريس فى الشوارع . ولكن استولى السلطان سليم الأول على المدينة على الرغم من الدفاع القوى « لطومان باى » وللمماليك الذين ظلوا أوفياء له . فقد قاوموا

من قدم إلى قدم آخر ، ومن سطح إلى سطح آخر ، ومن متراس إلى آخر ، كل شارع كانت له معركته ، وكل منزل كان له حصاره . وامتلأت الأرض بجثث العثمانيين ، ولكن ردود الأفعال كانت مخيفة ، وسلمت المدينة إلى أبشع أنواع النهب واحترقت . وتم الاستيلاء على القلعة بهجوم مباغت ، وتم اغتيال جميع أفراد حاميتها .

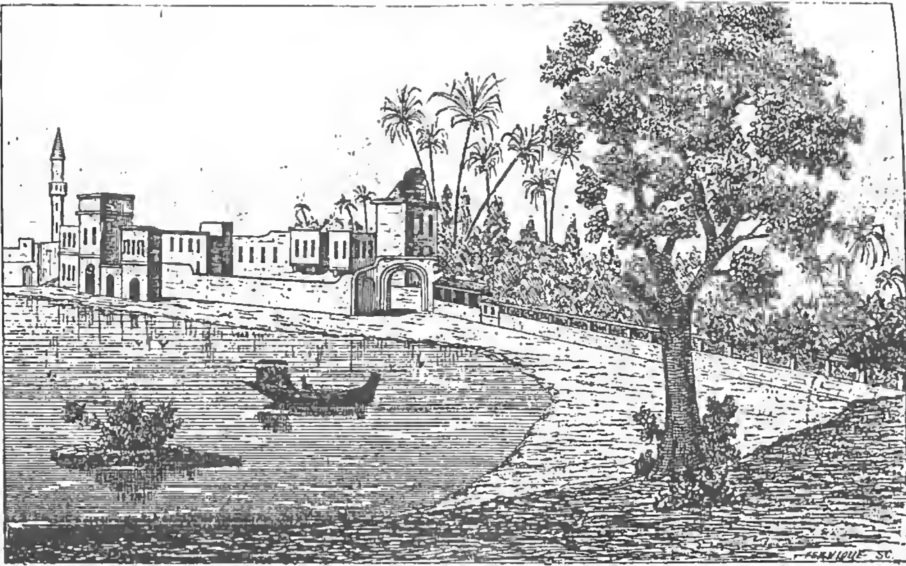
ونجح سلطان مصر الحزين فى الهرب من المذبحة ، واستطاع الوصول إلى شاطئ النيل ، وألقى بنفسه فى مركب صغير وعبر النهر . وقبض عليه العرب الطوافون وباعوه للعثمانيين . وقاد سليم أمامه الملك المهزوم ، ويبدو أنه تأثر للحالة المؤسفة التى قاده إليها الانتقام ، وكان يمكن الاعتقاد بأنه على الأقل سوف يحفظ حياة الرئيس أو الملك المخلوع . ولكن بعد أن رفع عنه السلاسل التى كان مقيداً بها تحاور السلطان سليم لمدة عدة أيام متصلة مع الأمير أو الرئيس الذى وضعه الانتصار تحت سلطته ، وسأله عن الأعمال والمشاريع وعن ثروات مصر ، وعن التفاصيل الخاصة بإدارة البلاد ، وأمضى عشرة أيام طوال فى هذه المحادثات البناءة . وأخيراً بعد المؤتمر الأخير أو الجلسة الأخيرة ، وبعد أن حصل السلطان سليم على كل المعلومات التى يريدها من الملك المسجون ، أمر ببرود أن يعدم .. وتم تنفيذ هذا الحكم البربرى فى الحال . وتم شنق السلطان التعيس طومان باى الثانى تحت قوس الباب المسمى « بباب زويلة » . وظلت جثته معروضة لنظرات الشعب لمدة ثمانية أيام كاملة فى مكان العقاب كشهادة بطريقة غير قابلة للجدل على أن مصر أصبحت منذ ذلك الحين أمة لسيد أجنبى .

وعاد السلطان سليم إلى الآستانة (اسطمبول حالياً) وأحضر معه كما قال المؤرخ « محمد بن عبى سرور » ألف جمل محملة بالذهب والفضة دون حساب باقى الغنيمة التى يعد من بينها أغلى الأعمدة الرخامية التى اقتلعت من قصر «صلاح الدين الأيوبى» بالقلعة . وابتداءً من سليم الأول صارت مصر تحت السيادة المباشرة لتركيا ، وهبطت مصر إلى صف العواصم البسيطة بالإقليم التى يحكمها باشا تركى ، تتضاءل سلطته رويداً رويداً لتعطى مكاناً للتأثير المتزايد دائماً للحزب المملوكى . وفى ١٥٩٨ أصابت مجاعة البلاد (مصر) . وكان عدد الوفيات كبيراً لدرجة أن الحاكم « على باشا » منع

دفن الجثث علنًا حتى يزيد من حالة الفزع العامة . وبعد ذلك بعشرين عامًا أدى وباء عنيف إلى موت أكثر من ستمائة ألف ضحية . وفى ١٦٤٢ عاث نفس الوباء فسادًا بشدة أكثر لدرجة أنه ضرب فى القاهرة وفى ضواحيها أكثر من تسعمائة ألف مواطن لقوا حتفهم . وهذا الرقم غير العادى والمبالغ فيه بالطبع نقله المؤرخ « ابن أبى سرور » الذى جعل من ذاته شاهدًا عيانًا .

وفى زمن الحملة الفرنسية (١٧٩٨) كان للباشا التركى منذ زمن طويل سلطة وهمية ، وكانت القاهرة تعانى بصبر تحت الإدارة الطاغية للبهوات المماليك الذين أصبحوا الأسياد الحقيقيين للبلاد . وفتحت معركة الأهرامات أبواب العاصمة أمام «بونابرت» ، ويوم ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ميلادية الموافق ١٠ صفر سنة ١٢١٣ هجرية . دخل الفرنسيون رسميًا فى المدينة القديمة للخلفاء . واندلعت انتفاضة يوم ٢١ أكتوبر التالى (الموافق ٢٨ جمادى الأولى) وانتفض شعب مصر ضد الحامية الضعيفة التى كان الفرنسيون قد تركوها لتشرف على النظام العام . فمنذ عدة أيام كانت الجوامع تبشر بالكلمات المتعصبة . وكان رسل مراد بيه وإبراهيم بيه يجوبون الشوارع ، ويعلنون الحرب المقدسة ضد الخونة . وكان بونابرت فى جزيرة روضة عندما أعلم بأن الاضطرابات تهز المدينة . وبناء على أمره أقام الجنرال « دومارتان » على الهضاب التى تطل على القاهرة من ناحية « جبل المقطم » بطارية مدفعية كان لها تفسير مباشر على النظام ، ويوم ٢٣ أكتوبر استتب النظام استتبابًا تامًا . ويوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ تم اغتيال « كليبر » فى حدائق فندق الحكومة (قصر الفى بيه القديم) ، بواسطة شخص سورى متعصب يسمى « سليمان » (وفى الصورة المقابلة « قصر ألفى بيه » والحديقة حيث اغتيل كليبر) .

وبعد رحيل الفرنسيين (١٨٠١م) سقطت القاهرة من جديد تحت سلطة مضطهديها القدماء . وأباد « محمد على » الذى تم تعيينه من قبل « الباب » (الآستانة (اسطنبول حاليًا) باشا لمصر (١٨٠٥م) أباد المماليك المجتمعين فى القلعة بمناسبة عيد (أول مارس ١٨١١م) ومنذ محمد على ، وبفضل التأثير الأوروبى ، وبسبب حكومة



قصر الألفى بيه والحديقة التى اغتيل فيها كليبر

السلام سارت القاهرة بسرعة فى طريق التقدم . وتم تنفيذ أعمال هامة للمنفعة العامة. وتم تشييد مدينة جديدة بجانب القديمة . وبعد بضع سنوات لم يكن للعاصمة (القاهرة) منافس فى المشرق . وهذا ما كتبه « مارمول » «Marmol» منذ حوالى قرنين ونصف :

« بدأت القاهرة بحصن ومسكن ، وامتدت بطول نهر النيل على طريقة قرية كبيرة وهى تحتوى حاليًا على ستة آلاف منزل ذات أساس جيد ، مع كثير من القصور الغنية التى تقع على النيل ، وجامع بديع البناء ، وجميل وكبير وقوى » .

« وفى مواجهة القاهرة ، وفى منتصف النهر تقع جزيرة « مقياس » «Méqyas» ومن الناحية الساحلية للقاهرة وفى مواجهة بيوت ضاحية باب زويلة التى تعد المكان الذى يسكن فيه رؤساء المدينة التى يوجد بها أربعة عشر ألف شعلة ، وحصن يعيش فيه الشيوخ وعلماء الدين ، ويقع هذا الحصن على منحدر جبل المقطم تحيط به الأسوار العالية ، وحوله القصور الفخمة الكبيرة ، ويسبب الدهشة لهؤلاء الذين ينظرون إليه . وكل فناء (مكان أمام باب الكنيسة) وكل فتحة على شكل قوس ، وكل عمود ، وكل قناة، وكل مكان بالغرفة خاص بالأسرة - كل ذلك تم تكوينه من المعادن النفيسة مثل الجمشت والرخام اللامع مع مختلف الألوان . والقشرة الخارجية للأسقف والأثاث مصنوعة من الذهب ومن معدن نفيس أزرق اللون » .

« والمدينة الأخرى التى تسمى القاهرة كما يسميها العرب بها أكثر من ثمانية آلاف منزل يعيش فيها الأشخاص المعتبرون ، وهى مغلقة بسور قوى من الأحجار الكبيرة . وهنا توجد التجارة الغنية ، ويأتى إليها التجار المسيحيون والموريتانيون والأتراك واليهود . والأسوار قوية ، وتغطى الأبواب بأمواس كبيرة من الحديد . ويوجد بهذه المدينة ثلاثة أبواب ، أولها « باب الانتصار » من ناحية المشرق فى اتجاه الصحراء والبحر الأحمر ، والباب الثانى هو « باب زويلة » من ناحية النيل والمدينة القديمة ، والباب الثالث هو «باب الانتصار الكبير» ومنه يمكن الذهاب إلى البحيرة وإلى الأماكن الأخرى . ويوجد

شارع كبير يربط بين باب زويلة وباب الانتصار يعيش فيه الجزء الأكبر من النبلاء ، كما يوجد به عدد كبير من المدارس الكبيرة المبنية بناء جيداً . وكثير من الجوامع الفخمة التى تستحق الإعجاب بسبب جمالها » .

« ولنفس المدينة مستشفى يبلغ إيجاره مائتى ألف سرافين (عملة قديمة) وقام بتأسيسه أحد السلاطين ، ويعالج فيه الجرحى وكل أنواع الأمراض ، ويوجد به أطباء وجراحون يتقاضون أجراً على ذلك ،. ولا ينقص هذا المستشفى أى شىء ، ولكن هذا المستشفى يرث جميع المرضى الذين يموتون فيه » .

« وهناك قرية كبيرة أخرى تسمى « طولون » تقع بجانب قرية زويلة فى اتجاه المشرق ، وتمتد فى اتجاه المغرب حتى أطلال الحصون القديمة الموجودة بسواحل المدينة القديمة ، ويوجد بها أكثر من ستة آلاف شعلة إنارة . وقد بناها وعمرها « طولون » وهو عبد لأحد خلفاء بغداد وقائد جيشه فى مصر » .

« وهناك قرية أخرى كبيرة تسمى باب اللوق وبها أكثر من أربعة آلاف شعلة ، وهى توجد بحى كبير من أحياء القاهرة ، وبها كل أنواع التجار والحرفيين ، ويوجد بها مكان كبير أمام قصر جميل جداً ، ومدرسة بديعة . وكل يوم جمعة بعد الصلاة يذهب عدد كبير من سكان القاهرة إلى هذا المكان لأن به كثيراً من الكباريهات وكثيراً من مساكن فتيات الليل . كما يوجد به تجار المخدرات . ويقوم البهلوانات ولاعبو الأكروبات بترقيص الكلاب والجمال والحمير ، أو يكون لديهم عصافير فى أقفاص تأخذ النقود من يد من يريد أن يعرف المستقبل وتضعها فى القفص ، وتسحب هذه العصافير ورقة مكتوب عليها مستقبل هذا الشخص . كما يوجد أشخاص آخرون يلعبون بالعصا أو بالسيف ، وآخرون يتصارعون ، والبعض الآخر يصعد على درج عالٍ جداً ويغنى شعراً وقصائد عن المصريين وعن العرب ، كما يغنون الأساطير » .

« وبولاق قرية كبيرة تبعد عن المدينة بحوالى ٣ كم (ثلاثة كيلو مترات) ولا يوجد بينها وبين المدينة سوى طواحين وحيوانات تدور لطحن الحب (مثل البقر والجاموس). وهذه القرية الكبيرة قديمة جداً ، وبها أكثر من خمسة آلاف منزل » .

« وشعب القاهرة متحضر أمام العالم ويعد بأكثر مما يمتلك . وهو يهتم بالفنون وبالتجارة ، ولكن لا يبتعد مطلقًا عن بلده التى يعيش فيها برغباته . وكل السكان تحترم القانون . ويتم معاقبة المجرمين بشدة ، كما يتم شنق المتشردون بلا هوادة أو مهادنة . فيمسك رجلان فى الهواء بالقتلة بواسطة أرجلهم وبواسطة رأسهم أمام القاضى ، وفى هذه الحالة يقوم أحد السيافين بقطعهم من الوسط بسيف ذو حدين ويضع جزع الحزام فوق نار حامية . ثم يسأل القاضى بعض الأسئلة ويجيب الضحية . ويتم سلخ جلد اللصوص بشدة فى طريق عام ، وكذلك العصاة ، ثم يوضع التعساء على ظهر جمل وتنشر جريمته فى كل مكان . وهذا العقاب شديد جدًا . لأن المجرم لا يموت إلا إذا سلخ السياف سرته من بطنه ، وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك دون سماح من القاضى . والمسجونون من أجل دين وليس لهم ما يوفون به دينهم فيدفع لهم ملاحظ السجن ثم يرسلهم كل يوم وفى رقبتهم سلسلة تحت قيادة أحد الحراس ليتسولوا نقودًا ، ولا يطلق سراحهم إلا إذا دفعوا كل ما عليهم .

* * *



القاهرة الحالية - الوصف - والمظهر العام

تقع القاهرة على خط طول ٢٨° ٥٨َ ٣٠ً شرقًا وخط عرض ٣٠° ٢َ ٢١ً شمالاً على الضفة الشرقية للنيل . وفى الشرق تحدد المدينة الصحراء ، ومدافن السلاطين المماليك ، وجبل المقطم الذى أقيمت القلعة على منحدراته . ويحدد المدينة من الجنوب مدافن « السيدة نفيسة » والإمام الشافعى والأراضى الرملية التى تحدد موقع المدن القديمة « كالعسكر » و « القطائع » ويحدد المدينة من الغرب الأحياء الجديدة مثل «الإسماعيلية» و « النيل » ، وإلى الشمال تمتد حدائق شبرا وسهول العباسية . وتعداد السكان حوالى ٤٠٠,٠٠٠ ساكن . والأسوار الحصينة التى بناها صلاح الدين لا توجد سوى من ناحية الصحراء من العباسية حتى القلعة . وهى أسوار سميكة تعلوها الأبراج وتخترقها الأبواب التى أشهرها « باب النصر » و « باب الفتوح » . وهناك باب ثالث يسمى « باب زويلة » وهو يتميز بأشكاله الأكثر سمكًا ويفتح إلى الجنوب بالقرب من الجامع الذى يحمل اسمه ، ويضع علامة لحدود المدينة القديمة التى أسسها جوهر الصقلى ، ولكن من هذا الجانب – مثلما فى باقى الأجناب فى الغرب وفى الشمال تعدت توسعات المدينة الحصون القديمة بكثير .

تشبه القاهرة مدن الشرق الأخرى من ناحية العمارة ومن ناحية مبانيها ، ومن جهة ضيق شوارعها وعدم انتظامها ، وذلك فيما عدا الأحياء الجديدة والأحياء التى تم تدميرها لتنفيذ خطط التجميل التى بولغ فى قياسها . واحتفظت البيوت بخواصها الأصلية . وكل النوافذ تغلق بواسطة أسياخ من الحديد مربعة الشكل على هيئة شبكة ،

أو مزودة « بمشربيات » . وهى نوع من البالكونات المغطاة التى تتكون من قطع صغيرة من الخشب مصنعة بطريقة ما ، ومجمعة بطريقة ما لتشكل شبكة من الرسومات المعقدة والجميلة . وباب الدخول منخفض جدًا بصفة عامة وليس له سوى قاعدة واحدة، وعندما يفتح الباب يصطدم النظر بحائط يطل على الشارع ، ويخفى الفناء الأول الذى ندلف إليه عن طريق باب جانبى . وفى هذا الفناء وعلى الحائط الخلفى ستارة تحمل خطوطًا متداخلة مع الأوراق (أرابيسك) متعددة الألوان ، وعليها كتابات تبين مدخل الحرملك . وبجانب الحرملك وقريبًا من الباب توجد المندرة ، وهى عبارة عن صالون خارجى لاستقبال الأجانب .

والبيوت لا تقع على أطراف أو حواف الشوارع بحيث يسعد منظرها البصر . ولكنها كذلك لا تخضع لأى قانون من قوانين الاستقامة . لأن كل مالك لا يستشير سوى مزاجه الخاص عندما يبنى المسكن الخاص به ، ويعطى فى أغلب الأحيان لمنزله وضعًا مائلاً على الشارع . والواجهات تكون فى أغلب الأحيان متقاربة جدًا لدرجة أن أشعة الشمس لا تسقط سوى لحظة واحدة على الأرض فى منتصف النهار تقريبًا وأن الهواء لا يمر بحرية فى بعض الشوارع . وكل الشوارع خالية من الأرصفة . ويجعل أى تراب سميك أو أى قطعة سميكة من الطين - تجعل مسار الشارع صعبًا ومحزنًا . وبعض الشوارع واسعة ، والبعض الآخر متعرج . وتتقاطع الشوارع بعدد لا نهائى من الشوارع الصغيرة والحارات السد لترسم الخطوط المتقاطعة الأكثر غرابة ، وتشكل التوهان الذى لا يمكن الخروج منه لأى شخص ليس له عادة السير فيها .

والشوارع الرئيسية أو الأكثر اتساعًا تكون فى الصيف مناطق ساخنة جدًا حقيقة، ولا نستطيع أن نقاوم فيها شدة الشمس إلا إذا تم تغطيتها بقطع الخشب ، وبنسيج من القش أو بقطع من الأقمشة القديمة . وهذه الشوارع التى يقع على حافتيها صفان من الدكاكين تغص بالناس فى كل ساعة من ساعات النهار . وعلى النقيض من ذلك تمامًا تكون الشوارع الأخرى عبارة عن صحراء (يسير فيها عدد قليل من المارة . ففى الشوارع الأولى تكون الضوضاء مستمرة . أما فى الشوارع الأخيرة فيكون الصمت

مطلقًا . وعندما نمر للمرة الأولى فى هذا التيه من الأحياء الضيقة ، نعتقد بإرادتنا أنه ستحدث بعض المظاهر غير الطبيعية . والمنازل عالية وذات مظهر غامض . وفى الفتحات النادرة التى تخترق الواجهات الخارجية نشاهد من آن لآخر رأس أحد العبيد السود الذى يختفى فجأة عند مشاهدته لأى وجه أجنبى . وتذكرنا كل هذه الأحياء القديمة بكل خطوة نخطوها فيها بقصة « ألف ليلة وليلة » .

ويقول (السيد رونيه) : « كيف نصف هذا المكان العجيب ، هذه الفوضى من الشوارع ، ومن الحوارى أو الأزقة ، ومن الميادين غير المنتظمة ذات الخيال الجميل التى يعد فيها كل منزل ، وكل بناء تقريبًا عملاً بديعًا له أصل عبقرى وملئ بالحيوية . كيف نصف هذا الهدوء الذى يملأ الأجواء ، وهذا الضوء الساطع الذى تغوص فيه المنارات المنحوتة ثم الظل الأصيل والرقيق الذى يسود فى خلفية الشوارع ! هنا الكل فى عيد ، وفى سعادة دائمة . فهنا الرسم واللون والحركة تسود دون منازع ، وكل شىء ينعكس ويبرق ويصدر عنه صوت ، وكل شىء يهتز ويرتفع كتراب مثل الذرات السعيدة فى شعاع الشمس ... وعندما نترك الميدان الغاص بالناس والشمس نتوغل فى المسارات الضيقة حيث لا تكون الشمس سوى شعاع رفيع من الضوء المبرق الساطع الذى يتلوى كالثعبان خلف مشربيات النهار » . وهذه الشوارع الضيقة تناسب المناخ تمامًا ، ولكن كثيرًا من هذه الشوارع يتجاوز كثيرًا هذا الهدف . وعندما توجد المشربيات فإنها تتلامس فى بعض الأحيان ، وتكون سطحًا نسير تحت ظله . والشىء الذى يقلل السرور والبهجة هو هذه الامتدادات التى تعبر المشربيات فى أغلب الأحيان من منزل لآخر وتقطر مطرًا بطريقة مفاجئة على رأس المارة .

والوكالات (فنادق القوافل) عبارة عن مبانٍ مربعة كبيرة الحجم ومكوناتها ثقيلة وليس لها أى فن معمارى . وفى وسطها فناء واسع يمتلئ دائمًا بالبضائع التى تحضرها القوافل . وتوجد المحلات والدكاكين بالدور الأرضى . وتنقسم الأدوار إلى غرف عديدة تستخدم كسكن للأجانب . وتوجد صالة لعرض البضائع تخترقها أربع فتحات واسعة على هيئة قوس ، وتمتد هذه الصالة بطول الواجهات الداخلية الأربع لتسهيل

الاتصالات. ويوجد وسط الفناء فى بعض الأحيان «مسجد» مع نافورة للوضوء(التطهر) ويصلى التجار فى المسجد وهم يحرسون محلاتهم . وتقع الوكالات فى الأحياء التى تروج فيها التجارة ، فهناك تباع البضائع بكثرة . وتلك البضائع هى القطن ، والأنسجة ، والسجاد ، والعاج والصمغ . إلخ .

وفى المشرق يجتمع الحرفيون الذين يمارسون نفس المهنة ، والتجار الذين يعملون فى نفس النوع من التجارة يجتمعون فى حى مشترك يسمى « سوق » ويضاف إليه نوع المهنة التى تمارس فيه . وهكذا فالحى الذى تباع فيه الأسلحة يسمى سوق السلاح ، والحى الذى تصنع فيه الأوانى النحاسية يسمى « سوق النحاسين » (من اسم نحاس) وفى بعض الأحيان نضع كلمة « بازار » بدلاً من كلمة سوق . وبازار هو معنى كلمة سوق باللغة الفارسية .

والبازارات الرئيسية فى مدينة القاهرة هى التالية :

بازار الجمالية ، ويقع فى الشمال الشرقى لمدينة القاهرة وتوجد به أكبر الوكالات، وخاصة وكالة « ذو الفقار » لتجارة القهوة والتبغ (الدخان) والعاج والقطن بالجملة . ففى هذا الجزء من القاهرة كانت ترتفع قصور الخلفاء قبل مجىء السلطان « صلاح الدين » كخليفة .

ثم يأتى بعد ذلك « خان الخليل » (على اسم الخليل مؤسسه) ويوجد فيه أقمشة شرقية جميلة ، وحرير ، وكشمير ، وشيلان (جمع شال) من الهند ، وبطاطين من الآستانة (اسطمبول بتركيا) ومن سامرنا أو أزمير (ميناء تركى على بحر إيجه) . وتلك البطاطين مزركشة بالذهب ، وريش نعام ، وسجاد من فارس (إيران) وأرمينيا ، وخزن وكراسى عربية من الخشب النادر أو المزين برسومات بارزة من مادة مأخوذة من القواقع أو من العاج ، والأسلحة والدروع الإسلامية القديمة وبها خيوط من الفضة والحديد . ومدخل هذا البازار يواجه جامع « حسنين » . والمحلات الموجودة به تشبه كل المحلات العربية، وهى عبارة عن (دكاكين) فقيرة مصنوعة من قطع الخشب ومع تراكم البضائع فيها ، ويتم تجديدها باستمرار بواسطة الوكلاء الذين يملئون المحلات

أو الدكاكين بكل ما ينقصها من بضائع . ويحتل « خان الخليل » المكان الذى كانت تشغله من قبل مقابر الخلفاء . والأثر الجنائزى الوحيد الذى نراه اليوم هو قبر الملك الصالح بن كامل من أسرة الأيوبيين ، والذى مات أو توفى عام ١٢٥٠ ميلادية الموافق ٦٤٨ من الهجرة .

وبالقرب من خان الخليلى يقع حى النحاسين والصاغة . وأى أجنبى يمر عشرين مرة أمام حوارى هذا الحى دون أن يفكر فى دخولها . وتفتح الأبواب الواطئة على ممرات ضيقة لدرجة أن أى شخصين يتلاقيان يجب أن يسيرا بجانبهما حتى يستمرا فى السير إلى الأمام . ويستمر السير فى تيه من الحوارى الطينية المغطاة بقطع من الأخشاب ، وتوجد الدكاكين الصغيرة من كل جانب ، وتوجد خزنة محصنة بالميدان الكبير ، وأمام الخزنة يقعمز التاجر أو يجلس القرفصاء ، وفى بعض الأحيان تضم فاترينة حجمها قدم مكعب عينات تكمل معروضات المحل . والثروات الموجودة فى هذه الخزائن لا تعد ولا تحصى ، ولكن لا يبحث عنها هنا . لأنه كما كان معبد الإله «بلوتس» غنيًا فإنه لم يكن يدفع سوى للكهنة الذين كانوا يقومون بالصلاة فيه . وبجانب تجار الجواهر توجد ورش الصاغة الذين يستخدمون الأدوات البسيطة البدائية ، ويصنع فى هذه الورش تحت نظر الزوار غوايش من الذهب أو من الفضة المثنية ، وحلقان للأذن وعقود للرقبة مزينة بقطع من النقود الذهبية ، وقطع من الفضة لا تسىء لتأثير « بازار أصفهان » (العاصمة القديمة لإيران) . وتمتد ورش النحاس ذات الصوت العالى إلى شمال هذا الحى حتى جامع السلطان « قلاوون » .

والحمزاوى هو « البازار » الأكثر اعتبارًا بعد بازار « خان الخليلى » . ويوجد فيه عطور وتوابل ، وورق ، وكريستال ، والبورسلين ، والأزرار والإبر ، والخيوط ، والأنسجة القطنية ، والأنسجة العادية المصنوع معظمها فى أوروبا .

كما نذكر كذلك بازار « العقادين » حيث يوجد تجار أقمشة الحرير والأقمشة المصنوعة من خيوط الذهب والفضة ، وبازار الغورية حيث تباع البطاطين والستائر والملاءات والأنسجة الشفافة .

وبازار « السكرية » حيث يباع السكر والفواكه الجافة ، والمربى والبلح . وبازار «السروجيه» وهو مجمع عمال التجهيز الكامل للخيل ، والإسكافية (صانعى الأحذية) وبازار « سوق السلاح » والدروع . وتقع كل هذه البازارات على الشارع الكبير الذى يعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب أى من باب الفتوح حتى جامع السلطان « حسن » .

وسوق العبيد لم يعد له وجود . ومازلنا نرى إلى اليوم بين باب زويلة وباب الجوريب وكالة قديمة مهدوم ثلاثة أرباعها يرجع تأسيسها إلى زمن ملك الخليفة الملك الصالح ابن كامل وفقًا للكتابة العربية المحفورة التى قرأت أعلى يافطة على قوس على الواجهة الداخلية الشمالية الشرقية ، وتحمل تاريخ عام ٦٤٤ من الهجرة الموافق ١٢٤٦ بعد الميلاد طردت غارات المغول فى آسيا العليا سكان مناطق القوقاز ، وقازاكستان وتركمانستان وإيران بعيدًا عن بلادهم وتشتتت قبائلهم أمام طوفان قبائل أو جحافل التتار ، وانتشرت هذه القبائل حتى سوريا وحدود مصر ، وكانت تسرع فى الهرب لأن من كان يبطئ فى الهرب . سواء أكان رجلاً أو أنثى كان يذبح بلا رحمة أو يصبح عبدًا . وكان تجار العبيد بكل المشرق يسرعون أمام الغزاة . وهم الممولون الجدد وبكثرة لتجارتهم ونقلوا إلى كل أسواق آسيا الصغرى وإلى مصر تجاه الناس الذين أمدوهم بها التتار . وأغنى جلابين (تجار العبيد) فى القاهرة هما « على كاراشيه » و « نور » ولقبه البندوقى. وأسرع هذان التاجران فى السلوك مثل زملائهم فى هذه التجارة ، وجلبوا من سوريا أكثر من ألفين من العبيد من الجنسين .

فكانوا من العبيد الصفوة من الشباب ذى الجمال الملحوظ ، وكان من السهل الاختيار ، فالصفات الأدنى والبضاعة المتعبة ومن الصعب فرزها كانت قد مرت على حد السيف . فهؤلاء الشبان التعساء الذين اقتيدوا مثل قطيع البهائم كانوا قد عبروا صحراء خليج السويس ليشغلوا الوكالة الجديدة ، ومن هذه الوكالة يمضون إلى حرملكات العظماء أو يصبحون أعضاء فى المليشيات .

ومنذ ذلك الحين ظل هذا السوق الأكثر ازدهارًا فى القاهرة حتى الحملة الفرنسية. وفى عام ١٧٩٩م حول الجراح « لارى Larry » الوكالة إلى مستشفى إسعاف.

وفى الزاوية اليسرى من الفناء نقرأ فى الخلف كتابة محفورة باللغة الفرنسية تثير الشغف : « نساء هذا البلد جميلات لكنهن لسن مثل « روزالى » التى سوف أظل وفيًا لها حتى عودتى لطولون توقيع : لوبون Lebon » شاويش بالكتيبة رقم ٣٢ .

ومن بين الميادين والشوارع التى يسير فيها الناس كثيرًا يعد ميدان الأزبكية الأكثر إثارة للانتباه فهو مركز التجارة الأوروبية ويصل إلى هذا الميدان شمالاً وبالقرب من مستشفى المشرق شارع « كلود بيه » الذى يؤدى إلى المحطة . وإلى شارع شبرا ، وإلى الأحياء الجديدة من الفجالة والعباسية ، وإلى الغرب شارع بولاق الذى يعبر قناة الإسماعيلية ، وإلى الجنوب وبامتداد الجهة أو الناحية الغربية من الميدان يوجد شارع عابدين الذى يمر أمام كل من فندق «شبرد Shepheard» وفندق «نيو هوتل New- hotel»، وينتهى بقصر عابدين .

وفوق شارع بولاق ، وقبل الوصول إلى مصنع شركة المياه بقليل يبدأ شارع قصر النيل الطويل الذى يعبر الإسماعيلية بخط مستقيم ويمتد حتى « القاهرة القديمة » أو «مصر القديمة» .

فى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأزبكية ، وفى مواجهة المحكمة المختلطة ، كان يوجد فى وقت ما أحد المدافن الذى تحول إلى ميدان عام يقف فى منتصفه تمثال من البرونز لإبراهيم باشا وهو جالس على حصان . وإبراهيم باشا هو الابن البكر لمحمد على . وهذا التمثال هو من أعمال السيد « كوردييه Cordier » ومن هذا الميدان يبدأ شارعان كبيران يعبران المدينة القديمة . أحدهما إلى الشرق مباشرة ويصل إلى مدافن السلاطين المماليك عن طرق بوابة الغُريب «El- Ghoraib» ، ألا وهو شارع الموسكى أحد الأحياء التى يغلب عليها الطابع التجارى فى القاهرة . والشارع الآخر إلى الجنوب الشرقى وقد تم رصفه حديثًا ، ألا وهو شارع محمد على الذى يذهب فى خط مستقيم إلى جامع السلطان حسن ، وإلى القلعة ، وإلى ميدانى الرميلة ومحمد على (قارميدان القديمة) وتقع محطة سكة حديد حلوان فى ميدان محمد على .

والموسكى هو الحى الرئيسى الذى يؤدى إلى البازارات والآثار التى يراد مشاهدتها. وكان مدخله حتى عام ١٨٨١م مغطى بقطع من الخشب الطويل ، ولكن لدواعى الحرص تم هدم هذا السقف الذى أصاب نصفه الدود ولن يعمل سقف آخر غيره مما يسبب ضيقًا شديدًا للتجار الذين ليس لديهم اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) سوى « ڤارندات » (بلكونات) ضيقة لتحميهم من أشعة الشمس .

وأثناء السنوات الأخيرة من حكم إسماعيل باشا تم تجديد شارع الموسكى تجديدًا كاملاً ، وخاصة فى الجزء المجاور للأزبكية . والدكاكين العادية فى ذلك الوقت حل محلها دكاكين غنية مبنية على النمط الأوروبى . وذلك هو الوصف الذى أعطاه « السيد رونيه » «Rhoné» فى ١٨٦٤م .

« يبدأ الموسكى بعرض للأسلحة النوبية والأفريقية وأسلحة متنوعة أخرى تم الحصول عليها فى « الحرب » . ويتزن تمساح من القش بحجم طبيعى ليعطى ثمة للتناقض الردئ بين الأسلحة القصيرة المدببة الحادة ، والرماح ، والسهام ، والدروع ، والطبول ، ومواد للتجميل ذات أشكال غريبة وألوان باهتة (مغلوطة بالطين) . وهذا الشارع تقع على صفيه بيوت جزء منها حديث ، ولكنها مازالت تحتفظ بالأسلوب العربى وليست من بينها حتى الآن منازل الطابع الحديث المتعب . وكل التجار يعرضون بضائعهم . ولا نرى سوى « برانس » مخططة ومزركشة وأحزمة من الحرير حمراء اللون، وعباءات بها خطوط ذهبية تجمل الشارع كما لو كان الناس يحتفلون بعيد . ومن هنا وهناك فى ركن معتم حيث توجد الأنسجة غالية الثمن توجد بعض مجموعات من الأوانى القديمة من النحاس المعتم محفور ومزين بآيات مبرقة من القرآن الكريم وتبرق فى هدوء من الجواهر الكبيرة الأسطورية وتحفظها الأشباح الأسطورية بطريقة غير عادية. أو فى قاع وثقب أسود وخلف دكان صغير تطل رأس شخص شرقى أو يونانى رقيق مثل العسل ، ومن الصعب اكتشافه كالقط ، ودائمًا يكون مبتسمًا ومراقبًا فى هدوء ، ويضع فى يدك خواتم من حجر رقيق به بقع مثل جلد الثعبان ، أو من حجر

كريم أزرق اللون ، وعقودًا من أسماك ذهبية ، وسبحًا من الأحجار الكريمة المتعددة الألوان وغوايش كبيرة من الفضة الثقيلة ، ثم سيوفًا حقيرة يختبر حدها الردئ على خشب واجهته (فترينته) القديم » . وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على الموسكى اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) ولكنه يناسب تمامًا بازار خان الخليلى والبازارت الأخرى.

وعما قريب لن تشتهى مصر شيئًا مما يوجد فى مدن أوروبا الأولى ، فهى مثلهن لديها حدائقها العامة ، وشوارعها الواسعة ، ومسارحها ، ومسارحها الصغيرة التى يشرب فيها القهوة أثناء العرض المسرحى ، ولها عربات بالنفر ، ولها عربات تجرها الخيل . ومنذ فترة طويلة انتشرت الإنارة بلمبات الغاز حتى فى المناطق النائية الأكثر إظلامًا من المدينة . كما توجد صهاريج ضخمة تملأ بالمياه بواسطة ماكينات بخارية قوية وتوزع المياه على البيوت وعلى الشقق الأكثر ارتفاعًا . وحلت النافورات العامة محل مياه الآبار المالحة .

وتم تجديد الأحياء القديمة بالكامل من أجل الصالح العام . ولكن القضاء لم يهتم أو ينشغل دائمًا بما إذا كان الفن سوف يخسر أو يكسب من حركة التطور هذه . وغزت الصناعة كل الضواحى ، وخاصة فيما بين قناة الإسماعيلية وبولاق . فهنا فى القاهرة ترتفع ورش المعادن أو التعدين فوق الأراضى التى كانت من قبل طينية ، وضارة بالصحة، كما ترتفع على هذه الأراضى كذلك المصانع وأماكن البناء الواسعة . وتم إدخال البخار فى كل الأعمال الكبرى مثل طلمبات الرى ، والمطاحن ، وماكينات حلج القطن (استخراج البذر منه) وصناعة الزيوت والتقطير ، إلخ .

فالصناع الأغنياء الصغار ، والذين عاشوا متصلين بالأوروبيين كانوا أول من طبق ابتكارات عبر البحار على مهنهم . ولكن طوفان التقدم الحديث ينكسر عندما يلمس قلب المدينة الأصلى ، فالمصرى الذى احتفظ بأفكاره نقية ينظر نظرة احتقار لهذه التجاوزات فى الابتكارات الأوروبية ، فعربة الأنفار ، وخطوط السكك الحديدية ، هذا هو تقريبًا كل ما يتذوقه . وهذا لا يمنع من أن يكون المصرى معجبًا كبيرًا بالميكانيكا ،

ولكن ما منفعة كل هذه الماكينات ذات الصوت العجاج بالنسبة له ؟ فمنذ عشرين عامًا لم يوجد شىء من هذه الماكينات ، ومع ذلك كانت مصالحه تقضى بطريقة ليست رديئة. وأيضًا فى مهنته وفى علاقاته التجارية هل احتفظ بكل الخواص البدائية الشرقية التى تميزه ؟ . أما عن استخدامه لوسائل أخرى غير التى حصل عليها ممن سبقوه فى أعماله اليدوية فله فى هذا الجانب آراء ثابتة لم يحدث أن تخلى عنها إلا فى حالات نادرة جدًا.

تنقسم القاهرة إلى ثمانية مراكز أو أقسام :

١ - مركز عابدين ، ويشمل أحياء باب اللوق ، والإسماعيلية ، وباب الخلق .

٢ - مركز أو قسم الخليفة ، ويشمل أحياء السيدة نفيسة ، السيدة سكينة ، قلعة الكبش ، المنشية (الروميلة) صليبه .

٣ - مركز الدرب الأحمر ، ويشمل أحياء السكرية ، قصبة رضوان ، الخيامية ، وحارة الروم .

٤ - مركز القيسون ، ويشمل أحياء الصوفية ، والمغربلين ، والسروجية .

٥ - مركز الجمالية ويشمل أحياء الأزهر ، وخان الخليلى ، والنحاسين ، والجوانية، وحى سيدنا الحسين .

٦ - مركز باب الشريش ويشمل أحياء حارة اليهود ، وأوازه وطمبلى .

٧ - مركز السيدة زينب ويشمل أحياء درب الجماميز ، والناصرية ، والإسماعيلية وحى قصر النيل .

٨ - مركز الأزبكية ويشمل حى الموسكى ، وحارة اليهود ، وحارة النصارى ، وشارع « كلوت بيه » ، والفجالة ، وكوم الدكة ، وشارع « قواله » ، وشارع عبد العزيز .

* * *

الأزبكية

هو من أجمل ميادين القاهرة . ووفقًا لما قاله المؤرخون العرب يأتى هذا الاسم من الأمير « أزبكى » وهو جنرال أو قائد جيش السلطان « قايتباى » الذى بنى فى القرن الخامس عشر جامعًا فى هذا المكان . ولكننا قد رأينا من قبل فى هذا الكتاب أنه يجب علينا أن نرجع أصل هذا الاسم إلى فترة أكثر قدمًا . « فالأزبكى » الذى يعنى باللغة القبطية « المدينة القديمة » كان يضع علامات على الأبنية التى كانت موجودة فى هذا الوقت فى هذا المكان قبل تأسيس مدينة الفاطميين بفترة طويلة . وكانت الأزبكية من قبل سهل منخفض يغطى كل عام بالفيضان وكان محاطًا بالمساكن كما هو الحال اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) . وقام « محمد على » بأول تطوير لهذا الميدان . وتم استخدام الأطلال التى كانت موجودة بين القاهرة والنيل فيما بعد كوبرى « باب اللوق » ، وتم استخدامها لرفع مستوى الأرض . وتم تحويل البحيرة إلى حديقة واسعة محاطة بقناة تلقى بمياهها فى خليج الموغربى الذى يلتقى بالقناة الداخلية للقاهرة على طريق هليوبوليس بالقرب من جامع الزهار .

ومنذ الأعمال التى نفذها الخليفة إسماعيل فى عام ١٨٦٧م أصبحت حديقة الأزبكية اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) تتكون من خضرة محفورة بالعديد من الخطوط الجميلة ، والمزروعة بالأشجار من كل نوع . وتم تكليف عدد كبير من الأشخاص بالسهر على صيانة الحديقة . ففى كل صباح تلقى بذور الورد على الخضرة، ويتم رى الأشجار الصغيرة والورد والخطوط بخراطيم طويلة ذات عجل صغير تمامًا كما هو متبع فى حدائق أوروبا . وفى وسطها بحيرة صغيرة تأتى إليها المياه عن طريق نهر صغير يخرج من حفرة صناعية يهبط فيضان المياه إلى عمقها من شلال أو مسقط مياه . ويعلو هذه الحفرة سقف ريفى أو مسكن ريفى بديع المنظر ، ووسط الأخشاب الصغيرة التى يختبئ نصفها تحت الجذوع أو الجريد المورق للأشجار الكبيرة نرى

الأبنية الراقية من كل طراز ، فإلى اليمين مجموعة قهاوى يسمع فيها عند المساء أشعار رومانسية عربية مصحوبة بآلات مصرية ، وأمامها مبنى صينى ، ومسرح صيفى، ومطعم ، وورشة تصوير ، وإلى اليسار قهاوى مليئة بالناس ، وكشك تأتى الموسيقى العسكرية لتعزف فيه كل يوم من الساعة الرابعة حتى الساعة التاسعة مساءً أو ليلاً تعزف فيه موسيقى أوروبية وتركية . وحديقة الأزبكية على شكل مستطيل ذات زوايا مقطوعة ، وهى تحتل مساحة تقدر بثمانية هكتارات أى أقل من مساحتها من قبل بأكثر من الثلث . والأعمال التى حولتها إلى الحالة التى هى عليها الآن كان يقود هذه الأعمال كل من السيد باريبه وديشان والسيد دلشفالورى M. M. Barillet- Deschampset Del-chevalerie .

ومن الناحية الغربية عند زواية حى بولاق يقع قصر الألفى - بيه الذى اختاره بونابرت كحى عام ، وفى حديقة هذا القصر تم اغتيال « كليبر » . ونتذكر ظروف هذه الدراما التى ضربت الجيش الفرنسى ضربة عنيفة . فلقد كان هناك شاب متعصب من حلب يسمى سليمان ، تم إقناعه بأنه محاط بمهمة إلهية وعزم على اغتيال قائد القوات. وبعد أن قضى أربعين يومًا فى الصلاة وفى الصوم تقريبًا بداية من ١٠ يونيو ١٨٠٠ يتتبع كليبر ويلاحظ الفرصة السانحة لضرب ضحيته . ودخل يوم ١٤ يونيو فى حديقة الحكومة واختفى فى أحد صهاريج المياه البعيدة وانتظر . وظهر كليبر بعد بضعة ساعات وبصحبته المهندس المعمارى « بروتان » Protain وكان يظهر له إصلاحات كثيرة يجب القيام بها . فخرج سليمان من المكان الذى كان قد اختفى فيه وألقى بنفسه عند ركبتى الجنرال كما لو كان سيعطيه شكوى ثم وقف فجأة وأدخل سلاحه الأبيض القصير الحاد على أربع مرات فى قلب كليبر الذى سقط تحت عنف الضربات وجرى « بروتان Protan » خلف القاتل وحصل بدوره على ضربة من نفس السلاح فوقع على الأرض . وأسرع الجنود على الصرخات التى أطلقتها الضحيتان وتم القبض على القاتل واكتشاف مكانه فقد كان منثنيًا على نفسه خلف كتلة من الأطلال .

والمكان الذى ضرب فيه كليبر يوجد حاليًا فى الحديقة التى تنتمى لفندق «شبرد» Shepheard الذى يلامس قصر ألفى - بيه القديم . وبفضل البيانات الدقيقة للتاريخ ، وخاصة الروايات العربية عن الحملة الفرنسية على مصر لا شىء يعد أسهل اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) من إيجاد المكان الحقيقى الذى وقع فيه كليبر . فلم يفكر أحد فى ذلك لأنه لا يوجد حجر أو كتابة لتذكر السواح أو المسافرين الفرنسيين بأن أحد قادتهم الذى انتصر فى معركة هليوبوليس قد سقط تحت ضربات شاب سورى من حلب كان يدرس بالأزهر .

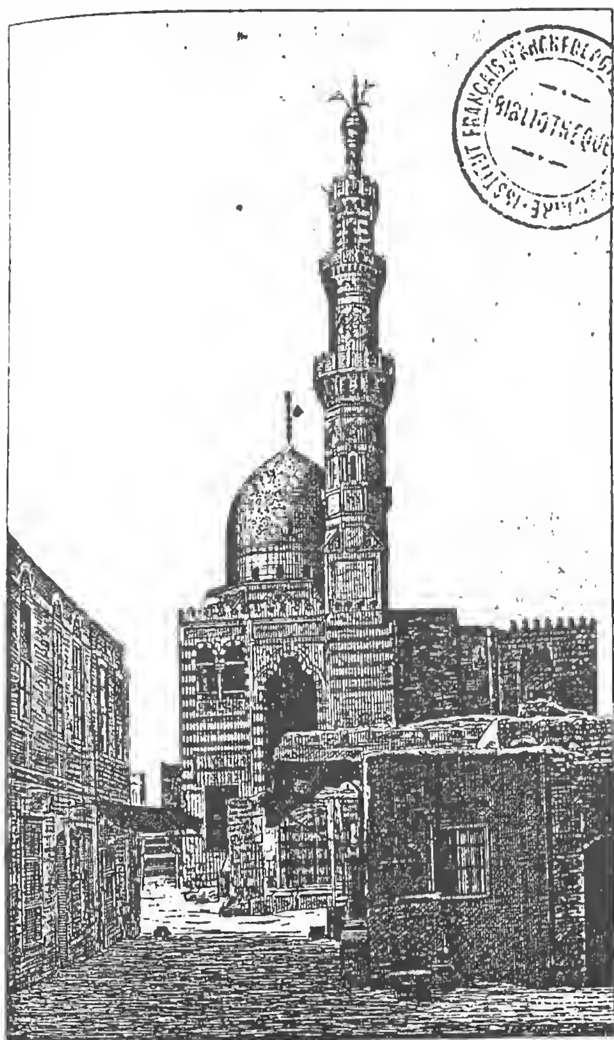
* * *

العمارة العربية

لا ترجع العمارة العربية إلى أبعد من بداية الدين الإسلامى - أى إلى القرن السابع من عصرنا ، وهى الفترة التى اكتمل فيها ضياع تقاليد الفن القديم فى العالم الجديد . ويقول السيد « بورجوا » : « إن المشرق هو الأرض الولود لكل الفنون ولكل الأديان ، والاتصالات المستمرة بين كل الأسيويين أدت إلى انتشار الأشكال المختلفة للنشاط الصناعى لهذه الشعوب التى من الصعب فصل ما ينتمى إلى كل منهم . ونعرف فى كل منتجات الفن بالمشرق تأثيرات دقيقة التنوع . ونستطيع القول أن فن المشرق هو مزيج متناغم من كل العناصر البيزنطية والفارسية ، والهندية والموريتانية إلخ ، التى تختلط وتتجانس تحت الحضارة العربية » . وتعتقد كل الشعوب بأن الآثار الأولى تم تشييدها احترامًا للألوهية . وهذه الأبنية المقدسة يوجد بينها فى أغلب الأحيان بعض التشابه فى الخصائص . وافتتح العرب عمارة جديدة ليس لها أى صلة مع معابد الفترة الفرعونية حيث الأبنية الثقيلة التى تبعث على الاحترام ، والتى تحتوى على أماكن بعيدة غامضة وغاصة بالأسرار لا يمكن أن تناسب أتباع أو تلاميذ الدين الجديد الذى ليس به أسرار ، وكل شىء فى الدين الجديد يتم فى وضح النهار . ويتبقى أن فطرة الأعراق لا تتشابه ، فكما أن المصرى القديم كان يبحث عن الصلابة التى تتزعزع فى الأبنية

يبدو أن للعرب ذوقًا خاصًا فى هشاشة وضعف الأعمدة ، وعدم التناسب بين الملء والفراغ . والعرب يخضعون لدين حازم يمنع تمثيل (تقديم) الكائنات المرسومة ، لذا كان عليهم أن يقطعوا الثقة بالماضى ، وأن يبدعوا أو يوجدوا نظامًا لا يمت بصلة مع الصلاة أمام الصور . ويقول السيد « شارم بلان » فى كتابه رحلة المشرق : « إن العرب بوسائلهم المحدودة لتجميل المساحات قد اتجهوا بطريقة مصيرية إلى التعقيد الذى يعد أحد الوسائل المبهرة لفنهم . ومنها الأشكال الهندسية المعشقة ، والضفائر التى لا يمكن فصلها التى تثير الشغف وتسحر النظر والتى يؤدى التأمل فيها إلى الدوخة » . ومع ذلك فقد ثبت اليوم وخاصة فى الكتاب الجميل للسيد « بورجوان » (فنون العرب) : « إن اختلاط هذه الأشباه المنحرفة المبعثرة ، وهذه المثلثات المتقاطعة ، وهذه الأشكال المتعددة الأضلاع التى لا تختلط ، وهذه الأقراص التى تتوقف ثم تبدأ بعد فترة . فهذا الاختلاط ليس سوى اختلاط ظاهرى ، كما ثبت أن طريقة بسيطة جدًا قد سادت على الاختلاط المحبوب لهذه الأشكال العقيمة ، ويستطيع أى شخص أن يجد بسهولة خيط هذا التيه الغامض » .

وفى الجوامع بصفة رئيسية ، يكون للمدخل الرئيسى أو البوابة خاصية غريبة نقابلها فى الفن العربى ، ونعجب بها بصفة خاصة فى القاهرة فى الجوامع البديعة المبهرة المضيئة « للسلطان حسن » ، و « لقايتباى » ، و « المؤيَد » ، وارتفاعها كبير بالنسبة لعرضها ، ويمثل أساس عميق يوجد أسفله باب المدخل ، وتزدان الجوانب والحائط الخلفى بالأرابيسك ، والموزايك التى تمثل كتابات ذات خصائص كوفية ، أو أعمدة ملفوفة بشكل حلزونى بها تجاويف جانبية طويلة وضيقة . ولكن الشىء الذى يثير الأبصار ، والذى يوجد فى كل الآثار العربية تقريبًا هو هذه التجاويف الصغيرة التى توضع ببروز فوق بعضها بعضًا والتى تمت مقارنتها فى الواقع مع الكتل الكلسية التى تتكون عند الأقواس التى تخطى الحفر والتى تسمى « بالأبواب المزيفة » فوق الحائط . وبالنسبة لأى شخص عاش فى المشرق وسط البقايا البديعة للفن العربى يعد خلط الكتل الكلسية ذكرى لا تمحى . فمن الصعب وصف طبيعتها وتأثيرها ، وكذلك من



جامع السلطان قايتباى

الصعب إعادة تكوينها . فكل المهندسين المعماريين العرب الذين حاولوا تقليدها فى الأبنية الحديثة لم ينتجوا سوى أعمال سميكة غير دقيقة لا تتحمل لحظة بالمقارنة مع النماذج الأصلية . ولعلاج هذا العيب الذى تمثله الخطط الواسعة للبنائين ، وذلك لأن الفن العربى ليس له مصدر عمل التماثيل ، ومن ناحية أخرى لا يصلح فن الأرابيسك البارز لتزيين الأسطح المقعرة ، لذلك فقد تم التغلب على الصعوبة باستخدام « الأبواب المزيفة » .

وتسمح الكتل الكلية بسبب اختلاطها إلى الوصول للتأثيرات الأكثر تنوعًا ، والكتل الكلية عبارة عن زينات بسيطة . وإذا وضعت فى خط مستقيم الواحدة بجانب الأخرى فإنها تكون كورنيشات غنية جدًا ، ولا يقدر هذا الغنى إلا الشخص الذى أعجب بها لفترة طويلة . وإذا وضعت أعلى الجزء الأسطوانى للأعمدة فإنها تصبح تاجًا بديعًا راقيًا . واستخدامهم الأكثر جمالاً يكون فى الفراغات لأنها تحدث بسبب عددها الذى يزيد باتساع القوس الانتقال الرقيق الناعم بين الأعمدة المثبتة والقبة وتتجانس بإعجاب مع فن الأرابيسك الذى يصل كذلك إلى التأثيرات الأكثر تعقيدًا ، وإلى تماوج حقيقى للزينات . فالكتل الكلسية التى تجمل أعلى أساس البوابات تنتهى فى العادة بوقعة ذات خيوط بارزة قوية وتتصل عند القمة بقوسين متقاطعين من الناحية الخارجية يكونان فى العادة على شكل ورقة الحشيش الأخضر .

ويبدو أن الأبنية الدينية تحصل على الامتياز المطلق لغنى العمارة العربية . ولم يصل للمستشرقين أو السائحين الأجانب أى أثر مدنى بناه الخلفاء والسلاطين المماليك. وكل ما يذكرنا اليوم فى مصر بذكرى السيطرة الإسلامية القديمة هو الجوامع ، والمدافن والحصون فقط . فيسمح إذن لكل شخص بالاعتقاد بأن قصور رؤساء العرب الأقدمين أو القدماء كانت مبنية مثل القصور المشيدة فى أيامنا هذه (زمن كتابة هذا الكتاب) كانت مبنية بمواد لا تعطى أى ضمان جاد عن الصلابة .

والواجهات الخارجية للمنازل الخاصة خالية تمامًا من أى خاصية معمارية ، وتمثل فى معظمها نفس النوعية من النظام . كما تتميز القصور بأبعادها فقط ، فهى محاطة

دائمًا تقريبًا بأسوار عالية تحميها من نظرات الجيران غير المحتشمة . فالزينات غير معروفة تمامًا فى ديكور المنازل العربية . فكل شىء يضمن للمالك المزايا التى يبحث عنها ويحيط منزله بالسرية ، لا شىء يخص ذوق وطلبات العامة ، وفى أغلب الأحيان تنتشر الفخامة والعظمة بالداخل تحت مظهر خارجى بائس . ويرجع الإهمال فى الزينة الخارجية دون شك إلى عادة قديمة تم تطبيقها أثناء الحكم القديم ، فطريقة البناء هذه كانت حينئذ وقاية من شهوة العظماء وحسدهم . هؤلاء العظماء الذين كان الشعب قد تعلم منهم بعد تجربة طويلة أنه من أخطر ما يمكن أن يدخل شهوتهم التى لا تشبع فى تجارب .

* * *



(٢٤)

الجوامع

ليست الجوامع كما يعتقد بعض الناس مكان يسكن فيه الله أو يظهر فيه الله بطريقة خاصة ، فالجامع ليس سوى أثر يهدف إلى تجميع المؤمنين لكى يؤدوا فرائضهم أو واجباتهم الدينية . وقدسية المكان تتمثل بصفة خاصة فى المحراب الذى يعلم وضعه بالنسبة للكعبة التى يجب على كل مؤمن أن يحول وجهه إليها عندما يصلى. وليس للجامع شكلاً يحدده القانون الدينى ، فنجد بالقاهرة بعض الجوامع المرتفعة على مستويات غير منتظمة . والجوامع القديمة تقدم أو تظهر عادة فناء مستطيلاً تحيط به الأبواب . الشرط الوحيد المطلوب هو أن المكان الذى يتم فيه السجود للصلاة يجب أن يتجه فى اتجاه مكة التى يعتبرها المسلمون مركز العالم . ففى هذا الجزء من المسجد الأكثر اتساعًا من الأجزاء الأخرى توجد « القبلة » وتسمى كذلك محرابًا مثل المسجد التى تعد جزءًا منه . وهى عبارة عن تجويف بالحائط أكثر أو أقل غنى فى زينته من الأجزاء الأخرى ، وهذا التجويف يتم عمله فى سمك الحائط أو فى بعض الأحيان يتم عمله فى زاوية كما هو الحال فى جامع الإمام الشافعى وفى مدفنه ، ولكنه يوضع بطريقة متغيرة فى اتجاه الكعبة ، وهى وسط جامع مكة الذى يحتوى على الحجر الأسود الذى أحضره الملاك جبريل لإبراهيم عندما كان يبنى هذا البيت الموجود .

وبالقرب من « القبلة » يقع « المنبر » وهو كرسى للوعظ تلقى من أعلاه كل يوم جمعة الخطبة بواسطة الإمام ومساعدة « المرقى » . وأمام القبلة والمنبر ترتفع « الدكة » إلى ارتفاع يصل إلى حوالى مترين ونصف . والدكة عبارة عن مكان مرتفع من الخشب

أو الحجارة تسنده أعمدة ويقف فوقه « المبلغ » وخدامه . و « المبلغ » مسئول عن تذكير المؤمنين ببعض الحكم ، وأن يشرح لهم كلمات الإمام . والإمام هو وزير الدين ولكن ليس له أى خاصية مقدسة .

ووسط الفناء أو الصحن تقع الميضأة، وهى حوض مياه مربع أو ذو ثمانية أضلاع، مغطى أو مكشوف ومملوء بالمياه من أجل الوضوء الشرعى أو الاغتسال الشرعى . وفى الجوامع الكبرى يقع بالقرب من الميضأة حوض آخر مكشوف يسمى المغطس ، وهو نوع من حمامات السباحة المعينة بصفة خاصة لخدمة الطبقة الفقيرة . وبالقرب من حمام السباحة توجد نافورة بها صنابير مياه أو حنفيات . والأربع طوائف للإسلام لها طرق مختلفة لعمل الوضوء ، والمسلم لا يجرؤ على عمل الوضوء فى الحمام أو الحوض العام لأن المياه ثابتة وآسنة وغير نظيفة ، فيستخدم ذلك المسلم الحنفية لأن المياه التى تسيل منها تكون دائمًا طاهرة ونقية . وبالقرب من نافورات المياه الخاصة بالوضوء والتطهير يقع مصلى حيث يصلى الفقراء صلواتهم فيه . ويعنى الوضوء غسل الوجه ، والفم ، وفتحات الأنف ، والأذنين ، والذقن واليدين ، والذراعين حتى الكوع والرجلين حتى كاحل القدم (العظمة البارزة من القدم) . وتتم الصلاة أثناء هذا العمل التطهرى المفروض والواجب بشدة - ليس فقط قبل الصلوات الخمس اليومية - بل كذلك بعد الاجتماع بالنساء وكل أنواع دنس الجسد .

وفى بعض الجوامع يتم عزل المحراب بأقفال يومية ويشكل هذا المحراب حصن خاص يسمى « مقصورة » ونفس هذا الاسم يطبق أو يسمى به المكان الذى يوجد فيه قبر المؤسس . والواجهات الثلاث الأخرى من الفناء أو الصحن عندما يكونوا مزينين ببوابات داخلية يسمون « ليوان » (إيوان) .

وتكون الجوامع دائمًا فى منتهى النظافة . كما أنها لا تحتوى على كراسٍ أو دكك ، وتغطى الأرض بالسجاجيد أو الحصير يجلس عليها المؤمنون على كعوبهم . وقبل دخول الجوامع يخلع المسلمون أحذيتهم ويتركوها عند الباب أو يحملونها بأياديهم فردة فى مواجهة فردة . كما أن المسلمين يتنبهون دائمًا إلى وضع القدم اليمنى أولاً عند دخولهم

من عتبة مدخل الجامع . وحركاتهم ونظراتهم تكون هادئة ومتواضعة ، ومواقفهم متأملة. وعلى الرغم من كل الاحترام الذى يكنوه لمعابدهم (جوامعهم) فليس من النادر أن يشاهدوا وهم يأكلون فيها (الجوامع) ، وينامون فيها ، ويعملون فيها خلال الساعات غير الخاصة بالصلاة . وقبل الحملة الفرنسية كانت توجد كثير من الجوامع لا يستطيع المسيحيون أو اليهود أن يعبروا أمامها وهم راكبين على ظهر خيولهم . وأوقف نابليون هذا القانون أو هذه الممارسة بأن وجه للأئمة حجة غير قابلة للنقض بأن قال لهم : « إذا كان بسبب احترام جوامعكم لا تتركون أى شخص من أى دين مختلف عن دينكم يعبر أمامها وهو راكب على حصان فلماذا لا تلتزموا أنتم أنفسكم بهذا القانون ؟ فهل من المعقول أن تطلبوا من أجل الأشياء الخاصة بصلواتكم من الأجانب شهادات الاحترام والتبجيل التى لا تعطوها أنتم لأنفسكم ؟ » . واليوم وصل التساهل والسماح إلى درجة أن الأوروبيين يستطيعون زيارة كل مساجد القاهرة (حوالى ثلاثمائة) دون خوف أو اضطراب .

ولكل مسجد « نظير » مسئول عن أدارة الدخول التى تأتى من الأملاك (الأوقاف) الخاضعة للجامع . ويرتبط بالجامع إمامان يسمى أحدهما « خطيب » وهو مسئول عن إقامة الصلاة العامة يوم الجمعة ، ويسمى الآخر « ترتيب » أو « المرتل » أو « المرتب » ومهمته هى إقامة الصلاة طوال اليوم أثناء الأوقات الخمس القانونية التى أقامها القرآن الكريم .

تمثل المآذن للجوامع منارات يرفع من فوقها الأذان ، وعددها وشكلها متروك لذوق المهندس المعمارى . والزينة الخارجية تختلف باختلاف أهمية المبنى . ومن أعلى بلكونات أو شرفات هذه الأبراج يؤذن المؤذن « الأذان » أو دعوة لصلاة الفجر ، ولصلاة الظهر ، وقبل غروب الشمس بثلاث ساعات يؤذن المؤذن لصلاة العصر ، وعند غروب الشمس يؤذن المؤذن صلاة المغرب . وبعد غروب الشمس بساعة ونصف يؤذن المؤذن لصلاة العشاء . وعندما لا توجد سوى منارة واحدة فتكون فى العادة بجانب أو أعلى البوابة الرئيسية .

أما داخل الجامع فمزين بالنحت أو المنحوتات والموزايك ، وهى تتكون من خطوط مستقيمة ، وخليط محبب من الأوراق . وفى أغلب الأحيان تسود الجوانب الثلاثة للمحراب قطعة معدنية كبيرة تحمل كتابة أثرية ذات خواص كوفية أو عربية . ونعرف أن النبى (ﷺ) قد منع بشدة عمل أشكال بالفرشاة أو بالمقص لأى كائن حى ، لأنه كان يريد أن يضرب عبادة الأوثان فى الصميم ، وهكذا لا نجد مطلقًا فى المساجد الإسلامية أشكالاً لرجال أو لحيوانات . فخيال الفنان العربى لا يسأل فى الطبيعة سوى المظاهر البراقة للنباتات ، أو يتجه كل انتباهه إلى الأشياء المضفرة والاختلاط العبقرى للأشكال الهندسية التى تمثل للوهلة الأولى مجموعة فوضوية من الخطوط المتعرجة التى وجد مفتاحها « السيد بورجوان » .

وفى أغلب الأحيان يندهش الرحالة أو السياح من الحالة الرديئة التى توجد فيها وعليها أغلب الجوامع ، وهم لا يعرفون كيف يوفقوا بين حالة الإهمال هذه والإيمان والتقوى الحماسيين للمسلمين ، والاحترام الذى يكنوه تجاه الأبنية التى يمارسون فيها صلواتهم . ولكن هذا الاحترام المتزايد هو الذى يسبب إهمالهم الظاهرى . فهم يخشون فى الواقع من انتهاك قدسية المكان عند عمل ترميمات بداخله ، ويجب فى الحقيقة أن يصبح الجامع آيلاً للسقوط حتى يقدموا على هذه الترميمات التى تنتهك قدسية المكان من وجهة نظرهم . ويذكر دائمًا اسم مؤسس الأثر الدينى وتاريخ تأسيسه فى كتابة على الحائط ، سواء بالأرقام أو بالتاريخ أو كتابة مكونة من نصف السطر الأخير تمثل حروفه العدد المراد التعبير عنه ، وهذه الأحرف لها قيمة عددية تقليدية .





(٢٥)

جـامع طولون

يرجع جامع « طولـون » أو « تيلون » إلى ما قبل تأسيس القاهرة بقـرن من الزمان ، فـهو أقـدم أثر تحتـويه هذه المدينة بين أسـوارها ، وهذا الجـامـع يقع عند طرف الجـزء الجنوبى على منحدر هضبـة تسمى جبل « يخقـار » . وتم تشييده فـى عام ٨٧٦م (٢٦٣ من للهجرة) بواسطة أحمد بن طولون الذى كان يحكم مصر آنذاك لحسابه الخاص مع اعترافه بسيادة الخليفة العباسى المعتمد بن المتوكل .

التاريخ : فى الفتـرة التى ظهر فيـها ابن طولون على السـاحة السيـاسـية ، كانت امبـراطورية الإسلام فـريسة للمؤامـرات والانقلابات الدائمـة . وكان من النادر حينئذ أن الأشخاص المؤثرة المدعـوة لوظيفـة « حاكم » تقـرر ترك بلاط الخليفة لتذهب إلى المكان الذى ستحكم فيه والذى عينت فيه . ولكن هذه الأشخاص كانت تحكم الأقاليم باسمها عن طريق قـادة الجيش (الليوتنانت) . وكـانت أرض مـصـر مقـسمـة بين مـختلف نواب الحكام والإداريين ، فـالبـعص يحكم فى الفـسطـاط ، والبـعض الآخـر فى الإسكندرية ، والبـعض الثـالث كان يحكم فى صـعـيـد مـصـر . كـمـا أن السلطة لم تكن مـركـزة فى يد واحـدة . ففـى كل من هذه الأقسام كان للجيش رئيس خاص ، بينمـا يوجد موظف آخـر مسئول عن الإدارة المدنية وجمع الضرائب .

وأدت السمعة التى كان يتمتع بها أحمـد بن طولون إلى أن يصـر « باكبـاك » الحـاكم الرسمى لمصر على اختيـاره كممثل عسكرى بالفسطاط ، وكانت الإدارة المالية ممنوحـة «لأحمد بن المدبر» . وجاء هذا الأخيـر لمقابلة القـائد العسكرى أحمـد بن طولون ، ومعه

مائة عبد هندى وأهداه هدية تقدر بنحو عشرة آلاف دينار (حوالى ١٥٠,٠٠٠ فرنك) فرفض أحمد بن طولون الذهب وطلب مبادلته بالمائة عبد مسلحين ، ولم يجرؤ ابن المدبر على الرفض وأعطاه كتيبة من « العبيد » على الرغم من خشيته من نية هذا الطلب المفاجئ . وابتداءً من هذا الوقت صارت كل السلطة بين يدى أحمد بن طولون، الذى أصبح بعد قليل ذا نفوذ قوى فى مصر يعادل سلطة « الحاكم » مع أنه لم يكن سوى ممثلاً له . كما استطاع أن يخضع بقوة السلاح كل الأعداء الذين أرادوا الاعتراض على توسيع مكان سلطته ، وكل نائبى الحكام الآخرين الذين كانوا يدعون احتفاظهم بالاستقلال عنه . وأقام بحى العسكر فى مكان دفاعى قوى للغاية حتى لا يخشى أى هجوم سواء من الداخل أو من الخارج . ولكنه لم يستطع الإقامة طويلاً فى قصر من سبقوه ، فالحصن الذى كان يحتوى على « العسكر » و « الفسطاط » أصبح غير كاف لاحتواء الدكاكين الواسعة التى تتطلبها استعداداته اللانهائية للحرب ، والعدد المتزايد يومًا بعد يوم لخيوله وعبيده ، والثروات الهائلة التى جمعها . فبحث إذن عن موقع جديد يمكن أن يجتمع مع ميزة التواجد بالقرب من الفسطاط وضواحيها ، وثبت اختياره على الهضبة التى تمتد من شرق النيل حتى أسفل جبل المقطم . وهذا المكان كان مملوءًا بالقبور المسيحية واليهودية . فقام أحمد بهدمها وبدأ ببناء قلعة وإدارة . وبعد قليل صارت الأرض مغطاة بالأبنية ، وأصبح هذا الحى الجديد مدينة بارزة بها قصور غنية ، وحدائق غناء بديعة وحماماتها وبازاراتها ، وسميت القطائع كذكرى للأراضى التى منحها أحمد لرؤساء جيشه وشركائه الرئيسيين . والمبنى لذى كان يفوق الأبنية الأخرى فى إتساعه وجلاله وبهائه وجماله هو قصر نائب الحاكم . وكان يعلو البوابة الرئيسية لهذا الأثر سطح ذو أشكال أنيقة ومنه تكتشف بانوراما عجيبة ومحببة، فنشاهد من هذا السطح الفسطاط أولاً بحصنها القديم ذى الأسوار الثقيلة ، ثم جزيرة روضة الخضراء والمزهرة التى تبرق وسط مياه النيل الهادئة ، وأبعد من ذلك خلف غابات النخيل على الضفة الغربية للنهر ، والصحراء القاحلة ، فإلى الخلف على هضبة السلسلة الليبية تظهر الأهرامات التى تفرض نفسها وتسد الأفق من هذه الناحية .

فهذه المدينة القديمة لأحمد بن طولون ، وحصنها ، وقصرها الذى يسمى «المأيدن» «El- Meidan» على اسم الميدان الذى شيدت فوقه . فلقد واجهت هذه المدينة التأثيرات الحتمية للزمن والكوارث التى أدت إليها العديد من الثورات ، وخاصة تلك التى أدمت حكم المستنصر ، منذ ذلك الحين فى مصر . فالقاهرة التى بنيت فيما بعد قد عززت وشملت بحصنها الواسع المدينة الأقل اتساعًا التى سبقتها ، ولكن آثار المدينة القديمة مازالت معروفة حق المعرفة حتى أيامنا هذه ، والجامع القديم الذى مازال موجودًا حتى الآن يكفى للتأكيد على عظمتها القديمة أو جلالها القديم . والبركة الواقعة أسفل الهضبة التى بنى عليها الفرنسيون حصن « مويرور » «Muireur» فى ١٧٩٩ مازالت تحمل اسم بركة طولون (حتى تاريخ كتابة هذا الكتاب) . ويقال أنها كانت جزءًا من حدائق أحمد ، وهضبة الأطلال صارت هى نفسها مكونة من بقايا قصره .

وفى عام ٢٥٨ من الهجرة (٨٧١ ميلادية) عين الخليفة المعتمد أحمد بن طولون رسميًا كسيد وحيد للسلطات المدنية والعسكرية ، أى لكل الإدارة السياسية والمالية لمصر. وكان أول عمل للحاكم العام الجديد هو حذف جزء من الضرائب ووضع حد للتجاوزات التى كان يقوم بها وكيل المالية ابن المدبر . وقام بعد ذلك بإصلاح مقياس النيل ، وإبداع النافورات العامة ، وأسس مستشفى فى حى العسكر ، كما قام بتشييد جامعين أحدهما بالقرب من قصره ، والآخر فوق جبل المقطم .

وأثناء انشغال أحمد بالشئون الداخلية للبلاد ، حدثت حرب ضروس هددت سلطة مصر وسلامها وهدوءها ، ووضعت العاصمة فى حالة دفاع ، وتم تحصين جزيرة روضة وحمايتها بخط من مائة مركب مسلح . وتم إقامة علامات فى بقع مختلفة ، وكان يجب على الحمام الرحالة (الزاجل) أن يحذر قادة أفرع الجيش من تحركات العدو . وتوقف الجيش الغازى بقيادة الموفق أخو الخليفة عند حدود الدلتا . وبعد ذلك تم توقيع اتفاقية سلام .

ومات أحمد بن طولون فى سن الخمسين بعد أن حكم مصر لمدة ثمانية عشر عامًا فى ٨٨٤م (٢٧٠ من الهجرة) ودفن فى المقطم . وامتدت سلطة هذا الأمير حتى سوريا . فهو الذى بنى فى يافا أول قلعة دافعت عن هذا المكان الذى كان حتى هذا

الوقت خاليًا من التحصينات . كما أنه أعاد بناء مدينة صور القديمة كلية . فقد كان أحمد موهوبًا بروح مستقيمة وبطبيعة سعيدة ، وقد درس بنفسه التقاليد الإسلامية بصفة خاصة . وامتد صيته ، أو امتدت سمعته من ضفاف النيل حتى « سامرا » التى كانت حينئذ عاصمة الخلافة . وعندما بنى الجامع الذى يحمل اسمه أمر بألا يدخر أى شىء حتى يتم تشييد بناء يفوق فى أبعاده وفى غناه جامع عمر وبالفسطاط ، ويقول المؤرخون العرب إنه كان يريد أن تكون البوابات تصير مسنودة بثلاثمائة عمود من الرخام ، ولكن تمت معارضته بأن هذا العدد الكبير من الأعمدة لا يمكن أن يوجد فى كل مصر إلا إذا تم رفعها من آثار « ممفيس » القديمة أو من كنائس المسيحيين . فاستشار أحمد الذى ينأى عنه استخدام مثل هذه الوسائل - استشار مهندسًا معماريًا- قبطيًا كان قد نفذ له من قبل العديد من الأعمال وكان يثق فيه ثقة عمياء . فاقترح عليه المهندس المعمارى القبطى أن يبنى جامع بالجمال الذى يريده دون استخدام عمود واحد فيما عدا الأعمدة التى يجب أن توضع على الرغم من ذلك من كل جهة من القبلة . ووجد أن التخطيط كان كاملاً فأعطى أحمد فى الحال الأمر بالبدء فى البناء . وارتفع البناء مكونًا من الطوب الأبيض (أو أكسيد الكالسيوم) والطوب الأحمر (الطوب الطينى المحروق) بدون أى مادة قابلة للاشتعال . وقال مؤسس الجامع : « إذا كانت الفسطاط وضواحيها سوف تباد يومًا ما بالماء أو بالنار فإنى أريد أن يظل مسجدى موجودًا بعد هذا الدمار » .

واكتمل بناء المبنى بعد عامين ، وعلقت بالسطح الداخلى المقوس ثلاثمائة لمبة من البرونز بواسطة سلاسل طويلة من النحاس لتزيين القسم الداخلى من الجامع . وغطى الحصير والسجاد الأرض . وفى شهر رمضان عام ٢٦٣ من الهجرة أعلن أحمد أن المعبد صار مفتوحًا لصلاة المؤمنين ، ومع ذلك لم يتقدم أى شخص . فقد كان يخشى من أن المال الذى دفع لبناء هذا الجامع الغنى قد تم الحصول عليه بطرق غير شرعية . لكن الأمير برأ نفسه من هذا الشك ، وأعلن رسميًا بحلف بأنه لم ينفق أكثر مما حصل عليه من المال . وأتم اطمئنان الشعب بالتأكيد على أنه أثناء جولاته عند حدود المدينة قد وجد كنزًا يكفى لبناء جامع وتجميله .

ويحاط جامع طولون بسورين حتى يتم عزل مكان الصلاة عن أصوات الخارج . والمدخل الرئيسى يقع تحت قوس مستعرض يفتح على الواجهة الشمالية ، أو بطريقة أدق يفتح على الواجهة الشمالية الغربية للمبنى . وتشكل أربعًا وثلاثين نافذة صغيرة على شكل قوسين متقاطعين مقابل كل واجهة بطريقة مضحكة . وتطل فتحاتها اثنين اثنين على سبعة عشر قوسًا بالأروقة الداخلية . وتم عمل الأسقف من خشب النخيل ، وكانت تغطى قطع الخرسانة المسلحة بالخشب حتى تظهر متعامدة . وتحت السقف مباشرة توجد قطعة من الخشب نحت فوقها القرآن الكريم ككل بحروف « كوفية » . ويدعى بعض المؤرخين العرب « أن هذه القطعة الخشبية مازالت موجودة على أجزاء ، وهى مكونة من قطع خشبية من سفينة نوح التى وجد أحمد بقاياها فوق جبل أراراط فى «أرمينيا» .

وفى وسط الفناء أو الصحن يرتفع سقف تعلوه قبة عالية مسنودة بثمانية أعمدة من الرخام ومزينة من الخارج بنوع من الخشب المضفر المكسو بالذهب ، كما يدعمها ستة عشر عمودًا أخرى وأكواب من البرونز الممتلئة بالعطور (البخور) الذى يحرق كل يوم جمعة أثناء الصلوات الرسمية . وتحت القبة ذات اللون الأزرق السماوى تنتشر النجوم الذهبية، كما يوجد تحت القبة حوض من الموزايك تنبعث منه المياه على حزم ، ويؤدى إلى ترطيب هذا المكان برطوبة منعشة .

وبالقرب من المدخل الرئيسى للجامع يرتفع قصر يسمى منزل الحكومة حيث يقف « أحمد » عند مجيئه لحضور الصلوات العامة . ويتصل هذا القصر بالجامع عن طريق غرفة محاطة بالستائر ، وهذه الغرفة تشكل نوعًا من المقصورة التى يقف فيها الأمير وعائلته أثناء الحفلات ، وعلى الناحية الجنوبية الغربية لحائط السور كانت تقع مدرسة شعبية يعلم فيها تلاميذ المعلم (المربى) « ابن سليمان » الدين والشريعة .

ويمكن النظر لجامع طولون على أنه النموذج الأنقى للعمارة العربية فى مصر أثناء الحقبة الأولى . وهو مثال لمجموعة من التفاصيل التى لا داعى لها وتصدم العين فى أغلب الجوامع الأخرى ، وبنى الجامع مرة واحدة أو على مرحلة واحدة ، والإصلاحات

التى قام بها السلطان الملك « المنصور لاجين » فى ١٢٩٦م (٦٩٦ من الهجرة) لم تأت بأى تطوير مهم . والحوائط مبنية من الطوب الأحمر المغطى بدهان سميك تنفصل من فوقه الزينات البارزة من الجبس الأبيض التى تشبه الرخام ، وأعمدة صغيرة متداخلة تكون زوايا مع الأعمدة التى تحمل السقف المقوس بزاوية حادة والحساس ، وأعلى كل عمود معشق توجد فتحة على شكل قوسين متقاطعين تم إعدادها لتعطى مزيداً من الجمال والخفة للأبواب . والديكور متكامل ومتحد ، وفتحات النوافذ التى تم عملها فى الحوائط الخارجية تم بنائها من الأحجار الكلسية وتقطيعها بنظام بدون زجاج . ويغطى كل من محيط الفتحات وأسفل السقف المقوس بالأرابيسك والكتابات .

وللمحراب خمسة صفوف من الأبواب . والمنبر مصنوع من خشب البندق ، ومقسم إلى أقسام مغطاة بطبقة من العاج ومقطعة بنظام ، والباب المنحوت بدقة يعلوه بروز طبيعى من كتل كلسية . وتنفصل القبلة بيافطة مليئة بالزينات الملونة محاطة بإطار من الزينات المعمارية البارزة ، والقبلة مسنودة بأربعة أعمدة ، اثنان منها من الرخام الأسود، والخلفية من الموزايك ، وتم إصلاح القسم العلوى ، والموازيك لا يتناسب مع الدهان . والجزء العلوى من القبلة يستدير بجمال قبة صغيرة منتظمة مسنودة بأعمدة مائلة من الخشب . كما توجد بالجامع قبلة أخرى مصنوعة كلها من الجبس ، وهى أقدم من بقية أجزاء الأثر ، وتقع هذه القبة على بعد خمسة وعشرين متراً إلى يسار المنبر .

وحوض الوضوء الذى يوجد اليوم قد حل محل المبنى القديم الذى تم حرقه فى عام ١٢٩٤م (سنة ٧٩٤ من الهجرة) تحت حكم « الملك العادل كتبغا » . وتغطى هذا الحوض قبة مبنية من الطوب مرتبطة بقاعدة مربعة بواسطة أعمدة مائلة متوجة بكتابة أثرية بحروف نسخية . وينتهى الحائط الداخلى للفناء بقطعة كبيرة مع زجاج محفور مكتوب عليه داخل برواز له ثمانية أضلاع . والجزء العلوى من سور الفناء أو الحصن ينقسم إلى أجزاء بارزة على هيئة هلال وتشبه من بعيد حافة لا نهائية من الدانتيل .

وللجامع ثلاث منارات هدموا تماماً ، وأكبر هذه المنارات لها شكل غريب جداً ، فالقاعدة مربعة وسميكة تحمل برجاً مستديراً ينتهى ببرج آخر له ثمانية أضلاع يتكون

من دورين . وأسفل المنارة يوجد باب على شكل حدوة الحصان وهو يفتح على السلم الخارجى الذى يرسم خطًا متعرجًا حتى الرواق العلوى . وأعلى المبنى متوج بقطعة معدنية خفيفة من البرونز على شكل مركب صغير كان يوضع فيه قديمًا قمح وماء للعصافير . ويقول أحد الكتاب العرب : « إن هذه القطعة المعدنية الخفيفة كانت لفترة طويلة مصدرًا لخرافات الناس . فحركاتها تماثل ثورات الشمس ، وإذا انحرفت فى بعض الأحيان بسبب الريح فيجب انتظار حدوث أحداث عظيمة » .

فى عام ١٨٤٧م حول محمد على جامع طولون الذى لم يكن يصلى فيه أحد حينئذ إلى منزل ضيافة « لكبار السن » والمرضى الدائمين وكان كلوت بيه هو المسئول عن هذا البناء الخيرى . ويقول (السيد بريس دافنن) : « يرجع سبب هدم هذا الأثر الجميل والقديم من الفن العربى « لكلوت بيه » ، لأنه حتى يكون هذا البناء الواسع صالح لهدفه الجديد قام « كلوت بيه » بسد كل الأسقف المقوسة بحوائط رديئة مثقوبة بشبابيك لها زجاج. كما قام بتقسيم المبنى إلى مساكن صغيرة . فلم يعد من المحال اليوم ضم الجامع ككل، أو حتى رسم التفاصيل الرئيسية الخاصة به . ولا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الأسف لعدم جدوى مثل هذا الفعل الهدام للأعمال الفنية الذى يختفى تحت قناع حب الإنسانية » .

وكان يمثل جامع طولون حتى عام ١٨٨٠ مظهرًا لفناء « المعجزات » . فكل بؤساء الحياة الإنسانية كان يجتمعون فيه . وكان الرحالة أو السائح يستطيع بالكاد أن يدافع عن نفسه ضد الفقراء والمرضى الدائمين أو العاجزين وهم نصف عراة ويتعقبونه دون هوادة بتوسلاتهم المزعجة المصحوبة بحركاتهم المنفرة . فقد كان يجتمع تحت بوابات الجامع مجموعات من كبار السن المتعبين وهم يرتدون الملابس المهلهلة ، ويبدون وكأنهم لا يستطيعون فرد أياديهم . وكان البلهاء من الناس يجرون ويجرون وهم يصرخون صرخات تصم الآذان ، أو يفرجون أساريرهم بضحكات غبية وهم يديرون عيونهم التائهة فى محاولة لنيل عطف الزائر على مصيرهم . ورؤية هؤلاء التعساء ، والمعاملة القاسية التى ينالونها من حارسهم. تعطى مشهدًا مثيرًا للشفقة والازدراء فى آن واحد .

وأمر الخليفة بأن ينقل هؤلاء التعساء إلى « مورستان بولاق » حيث ينالون علاجًا أحسن .

والجامع مهجور اليوم ، ولا يسمع صوت يعكر الهدوء العميق الذى يسود فى أسواره الواسعة جدًا . وبعبور أجزاء المحراب حيث لا يجيب الصدى حتى على أصوات الخطوات نرجع رغمًا عنا إلى العصور الأولى للإسلام ، ويبدو هذا المسجد القديم كأنه يعيش للحظة وسط أنقاضه الخربة . ولكننا نعود سريعًا إلى الواقع المرير عندما نجد أنفسنا وسط هذه الأحجار التى تتحر ، وهذه الأسقف التى تنهار ، وتدمى قلوبنا عندما نتخيل أن الأطلال الأخيرة لهذا العمل العظيم سوف تتلاشى بعد قليل تحت كومة من الأنقاض .

* * *



(٢٦)

جـامع الأزهـر

يقع الجامع الأزهر فى الجزء الشرقى من المدينة على يمين الشارع الجديد الذى يعد امتدادًا لشارع الموسكى ، وعلى مسافة قصيرة من باب « الغُريبْ » «Ghoraib» وقد بناه « جوهر الصقلى » القائد العسكرى للخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى عام ٣٦٢ من الهجرة أو عام ٨٧٣م (بعد ميلاد « يسوع المسيح ») أى بعد ثلاث سنوات من تأسيس القاهرة . ويعنى « جامع الأزهر » جامع الزهور أو الازدهار . ويحتمل أن يكون هذا الاسم قد أعطى له تلميحًا للقب الزهراء (الوردة المزهرة) الذى كانت تحمله فاطمة ابنة النبى (ﷺ) التى يدعى المعز أنه أحد أحفادها . ويتميز هذا الجامع باتساعه وبهائه وغنى الأساس الذى تبرع به المؤمنون من أجل بنائه . وجعل جوهر من هذا البناء أثرًا حقيقيًا للسخاء الملكى . وتحت حكم العزيز بالله ابن المعز وخليفته (حكم بعده) تم تجهيز الجامع بمكتبة غنية ، وتم تشييد هذه المكتبة كجامعة يأتى المسلمون من الأماكن البعيدة جدًا ليدرسوا فيها علوم الدين وكل العلوم التى طورها العرب فى ذلك الحين . ومنذ هذا الوقت لم يتوقف هذا الجامع عن التوسع والتجمل ، وحصلت جامعته (أو كليته) بصفة خاصة على سمعة وصيت شملا أرجاء الدنيا بعد قليل . وفى الوقت الحالى يعد الأزهر أشهر جامعة فى كل البلدان الإسلامية .

ودمر الأزهر تدميرًا جزئيًا بواسطة الزلزال المهلك فى عام ١٣٠٢م (أو ٧٠٢ من الهجرة) ، وأعطى الملك الناصر بن قلاوون مسئولية إعادة بناء هذا الجامع للأمير «ركن الدين بيبرس» ، وبنى فيه « قايتباى أبو النصر » فى حوالى ١٤٨٣م حمام سباحة

كبيرًا ونافورة عامة . وبعد ذلك بعشرين عامًا قام « قانصوه الغورى » بتجميله بمنارة جديدة . وفى عامى ١٥٩٥م - ١٥٩٦م تم توسيعه وترميمه بواسطة الباشا التركى السيد محمد الذى حكم مصر أثناء سلطة أو خلافة محمد بن مراد (محمد الثالث) . وأخيرًا تم القيام بترميمات جديدة بواسطة كل من « شيخ البلد » « إسماعيل بيه » فى عام ١٧٢٠م ، وبواسطة عبد الرحمن كتخدا فى عام ١٧٨٥م ، وبواسطة سعيد باشا فى عام ١٨٥٩م .

وكانت أبعاد هذا الأثر كافية يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م لتكون ملجأ لخمسة عشر ألف ثائر داسهم الجنرال « بون » «Bon» فى الشوارع أثناء ثورة القاهرة خلال الحملة الفرنسية . ولم يتبقَ مطلقًا من الجامع الأولى أو البدائى سوى الأعمدة وبعض الأقواس أو الأسقف المقوسة . وكل اتصال متتالٍ يختلف عن الاتصالات الأخرى كخاصية معمارية . وبناء المراحل التالية كان بالأحجار الصلبة ذات قواعد منتظمة ، ونلاحظ بصفة خاصة أن أقواس الأبواب تتكون من أربع خطوط مستقيمة تشكل ثلاث زوايا . والشبابيك ذات أقواس حادة ومبنية من قوسين . وأقواس سقف المدخل الرئيسى أكثر تقوسًا ، ويسندها كثير من الأعمدة الصغيرة .

والمبنى الحالى للجامع يمثل شكلاً كثير الأضلاع غير منتظم يصل طول أطول جانب فيه إلى ١٥٠ مترًا والمبنى ككل تحدوه إنشاءات مختلفة مستقلة عن الجامع ولا تترك فراغًا سوى لستة مداخل ، ألا وهى باب المزينين إلى الغرب ، وهو أكبر المداخل ، وباب الجوهرية إلى الشمال ، وباب الشورية إلى الشرق ، وباب الصعيدية (صعيد مصر) ، وباب الشوام (باب السوريين) ، وباب المغاربة (باب شمال أفريقيا) ، والأبواب الثلاثة الأخيرة تقع فى الجنوب .

المدخل الغربى يؤدى إلى فناء أو صحن محدود الأبعاد ، وينفصل عن الفناء الكبير التالى ببوابة . وهو مكان أمام الجامع يستخدم كملتقى لتجار جميع البضائع .. تجار الخضروات وتجار الفاكهة ، وتجار الفول المدمس ، والحلاقون الذين يمارسون مهنتهم . وفى مواجهة الحائط اليسارى الذى ترتفع فوقه منارة رديئة الأسلوب يوجد بعض

الطلاب العرب المغاربة والبربر الذين يحلقون رؤوسهم تمامًا ويختفى جلد الجمجمة تحت طبقة رغوية من الصابون . ومن كل ناحية من هذا الفناء يوجد محراب أو زاوية يؤمها المسلمون الذين لا يريدون أن يختلطوا مع الطلاب . والبوابة الثانية تنتمى إلى فترة الانهيار للفن الموريتانى ، والكتل الكلسية ثقيلة وزائدة عن الحد . وحلت الزينة التركية التى على هيئة أوراق مجمعة بارزة داخل دائرة محل الزينة العربية من المنحوتات الرقيقة ذات البروز القليل . ويوجد دهان ردئ من أكسيد الكالسيوم أزرق وأحمر وذهبى ينفصل من كل لوحة معدنية وله خلفية صفراء . وعندما نعبر عتبة المدخل الواسع نجد أنفسنا فى فناء الجامع الواسع . واثنين من الواجهات يعدان أسوارًا كبيرة بيضاء ترسم فوقها مجرد خطوط طويلة من الظل المنعكس بواسطة أبر السطح الشمسى المقسم بتداريج . وإلى اليمين تفتح أبواب الأروقة التى تشكل مجموعة متتالية من الأبنية دون تماثل ودون أسلوب . وفى مواجهة ذلك وبعيدًا جدًا عند خلفية الفناء ترتاح العين بسعادة على الصف الواسع لأعمدة البوابة . وهنا وهناك تنتصب المنارات التى نجح العرب بالكاد فى تشييدها مثل المنارة التى تقع بالقرب من المدخل .

ومظهر هذا الفناء غريب . فآلاف من الطلاب من كل الأعمار ، ومن كل الألوان ، ابتداء من الطلاب الأتراك ذوى السحنة الباهتة إلى الطلاب العرب ذوى السحنة البنية أو البرونزية من شدة الشمس ، إلى الطلاب الزنوج ذوى السحنة السوداء اللامعة الجميلة . فهؤلاء الطلاب ينتشرون فى مجموعات هنا وهناك ، وتعبر تلك المجموعات كذلك عن تنوع ملابسهم . فبعض الطلاب ينام على الرخام ويرتاح فى هدوء ، والبعض الآخر يحفظ عن ظهر قلب بتحريك الجزع ، وآخرون يخيطون أو يشغلون التريكو ، ومجموعة أخرى تعمل معًا وتكتب الدروس التى سمعتها منذ فترة وجيزة ، وطلاب آخرون يتناولون وجبتهم معًا .

وفى الجزء الشرقى من الفناء يوجد الجامع على حقيقته . وهو عبارة عن صالة لا نهائية تشكل متوازى أضلاع بطول ما يقرب من ثلاثة آلاف متر مربع ، ويوجد ١٧٢

عمودًا تشكل تسعة صفوف من الجامع ، يسندون سقفًا أسود بفعل الزمن أو أكثر من ذلك بتأثير دخان ١٢٠٠ مصباح معلقين بسلاسل من البرونز . وعلى الجوانب الثلاثة تمتلئ الحوائط بالسجاجيد فى كل مكان تسمح به الأبواب والشبابيك ، كما توجد صناديق وخزن تحتوى على كتب دراسية وعلى ملابس الطلاب القديمة . وفى الخلف يرتفع المنبر بسلمه البارز المغطى بالأرابيسك من الخشب المنحوت . كما يغطى هذا الأرابيسك بابًا صغيرًا آخر مع بروز طبيعى عريض من الكتل الكلسية . ويتوج هذا المنبر الذى يقف عليه الإمام يوم الجمعة - يتوج بقطعة من القماش تنتهى بكرة تسندها أربع أعمدة صغيرة مزينة . وإمام المنبر ترفع الدكة ، وهى مكان مرتفع واسع يجلس عليه الفقهاء للقراءة العامة والرسمية للقرآن الكريم . وإلى اليمين واليسار تتمثل فى الحائط الأربع قبل للصلاة وفقّات للطوائف الأربع السنية للإسلام .

ويعطى عدد الأعمدة الذى لا يحصى يعطى سمة عجيبة على المبنى ككل . فانخفاض الأرض قليلاً وعدم تساوى ارتفاع الصالة ، واختلاف الأسلوب فى عدم ضبط رسومات الخشب والرخام على الحوائط . كل ذلك يؤدى إلى وصلات متتالية . وكان الجامع الأولى أو البدائى أقل عمقًا من البناء الحالى بحوالى النصف . وكانت الأعمدة من أجمل الرخام ، والقطع المنحوتة التى تجمل جسم الأعمدة كانت ذات أنظمة مختلفة ، وتآكلت فى اتجاه الزوايا بفعل الزمن ، ويبدو أنها كانت تنتمى إلى زمن البطالمة اليونانيين الذين أعطوا الكثير من المواد للأبنية العربية . ولا يتبق شىء من الفن فى عمارة الجامع . الألف مصباح التى تسقط من الأسقف ، والخطوط الطويلة لصفوف الأعمدة التى تجذب النظر وتقوده إلى الفراغ البعيد بجعل هذه الصالة اللانهائية تبدو وكأنها أكثر اتساعًا ، فهذا الامتداد النسبى الحادث بسبب عدم وجود أقواس بالسقف والدهان الغامق الذى ينتج عن ذلك ، والذى يزيد إظلامًا بفعل قدم رسومات الخشب والرخام ، كل ذلك يكون مجموعة جذابة قادرة أن تسحر لب أحد الرسامين المعجبين بالألوان من المدرسة الهولندية ، ولكنها لا تجذب نظرات أى رسام معمارى لفترة طويلة .

وإلى اليسار من المحراب تؤدى بوابة صغيرة إلى « زواية العميان » . ومبنى « زواية العميان » واسع بدرجة كافية ، وأبعاده متناسبة جدًا . تجعله أقل امتدادًا من الجامع . وتتوغل أشعة الشمس عبر فتحة مثقوبة فى وسط السقف ، وتنزل هذه الأشعة وسط الصالة تاركةالعميان فى ظلام دائم ، ولا يهم ذلك ، فالذين يسكنون هذه الصالة لا يرون مطلقًا ضوء النهار . وفى بعض الأحيان يعطى أحد الشيوخ للعميان تمارين الحساب . وبدون شك ليس لهذه الدراسات هدف عملى ، لأن هؤلاء البسطاء قد لا يستطيعوا أن يطبقوا معرفتهم الفقيرة ، ومع ذلك فهم يكرسون لهذه الدراسة كل انتباههم ، ونشعر أنهم ينسون خلال هذه الساعات من الدردشة أن الضوء لم يخلق من أجلهم ، وتستتير سماتهم الحزينة بالسعادة عندما يتوصلون إلى النتيجة المطلوبة . لأنهم ككل المكفوفين سماتهم حزينة . وفى مكان أبعد يوجد شيخ آخر يجلس فى مواجهة مجموعة أخرى من المكفوفين ويقرأ لهم ببطء مقاطع من القرآن الكريم والسنة وهم يكررون هذه المقاطع ويحفظونها دينيًا فى ذاكرتهم . ومع رؤية الرضا الرقيق ، والسعادة العميقة التى ترتسم على وجوههم نتصالح تقريبًا مع مظاهر الفقر الإنسانى . ولقد شاهدت هذه الصالة المظلمة كثيرًا ممن كرسوا حياتهم لله ، فهنا يوجد عمل صالح يستمر فى الظل وفى هدوء ، ويثير الإعجاب لأنه يتم بدون مظاهر خارجية ، ولا يحكى عنه أمام أعين الغرباء ، ولقد مر من هنا أكثر من شخص دون أن يلاحظ هذه الجماعات ، وفى هذا المكان يكرس أهل الخير الساعات الطوال لإراحة أخوانهم التعساء .

ويبلغ عدد طلاب جامعة الأزهر حوالى ٩٠٠٠ طالب موزعون داخل الأروقة أو الصالات الخاصة والحارات أو الأحياء التى تناظر مختلف البلدان التى أرسلت أبناءها إلى الجامع المشهور . وعدد الأروقة ٣١ ، وعدد الحارات ١٢ وهم بالنسبة لمصر ، أروقة الصعايدة بالنسبة لصعيد مصر ، البحاروة بالنسبة لمصر السفلى (الدلتا) ، والشراقوة بالنسبة لإقليم الشرقية ، والفيومية بالنسبة لإقليم الفيوم ، وحارة الأسناوية والجيزاوية بالنسبة لإسنا والجيزة إلخ ، وبالنسبة لبلدان الإسلام الأخرى أروقة الشوام بالنسبة لسوريا ، والبغدادية بالنسبة لبغداد ، والهنود بالنسبة للهند ، واليمنية بالنسبة لليمن ،

والمغاربة بالنسبة للمغرب ، والجزائريون ، والتوانسة ، والحرمين بالنسبة للمدينتين المقدستين مكة والمدينة إلخ .

وأيًا كانت عدد هذه الصالات فإنها لا تكفى لإقامة كل طلاب الأزهر . وبالنسبة لمن تسمح لهم ظروفهم المادية فهم يعيشون فى الوكالات أو اللوكاندات التى بالقرب من الجامع ، وفى الصيف لا يسكن الطلاب الأروقة لصعوبة دخول تيارات الهواء الخارجى فيها ، ويستخدم الفناء الواسع كصالة للنوم الجماعى ، وهذا الفعل له تأثير على الإصابات العديدة بالتهاب العيون التى نلاحظها بين الطلاب .

وينقسم الإسلام إلى عدد كبير من الطوائف حوالى اثنين وسبعين طائفة ، والطائفتان الرئيسيتان هما السنة ، والشيعة . فالسنة يعترفون بعصمة الخلفاء الأوائل ، أى أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، ويقبلون كل التفسيرات الخاصة بهم للقرآن والسنة ، وكل قراراتهم الشرعية . فالسنة عبارة عن استخراج واسع للتقاليد الذى يستكمل كإضافة أو تكملة للقرآن . وعلى العكس من ذلك يدعى الشيعة أن الخليفة الحقيقى للنبى محمد (ﷺ) هو على ، وهو نسيبه وابنه الذى تبناه ، وقد عينه (ﷺ) خليفة للأمم الإسلامية. لذلك فكل تفسير للقرآن يعطيه آخرون (غير على) يعتبر بالنسبة لهم مناقضًا للإيمان. وهم ينكرون الاختيار المطلق المسبق ، ولا يريدون أن يقبلوا عدم خلق القرآن . كما يبجل الشيعة حسين وعلى كوليين ، ويقتنع بعض جماعات طائفة الشيعة مثل الناصائيرى والمتولى الذين يسكنون جزءًا من مرتفعات لبنان يقتنعون بأن على يتسربل بخاصية إلهية ويؤدون له نوع من الصلاة ، وينتشر الشيعة بصفة خاصة فى إيران (بلاد الفرس) وفى منغوليا (بلاد المغول) .

كما تنقسم السُّنة إلى أربع مذاهب (أو شعائر) ، ألا وهى الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنبلية ، وأقدم هذه المذاهب هو مذهب أو شعائر الحنفية الذى أسسه الإمام النعمان أبو حنيفة ، والذى مات فى بغداد فى عام ١٥٠ من الهجرة أو ٧٦٧م إى بعد تأسيس هذه المدينة بخمس سنوات . وهذه الشعائر أو المذاهب يتم اتباعها فى بلاط الآستانة (اسطمبول حاليًا) وبواسطة الأتراك . وأسس مالك بن أنس الذى مات

فى المدينة المنورة عام ١٧٩ من الهجرة أو ٩٧٥م أسس مذهب المالكيين ، وهذا المذهب له أتباعه الذين يتواجدون بصفة خاصة فى تونس ، وطرابلس ، والجزائر والمغرب .. وتنتمى مصر كلها تقريبًا إلى المذهب الشافعى الذى يرجع أصله إلى الإمام أبو عبد الله محمد الشافعى الذى مات فى الفسطاط عام ٢٠٤ من الهجرة أو ٨١٩ م . وأخيرًا مات أحمد بن حنبل بعد ذلك بسبعة وثلاثين عامًا ، وترك أتباع مذهبه فى سورية وفيما بين النهرين وفى اليمن . وعدد أتباع المذهب الحنبلى قليل جدًا فى القاهرة .

وكل من هذه المذاهب يكن احترامًا وتبجيلاً عظيمًا لذكرى وأفكار الأئمة الأوائل للطوائف الأخرى مع التركيز (التبجيل الزائد) لوجهة النظر الخاصة لمؤسسه . فيرفض أتباع المذهب الشافعى تلاقى المنطق مع الفلسفة مع إيمانهم بنصوص القرآن والسنة أو التقليد . وأتباع المذهب الحنفى لا يقبلون السنة (فى تفسير القرآن) إلا عندما لا يكفى المنطق لتفسير القرآن ، وذلك دون أن يرفضوا سلطة السنة . وعلى النقيض من ذلك لا يتبنى أتباع المذهبين المالكى والحنبلى اللجوء للمنطق البشرى فى تفسير القرآن إلا عندما لا تصلح السنة أو التقليد . وفى الأزهر ينقسم الأساتذة والطلاب بين المذاهب الأربعة . ولكل مذهب شيخ خاص أو رئيس . وعدد الأساتذة ٣٠٨ منهم ١٤٥ للمذهب الشافعى ، و ٩٢ للمذهب المالكى ، و ٦٧ للمذهب الحنفى، و ٤ فقط للمذهب الحنبلى .

ويعد الأزهر كل شيء بالنسبة للطلاب ، فهم يأكلون فيه وينامون فيه على الحصير الذى يغطى الأرض ، أما القهوة والبايب أو التدخين فممنوع داخله . وأسفل كل عمود يجلس كل أستاذ القرفصاء ، وتتكون حوله دائرة تتكون من الطلاب الشبان والعجائز مختلطين . ويتكاثر الطلاب حول الشيوخ المشهورين . ويتضاءلون حول الشيوخ الآخرين، ومن النادر أن نرى أكثر من أربعين شخص مجتمعين . ويجلس الطلاب بطرق مختلفة فأغلبهم يجلسون على الطريقة العربية ، وآخرون ينامون بطولهم ويضغطون رؤوسهم على أكواعهم ، وتتركز عيونهم على الأوراق التى بسطوها على الأرض أو تتجه نظراتهم

بإلحاح إلى أستاذهم ويجلسون خلف الصف الأول ، وآخرون يجلسون على ركبهم ويضغطون على يدهم اليسرى ليكتبوا أوراقهم ، أو يظلوا واقفين لكى يسودوا المجموعة ككل .

ويستحيل على أى أوروبى أن يحكم على قيمة دراسات الأزهر . فالعلم النظرى بالمشرق يختلف كثيرًا عن العلم الغربى أو العلم الفرنسى ، فالأفكار التى تدور فى عقول علماء الإسلام ترتكز فى أغلب الأحيان على منطق غريب بالنسبة لنا نحن الفرنسيين ، لدرجة أنه من الحكمة أن نمتنع عن أى تقدير . وما نستطيع أن نؤكده فقط هو أن الدراسات التى تدرس فى الجامع الكبير تلقائية جدًا بدرجة كبيرة . فالطلاب يعملون كثيرًا بلا شك ، ويقرأون ويعلقون كثيرًا على أعمال الأساتذة القدماء . ولكن إبداعهم ميت . فالطلاب يتعلمون بغيرة وحماس ، ولكن ما يتعلمونه هو كلمات وجمل وليس أفكارًا . مثلما يحدث فى المدارس الابتدائية حينما يطلب المدرسون من ذاكرة الطلاب قوة إضافية . وذلك بجعلهم يسمعون الستة آلاف آية قرآنية ، فهم بذلك يزيدون حمولة ذاكرة الأطفال الدارسين بكمية من المعلومات الدقيقة التى لا ترتكز فى أغلب الأحيان على أى قاعدة صلبة . وبدلاً من أن يكتسب العقل أفكارًا جديدة فإنه يركز عن طريق هذا النوع من التمارين على دقائق تقتل الذكاء ولا تسمح بالتطور سوى للطاقات غير العادية ، ويحدث هذا التطور فى مناخ مميت للمواهب .

وكان الأزهر يتمتع طول الوقت بسمعة أو صيت دولى . وكانوا يأتون إليه كما لو كانوا يأتون من الهند ، أو من بلاد فارس (إيران) ومن السودان وكل بلد يتبرع بمنح وهبات دينية أو خيرية ليلبى احتياجات من يرسلهم ، وذلك فى الوقت الذى انطفأت فيه جامعات دمشق ، وبغداد ، وباشورة مصحوبة بانهيار الحياة الفكرية العربية . فاحتفظ الأزهر بكرامته وسموه ، وهو اليوم أهم جامعة إسلامية - إن لم يكن الجامعة الإسلامية الوحيدة الهامة - فهو مركز المذهب أو الفكر المستقيم ، وملجأ أو ملاذ كل اعتراض يمكن أن يحدث ضد إدخال الأفكار الحديثة . وكثير من السياح حكوا أن المسلمين كانوا غير متسامحين تجاه المسيحيين الذين يزورون الأزهر ، وأن الأجانب كانوا يُشتمون فيه

فى بعض الأحيان. وهذا خطأ يجب أن نمحوه نحن الفرنسيين أو الأوربيين (السياح). فإذا تقدم السائح وحده ومعه كارت أو بطاقة تحقيق شخصية صادرة له من وزارة الأوقاف ، وإذا كان يتجنب الإساءة إلى العادات ، وإذا اهتم حقيقة بكل ما يراه وبكل ما يحيط به دون أن يظهر على الملأ أن زيارته ليس لها أى هدف سوى إشباع سطحى لحاجة من الشغف فلن يشكو مطلقًا من الاستقبال الذى يستقبل به أو يعد له فى الأزهر ، فهو سيقابل على العكس من يهم لخدمته وللإجابة على أسئلته ، ولإعطائه البيانات التى يرغبها . ولكن إذا حدث عكس ذلك واجتمع الزوار فى جماعات سعيدة للتوغل فى أحد أماكن الصلاة ، وهذا ما يتكرر كثيرًا ، فإذا انطلقت الضحكات عند الدخول عندما تدخل أقدام الأوروبيين فى « البانتوفلى » بطريقة حتمية ، وهذا «البانتوفلى» يعطى لمن يرتديه ثقلاً مضحكًا فى خطواته ، وإذا كانت الدهشة التى يثيرها المشهد بطبيعة الحال تتكشف بشهقات إعجاب غير مكتومة ، ويظهر هذا المشهد على نظرات الزائرين . فهل يفاجأ الزائرون مع ذلك عند سماع كلمات غير لائقة ترن فى أذانهم ؟ وماذا سنقول إذا سلكت مجموعة من الأتراك أو العرب بطريقة غير مناسبة فى الكنائس الغربية أو الأوروبية ؟ إن المسلم يشعر بأنه على راحته فى جامعه ، وهذا ما يدفعه بالضبط فى أغلب الأحيان بألا يقلل من التعبير عن مشاعره .

* * *



(٢٧)

جـامع الحاكم

وخلف الأسوار القديمة التى تحد جزءًا من المدينة فى الشمال ، وبالقرب من الباب المسمى بباب الفتوح يرتفع الجامع الذى بناه الخليفة الحاكم بأمر الله فى ١٠٠٣م (٣٩٣هـ) أى بعد تأسيس القاهرة بأربعة وثلاثين عامًا . ويشبه هذا الأثر فى مجمله جامع طولون . فالمنارتان ذات قاعدة مربعة ، ويذكرنا شكلها بالأبنية المصرية القديمة . وقد كانت هذه المنارات اسطوانية ، ولكن أحد وزراء المستنصر بالله قد أحاطها بهذه الطريقة لحماية أسوار المدينة . والمنارة الشمالية محصورة فى الحصون بين باب النصر وباب الفتوح . وأثناء الحملة الفرنسية كانت هذه المنارة تحمل اسم حصن فابى أو الحصن الشجاع ، وهذا الاسم لم يزل مكتوبًا على الواجهة الشرقية . والكتابة العربية التى نقرأها أعلى الشقوق حديثة .

والجامع الذى دمر جزء منه بفعل زلزال قد رممه السلطان بيبرس الجاشنكير فى ١٣٠٨ م . وبعد قرن من الزمان قام الملك الأشرف برسباى بتجميلة بكثير من الزينات .

* * *

تاريـــخ

لقد خلف « الحاكم » الخليفة الفاطمى الثالث والده عندما كان يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة فى عام ٩٩٦م (٣٨٦هـ) وكان الوزير أرخوان وصيًا عليه ، وفى سن الرابعة عشرة أعلن الغلام الحاكم بأنه يستطيع أن يدير بنفسه شئون الدولة . وفى هذه

الفترة أسس شيخ ضرير طائفة إسلامية جديدة وأقام أتباع هذه الطائفة بمصر . وهدم أتباع هذه الطائفة كل المعتقدات الإسلامية وكثيرًا من ممارسات الدين الإسلامى ، ومن بينها صلاة الجمعة وعيد الأضحى ، وعيد الفطر ، وحل الحج لمعبد « طالاب » باليمن محل الحج لمكة . وقبلوا مبادئ تتعارض كليًا مع مبادئ القرآن ، وسمحوا بزواج الأخوة والأخوات .

وكان الخليفة الشاب أو الغلام قد انتهى لتوه من بناء جامعه عندما عجل باتباع معتقدات الطائفة الجديدة بعدما أغراه أتباعها بذلك . وأقنع نفسه بأنه دعى لإتمام رسالة إلهية . فكان يذهب كل صباح قبل شروق الشمس وحده إلى جبل المقطم حيث كان يدعى أنه يتقابل مع الله مثل النبى « موسى » من قبل . وكان يرتدى ملابس بسيطة جدًا ، ويؤدى صلواته وسط جماعة محتشدة من الناس ثم يعظ هذه الجماعة بعد ذلك. وبعد قليل ادعى بأنه الرئيس الشرعى والإمام الأعلى للإسلام ، وأعلن انفصاله وإدانته للخلفاء الأوائل وصحابة النبى (ﷺ) ويوم ما أعلن أتباعه فى كل المدينة أن الخليفة يدعو الشعب للاجتماع فى جامعه لسماع قصة الاتصالات التى حصل عليها من الله تعالى . وأعلن الحاكم حينئذ على الملأ بأنه سينتقد الدين الإسلامى وسيعرف الناس بالقوانين التى نزلت إليه من السماء لتأسيس دين جديد .

ومنذ هذا الوقت بدأ سلوكه يتسم بالبعد عن الروحانيات وعدم ترتيب الأفكار . فأولاً أساء معاملة المسيحين واليهود ، وكان يجبرهم على أن يضعوا علامة بارزة على ملابسهم لكى يميزهم عن المسلمين ، ثم كان يجبرهم على ترك دينهم على الملأ ، وكان يصادر ممتلكات المجامع أو المعابد اليهودية والكنائس ، ثم سمح بعد ذلك لهؤلاء الذين اضطهدهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم القديمة ، ورفع أجور الكهنة متحديًا بذلك القانون الذى يعاقب بالموت كل من يرتد على الدين الإسلامى بعد أن اعتنقه على الملأ . وطالب بقرار ملكى بأن يلعن الشعب معه ذكرى الخلفاء الأوائل ، وبعد قليل صدر أمر آخر يمنع هذه اللعنات بأشد أنواع العقاب . وأمر النساء بألا يخرجن من بيوتهن لأى سبب كان وإلا عوقبن بالموت . ومنع الإسكافية من تصنيع أى حذاء يستخدمه النساء ،

وأمر البائعين بالأسواق بأن يذهبوا ليعرضوا عليهن الأغذية الضرورية فى ملعقة ذات يد طويلة وأن يحصلوا على ثمن بضاعتهم . وكان كل يوم عند الظهر يصعد إلى أعلى منارات مسجده ، ويلقى خطبًا ورأسه مكشوفة ، وذلك بلغة غير مفهومة ، ويطلب من الناس أن يكرروها أثناء صلاة الجمعة .

وأخيرًا لم يكن لجنونه حدود فأعلن نفسه إلهًا . ويرجع ذلك على وجه الخصوص إلى « محمد ابن إسماعيل الدرزى » الفارسى الأصل الذى أقنعه بمواهبه فوق الطبيعية. وتم فتح سجل لتسجيل أسماء الذين يعترفون بألوهية الخليفة فوقع فى السجل ستة عشر ألف ساكن فى مصر خوفًا من الخليفة ، وأراد الإله الجديد بأن يحتفل بطريقة لائقة ببداية ألوهيته فأشعل النار فى المدينة ... وصعد الحاكم على سطح قصره ، وسُر للوهلة الأولى بالحريق ، وأعطى أوامره من أجل الذهاب بالمشاعل لإضاءة الحى الذى يرغب فى إضاءته بالمشاعل ، وجاءه وفد من شيوخ الأزهر يرجونه بألا يشعل جامعهم ، فأمر المجنون بأن يحرقوا أحياء . ومع ذلك لم يتشجع أحد لتنفيذ هذا الأمر البربرى . وزاد الخوف المفاجئ يومًا بعد يوم ، ونهب الجنوب ، وكان الوزراء على استعداد للهرب إلى سوريا مع أقل حركة من سيدهم يمكن أن تهدد حريتهم .

وهكذا كانت مصر تئن بصبر مدهش تحت نير هذا المخرب المجنون . وساد الرعب لدرجة أنه لم تجروء يد واحدة على الارتفاع لتضرب عدو الشعب . وكان للمصالح الخاصة اليد الطولى . فالخليفة شك فى علاقة أخته السرية مع قائد جيوشه، فأمر بقتل المذنبين ، ولكن الحبيبين اللذين حذرا بذلك فى الوقت المناسب عن طريق الخصى المكرس لهما قتلا الحاكم على جبل المقطم حيث استمر فى زيارته بدون حرس كعادته (١٠٢١م ، ٤١١ من الهجرة) .

والدروز الذين احتفظوا فى إيمانهم بمعتقدات مذهب الحاكم ، وهم الذين يعترفون بألوهيته يدعون كذلك حتى أيامنا هذه بأن هذا الخليفة لم يمت ، ولكنه سحب من هذا العالم بسبب خطايا الإنسانية ، ويجب أن يظهر يومًا على الأرض « كمسيح » جديد وأن يمتد دينه إلى كل الناس .

واليوم أضحى جامع الحاكم مدمرًا . ولم يتبق سوى بعض الشبابيك المتآكلة والأعمدة الطوبية المغطاة بدهان يشبه الرخام والتى تسند الأسقف ذات الأقواس المتقاطعة على شكل حدوة الحصان ، والذى تعلوه قطعة طويلة من المعدن تزدان بحروف كوفية . والأسقف مبنية بجذوع أشجار النخيل ، ولا توجد بها زوايا قائمة . والحوش مملوء بالأعمدة والأعمال المنحوتة التى كانت توجد فوق الأعمدة وهى من الرخام والجرانيت ، ولا نستطيع أن نكون فكرة دقيقة عن الخراب الذى حل بآثار مصر القديمة لمصلحة الأبنية الإسلامية عند رؤية الكتل الضخمة التى تنتشر على الأرض . وبصفة عامة جامع الحاكم منها لدرجة أنه لا يمنح سوى أهمية قليلة للزائر الأجنبى . والمآذن فقط هى التى تستحق الانتباه والرؤية . ويزور السياح فى العادة المنارة الشمالية ومدخلها صعب قليلاً ولكننا نقابل (نحن السياح) سلمًا ذا ميل رقيق مبنيًا بين الجزء الأسطوانى للبرج وطرفه المربع الذى أضيف بعد ذلك . ويصل هذا السلم إلى سطح نتمتع عبره بواحد من أجمل مناظر القاهرة . ومن المهم فى هذا الوقت ترميم محراب (قبلة) هذا الجامع ، وجزء من المبنى سوف يتحول إلى الصلاة ، والجزء الآخر سيتحول إلى مدرسة عامة .

* * *



(٢٨)

جـامع قـلاوون

إذا توجهنا من الأزبكية إلى شرق المدينة باتباع شارع الموسكى فسوف نقابل إلى اليسار بالقرب من خان الخليلى شارعًا يتكون كله تقريبًا من دكاكين الأوانى المصنوعة من النحاس ويسمى « درب النحاسين » حيث يرتفع وسط الدكاكين الخشبية الصغيرة لتصنيع النحاس الجامع البديع الذى بناه السلطان المملوكى الملك المنصور قلاوون فى ١٢٨٣م (٦٨٣هـ) . ومظهر هذا الأثر عظيم جدًا . وحوائطه أو أسواره ذات قواعد منظمة مقطوعة على هيئة مربعات مدهونة على التبادل باللون الأبيض واللون الأحمر ، والكتابات بالخط العربى بطول الواجهة . والمنارة التى ترتفع من الزاوية الشمالية لها ثلاثة صفوف من الأروقة ، وتقدم بانسجام خطوطها أحد أحسن وأجمل النماذج من هذا النوع . وبنى هذا المبنى على سطح غير منتظم ، ولكن المبنى ككل يقدم سلسلة من الأغانى والعروض يسود فيهما الحِكم والفن والذوق . كما ينقسم المبنى إلى ثلاثة أقسام متميزة تمييزًا تامًا . فإلى يمين المدخل توجد صالة الدفن ، وإلى يسار المدخل يوجد الجامع ، وفى خلفية المدخل توجد المستشفى أو « المورستان » . وهذا الاسم له أصل فارسى ، وقد أعطى هذا الاسم للأثر تقليدًا لمستشفى دمشق الكبير الذى يسمى «بيمارستان» وهذا الاسم يعنى « سكن المرضى » .



التاريخ

صعد قلاوون على كرسى الحكم بمصر بعد أن قام بنفى الابن القاصر للسلطان بيبرس الذى سبقه ، وذلك فى ١٢٧٩م (٦٧٨هـ) ، وحصل على لقب الملك المنصور ، وحمل أسلحته إلى سوريا ، وأدب الحاكم « الملك الكامل » الذى كان قد استقل عن باقى الخلافة ، وطرد التتار من كل مكان كانوا يحتلونه من أرمينيا حتى حدود المملكة العربية السعودية . وفى عام ١٢٨٣م وفى الوقت الذى كانت فيه مصر لا تخشى من أى عدو بالخارج . أضحت القاهرة فجأة مسرحًا لمشهد من الأحداث التى لم يكن لها مثيل حتى هذا التاريخ . فلقد غضب السلطان عندما علم أن بعضًا من أوامره لا تطبق فسلم المدينة لسيف مماليكه . فقام بقتل المذنب والبرئ فى هذه المذبحة الدموية . وغطت بحور الدم الشوارع . كما تبعثرت جثث الرجال والنساء والأطفال فى الشوارع . ودامت المذبحة ثلاثة أيام كاملة ، وأخيرًا استطاع الأئمة تهدئة غضب الملك . وندم قلاوون لأنه تمادى فى الانتقام بهذه القسوة ، وأعطى عطايا جزيلة للفقراء ليستحق العفو من الرحمة الإلهية . ويقول المؤرخون العرب بأنه تبنى مشروع إقامة مستشفى بقصد التخفيف عن آلام الإنسانية المعذبة تكفيرًا عن هذه التجاوزات ، وأكمل ابنه « الملك الناصر » هذا المشروع الذى أصبح اسمه مستشفى « المورستان » .

وعندما تحرر قلاوون من كل أعدائه بالخارج الذين يمكنهم السيطرة على نشاطه بدأ فى محاربة وزرائه فقام بعزلهم ثم أتى بمن حل محلهم ، ثم عاد فعينهم من جديد ثم رقتهم بعد ذلك . وبسبب فقده لابنه البكر على الذى كان قد عينه خليفة له اعتقد أنه يستطيع أن يخفف من آلامه بغزو مدينة طرابلس فى سوريا التى كانت حينئذ تحت سلطة المسيحيين منذ مائة وثمانين عامًا . فاستولى على المكان ومشطه ، وشنق السكان، وأسس سلطان مصر مدينة جديدة على أنقاض القديمة ، وعند عودته إلى القاهرة استقبل سفراء الملك « الفونس أراجون » ووقع معهم اتفاقية تحالف فى ١٣ من شهر ربيع الأول عام ٦٨٩هـ الموافق ٢٤ إبريل ١٢٩٠م . وبعد هذه المفاوضات بقليل مات قلاوون بعد أن استنفذته الأحزان ، وبعد أن أمضى إحدى عشر عامًا فى الحكم .

وعندما أصبح ابن قلاوون الثانى « الملك الناصر » سلطانًا كرس كل جهوده لاستكمال المستشفى الذى أسسه والده . فقد تم توسيع المبنى وتقسيمه إلى عنابر مختلفة للسكنى . حيث كان لكل نوع من المرضى مكان خاص وطبيب خاص يتم اختياره من بين المشهورين فى علوم الطب . وتم تخصيص جزء كبير من المستشفى (الأثرى) للمصابين بأمراض عقلية من الجنسين . وتم توسيع المحراب الموضوع فيه تابوت قلاوون وتحويله إلى جامع جميل ، كما تم بناء جامع آخر ليس أقل جمالاً من جامع التابوت فى مواجهة الجامع الأول - أى على يسار المدخل الرئيسى .

وكانت المستشفى تستخدم كملجأ لأكثر من مائة مريض . والصالة الكبرى التى كان يوجد بها الرجال النائمين على الأسرة توجد على الجانب الأيسر من حوش كبير تحدوه أروقة وأعمدة ، ووسطها يرتفع محراب أو منبر وعظ صغير ، وكانت الغرف الخلفية مخصصة للمرضى فى فترة النقاهة وللمطابخ وتوابعها . وكانت الأسرة تصطف بجانب الحوائط ، ووسط الصالات تتدفع نافورة يسيل منها نهر من الماء الحى أو الماء الجارى لصيانة نظافة المستشفى وللتطهير . وكانت مساكن الممرضين والممرضات والحراس والدكاكين الواسعة الممتلئة من المواد الغذائية والأدوية تقع فى مواجهة غرف المرضى . وتقع غرف النساء خلف غرف الرجال ، وكانت توجد أحواش أخرى بها عنابر وممرات مخصصة للمرضى النفسانيين .

ويهتم أطباء « المورستان » بالهواء أكثر من الغذاء ، وكانوا يضعون المرضى فى شقق كبيرة أو صغيرة متجهة نحو الجنوب أو نحو الشمال يتم تدفئتها بدخان عطرى يطهر الهواء ويقتل الحشرات . كما تبرد بطرق مختلفة وفقًا لطبيعة المرض . وكانوا يعطون حركة للهواء عن طريق المراوح الضخمة المعلقة بالأسقف . وفى أماكن أخرى كانوا يغطون الأرض بنباتات عطرة . وكان الموسيقيون يأتون كل يوم ليخففوا بالغناء أو بصوت الآلات متاعب المرضى .

وديكور أو زينة صالة التابوت بديع جدًا . وترتكز الأقواس الواسعة للقبة على أربع مساند مربعة الشكل وأربع أعمدة سميكة ، والشبابيك ذات أعمدة صغيرة. كل منها مملوء بالزينات المنفذة بكثير من الذوق والدقة . ويقول السيد باسكال جوست : « إننا نلاحظ بها أجزاء منحوتة تزين جسم الأعمدة ذات أوراق مشقوقة من حديد ، والتى تظهر بوضوح كأنها تقليد للأجزاء المنحوتة التى تزين جسم الأعمدة الكورنثية للمبانى الرومانية والذين استخدموا فى الأزمنة الأولى كما على سبيل الصدفة فى بناء الأبنية المهمة ، ثم تم تقليدها بعد ذلك بواسطة الفنانين العرب ، والحوائط مغطاة بموزايك من الرخام ولوحات فى وسطها توقيعات بالخط الكوفى ، وفى أعلى اللوحات وحول القاعة كتابة باللغة العربية مرممة أو بالأحرى مشوهة بواسطة فنان حديث . والقبلة هى إحدى القبل الجميلة ، والخلفية ذات أربع صفوف من الأعمدة الصغيرة من الرخام التى تخرج على حقل من القيشانى الرقيق الذى يجمل الخطوط المتعرجة والضفائر لعمل بديع . وعلى كل جانب من القبلة توجد ثلاثة أعمدة ، الأعمدة الأولى منحوتة من الرخام الأبيض ، وعلى شكل مضلع وثمانية أضلاع ، ولا تستخدم سوى كزينة بسيطة بينما الأعمدة الأربعة الأخرى منحوتة من حجر كريستال ، ولها فضائل إعجازية ، فيكفى لمسها باللسان حتى يتم الشفاء من الحمى ، والبقع السوداء التى يلاحظها الزائر على سطحها تأتى من لسان المؤمنين الأوفياء الذين يتمتعون بغيرة شديدة . كما شوهدت بعض النساء العقيمات وهن يشفين من عقمهن بعد عدة زيارات لقبلة مسجد قلاوون .

ويتم الحفاظ داخل مدخل صالة التابوت على كرسيين من الخشب لكل منهما مسند ومعهما قطعتين من الثياب مكتشفتين حديثًا تنتميان لقلاوون . ألا وهما قفطان من الحرير وحزام كان يحمله السلطان . ويقال أن لهذه الملابس خصائص إعجازية . فيأتى المرضى من الرجال والنساء فى أغلب الأحيان تبجيلاً عظيمًا ليطلبوا من هذه النفائس التى تنتمى لهذا الولى الشفاء من أوجاعهم . فيقوم المرضى بتغطية أنفسهم

بالثوب الذى استهلك عبر القرون ، ويمررون الحزام حول كليتهم ، وبعد أن يرتدوا هذه الأشياء بطريقة مضحكة يقومون بالدوران حول التابوت ثلاث مرات مع ترتيل بعض الأدعية ، ثم يعودون إلى حيث أتوا وهم واثقون كل الثقة فى فاعلية العملية .

وباستثناء قبر قلاوون الذى تمت صيانته بدقة دينية حقيقية ، فقد تغير الجزء الداخلى من « الموريستان » ومن الصعب تكوين فكرة عن فخامة المبنى المكرس للشفاء من الأحزان فى وجود الأنقاض . ولم يتبق مطلقًا من زينته الأولية سوى قطع مكسورة ، وبابين من الخشب قد انهار نصف زينتهم من البرونز . فقد انهارالجزء العلوى منهما لكى يناسب ارتفاع الفتحة التى يغلقوها اليوم . وقد واجه المورستان العديد من التغييرات على فترات مختلفة ، ولكن بصفة خاصة منذ أن سحب منها المرضى النفسانيون ليحولوا إلى جامع طولون ، ومن هناك إلى بولاق . وقد حدثت ترميمات عشوائية بالمساكن حتى يمكن تأجيرها للتجار المجاورين الذين يعملون منها مخازن . ونصاب بإحساس من السخط والانزعاج عند رؤية هذا الأثر الملئ بالذكريات المؤثرة تغزوه دكاكين الحلل والأحواض وأوانى المياه وأجهزة الإنارة - أى فى كلمة واحدة كل الأشياء الضرورية الأولية للنحاسين والحدادين .

ويقول السيد بريس دافن : « عند رؤية هعذه الفوضى نتساءل : لماذا لم يتم ترميم هذا المستشفى المكرس من الأزمنة السحيقة من هدم جامع طولون لتحويله إلى مستشفى أو دار مسنين. ففى هذه الحالة سوف نكون قد كسبنا الفن وهذين الأثرين » . فدراسة « المورستان الكبير » ذات قيمة كبيرة جدًا للعمارة العربية لدرجة أنه لم يتبق أى قصر على حاله من هذه الفترة ، وهو يذكرنا بتوزيع ونوع زينته بالأبنية المدنية للأزمنة الأولى .

والمبنى الخارجى له ارتفاع معين ، وهو مبنى من الرخام الأسود والأبيض ، ويسنده عمودان تجمل محيطهما بمنحوتات على الطريقة الكورنثية ، وتزين كتابة بارزة ذات خلفية حمراء الجزء العلوى من المدخل ، والممر الكبير له سقف من الكمرات ذات تأثير

جميل . والممرات الأخرى ذات الأسقف على هيئة أقواس متقاطعة فقدت جزءًا من نظامها الأول بعد عدة ترميمات قام بها « سعيد المبروكى » و« أحمد باشا طاهر ». والباب الثانى إلى يمين الممر يؤدى إلى نوع من المداخل الكبرى التى تسبق صالة التابوت. وتستخدم هذه الغرفة فى الوقت الحالى كمكتب لإدارة أوقاف الجامع . كما كانت هذه الغرفة من قبل مكتبة غنية من « تفاسير » القرآن ، ومن مراجع الطب والشريعة . ولا يقدم الجامع بمعنى الكلمة أى مصلحة ، ويواجه المدخل المحراب الجنائزى أو القبلة الجنائزية .





(٢٩)

جـامع النصـر

يلامس جامع النصر قاعة من فن قلاوون . ولا يميز هذا الأثر سوى باب مسنود على أعمدة صغيرة . وترتفع المنارة ذات القاعدة المربعة أعلى باب المدخل ، ويرجع تاريخ الجامع الناصر إلى بداية القرن الرابع عشر ، ولا يصلى به أى أحد تقريبًا اليوم . ويتكون القسم الداخلى من غرفتين منفصلتين ، فعلى اليمين يوجد التابوت ، وعلى اليسار يوجد المحراب . وتم دهان هاتين الغرفتين بالحجر الجيرى . وتغطية أماكن منها بدهانات بدائية . والمنبر نفسه الذى تم نحته حديثًا تلاشى تحت الطبقات اللامعة من اللون الأخضر واللون الأحمر اللتان يكثر من استخدامهما الفنان العربى الحديث .



تاريـخ

خلف الملك الناصر ابن قلاوون والده وهو فى سن التاسعة فى عام ١٢٩٣م (٦٩٣هـ) وانقلب عليه الأمير « كتبغا » الوصى على الأمير الشاب ، وأقصاه عن كرسى الحكم بعد عام من حكمه ، ثم نفاه وأعلن نفسه سلطانًا مكانه . وبعد قليل قام مجلس الأمراء بتنحية « كتبغا » بدوره . وخلفه حسام الدين لاجين حاكم سوريا . وبعد عامين من الحكم تم اغتيال لاجين بواسطة أحد حراسه ، وحل محله بعد واحد وأربعين يومًا سيف الدين تادجى الذى تم اغتياله بواسطة مماليكه فى اليوم الثانى لتنصيبه . حينئذ

تم استدعاء الملك الناصر بن قلاوون من المنفى ليملك على عرش والده عام ١٢٩٩م . وفى العام الثانى من ملكه الجديد قام الناصر بحمله ضد التتار الذين كانوا قد غزوا سوريا. وفى المواجهة الأولى مع التتار التى حدثت بالقرب من « حمص » انهزم المسلمون وسيطر التتار على الطريق إلى القاهرة ، ولكن السلطان حصل على دعم كبير وجمع قواته وسار من جديد ليواجه التتار الذى قام هذه المرة بتقطيعهم إربًا .

والاضطرابات التى حدثت بعد عودة الأمير من المنفى اشتعلت من جديد رويداً رويدًا . والأمراء الذين انفصل بعضهم عن بعض بسبب المصالح والطموح اتحدوا من جديد بشعور مشترك بالعداوة ضد رئيسهم . وخشى الملك « الناصر » من عنفهم فادعى القيام برحلة إلى مكة ، ثم انسحب إلى سوريا فى حصن « الكرك » مكان منفاه الأول ، ثم أرسل إلى القاهرة علامات الملك قائلاً أنه استقال تاركًا كرسى الملك لكل من يريده ، وكان ذلك فى عام ١٣٠٩م . وأنتخب المماليك كقائد حينئذ بيبرس ، وهو بيبرس الثانى ، ولقبه « الجاشنكير » كمؤسس للأسرة الأولى للسلاطين المماليك . ولكن هذا الاختيار لم يعجب الملك « الناصر » . وندم لأنه استقال بإرادته من الحكم ، وترك حكم مصر لأحد عبيد أبيه القدماء ، فدخل مصر على رأس العديد من أتباعه ومؤيديه وطرد بيبرس وأمسك للمرة الثالثة بعرش قلاوون فى عام (١٣١٠م - ٧٠٩هـ) .

وظل الناصر هذه المرة على كرسى الحكم حتى موته - أى ثلاثة وثلاثين عامًا . وعانى خلال هذا الوقت من الثورات التى مزقت المملكة من الداخل ، ولكنه عرف كيف يحافظ على السلام ويفوز بحب شعبه بحسن إدارته وعدالته .

وأسس الملك الناصر بالقاهرة العديد من الأبنية النافعة ، وأكمل بناء مستشفى «الموريستان» ، وقبل وفاته بست سنوات ، أى عام ١٣٣٥م بنى جامعه بالقرب من تابوت والده . ويقال إن باب هذا الأثر كان جزءًا من كنيسة مسيحية للقديس « يوحنا الأكرى » Saint- Yean- d'Acre . ونقل منها أثناء نهب المدينة فى ١٢٩١م (٩٧٠هـ) بواسطة شقيق الناصر ليوضع فى القاهرة كذكرى للمجد .

ولم يكـد الأمـيـر يلفظ أنفـاسـه الأخيـرة حـتى قـام الأمـراء الذين يشـتـهـون امتـلاك ثروات سيدهم بنهب قصـره بحـجـة أنهم كما قيل أتباعه الشـرعيون . وتم إعداد المراسم الجنائزية بسرعة كبيرة ، وشيعت الجنازة أثناء الليل ، وبعض الأصدقاء الذين تم إخطارهم فى الوقت المناسب حضـروا وحـدهم ، وسـاروا فى هـدوء على ضوء شعلتين . وكما قال أحد المؤرخين العرب ملاحظًا : « هكذا أنهى ابن قـلاوون الذى كان يقـدره كل مـرؤسـيـه حياته كغريب ، ودفن كشـخص تعيس ، وحمـل إلى قبره كرجـل بلا عائلة » .





(٣٠)

جــامع البرقوقيــة

يعد « جامع البرقوقية » امتدادًا للجامع السابق . وبناه السلطان « الملك الظاهر برقوق » عند نهاية القرن الرابع عشر ، والواجهة ككل لها تأثير متواضع جدًا ، وتجذب المنارة التى ترتفع عند الطرف الشمالى . تجذب النظر بخفتها ومحيطها الجميل .

وباب الدخول مبنى من البرونز ، وهو عمل جميل من أعمال النحت ، والزينات التى تتكون بصفة أساسية من الضفائر والأحجار البارزة ، هذه الزينات لا يمكن مقارنتها فى غناها وتشطيبها سوى بزينات باب جامع « المؤيد » .

وإذا اتبعنا ممرًا على يمين المدخل نصل إلى الفناء الداخلى الذى يحدد أسواره العالية صف من الورد الأبيض العطر . وعلى الأجناب تنفتح ثلاثة فتحات كل منها على هيئة قوسين متقاطعين تشكل ثلاث صالات مخصصة بصفة خاصة للمؤمنين (السنية). ويحتل المحراب أو القبلة الجهة الشرقية ككل ، ويفصلها عن الفناء مقصورة منهارة بسبب قدمها . وأكثر ما يلفت النظر فى هذا الجزء من الأثر هو الموزايك الذى يحيط بالقبلة ، وهو مزين بمعجون شفاف كالزجاج ومن مادة متماسكة بيضاء . والمنبر حديث البناء . وتحت القبة يقع تابوت بنات السلطان اللاتى فارقن الحياة فى سن الشباب أو سن صغيرة ، ويرتكز السقف الذى نشاهد فيه الأرابيسك الملون والزينات الملونة - يرتكز على أربعة أعمدة أسطوانية . وأرض الجامع تغطى تمامًا بالرخام الدائرى والمستطيل ملون باللونين الأبيض والأسود على التوالى .

ويمتلك جامع البرقوقية مدرسة تسمى مدرسة الزهراء من لقب الزاهر الذى يحمله برقوق ، والجامع الجنائزى (الذى يشمل المدافن) لهذا الأمير هو واحد من أجمل مدافن السلاطين المماليك بشرق القاهرة .

* * *



(٣١)

جامع بيبرس

يقع جامع السلطان بيبرس الذى يلقب « بالبندقدارى » فى الجمالية على يمين الشارع الذى يؤدى إلى باب النصر .

تاريخ

فى عام ١٢٦٠م (٦٥٨هـ) أدت وفاة السلطان « المظفر قطز » إلى أن يئول عرش مصر إلى الأمير بيبرس الذى تسمى باسم « الملك الظاهر أبو الفتوح » (الملك المشهور أبو الفتوح) ، وأنست الأعمال الأولى لبيبرس الناس الوسائل العنيفة التى استخدمها للوصول إلى السلطة . فدعى الأمراء المنفيين إلى القاهرة ، وأخرج من السجن المسجونين السياسيين ، وقلل الضرائب بدرجة كبيرة ، وعرف كيف يستحق التقدير العام أو التأييد الشعبى .

وبعد حملة سعيدة على سوريا أقام على القاهرة الخليفة العباسى الذى كان قد هرب من بغداد بعد أن نهبها التتار وقلبوا عرشه ، ولكن الخليفة لم يحصل حينئذ سوى على درجة روحية مجردة . وكانت سلطة الخلفاء (العباسيين) تمارس فى الظلام خلال فترة ثلاثة قرون تقريبًا تحت حماية سلاطين مصر . وفى ١٢٦٣م ، وقد حلت بمصر مجاعة مخيفة أدت إلى خراب البلاد . فقام بيبرس بتجميع كل التعساء فى ملاجئ واسعة ، وكان يوزع عليهم كل يوم مواد غذائية ومساعدات حسب ما تتطلبه حالتهم . وأثناء إنقاذه لحياة الآلاف من المصريين بهذه الطريقة أمر بأن تجىء من سوريا ومن

اليونان البواخر المحملة بالقمح . وبفضل هذه العناية الفائقة عادت الوفرة إلى مصر بعد قليل .

وكان بيبرس ينظر بأسف إلى امتلاك المسيحيين حتى هذا الوقت لكثير من الأماكن الهامة من فلسطين . فأعد حملة على سوريا . وبدأ الحملة بالاستيلاء على «قيسارية» Césearée ثم سار فى اتجاه دمشق التى كان التتار قد استولوا عليها ثم تركوها ، ثم انقض على أرمينيا التى كان يملك عليها حينئذ « هايتون » Hayton الملك المسيحى واستولى على مدينة « سيس » Sis عاصمة المملكة وتوسع فى غزواته حتى «الأناضول» (آسيا الصغرى) . وأجبره التتار على القتال أثناء راحته فتراجع إلى سوريا ودخل القاهرة فى ١٢٦٧م ليعيد بناء جيش جديد ، وعاد بيبرس إلى سوريا مرة أخرى فى سنوات ١٢٦٨م ، ١٢٧٢م ، ١٢٧٥م . وفى كل مكان كان ينتصر (السلطان) بأسلحته . وفى ١٢٧٦م (٦٧٤هـ) قاد الأمير « أكسنكر الفرخنى » حملة أخرى ضد النوبة . وقررت معركة أسوان مصير هذه المنطقة، وأعطت لمصر السيطرة على أعالى وادى النيل . وفى نفس العام ذهبت جيوش بيبرس إلى أبعد من الصحارى الليبية لغزو مملكة « برقة » .

ووسط هذا المجد الساحق كان الموت ينتظر السلطان . ففى عام ١٢٧٧م حدث خسوف كلى للقمر ، وعند استشارة علماء الملك عن هذه الظاهرة اتفقوا على التأكيد بأن هذه الظاهرة تعد نبوءة حزينة تعلن عن موت أمير عظيم . فتخيل بيبرس أنه مهدد فى شخصه . واقتنع بأن الموت سيكون بسبب مؤامرة يحيكها ضده أحد المنافسين له ، وأراد التخلص من الشخص الوحيد الذى كان يعتقد أنه يخشى من حقوقه فى الملك أى من الأمير « داود » آخر فرع من عرق الأيوبيين .

ويومًا ما بعد الوليمة قدم بيبرس كأسًا سامة لداود الذى لم يشرب سوى جزء من الشراب المميت ، واعتقد السلطان أن الكأس خالية تمامًا وبدون أى خطر ، فملأه من جديد له شخصيًا وشرب منه فمات بجانب ضحيته . وبدلاً من أمير واحد حصل علماء الفلك على أميرين للتأكيد على نبوءتهم .

وهكذا مات الملك الظاهر بيبرس فى الشهر الأول من سنة ٦٧٦ من الهجرة ١٢٧٧م. وكانت مصر تدين له بعدد كبير من الأعمال النافعة .

ففى الإسكندرية قام بعمل تحصينات جديدة وأصلح فنارها ، وأعاد بناء دمياط كلها تقريبًا وقام بعمل مخازن للحبوب فى « مصر القديمة » وجامع « أثر النبى » حيث كان يحتفظ بحجر يحمل آثار أقدام النبى محمد ﷺ كما يقال ، وأخيرًا جاء إلى القاهرة التى أقام فيها أبنية هامة من بينها قنطرة السباع (كوبرى الأسود) ، كما أقام فى حى الناصرية جامع الظاهر عند شمال المدينة على شارع العباسية الحالى .

ويوجد قبر الملك بيبرس على يسار المدخل الداخلى الصغير ، ويتم التوغل فى هذا المكان عن طريق باب منخفض من الخشب الأبيض خرج لتوه من ورشة أحد الفنانين المصريين . والصالة جميلة جدًا ، وللأسف ستنهار بسبب قلة أو نقص الصيانة . وتغطى الأسوار حتى منتصف ارتفاعها بالموزايك التى توجد عليها كتابات كوفية أو المليئة بالضفائر ، وأعلى الرخام والأخشاب توجد كتابة عربية تمتد على الواجهات الأربع . وتزين القبلة بصفين من الأروقة تشكل بأعمدة صغيرة تسند تاجًا من القواقع المنفصلة بواسطة الأرابيسك الرقيق المنحوت فى الرخام الأبيض . وتحت القبة ، ووسط الصالة يرقد جسد السلطان . وبروز الباب المبنى وسط شبكة من الخشب يغلق مدخل القبر يحتوى هذا البروز على تاريخ وفاة « بيبرس » .

والجامع الذى يقع بالقرب من صالة الدفن بسيط ويمنح تناقضًا مدهشًا مع الجزء الأول من الأثر . والمحراب (القبلة) عار تمامًا من الزينة . وتعد القبلة ، والمنبر والدكة من أفقر الأشياء ، ولا تستحق أن يعلن عنها .

* * *



(٣٢)

جـامـع الظـاهـر

بنى هذا الأثر فى عام ١٢٦٦م (٦٦٥هـ) بواسطة السلطان «بيبرس» «البندوقدارى». ويختلف ترتيبه أو تنظيمه قليلاً عن الجوامع الأخرى ، ولا يقدم سوى مركبين كبيرين منحوتين بالقرب من القبلة ، وباقى الحصن يشكل فناءً كبيرًا محاطًا بالأبواب . ويقول المؤرخ العربى المقريزى إن جامع الظاهر تم بناؤه فى الحى الذى يسمى حسينية فوق أرض سباق تقع عند شمال المدينة حيث كان السلطان يذهب فى أغلب الأحيان مع أمرائه ليلعب كرة اليد بالحصان . وعندما حصل تخطيط المبنى على موافقة السلطان ، صدرت الأوامر فى كافة أقاليم المملكة بإحضار قطع الرخام النادر والخشب النفيس الغالى الثمن لبناء هذه الأسقف والأبواب .

وحكى الشاعر « فخر الدين » فى تكريمه لتقوى بيبرس وفضائله « بأن السلطان عند عودته من الحملة على سوريا اغتاظ من السلوك الفاضح لسكان القاهرة الذين سلموا أنفسهم للسلوك المنحل الأكثر فسادًا لدرجة أنه أغلق كل المبانى التى كان يباع فيها الحشيش ، ومنازل الراقصات الشعبيات . وهكذا فإنه تكفيرًا عن هذه التجاوزات التى أساءت للدين قام ببناء جامع خارج المدينة حتى تستطيع صلوات المؤمنين أن تصعد إلى الله دون أن تصاب بالوباء بفعل الهواء غير النقى الذى تلفظه بعض الأحياء » .

ويفتح الباب الرئيسى لجامع الظاهر فى حائط مربع سميك يحتمل أنه كان يحمل المنارة الوحيدة التى دمرت اليوم . وكل الشبابيك ذات قوسين متقاطعين مقفولة بقطع متباعدة من الخشب المطلى بدهان يشبه الرخام ، ويقدم على التوالى الأرابيسك وشباك

الخيوط المتقاطعة ، ولكل باب زينة مختلفة أو ديكور مختلف ، والبابان الشمالى والجنوبى يتشابهان كثيرًا ، أما الباب الغربى وهو اليوم مسدود هو أكثر الزينات ثراءً . ويرتفع عمودان طويلان من الرخام الأبيض المسنن من كل جانب وتم إضافة الجزء المنحوت الذى يحمل الجزء الأسطوانى من العمود وهو من « كورنثوس » تم إضافته فيما بعد ، وكان من الأحجار الكلسية وتشطيبه ردئ .

وجامع « الظاهر » كان مهجورًا أثناء الحملة الفرنسية . وتم تحويله إلى حصن باسم الجنرال « سولكوزكى » «Sulkoushi» أحد ضحايا انتفاضة القاهرة . ويستخدم هذا الأثر اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) فى بيع البضائع العسكرية (الخاصة بالجيش مثل البيريه والأحذية إلخ ..) .

* * *



جامع الحسن

وعند طرف شارع محمد على أسفل القلعة يرتفع جامع السلطان حسن البديع الرائع . وهو أحد أجمل مبانى مصر الإسلامية . سواء من خلال قبته الفريدة ، أو بارتفاع مناراته وأبعاده الفريدة سواء من خلال غنى عمارته . وتقول أحد الأساطير العربية أن السلطان أعجب وانبهر عند رؤية هذا العمل العظيم لدرجة أنه قطع يدى المهندس المعمارى الذى صمم المبنى حتى لا يستطيع أن يخطط أى رسم آخر مشابه . ويرجع أصل هذا الأثر إلى عام ٧٥٧هـ - ١٣٥٦م ودام بناؤه ثلاث سنوات .

التاريخ

تم تنصيب الابن السابع للملك الناصر بن قلاوون كملك ورئيس فى ١٣٤٧م تحت اسم الملك الناصر حسن . وفعل مثل والده فقد نزل من على العرش أولاً لمدة حوالى أربعة أعوام بفضل حكمة الأمير « التميش » «Altemich» ، ولكن عند بداية شهر رجب ٧٥٢هـ - ١٣٥١م تمت إقالته وسجن بالقلعة بالقاهرة ، وحكم من بعده أخوه الأخير «صالح صلاح الدين» وبعد عامين من إقالة « السلطان حسن » عاث الوباء فساداً وخراباً فى كل أرض مصر . وشق الخلاف الوزارة بعد ذلك . وانتهت مؤامرة اثنين من الأقباط تركوا دينهم وكان يبحثون عن أن يحل أحدهم محل الآخر فى الوزارة بإدخال الأحزاب المختلفة فى اللعبة انتهت مؤامراتهم بإسقاط صالح صلاح الدين . والملك الناصر حسن الذى ساعد هذه الثورة من خلف أسوار سجنه بالتسيق مع

« الأمير تاج الدين » صعد إلى العرش مرة ثانية وتمسك به لمدة عشر سنوات ونصف . وفى (١٣٦١م - ٧٦٢هـ) مات ضحية لمؤامرة .

وواجهة « جامع حسن » محفورة بفتحات رأسية طويلة مثقوبة بثمانية صفوف من الشبابيك المشبكة . وينتهى الجزء العلوى من المبنى ببروز شديد مكون من صف من الكتل الكلسية المثلثة والدائرية وتوجد أعلى هذا البروز أحجار مقطعة على هيئة أسنان لتكون شكل زهرة بيضاء عطرة ، ولم يبق من ذلك سوى أنقاض . ويبلغ طول الأثر مائة وثلاثة وأربعون مترًا . والأسوار التى يبلغ ارتفاعها أكثر من أربعين مترًا عند الباب الرئيسى يصل سمكها إلى ثمانية أمتار فى بعض الأماكن ، كما يبلغ ارتفاع المنارة الموضوعة عند الزاوية الجنوبية الشرقية ستة وثمانين مترًا ، ويصل ارتفاع القبة إلى خمسة وخمسين مترًا .

وللمدخل أبعاد ضخمة تدهش الناظر ، والجزء العلوى يشكل نوعًا من الأقواس المتقاطعة تنتهى بمنظر قوقعة، وهى تحيط كإطار بسقف مقوس على بناء له تأثير كبير. والمدخل الداخلى الرئيسى يماثل الباب الرئيسى فى غنى زيناته ، وبه ثلاثة تجاويف كبيرة مزينة بكتل كلسية ومتوجة بقبة من نفس النوع . ويوجد ممر مظلم على يسار المدخل ، وهذا الممر يتقاطع بزاوية قائمة مع رواق يسبقه سلم من بضع درجات ، فاتباع هذا الممر يوصل إلى حوش داخلى كبير تبلغ مساحته حوالى ألف ومائة متر مربع أو أكثر. وعلى كل من جوانبه الأربعة تفتح صالة كبيرة مربعة أصلها على شكل قوسين متقاطعين تتدلى منهما سلاسل من الحديد كانت تحمل عند أطرافها قديمًا مصابيح ثمينة من البرونز ، وحل محلها اليوم بعض السهاريات (الشعلات) الفقيرة المصنوعة من « الحديد الأبيض » . والسقف المقوس للمحراب أو القبة هو أكثر ارتفاعًا من الأسقف الأخرى ، ويبلغ عرضه واحد وعشرون مترًا ، كما يبلغ ارتفاعه ثمانية وعشرون مترًا تحت المصراعين . وفى منتصف الحوش يوجد حوض للتطهير مغطى بقبة ثقيلة على شكل نبات البصل ترتكز على رواق له شكل مضلع له ثمانية أضلاع ، وله شباكان من كل جانب ، وهو مسنود على ثمانية أعمدة خفيفة . وحول القبة توجد منطقة كبيرة نقرأ أعلاها كتابة باللغة العربية بخاصية كتابة التقارير . وعند رؤية هذه القبة التى

كانت قديمًا مدهونة باللون الأزرق ومحاطة بشريط مذهب عمودى على محورها اعتقد كثير من السياح أنهم شاهدوا صورة القشرة الأرضية دون أن يفكروا بأنه فى القرن الرابع عشر كانت معطيات شكل الأرض غير مؤكدة ، والإدريس والاصطخرى قاسا أبعاد الأرض وأكدا كروية الأرض . وبجانب الحوض المركزى الكبير توجد نافورة أخرى ذات صنابير للتطهير الخاص .

والزينة (الديكور) الداخلية للمحراب أو القبة فى منتهى البساطة ، وأسلوبها صارم . وإلى اليمين وإلى اليسار يوجد صفان من الأوانى الملونة المدلاة من الأسوار . والقطعة المعدنية التى تمتد أعلى هذه الأوانى تزدان بالأرابيسك الرقيق الذى تبرز منه كتابات طويلة باللغة الكوفية ، ويقول السيد « باسكال كوست » إنها أجمل قطعة من هذا النوع موجودة بمصر ، ويوجد بجانب القبلة أربعة أعمدة صغيرة من الرخام تزدان جوانبها بمنحوتات على شكل أوراق منتظمة تشبه البرونز . وفى المواجهة توجد دكة القراء أو الفقهاء مسنودة بثلاثة أعمدة كبيرة وثمانية أعمدة صغيرة . والمنبر ليس له شىء مميز ، ويبدو أنه قد تم ترميمه بطريقة رديئة فى أماكن كثيرة . وبرواز الباب ثقيل جدًا بالنسبة للسقف الثقيل الذى نراه أعلى . ومن كل جانب من القبلة ينفتح باب من البرونز يؤدى إلى صالة الدفن أو التوابيت . والباب الذى على اليمين الأكثر احتفاظًا بهيئته مغطى بضفائر من الرسم المضبوط ، وكل النجوم وكل الأشكال الأخرى الموجودة فى هذه الخطوط المليئة بالمسامير ، يلصق عليها خيوط من الذهب والفضة بدقة ملحوظة .

ويوجد قبر السلطان حسن وسط صالة كبيرة مربعة مزينة بأغطية عالية من الرخام توجد على حافته قطعة كبيرة من الخشب مزينة بالأرابيسك المنفذ بطريقة رديئة غير مدروسة . والأشياء المدلاه من السقف مغطاة بزينة نميز من بينها بعض الخطوط الذهبية ، وهذه الأشياء دمرت تمامًا تقريبًا . والقبلة جميلة المنظر وتشد الانتباه بالترتيب الجيد لرخامها والألوان المختلفة التى تحيط أطرافها وجمال الأرابيسك الخاص بها . وهى مزينة بأربعة أعمدة . اثنان منهما متوجان بزخرفة منحوتة بالذوق البيزنطى . وتمتلك هذه الأعمدة فضائل خاصة ، فعند حكها بحجر

عجيب بعد أن تبلل من قبل بقليل من عصير الليمون نحصل على سائل أحمر له القدرة على أن يشفى المرضى من الحمى ، ويعطى خصوبة للسيدات العقيمات . وهذا الحجر الفريد فى نوعه هو حجر تم إحضاره من مكة بواسطة بعض الحجاج المؤمنين المتقين الله . وتم حفظ هذا الحجر بدقة داخل دولاب تحت طلب الشخصيات المهمة . ويحمل القبر تاريخ (٧٦٤هـ - ١٣٦٣م) . وشُوهد على السجادة التى كانت تغلفه منذ بضع سنوات بعض الآيات القرآنية البديعة مكتوبة بخط جميل بيد السلطان نفسه . ويوجد الحجر اليوم بالمكتبة الوطنية . ونشاهد على عتبة الصالة العديد من البقع السوداء التى يقول عنها العرب أنها بقع دم .

وعند العودة إلى الحوش لا نستطيع أن نمل من الإعجاب بالتأثير الجليل الذى تحدثه هذه الأسوار العالية التى تنعكس عليها ظلال كبيرة تكبر كذلك نسب المبنى . ففى هذا الحوش الواسع الملئ بالضوء كان السلطان يجمع الشعب ليعلمهم بمشيئته ، فوق هذه الكتل الرخامية التى كانت ترن تحت صوت الأسلحة الثقيلة للحراس ، وكان الشعب يحنى جبهته عندما ينزل الأمير من الدكة ويتجه صوب الممرات المعتمة التى يقف فيها رجال المدفعية كحراس . وهنا كذلك لجأ الفرنسيون يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م أثناء انتفاضة القاهرة .

وجامع « السلطان حسن » هو الأثر الوحيد من مصر الإسلامية الذى احتفظ بخاصيته القومية الحقيقية دون أن تمس . فكما كان قد بنى نشاهده اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) . ولم تفلح عوامل التعرية طوال خمسة قرون من التأثير على الأسوار السميكة المكونة كلها تمامًا من المواد التى بنيت منها الأهرامات . ولكن إذا كان معظم المبنى مازال واقفًا فإن تفاصيل الزينة الداخلية قد انهارت لدرجة أن قلب المبنى التعيس الذى نراه يضعف هكذا لقلة العناية مع أنه مبنى جميل . وفى هذا الوقت تهتم وزارة الأوقاف كثيرًا بترميم الجوامع ، ونرغب فى أن الفنانين الحقيقيين يعملون بجد ليحفظوا لمصر أحد أغنى آثار العمارة الشرقية التاريخية .

* * *



جامع المؤيد

يقع جامع المؤيد فى حى السكرية بالقرب من باب زويلة . وقد بنى فى ١٤١٥م (٨١٨هـ) بواسطة السلطان مملوك ملك المؤيد أبو النصر المحمودى الدهرى فوق مكان مبنى يسمى « خزانة شمايل » حيث كانوا يجمعون المجرمين . ويقول السيد باسكال كوست أن الأمير « منطاش » هزم السلطان المؤيد وسجنه فى هذا السجن . فنذر السلطان نذرًا لله بأن يبنى مسجدًا فوق مكان آلامه إذا خلصه الله فقام أتباع السلطان المؤيد بتوجيه أسلحتهم ضد أعدائه . فتحرر المؤيد من سجنه وقام ببناء الجامع الذى نراه اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) ووفى بالوعد الذى قطعه على نفسه . وتم استخدام البرجين النصف دائرين لباب زويلة لتدعيم منارات الزاوية الجنوبية الشرقية، وترتفع منارة ثالثة عند الزاوية المواجهة .

تاريخ

أثناء حكم فرج ابن برقوق عاش أحد الأمراء ويسمى أبو النصر المحمودى ، ورغب فى أن يصبح سلطانًا على مصر ، وللوصول إلى أهدافه استخدم الخليفة « المستعين بالله » .

ومنذ انحلال الخلافة العباسية ببغداد وإعادة بناء الفرع الثانى للخلافة العباسية بالقاهرة كان الخلفاء يعدون مجرد رجال دين مسئولين فقط عن شئون الدين والعلوم الدينية . وأقنع المحمودى - الذى كان لديه هذه الاعتقادات - الخليفة بأنه من السهل الوصول إلى السلطة الوقتية ، والسلطة الكلية لمن سبقوه ، مضيفًا أن كل شىء مهيأ أو

معد لنجاح هذه المحاولة . وأدى الغرور بالخليفة المخدوع إلى أن يتمسك بنهم بهذه المحاولة . فتلقى السلطان فرج - الذى كان موجودًا حينئذ فى دمشق - تلق أمرًا بالتقاعد فرد على هذا الاقتراح الصلف بأن دعا جنوده للحرب . وكان السلطان فرج يقترب من الانتصار عندما كسرت الأسلحة الروحية المستخدمة فى هذه الحرب سيوف السلطان فرج . فلفظ الخليفة اللعنة التالية :

من الإمام أبو الفضل العباسى المستعين بالله أمير المؤمنين : « نعلن أنه تمت إقالة السلطان فرج بن برقوق . وأصبح السلطان الحقيقى لمصر وسوريا هو الخليفة الآن ، والعفو والسماح لكل من يتحدون معه ، وملعون وتعيس كل من يقاومه » .

وكان لهذا الإعلان تأثير مباشر ، فترك « فرج » جنوده وصار وحيدًا ، واقتنع فرج بأنه ثار ضد ممثل النبى ﷺ فقطعت رأسه خارج أسوار دمشق (١٤١٢م - ٨١٥هـ) وأصبح « المستعين » سلطانًا فجعل « المحمودى » وزيره الأول . ولكن هذا الأخير (المحمودى) ادعى بأنه قام لنفسه بالثورة ، ولم ير فى الخليفة سوى أداة ، ولم ينجح سوى فى أن يجعل منه سيدًا له ، ومنذ ذلك الوقت تقرر قلب السلطان الجديد . وبسبب المؤامرات ارتبط المحمودى بالعرش تحت اسم أو لقب « الملك المؤيد » (الملك الذى يسانده الله عز وجل) ثم بعد قليل تم إقصاء كل سلطة عن الخليفة ، وتم عزله ونفيه فى أحد شقق القصر البعيدة .

وأثناء حملة سوريا استفاد المستعين من غياب منافسه ولجأ من جديد إلى الأسلحة الروحية التى نجحت معه فى المرة الأولى . ولكن « المؤيد » عندما علم فى الوقت المناسب بهذه المناورات الخفية ظهر فى القاهرة وسط أعدائه فتملكهم الخوف ونفوا بقوة أى مشاركة لهم فى اللعنة ونفس المجلس الذى أعلنها أقر القوانين الشديدة على رأس الخليفة الذى سجن أولاً ثم نفى إلى الإسكندرية .

ووصل « الملك المؤيد المحمودى » إلى الهدف من أغراضه ونال ما كان يرنو إليه فأسس أولاً حكومة حكيمة ويقظة . ولكن أثناء السنوات الأخيرة من حكمه جذب إليه

سخط المصريين بسبب سوء سلوكه . فكان يسجن أمراءه عندما يسىء الظن بهم . وكان يرفت الموظفين الذين كان يعترف الجميع بكمالهم ليبيع وظائفهم لمن يعطيه أكثر ، وأخضع المسيحيين واليهود لضرائب مرتفعة . وتم تطبيق القرارات الملكية التى صدرت بواسطة كثير ممن سبقوه بكل شدة وصرامة ، فكان يجب على المسيحيين أن يرتدوا زيًا أزرق غامق اللون ، وعمامة سوداء ، ويعلقون فى رقبتهم صليبًا من الخشب يزن خمسة كيلو جرامات ، أما اليهود فكانوا يرتدون زيًا أصفر اللون ويعلقون فى رقبتهم كرة سوداء عوضًا عن الصليب . بالإضافة إلى ذلك كانت الملابس تقص وتحاك على نموذج خاص . وكانت النساء تجبر على تبنى بعض الألوان حتى يتم التعرف عليهن بسهولة عن بعد .

وكان شيوخ الدين يقدمون السلطان المؤيد كأمير كامل بسبب الحماية التى كان يمنحها للعلماء والمؤسسات الخيرية التى بناها فى البلاد . وكان يدعى عظيم التقوى . وعندما كان يشعر ببعض البقع السوداء فوق الضمير كان يقضى أيامًا كثيرة فى خانقاه للدراويش ويمارس الذكر معهم كعقاب له .

ويذكرنا مدخل جامع السلطان المؤيد فى مجمله بمدخل جامع السلطان حسن . يعد الباب الكبير المصنوع من البرونز من أحسن الأعمال الفنية حقيقة ، فهو بلا جدال أجمل من كل الأبواب من هذا النوع الذى نراه فى القاهرة ، فهى تتشكل من خيوط متضافرة تبرز من وسطها أحجار على شكل نصف كرة أو بيضاوية مثقوبة بالأرابيسك الحديث . وقبل سنة ١٨٨١م كان الصحن مظللاً بأشجار النخيل والجميز ومحاطًا بأبواب على شكل قوسين متقاطعين مع ستة وتسعين عمودًا مدهونة بالأحمر ، واليوم يغلق الصحن بأسوار عالية من الأحجار المقطعة ، وفى الوسط يوجد حوض للتطهير ، (الوضوء) وهو مغطى بنوع من الأسقف التركية ذات الذوق الردئ . والمحراب أو القبلة مزين بثلاثة صفوف من السفن ، والحائط الخلفى محتفظ بحالته ، والموزايك . وخاصة التى تحيط بالقبلة مزينة بأعمدة تحيط بها قطع كلسية منحوتة تلفت الأنظار . وأعلى الستائر توجد قطعة طويلة مشكلة بأسقف ذات أقواس صغيرة مسنودة بأعمدة من الزجاج الأزرق المعتم ، والأسقف مقسمة إلى أقسام ، وهى مكسوة بزينة بدهان ملون

ومذهب ذى نقاوة وتنفيذ عجيبين . ويحتاج الأمر إلى يد حكيمة لبعث الحياة فى هذه الرسومات ، وللأسف إذا حكمنا على باقى الأثر ، فسوف يتلاشى بعد قليل تحت ضغط الفرشاة الكبيرة للنقاشين ، وكل رسومات الأرابيسك هذه غير المدروسة التى تتضافر بطريقة محببة للنظر على الخلفية ذات القطع الذهبية أو الرسومات الذهبية التى تفسح مكانًا لألوان جميلة متحدة حمراء وخضراء مازالت زاهية وبراقة (ذات ورنيش لامع) ، والتى تعد أحسن ذوقًا من هذه الأقسام المجوفة الخاصة بتزيين الأسقف التى اسودت بفعل الدخان ، والتى نشعر كثيرًا بتقادمها ! ... وأكثر من هذه الأرابيسك ذات الخيوط المذهبة ذات الذوق البديع من الرقة التى تلعب دورها وسط شبكة من الخطوط المتقاطعة التى يسحر انعكاسها على المعدن العين وينومها تنويمًا مغناطيسيًا . فأكثر من الأصناف ملونة هذه ، والواضحة الغامقة هذه ، وهذه الدرجات الساخنة لوضوح الضوء التى تعطى الحياة للرسم . فهؤلاء الفنانون القدماء الذين كانوا يبدون صبرًا لا يصدق لتنفيذ مثل هذه الأعمال البديعة ، هذا الصبر الذى لا يصدق الذى لا يمكن أن يدعمه سوى إيمان حماسى يبعث فيهم الحياة . وهؤلاء الفنانون أصبحوا اليوم متخلفين عن الفنانين المحدثين الذين يستخدمون أدوات الرسم فى المتر المربع .

فبعيدًا عن هذه اللوحات المستحيلة أو غير الممكنة التى لا نفهم منها شيئًا ، ونضع تحت سيطرة الزينة الحديثة التى تحسب بخفة اليد والتى ترمم بضربة ذراع وفى مدة ثلاثة أشهر سقفًا تتطلب زينته ست سنوات من العمل المتواصل .

فيما عدا الأعمدة التى تم رفعها من الآثار القديمة وضبطها بيد مهندس معمارى غير حكيم يعطى المدخل انطباعًا بخليط من الغنى والبساطة يحمل علامة أسلوب عربى بكل رفعته وتميزه . ويحتمل أن تكون الشبابيك قد رممت منذ حوالى قرن ولا يمكن أن تعطى فكرة عن الشبابيك التى كانت موجودة من قبل . ويقول السيد (بريس دانتن) : « أضف إلى ذلك أنه كما لو كانوا يريدون أن يثبتوا فى أيامنا أننا لا نفهم أى شىء فى الفن أسودت الكتابات التى كانت تحيط بشبابيك واجهة «المحراب» وشوهت خطوط الأرابيسك التى كانت موجودة على الحائط بين الشبابيك بواسطة

رسومات غير مدروسة مما أساء إلى هذا الجزء من المبنى » . ولا نستطيع إذن أن نحكم على تأثير الأسقف المقوسة ، فهى مدهونة اليوم بطريقة غريبة بالخزف الأحمر بطريقة مؤسفة جدًا .

والمنبر مصنوع من الخشب الرقيق جدًا (على هيئة ورقة) ، وهو يتشكل من ضفائر على خط مستقيم محاطة أو مبروّزة بالأرابيسك ، وقد تم دهانه عدة مرات لدرجة أن كل زينته مملوءة باللدائن . والدكة من الرخام الأبيض ويسندها ثمانية أعمدة قاعدتها مثمنة الأضلاع ، وهى من أجمل الدكك .

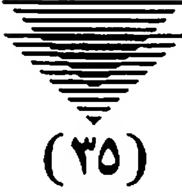
ومن كل جانب من جوانب المحراب يوجد إلى اليسار قبر السلطان ، وإلى اليمن قبر عائلته . وهاتان الغرفتان مربعتان مثل باقى غرف المدفن تعلوها قبة تتدلى منها بعض الزينة . وضريح المؤيد أو قبره مصنوع من الرخام الأبيض محاط بأعمدة صغيرة من الخشب المشغول . ومغطى بستارة كبيرة خضراء مزركشة بكتابات وزينة زرقاء وحمراء وصفراء . وبالقرب من قبر السلطان يقع قبر ابنه إبراهيم . وأعلى القبلة تمتد كتابة كبيرة مليئة بزينات من الورد تذكرنا خطوطه بالسجاد الفارسى أو الإيرانى .

وفى ١٦٦٥م كان جامع المؤيد يستخدم كملجأ للجنود الذين كانوا قد ثاروا ضد الحاكم التركى . فقرر عمرو باشا التخلص من كل العصاة وحاصر الجامع ، وتحطم أحد الشبابيك بطلقة مدفعية ، وتوغل الجنود فى الجامع حيث أدت طلقات بنادقهم إلى أحداث خسائر كثيرة .

والحمام الذى يلامس حوش الجامع يعد من أجمل حمامات القاهرة . والسقف المقوس للصالة بالمركز كان مثقوبًا بآلاف الثقوب الصغيرة المزينة بزجاج متعدد الألوان ذات واجهات كانت تنعكس فى حوض كبير من الرخام الأبيض فى وسطه كانت تندفع نافورة من الماء الدافئ . وكانت الحوائط مكسوة باليفط ، وكانت الخطوط اليونانية محاطة بالموزايك المكون من الكريستال الصغير الأصفر والأبيض . وكانت الأرضية على شكل نجمة ضخمة من الرخام الأبيض فوق خلفية سوداء يمثل الحوض مركزها . وفى

هذا الحوض غرقت الحسناء « ظريفة » فى ١٧٠٨ بواسطة منافسة لها ، وكانت تلقب «بالكوتشوك» (صغيرة باللغة التركية) . فأمر حاكم مصر « حسن - باشا » الذى كانت تنتمى إليه الأمة الجميلة أن تواجه المذنبة عقوبة . تجرح كرامتها . فتم تسليم المذنبة التعسة لأيدى الزنجيات زميلات الضحية اللاتى قمن بإغراقها فى نفس الحوض بعد أن تم تعذيبها بضربات من القبقاب (نوع من الصنادل المصنوع من الخشب) .





(٣٥)

جامع الصالح

وبالقرب من جامع المؤيد خارج باب زويلة يوجد جامع صغير متواضع جدًا تتم زيارته بسبب الأسطورة التى ترتبط به ، فرأس الحسين بن على الذى قتل فى معركة كربلاء بواسطة جنود « اليزيد » فى ٦٨٢م - ٦١هـ ، هذه الرأس كانت موجودة به - كما يقال - بين الأسقف المقوسة للمحراب ، وعندما تم رفعها لنقلها إلى مدفن آخر بجامع الحسين انحنت الأعمدة من تلقاء نفسها كعلامة احترام ولإعطاء التكريم الأخير لهذه القطعة الثمينة من الجسد . كما يشهد على هذا العمل المبجل الاثنا عشر عمودًا الكورنثيين للجامع الصغير « الصالح » الذين بقوا على وضعهم المنحنى تجاه الغرب .

وليس لهذا الأثر أى قيمة معمارية ، وليس له ما يشد الانتباه حقيقة ، فالفتحات المقوسة محاطة بحافة من الأرابيسك المحفور أو المطبوع على معجون يشبه الرخام ويمسك بقالبين من الخشب منحوتين فى نفس المعجون الذى يشبه الرخام . وباب الدخول الذى يفتح عند نهاية شارع صغير خلف ثكنة عسكرية يستحق نظرة بسبب زينته من البرونز الذى ينثر عليه نجوم من نفس المعدن .





(٣٦)

جامع الغورى

وسط بازار الغورية ، ومن كل جانب من جوانب الشارع الرئيسى يرتفع جامع السلطان الغورى ، وكذلك القبلة الجنائزية لنفس السلطان . وتم بناء الأثرين فوق مكان واسع بعيد عن الأنقاض ، ولديهم تأثير كبير مع أسوارهم القوية التى تنتهى بخط متعرج على شكل الزهور العطرة وتحذف أفقيًا بشرائط طولية حمراء وبيضاء . والمنارة التى تختفى بسقف من الأخشاب يغطى الشارع فى هذا المكان عبارة عن برج مربع عالٍ يستخدم الدور الثالث منه كقاعدة لمبنى ضخم ذى أشكال غير محددة حل محل قبة بيضاوية جميلة انهارت عند نهاية القرن الماضى .

التاريخ

تم انتخاب أحد العبيد القدماء للسلطان قايتباى الأمير « قانصوه » وهو الاسم الرابع له ، تم انتخابه سلطانًا عند سن الستين. وكان « قانصوه » فقيرًا وسلس الانقياد، وأخلاقه بسيطة وليس له لرأى طموح . كما كان غريبًا تمامًا على المؤامرات التى تسبب انقسامات بين الأمراء ، وجعلته طيبته وفضائله ينال الرضا والاعتبار العام ، وتم تعيينه رئيسًا للدولة دون علمه ، ورفض أولاً شرف الرئاسة قائلاً إنه كان قد تعود على الطاعة ويجهل تمامًا فن إصدار الأوامر . فتمت معارضة رأيه بالقول بأن شجاعته وحبه للخير العام تكفيان لاستحقاق العرش ، وأنه الوحيد الذى يستحق الجلوس على العرش . فتأثر كثيرًا ، واستجاب لأمانى الأمة ، وتم إعلانه ملكًا تحت اسم « الملك الأشرف الغورى » فى عام ٩٠٦هـ - ١٥٠١م .

وعندما وصل إلى السلطة العليا أو السامية عرف كيف يتخلص رويدًا رويدًا وبكل جهد من هؤلاء الذين يعرفون كيف يسببون الاضطرابات . وأحاط نفسه برفاهية لا مثيل لها ، وأسس المدارس والمنشآت الدينية ، وبنى قناة أثرية لتغذية القلعة . وعندما علم من أهالى البندقية « فينيسيا » بأن البرتغاليين يقيمون الوكالات الهامة فى الهند ويستولون على المدن الهامة بالسواحل أعد حملة ضد الأوروبيين المخاطرين الذين يزعجون العلاقات التجارية بين مصر والشرق الأقصى فدمر البرتغاليون حملته العسكرية .

وفى ١٥١٢م جاء « كوركود » أخو السلطان سليم الأول سلطان القسطنطينية (الآستانة) إلى مصر كلاجئ فاستقبله الغورى بكل مودة وأعطاه أسطولاً من عشرين سفينة لكى يذهب ليحارب أخاه . ولكن العثمانيين أسروا هذا الأسطول ، ومنذ ذلك الحين أصبح سليم الأول عدوًا لا يمكن مصالحته بالنسبة لمصر. فأرسلت القسطنطينية أو الآستانة قوات ، وبدأت الحملة ضد الغورى بمهاجمة الحدود السورية . فتحالف سلطان مصر مع ملك فارس إسماعيل شاه الذى كان فى حرب مع الباب (القسطنطينية) حتى يأمل فى إيقاف « سليم » وبعد أن تمت هزيمته أرسل يطلب السلام مع المنتصرين ، ولكن سليم رد على السفراء قائلاً : « إن الوقت متأخر ، عودوا وقولوا لسيدكم أن القدم لا يصطدم مرتين من نفس الحجر (لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين) سأذهب إلى القاهرة فليستعد للحرب » . ونفذ السلطان سليم تهديده ، وفاض الجيش العثمانى كطوفان على أرض سوريا ، وقابله الغورى على رأس قواته عند « مرج دابق » بالقرب من حلب . وكانت الصدمة مخيفة . فالمصريون الذين كانوا يتسلحون بالرماح والسهام والسيوف المثنية فقط كانت لهم الغلبة أول الأمر ، ولكنهم أجبروا على الانسحاب أمام المدفعية التركية ، وبعد قليل أصبحت الهزيمة كاملة ، والسلطان العجوز الذى كان قد وقع من على حصانه داسه الفرسان الهاربون بأقدامهم (١٥١٦م – ٩٢٢ من الهجرة) .

ويتميز مدخل جامع الغورى بأسقفه المجوفة التى ترتكز على بروز طبيعى جميل من الكتل الكلسية بزينة مذهبة، ووسط المبنى توجد صالة يفتح عليها المحراب أو القبلة ويثقب الحائط الخلفى بباب زجاجى كبير تم اكتشافه وأربع زجاجات ملونة . وتشبه الزينة تلك الزينة التى نقابلها فى أغلب الجوامع الكبرى . مثل الكسوة الرخامية ، والكتابات العربية ، والقبلة الخلفية مليئة بالضفائر والموزايك . وتحت القوسين المتقاطعين المضغوطين اللذين يحيطان بالمحراب أو القبلة يتدلى شمعدان اسطوانيًا من البرونز المنحوت ، وهى الزينة التى نادرًا ما نجدها اليوم فى الآثار الدينية بالقاهرة . وكان يحتفظ من قبل فى هذا الجامع بقميص النبى (ﷺ) الذى كان السلطان الغورى قد أحضره من مكة . وهذا القميص يوجد حاليًا بالقلعة حيث يشاهده الناس مرة كل عام فى « ليلة المعراج » ، وللصالح الخاص يسمح للمؤمنين بتقبيل هذه القطعة المقدسة الثمينة .

والأثر الجنائزى الذى يواجه جامع الغورى على وشك الترميم بالكامل . ففى نوع من المداخل الكبرى المضاءة بقبة مكتشفة حديثًا نلاحظ أشغالاً خشبية على الحوائط تم تنفيذها فنيًا منذ فترة وجيزة على النموذج الكامل للمشغولات القديمة . وحوائط صالة الدفن أو القبر مليئة بالزينات المنحوتة على الأسوار ابتداءً من قمة القبلة . ويبدو أن الأعمال تتم بقيادة حكيمة ، ولكنها تسير ببطء لدرجة أننا لا نأمل فى أن نرى هذا المبنى مرمم ترميمًا كاملاً قبل القرن القادم .

* * *



(٣٧)

جـامـع الأشـرفيـة

بنى السلطان « الأشرف بارسباى » فى عام ١٤٢٣م - ٨٢٦هـ الجامع الذى يحمل اسمه عند مدخل بازار الحمزاوى ، وعند زاوية شارع الموسكى . والمظهر الخارجى ليس له شىء خاص فى عمارته ، فهو عبارة عن واجهة طويلة مدهونة بشكل غريب بألوان مختلفة ، وتوجد وسط هذه الواجهة ساعة عامة ، وهو شىء نادرًا ما يكون مشتركًا فى الآثار الدينية الإسلامية . وتم ترميم جامع الأشرفية منذ بضع سنوات ، والشرائط الأفقية الطويلة التى تزين أسواره العالية تم ترميمها بالخزف الأحمر وأكسيد الكالسيوم (الحجر الجيرى) ، والمنارة لم تنس ، وللأسف أهملنا فى تركيب شرفات أو بالكونات أكثر صلابة محل الرواقين الخشبيين الاثنين اللذين يعطيان تأثيرًا روحانيًا حول كتلة الحجر المثبتان فيها . ويتم التعرف على أثر هذه الترميمات ذات السمات الكبرى بصفة خاصة فى الأجزاء العلوية للبوابة ، والقبة الجميلة المزينة بخطوط متماوجة متضافرة فى تماثل التى تقع فى الناحية الشمالية - أى من ناحية الموسكى هى الوحيدة التى احتفظت بحالتها ، كما أنها أجمل جزء فى كل البناء ، وهى الوحيدة التى احتفظت حتى اليوم بسماتها الأصلية .

وبالداخل نعرف فى كل مكان بأن يدًا حديثة وجاهلة قد مرت من هنا (من الداخل) ، فالأسقف مزينة بالأرابيسك الخفيف الذى يتوه عبر الخطوط المتضافرة المثبتة بمادة شديدة ، والألف نجمة الفضية التى تبرق على خلفية من الضوء الأزرق الذى تحفه شرائح رقيقة من الذهب ، وحلت محل كل ذلك دهانات مدخل الشقة مثل

تلك التى نشاهدها فى القصور التى بناها « محمد على » . كما يوجد أحد أركان السقف البدائى ، الذى نسيه العمال بلا شك أو لم يهتموا به الاهتمام الكافى . لأنه يوجد فى مكان معتم مازال يشاهد أعلى الدكة الكبرى التى تواجه القبلة . ونستطيع كذلك أن نحكم على الباقى مثل هذه العينة . وتم ترميم رخام القبلة بطريقة أحسن . ولكن الحوائط الموجودة أعلى القبة مكسوة بزهور وبزينات أخرى ليس لها صلة بالأصل وذات ذوق مقزز ، والموزايك الذى كانت تحيط به خيوط حمراء وسوداء ، وكانت الأرضية تحظى بهذه الخيوط حلت محله (هذا الموزايك) كتل رخامية لامعة جداً ومضبوطة جداً ومناسبة جداً مع الأسقف المرممة ، ولكن السمة الباردة والعارية تجعلنا ننسى سريعًا القرون الأربعة والنصف قرن التى تضغط بشدة على هذه الأقواس المتقاطعة الكبرى التى يتدلى منها نجف ثقيل من البرونز من فترة العصور الوسطى المزدهرة .





(٣٨)

جـامـع الحسـين

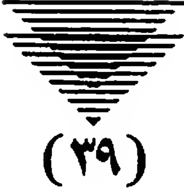
وهو أحد الجوامع التى تحظى باحترام الناس وتبجيلهم فى القاهرة ويسمى جامع حسين أو جامع « سيدنا الحسين » وهو مسمى على اسم الحسين من أولاد على صهر النبى (ﷺ) وابن عمه . وهو يقع بحى الجمالية على يسار شارع الموسكى الجديد . وهذا الأثر الذى تم بناؤه تمامًا منذ فترة وجيزة يظهر من بعيد بمنارته الدائرية الأنيقة ذات مجارى مزينة بشرفتين أو بلكونتين من الحديد ، وسقفهما مثل شعر امرأة على هيئة مخروط يعلوه هلال مذهب . والواجهة تذكرنا للوهلة الأولى بالأسلوب القوطى ، وشبابيك الصف الأول ذات قوسين متقاطعين ترتكز على ثلاثة أعمدة من الرخام الأبيض ، وشبابيك الدور الأرضى على هيئة مستطيلات يحيط بها برواز أزرق ورمادى ، وهى محمية بشبكات مذهبة ذات خيوط مضفرة لعمل متقن تمام الاتقان .

والمدخل من النوع الحديث جدًا ، ولا يقدم أى شىء مهم للفنان ، ولكن السائح الذى يرتبط بصفة خاصة بالنظرة السريعة يكتشف فى هذا المدخل عجائب وبصفة خاصة وفرة مستخدمة مع قليل من البحث . والأرضية مغطاة بسجاجيد غنية من إيران، وأعمدة رخامية محاطة بعصى من البرونز ، وترتكز على مكعب ذى مجارى يسند خمسة صفوف من الأقواس المرتفعة التى يمتد عليها سقف خرسانى ، وترتبط الأقواس مع بعضها بواسطة حبال خشبية تتدلى منها شمعدانات للصالون ونجف من الزجاج . ونافورة الوضوء مصنوعة من الرخام الأبيض وتبدو مدوسة تحت قبتها الثقيلة المصنوعة

من الزنك ، وهى فى أعين المهندسين المعماريين المصريين أحد أجمل أعمال المدرسة الحديثة .

ويقال أن جامع الحسين قد بنى على قصر « المعز لدين الله » القديم . والغرفة الموجودة تحت الأرض (البدروم) والتى نصل إليها عن طريق سلم ضيق تبدو كأنها كانت فى الماضى تعد جزءاً من الشقق الخاصة للخليفة . ففى هذه الغرفة وضعت رأس الحسين الذى قتل فى معركة « كربلاء » قرب نهاية القرن السابع . والحفلات التى تذكرنا بمراحل موت « على ابن أبى طالب » (رضى الله عنه) تقام فى ليلة التاسع من محرم .

* * *



(٣٩)

جـامـع السيدة زينب

عند الطرف الغربى من حى طولون القديم بالقرب من الخليج وقنطرة السباع (كوبرى الأسود) القديمة يقع جامع « السيدة زينب » ابنة السيدة فاطمة الزهراء بنت النبى (ﷺ) . ويبين وجود جثمان السيدة الطاهرة الذى يرقد فى صالة خاصة - يبين بوضوح درجة التبجيل التى يتمتع بها هذا الجامع بين النساء خاصة .

ويذكرنا المبنى فى مجمله بجامع الحسين . والمدخل الرئيسى من عند الواجهة الشمالية . وتتميز الناحية الغربية بأصالة قبورها ، وهى محفورة بفتحات طويلة على شكل قوسين متقاطعين ، وفى الجزء الداخلى منها يفتح صف من الشبابيك المشبكة على شكل معينات (جمع معين) . والباب الجانبى الأول مغطى تمامًا بدروع من الحديد والبرونز المقطع على شكل أرابيسك .

والمدخل جميل جدًا ، ولكن ذلك من وجهة نظر المبنى ككل ، وليس من وجهة نظر المهندس المعمارى . وكما هو الحال فى جامع الحسين فإن الشىء الذى بلفت النظر هـو أعمدة من الرخام الأبيض الطويلة الرقيقة ، والنجف الكريستال والسجاجيد الغنية جدًا. والباب الرخام الذى يفتح على حوش بالقرب من الساعة يؤدى إلى المحراب الجنائزى . وقبل أن نتوغل فى هذا المحراب المبجل نعبر نوعًا من المدخل حيث يقف حارس الجامع ، وهذا الجزء مزين بستائر خضراء ومثقوبة بشباكين على هيئة شبكة نشاهد عبرها ضريح السيدة زينب . وباب القبر مزود بمحابس من الفضة ولا يفتح بسهولة للمؤمنين . ويرقد جسد الطاهرة تحت مشغولات خشبية محاطة

بشبكة من البرونز . وتعلو المشغولات الخشبية قبة غنية بالزينة . وحوائط الصالة مغطاة بكسوة من الخشب يوجد أعلاها كتابة كبيرة من الذهب تعد من أجمل نماذج الكتابة العربية .

والقبران الموضوعان أمام الجامع ينتميان إلى كل من «الشيخ سعد محمد العتريس» و « الشيخ العيداروس » . ويعد الاحتفال الذى يقام تكريمًا « للسيدة زينب » أحد أجمل الموالد التى يحتفل بها فى مصر . ويقام هذا المولد فى شهر رجب .

وفى حى السيدة زينب نزور جامعين آخرين يكن المؤمنون لهما احترامًا كبيرًا ، وهما جامع « الشيخ صالح » ، والجامع الآخر يسمى « السلطان حنفى » الذى كان يعيش فى القرن الخامس عشر .

* * *



(٤٠)

القلعـــة

بنيت القلعة على قطعة مستديرة عالية من جبل المقطم تطل على القاهرة من الناحية الجنوبية الشرقية . وندخل إليها فى العادة من ميدان الرميلة سواء عن طريق الباب الجديد باتباع منحدر خاص بالعربات يتبع الأسوار من الناحية الشمالية سواء مباشرة عن طريق باب العزب الذى يفتح وسط برجين من العصور الوسطى يسبقهما سلم بارز تم بناؤه حديثًا ، ويفتح على مكان ضيق متتابع تم نحته فى الصخر ، وفى هذا الممر حدثت مذبحة المماليك يوم أول مارس ١٨١١م ، هذا العمل المخيف الذى سلم مصر لسيطرة البهاوات الطغاة وثبت سلطة محمد على . ويرجع أصل القلعة إلى القرن الثانى عشر ، وقد بناها الأمير « بهاء الدين » الملقب « بقراقوش » (العصفور الأسود) بأمر من السلطان « صلاح الدين » .

* * *

تاريـــخ

عند وفاة « نور الدين » الذى كان حاكمًا على سوريا أعلن « صلاح الدين يوسف » الذى كان حاكمًا لمصر آنذاك نفسه حاكمًا ورئيسًا لكل من مصر وسوريا (١١٧٤م - ٥٧٠هـ) وأصبح الصليبيون حينئذ أعداءه المباشرين . والتتابع المتصل لانتصاراته ، وخاصة تلك الانتصارات التى حققها عليهم عندما كان مجرد وزير « لنور الدين » كل ذلك أنذرهم - بالإضافة إلى أنهم كانوا يرونه يشق بسرعة الطريق التى يجب أن تؤدى به معهم إلى نفس ميدان المعركة . وأرادوا إنذاره فاقتحموا مدينة دمشق وحققوا فى

بادئ الأمر بعض الانتصارات على قوات « توران شاه » الذى كان يحكم المكان .. ولكن هذه النجاحات كانت لفترة قصيرة ، فبعد قليل ظهر صلاح الدين بنفسه على رأس جيشه (قائداً لجيشه) وأجبر الصليبيين على الانسحاب .

وفى كل مرة كان صلاح الدين يتغيب فيها من أجل حملة ، كان يترك إدارة مصر لقائد جيشه الوفى الأمير النوبى « بهاء الدين الأسادى » الذى ترك له الأوامر الدقيقة لتنفيذ كل الأعمال التى كان يعلم أنها للصالح العام . وكان الأمير ينفذ بكل غيرة أوامر سيده ، فبفضل نشاطه تم ترميم المصارف وتقويتها فى عدة أماكن بكسوة قوية من الأحجار ، وحفرت العديد من القنوات ، وبنيت الكبارى ورضفت الطرق ، وجملت العاصمة بالمبانى الجديدة . ولم تكن المواد ناقصة . فقد كانت توجد بكثرة فى الأهرامات الصغيرة المنهارة بهضبة الجيزة ، ومنف القديمة التى نهب جزء منها لمصلحة الإسكندر ، والفسطاط والقاهرة ، تلك المدن تم استغلالها من جديد ، واستمرت آثار الفراعنة القدماء تستخدم كأساس للأبنية العربية .

وفى وجود هذه المواد الوفيرة التى يبدو أن مصدرها لا ينضب اقتراح بهاء الدين على السلطان أن يشيد عند طرف القمة الشمالية المستديرة لجبل المقطم قلعة قوية تضمن هدوء المدينة وتشمل قصر الحاكم . وتم تبنى هذه الخطة فى الحال ، ونفذت فوق موضع « حصن قديم » من زمن الطولونيين . وكان هذا الحصن يسمى « قصر الهواء ». ويقول المؤرخون العرب المحدثون أن صلاح الدين كان يقوم بتجارب متكررة لكى يتأكد من أن جو هذا المكان يناسب الصحة ، فأدرك أن اللحم المعرض للهواء الطلق يحتفظ بطزاجته لمدة أربع وعشرين ساعة أكثر من أى مكان آخر بالقاهرة وضواحيها .

وعندما تم الانتهاء من بناء القلعة الموجودة حاليًا تم التفكير فى إحاطة المدينة بحصن قوى بطريقة ما تمكنه من مواجهة كل هجمات الأعداء . ووفقًا للخطة المقترحة يجب أن يكون للأسوار امتداد واسع وأن تضم ليس العاصمة فقط بل كذلك الفسطاط، وكذلك حصن بابليون القديم (قصر الشمع) يجب أن يكون محميًا بحصون من ناحية الجنوب ، وجزيرة روضة لها عند أطرافها برجان عاليان للتحكم فى النهر . واقتصرت

المشاريع الواسعة للحصون على حصن القاهرة فقط بدون الضواحى . واستلزمت هذه الأعمال هدم العديد من الجوامع وبعض المدافن ، وكذلك إلغاء ملكية المنازل والأراضى التى تقع فى طريق الأعمال ، وتمت زيادة الضرائب لمواجهة هذه المصروفات غير العادية . فخرج الشعب فى مظاهرات تنادى بسقوط الطاغية وعدم إطاعة أوامره . ولكن إذا كانت المقاومة قد اقتصرت على هذه الاحتجاجات غير الهجومية ضد الحاكم فإن المعارضة الشعبية قد استمرت طويلاً ضد الوزير وهو الأداة المباشرة لأعمال السلطة العليا . وكان من أسلحة المعارضة الشعبية التهكم والنكت اللاذعة . والوزير الذى لقبه الشعب « قاراقوش » (العصفور الأسود) وهو اللقب الذى خصه به التاريخ ، وتم اختيار الوزير من حزب المعارضة ، وكان الأنسب لكى يكون البطل المثالى للعروض الكوميدية والعرائس الصناعية والأكروبات ، ومكرساً من عصر لعصر للتهكم الشعبى . وتورثت الكراهية الشعبية كميراث انتقام من جيل إلى جيل بأيدى المهرجين حتى وصلت لجيلنا ، والآن كذلك فإن الكوميديا المصرية التى نراها مجسدة على خشبة المسرح . سواء أكانت زائدة عن الحد أو منافية للآداب فإنها تسمى قاراقوش أو إذا فسدت تسمى « قاراكوز » .

وفى ١١٧٧م - ٥٧٣هـ بدأت العداوة بين صلاح الدين والصليبيين ، وفى هذه المرة انهزم الفاتح العربى فى « الرملة » بواسطة « رينو دى شاتيون » . وبعد ذلك بخمسة أعوام . تحالف الأمراء بعد أن اتفقوا مع سكان الموصل تحالفوا فى الخفاء مع الصليبيين ليوحدوا جهودهم ضد سلطان مصر .

فظهر صلاح الدين فجأة وأسرع فى إفشال مشروعات التحالف ، وأخذ حلب ، واستولى على العديد من المدن الأخرى ، ثم جاء ليعسكر أمام الموصل ، وهى المكان الوحيد الذى بقى من مملكة « عَتَبك » (عاتابك) Atabeks القديمة . وتوقف حصار الموصل بسبب العديد من العمليات العربية على حدود « سوريا » ، ثم عاد هذا الحصار مرة أخرى نهائية فى ١١٨٥م - ٥٨١هـ . وعرضت على صلاح الدين مقترحات لإحلال السلام . فقبلها بشرط أن يعترف به الأمراء الذين حاربهم كسلطان أو كقائد عليهم ،

وأن يكون هذا الاعتراف بصفة رسمية . وتم توقيع اتفاقية السلام . ولم يعد أمام صلاح الدين سوى محاربة الصليبيين . وفى عام ١١٨٧م والأعوام التى تلته انتزع منهم طبرية ثم قيسارية ، ثم حيفا ، ثم صفورية ، ثم فلة ، ثم يافا ، ثم صيدون ثم بيروت ، إلخ... ، ثم عكا حيث قام بسجن ملك أوروشليم « جاى دى لوزينيان » ، وبعض السادة العظماء من الدرجات الدينية الرفيعة . ومن عكا سار نحو القدس التى استسلمت بعد مقاومة بطولية دامت أربعة عشر يومًا ، ثم أخذ « ديابله » «Diabalah» وأسكلة ، وغزة ، ورملة ، ولاوديه أو لاتاكيه ، والقيروان ، ودير بساك ، وباترون ، وبغراس Baghras ، وصافد ، ونابلس ، وسباست Sébaste إلخ ... وأوقف الصليبيون هذا الطوفان من الانتصارات باقتراحهم لهدنة قبلت فى ١١٩١م - ٥٨٧هـ وبعد ذلك بخمسة عشر شهرًا نقضت هذه الهدنة ، وسار صلاح الدين نحو انتصارات جديدة . ووسط هذه النجاحات الأخيرة مات هذا القائد العظيم فى دمشق فى ١١٩٣م - ٥٨٩هـ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكان المبنى الأكثر تمييزًا بالقلعة منذ بضع سنوات هو قصر صلاح الدين . وكان هذا القصر يسمى بصفة عامة أريكة (أو مكان راحة) أو دكة « يوسف » وكان مغطى بالمنحوتات ، وبالموزايك ، وبالأشياء المذهبة وبالرسومات . وأعجبنا (نحن السياح) بصفة خاصة بصالة ذات سقف مقوس تعلوه قبة مع كتابات بالحروف الذهبية . وأعمدة مصنوعة من حجر واحد ، وهو حجر الجرانيت الأحمر ، ويبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى ثمانية أمتار تحت الجزء المنحوت الذى يتوجه ، ويبلغ متوسط محيطه ثلاثة أمتار، وهو يسند فتحات مقوسة من الأحجار ، وكتلة من المعدن مليئة بكتابات بحروف عربية ضخمة . ودهشنا للوقت والعمل اللذين تم بذلهما لنقل هذه الأعمدة إلى مكان مرتفع مثل القلعة .

ويقول السيد برنس داڤنن : « إذا استطعنا أن نقارن أريكة يوسف أو استراحة يوسف بآثار أخرى فستكون المقارنة بالذوق فقط وصرامة الأساليب ، فيمكن مقارنته «بباب النصر» وكذلك بجامع « الحاكم » . فالفتحات المقوسة ذات تقعر كامل فى

الأثرين . ويبدو لنا أن الأعمدة جاءت فى الأصل من الإسكندرية حيث مازلنا نرى المثات بالميناء » .

ففى موقع هذا المبنى (أريكة يوسف) الذى دمر فى ١٨٢٩م ، وبالقرب من جامع قلاوون الذى انهار بنى محمد على لنفسه جامعًا وقصرًا . ويعجب المصريون بجامع محمد على أيما إعجاب . وهذا الرأى الذى لا يعد سوى نفاق موجه للمؤسس . وهذا النفاق لا يثبت إلى أى درجة قد فقدت التقاليد العظمى للفن العربى فى المشرق ، لأن هذا الجامع الكثير المدح عبارة عن خليط من كل الأساليب ماعدا الأسلوب العربى . ويعلو المبنى قبة يوجد بجانبها أربع « أنصاف قباب » من النوع البيزنطى . والمنارتان اللتان ترافقها ترتفعان ارتفاعًا مبالغًا فيه وشكلهما حاد وهش . وهما ثُمانيتا الأضلاع وبكل منهما رواقان ويعلوهما سقف على شكل مخروط . والحوش محاط ببوابات من الرخام الشرقى الشفاف الجميل ومظهره متناسق . وفى الوسط توجد نافورة خاصة بالوضوء ذات أسلوب فنتازى ذوقه ردئ ومزينة بالريش ومحاطة بثمانية أعمدة مستديرة ذات أسلوب إنجليزى . والبرج مربع الشكل وأسمر وذهبى اللون ، ويقع فوق الرواق الشمالى الغربى ويحتوى على « ساعة عامة » أهداها الملك « لويس فيليب » لمحمد على .

ومدخل الجامع من الرخام الأبيض الشفاف له شىء بارد يحدث انطباعًا متفردًا ، وهذه الصالة الواسعة المضاءة بضوء خافت عن طريق بعض النوافذ وخيوط الضوء الرفيعة التى تسقط من زجاج القبة المتعدد الألوان ، ولهذا المدخل سمة الصحراء ، فمن النادر أن نقابل فيه مسلمين يصلون ، ويبدو أن المؤمن وحتى المؤمن المتحمس يجب أن يختلى بنفسه وسط هذه الحوائط حيث لا توجد أى زينة تريح العين . فالقبلة التى يعلوها دائمًا الموزايك الجميل ، والمنحوتات الرقيقة ، والدهان ذو الألوان الحية باردة وعارية مثل الحوائط. والأرض مغطاة بالسجاد الإيرانى (الفارسى) الجميل الذى لا يداس سوى بأقدام عارية وفقًا للاحترام الدينى . وإلى يمين المدخل نلاحظ قبر المؤسس ومسنودًا بقطعة ثقيلة من الحديد الزهر المطلى بالذهب ، ومثقوب بسبع

فتحات ذات خيوط مضفرة تعلوها كتابة باللغة العربية على خلفية زرقاء . والمنبر مزين بطريقة مؤسفة جدًا لدرجة أن الوصف الأكثر حكمة لا يمكن أن يعطى فكرة عنه . وبصفة عامة التخطيط الداخلى والشمعدان الأوسط الكبير والشمعدانات الأربعة الأخرى الأصغر منه حجمًا ، ولكن دائمًا بنفس الأسلوب ، كل ذلك يعطى لهذا المحراب الواسع مظهر صالون حديث أكثر منه مسجدًا صلاة . والقصر الذى يسكنه محمد على هو مثل باقى قصور الشرق بسيط جدًا من الخارج وواسع وبديع من الداخل ، ولكن له جلال أوروبى . فالستائر ، والزجاج ، والمناضد كل شىء جاء من باريس حتى الكراسى ذات المقابض والكراسى العادية التى تعطى شكلاً غريبًا وسط الدكك الواسعة ، وهى الأثاث الوحيد الذى ينتمى للمهندس المعمارى المصرى وإلى الأخلاق الشرقية . كما توجد به كذلك أرصفة جميلة جدًا من الرخام ، وحمامات من الرخام الأبيض الشفاف من أحسن الأذواق العربية . وللأسف توجد ساعات معلقة مخيفة ودهانات رديئة جدًا ، والمنظر الذى نتمتع به من هذا القصر بديع ، فنشاهد مدينة القاهرة الواسعة تعلوها قبابها ، ومناراتها ومغلفة بمدافنها الحزينة كما لو تغلف من حزام الموتى . وتختلف مدن الشرق عن مدن أوروبا الأكثر صخبًا حتى عن بعد . فمدن الشرق هادئة جدًا ، ولا يخرج أى صوت بشرى من الشوارع العديدة والمملوءة بالناس فى هذه المدينة الكبرى (القاهرة) التى يبدو أنها صامتة مثل المدافن التى تحيط بها . وعن بعد بطول النيل تزدهر الحدائق ذات اللون الأخضر الغامض هنا وهناك مثل العديد من الواحات وسط السكان ، وسهول الرمل . وغابات النخيل تزدهر فى الهواء الأزرق ، وتفرد مراوحها المحببة . وأبعد من ذلك تنتشر الصحراء فى هدوئها اللانهائى .

وبئر يوسف ، ويسمى هكذا من اللقب الذى يحمله عم صلاح الدين ، وهو محفور فى الصخر الحى أو الصخر الذى لم يستخدم بعد . وهو مربع وبارتفاع دورين ، وعمقه ٨٨ مترًا و ٣٠ سنتيمترًا ، والجزء العلوى هو أحد النقاط العالية بالقلعة (الحصن) وهو مبنى من الأحجار المقطعة حتى عمق ١٢ مترًا و٥٠ سنتيمترًا . ويسمح طريق مستدير ذو انحدار هادئ بالنزول السهل حتى السطح الذى يفصل بين الدورين . وهذا

الطريق منحوت فى الصخر ، ويحتفظ بمفاصل ٣٠ ملليمترًا مثقوبة فى الشبابيك التى تستخدم لإنارة النزول وخلفية الجزء الأول من البئر ، وهى تنفصل عن الطابق السفلى بقطعة من الخشب وهى تبعد عن الفتحة بـ ٤٨ متر ، هنا توجد ساقيه يحركها ثور وترفع المياه من قاع البئر حتى ارتفاع الخزان الأول حيث تغرف بأوانى ساقية أخرى موضوعة عند مستوى الفتحة العليا ، ويوجد أعلى السقف الأول سلم آخر رطب ومنزلق يبلغ عرضه ٨٥ سنتيمتر ويسمح بالنزول حتى مصدر البئر ، ولكنه ليس له أطار لأنه لا يوجد أسوار (حوائط) أو كبارى تمنع السقوط (أعمدة مانعة للسقوط) . وبئر يوسف عمل جميل جدًا . خاصة إذا رجعت إلى الزمن الذى حفر فيه ، فهو يستخدم حتى اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) فى تغذية المكان بالمياه ، ولكن أهميته قلت كثيرًا منذ بناء خزانات شركة المياه .

وتنقسم « القلعة » أو الحصن الذى بناه صلاح الدين إلى ثلاثة أجزاء ، وهى العزب ، والانكشارية ، والقلعة وهى أعلى الأجزاء . وتحاط هذه الأجزاء المتميزة والمتلامسة بأسوار وأبراج مسننة . ويقع الحصن لكل أعلى هضبة المقطم ، ويفصله عنها ممر مائى . ولم يكن ذلك عيبًا فى زمن صلاح الدين ، ولكن الآن لا نستطيع أن نقاوم هجمات الأعداء . وتوجد ملاحظة خاصة ، ألا وهى أن الجانب الأكثر تسلحًا يطل على المدينة ، ونستطيع إذن أن نستنتج من ذلك أن السلاطين والباشوات ونواب ملوك مصر كانوا يعتبرون هذا المكان كحصن قوى يحميهم من الثورات والحروب المدنية بدلاً من أن يكون قلعة أو حصنًا يحميهم من الغزوات الخارجية .





(٤١)

الأبـــواب

تمتلك القاهرة عددًا كبيرًا من الأبواب ، وتعد كلها اليوم أبوابًا داخلية بعد امتداد العاصمة . وأكثر هـذه الأبواب تميزًا هى « باب النصر » ، و « باب الفتوح ، و « باب زويلة » ، التى يرجع أصلها إلى الخليفة الفاطمى « المستنصر بالله » (القرن السادس) وبناها الوزير « بدر الجمالى » المملوك القديم « لتجميل الدولة » .

« باب النصر » له انحناء كامل ويوجد بجانبه برجان مربعان . وهو يذكرنا فى مجمله بالآثار العربية الأسبانية . ويقول السيد « باسكال كوست » : المبنى له خاصية منغلقة ، والفتحات المقوسة تسندها أرجل مستقيمة مع بروز . كما توجد كتابة كوفية جميلة تم تنفيذها بمقص نقى وحاد ، وتوجد الكتابة بعرض طول عرض قطعة معدنية . كما توجد دروع مزينة ومنحوتة بين السطح المنحنى والسطح المستوى العلوى للفتحة المقوسة ، كما تزين قطع معدنية واجهات البرجين اللذين يرتفعان حتى سبعة أمتار أعلى الأسوار .

ويقع باب الفتوح أو باب الغزوات إلى الغرب قليلاً من الباب السابق . ويقول السيد باسكال كوست : « إن توزيع الكتل والعلاقة بين الأجزاء أثقل من التى لباب النصر ، ولكن المنحوتات التى تكسو هذا الباب مصممة بطريقة أكثر دقة لدرجة أن الزينة موزعة بذوق أقل ، ومع ذلك فله خاصية فى مجمله ، وهو غنى بالميداليات (جواهر مستديرة عليها رسومات) وبقوسه الكبير الذى نحتت فيه تجاويف زينة وأوراق مجمعة بطريقة منتظمة » ، والأبراج مستديرة ، أو بالأحرى على شكل قطع ناقص ، وهى بارزة جدًا

بسبب دورها الدفاعى ، والزينات البارزة مبروّزة بدلاً من أن تتبع قواعد المبنى . وزينات هذا الباب مقوسة تقوسًا كاملاً ومقسمة إلى حزم من الورد أو الأفرع ، وأقواسه التى على أهبة الاستعداد ، وخنادقه ، والبروز التى تنطلق منها النيران ، كل ذلك له سمة الفن العربى كما هو الحال فى باب النصر ، وارتفاع هذان البابان تحت مفتاح السطح المقوس هو اثنان وعشرون مترًا .

ويفتح كل من باب النصر وباب الفتوح فى الحصن القديم بشمال المدينة ، ويبدو أنه يقع بجوار جامع السلطان الحاكم القديم الذى تشكل أحد مناراته نوعًا من القلاع بين البابين . ويمثل هذا الجزء من الحصن مجموعة من الأبراج وأنصاف الأقمار المرتبطة بسور مزدوج يوجد أعلاه طريق عرضه متران ونصف . وتوجد على حدود هذا الطريق خنادق محصورة فى الأبنية التى تملأ أسياج البروج العربية القديمة ، ومن مكان إلى آخر نقابل سلالم تقودنا إلى أنفاق أو ملاجئ فى أنفاق . وتم استخدام هذه الأعمال الدفاعية للمرة الأخيرة بواسطة بونابرت . وإذا تفقدنا الحصن أو مشينا فيه بالصعود من أحد أبراج باب النصر نستطيع أن نقرأ حتى اليوم أسماء الضباط الفرنسيين الذين تسمت بأسمائهم مختلف النقاط الحصينة . فإذا سرنا من الشرق إلى الغرب نمر بالتتابع على برج « كوربان » Corbin ، وبرج « چوليان » Julien ، وبرج « ميلو » Milhaud ، وحصن فابى Vaille (حصن منارة جامع الحاكم) ، وأبراج ليكال Lescale الثلاثة ، وبرجا برولت وجانو Perrult, Janot .

ويلامس باب زويلة جامع المؤيد ، وكل من واجهته مخططة بشرائط طولية أفقية تتلون بالتبادل باللونين الأحمر والأبيض . وتستخدم أبراج هذا الباب كقواعد للمنارتين اللتين شيدهما السلطان المحمودى أبو النصر وهو يبنى جامعه . وتحت السقف المقوس لهذا الباب الذى يسمى باب المتولى جرت فى السابق عمليات شنق القادة العظماء . ففى هذا المكان تم شنق السلطان « طومان باى » التعيس بأمر من سليم الأول فى ١٥١٧م - ٩٢٣هـ .

* * *

تاريـــخ

أثناء الحكم المضطرب للخليفة المستنصر حكم وزيره « بدر الجمالى » مصر لمدة عشرين عامًا بسلطة مطلقة وكان الشعب يهابه ويحترمه ، وأمسك بزمام الإدارة بحكمة وشدة . وبفضله استعادت مصر - بعد أن خربتها سلسلة من الأوبئة والاضطرابات - ماضيها الجليل وأصبحت أكثر ازدهارًا من ذى قبل . فأحاط القاهرة بحصن جديد من الطوب أو الصخر كان يوجد بداخله الأبواب الثلاثة التى تحدثنا عنها . وبعد قرن من الزمان حل محل هذا الحصن أسوار سميكة من الأحجار تحت حكم صلاح الدين . وأثناء حكم المستنصر دمر كل من حى « العسكر » وحى « القطائع » . وبنى « بدر الجمالى » حيًا ببقاياهما أو ركامهما فى جنوب القاهرة سمى بضاحية (مركز) باب زويلة .

والأبواب الأخرى مثل « باب طولون »، و« باب القرافة » ، و« باب الوزير » ، و« باب المحروق» ، و « باب الغُريب » ، وباب الشريعة إلخ ، فليس لها أى أهمية .





القناة (المجرى المائى)

والقناة التى كانت فى السابق تحمل المياه إلى القلعة كانت تأخذ المياه من فرع النيل الصغير الذى يفصل القاهرة القديمة عن جزيرة « الروضة » . وكان يوجد خزان لمياه الأمطار موضوع وسط برج كبير وسميك ومسدس الشكل ، وكان هذا الخزان يتصل بالنهر (نهر النيل) عن طريق قناة تمر تحت الأرض وهذا المبنى الذى لا يستخدم اليوم مقسم إلى عدة طوابق تحتوى على صالات عديدة كان الفرنسيون يستخدمونها أثناء الحملة الفرنسية لعمل مركز للمراقبة العسكرية ، والجزء العلوى الذى نصل إليه عن طريق مستويات خارجية مائلة ينتهى برصيف يوجد وسطه حوض مياه واسع تغذيه ست سواقٍ ترفع المياه من عمق خمسة وعشرين مترًا .

وتتجه القناة نحو القلعة باتباع خط متعرج يصل طوله إلى ٢٢٠٠ متر حتى « باب القرافة » حيث يوجد مبنى ثان مشابه للأول ، وبه كذلك ساقية ترفع المياه حتى خزان آخر يرتفع عن سطح القناة بعشرين مترًا . وينساب الماء من جديد ويأتى ليغذى خزان ثالث موضوع على بعد ٢٢٠ مترًا من السابق بالقرب من « باب العرب » وعلى ارتفاع ٢٠ متر ، ومن هذه النقطة تقود قناة طولها ٢٠٠ متر محفورة فى الصخر - تقود المياه إلى داخل القلعة حيث ترتفع للمرة الأخيرة إلى ارتفاع ٢٠ مترًا لتنساب بعد ذلك عبر خنادق إلى نقاط مختلفة من الحصن .

وينتج من الأرقام التى أعطيت من قبل أن الطول الكلى للقناة يتعدى ٣٨٠٠ متر ، وأن المياه وصلت بعد أن مرت بالتتابع عبر ماكينات رافعة مختلفة وصلت إلى ارتفاع ٨٥

متراً أعلى من المستوى المتوسط للنيل . وهذا العمل المميز يرجع إلى بداية القرن السادس عشر ، والأحجار التى استخدمت فى بنائه تم رفعها وفقًا للاستخدام من الآثار الجنائزية « لمفيس » . ويقول « فتح الله أبو طاهر » بخصوص هذا الموضوع : «إن العمال عندما هدموا هرمًا بالقرب من أبو الهول اكتشفوا هرمًا آخر من الجرانيت مثل أساس الأول » . ويضيف بأن الهرم الصغير كان مغطى بعلامات لحيونات وأشياء أخرى كما شاهدت فى أماكن أخرى . وداخل الهرم توجد جثة سيدة فى تابوت من ذهب تم حمله إلى قصر السلطان حبًا فى الفضول « والمعرفة » .





(٤٣)

السبيل أو الأسبلة

السبيل أثر للمنفعة العامة يحتوى فى العادة على دور أرضى علوى يستخدم كصالة مدرسة . ويحتوى الدور الأرضى على نافورة أو صنبور مياه تنساب منه المياه فى خزان داخلى ، وهو مغلق من ناحية الشارع بشبكة عالية من الحديد أو من البرونز دقيقة الصنع ومحاطة بأعمدة من رخام تحمل أسقف كاملة التقوس أو أقواس متقاطعة تعلوها كتابات وزينات مذهبة . وجميع هذه النافورات أنصاف دائرية أو متعددة الأضلاع ، والكثير منها مبنى كليًا من الرخام الأبيض ، وهو من أجمل الأعمال ، والبعض منها تعلوه بوابة تعطى للبناء سمة أثرية . وخلف الشبكة يقف رجل مسئول عن الملء المستمر لأكواب مثقوبة وفناجين من النحاس يمدها للمارة عبر مربعات الشبكة وبدون مقابل ، ويكفى أن نرى عددًا كبيرًا من الناس العطشانين يقتربون من السبيل لنفهم أى ارتياح تجلبه هذه المؤسسات الخيرية لشعب مجبر على ممارسة عمله تحت أشعة الشمس الحارقة .

والأسبلة الرئيسية فى القاهرة هى أم محمد على الصغير (أم محمد على ابن محمد على باشا) شارع قنطرة الدكة ، أم عباس باشا فى الصليبة ، مصطفى باشا فاضل بدرب الجماميز ، وطوسون باشا بالسكرية ، السلحدار ، والجمالية ، وحسانين فى مواجهة جامع يحمل نفس الاسم .

وتوجد بالقلعة نافورة تسحر اللب لها نفس فضيلة شلال « لوكاد » «Leucade» أى أنها تطفئ لحظيًا لهيب الحب العنيف . وهكذا يرتادها المحبون بلا أمل من الجنسين ،

وهى تتكون من كومة من الأحجار السوداء القديمة منحوت فوقها باللغة الهيروغليفية وشكلين يمثل أحدهما « أوزوريس » ويمثل آخر أنوبيس (إله ابن أوى) . والكلب المصرى ذا الرؤوس الثلاثة حارس النار . وهذا الحجر الأسود مبروز موضوع فى تجويف من الرخام ، وهو أداة احترام أو خوف من عامة الناس بسبب الخصائص السرية التى تتصف بها دون شك ، والتى توقظ بسرها كل الخرافات .

* * *



الحمامات

الحمامات العامة كثيرة فى القاهرة ، وهى تتكون من صالات كثيرة بها نافورات أو صنابير ينساب منها الماء فى درجات حرارة مختلفة . وعدد الصالات المضاءة من أعلى بواسطة زجاج متعدد الألوان مستدير مركب فى السقف المقوس ، وكذلك عدد الأحواض. كل ذلك يستحق الاحترام . وكلها حمامات ساخنة ، وهى الوحيدة الباقية التى يقدرها حقيقة سكان المشرق .

ولا تتميز الحمامات بأى سمة معمارية خاصة والتخطيط الداخلى موحد فى كل مكان ، ويوجد مدخل ضيق يؤدى إلى صالة كبرى تصلح كمدخل يقف فيه المعلم (سيد المكان) الذى تدفع له النقود عند الدخول . ويتم خلع الملابس فى هذه الصالة أو فى واحدة أخرى فى بعض الممرات تسمى « مخلع » وبعد ذلك يأتى المستحم إلى شخص المُحمم (المكيساتى) الذى يعقد فوطة حول وسط الشخص الذى يريد الاستحمام أو حول كليتيه ثم يجعل المُحمم المكيساتى الشخص الذى يريد الاستحمام يعبر عدة غرف متدرجة فى درجة سخونتها ليصل إلى صالة الحمام التى توجد وسطها نافورة للماء الدافئ . وهذه الغرفة مغطاة بشرائح من الرخام أو الموزايك . كما أنها رطبة ومزحلقة جداً . وللوقاية من التزحلق يلبس المستحم حذاء من الخشب يسمى القبقاب الذى يجعل السير صعبًا . كما يحدث أولاً ضيقًا فى التنفس ، ثم يتعود المستحم على البخار الساخن الذى تمتلئ به الصالة . وبعد راحة لبضع دقائق على حافة الحمام المشترك ، يجعل المحمم المكيساتى المستحم يتمدد فوق أريكة أو فوق حافة النافورة المركزية ، ويبدأ بتدريب (مساج) مختصر . وبعد ذلك يحك الجلد بشدة بقفاز من قماش خشن له خاصية إزالة البثور الصغيرة التى يقوم المحمم المكيساتى كرجل يعرف مهنته

بالإفصاح عنها لزبونه بثقة وعفة لإثارة شغفه . كما يقوم المحمم المكيساتى بحك باطن يدى المستحم بقطعة من الطوب الأحمر (المشوى) وكذلك باطن قدميه وكل ذلك يعطى للجلد كل الطلاوة التى يجب أن يستمتع بها .

وبعد أن يكون المستحم قد دُعك وطُقطقت مفاصله واستدار ، وحُك ، ونُظف من البثور ، ونُعم جلده بحجر يمر فى غرفة أخرى جانبية صغيرة لا يوجد بها من أساس سوى حوض به نافورة مختومة على الحائط ، وبه نافورتان واحدة للماء الساخن وأخرى للماء البارد . ويقوم محمم ثان (مكيساتى ثان) متخصص بعمل رغوة من الصابون فى طبق مستدير ومقعر من النحاس وذلك بهزه بنوع من الليف (به شعيرات) من شجر النخيل ومستورد من المملكة العربية السعودية ويشبه الحرير ، ويغمر المحمم المكيساتى الثانى المستحم بالصابون المرغى من الرأس حتى القدمين ، ثم يشطفه بماء كثير .

وبعد هذه العملية يقوم بعض الهواة باستخدام جسم طبى لإزالة الشعر له آثار صحية ممدوحة ومحمودة، ثم يقاد المستحم وهو معقود جيدًا بالفوط إلى صالة الدخول حيث يرتاح على أحد المراتب التى تؤثث الديوان . وفى هذا المكان يتم تدليك المستحم تدليكًا أخيرًا أو عمل مساج أخير له يجبر بعده على شرب القهوة ثم يدخن ويسلم نفسه لرقة الكيف ، ويستمع لبقية قصة قد بدأت منذ عدة أيام بواسطة أحد الروائيين الذى يجد خياله الخصب كل يوم شيئًا جديدًا عن مغامرات بطله التى لا تنتهى .

وتفتح الحمامات الشعبية فى العادة للرجال طوال الفترة الصباحية حتى الظهر ، ويخصص باقى اليوم للنساء. ويعد الحمام بالنسبة لهن أحد اللذات . فهن يجتمعن فيه ليفشين أسرار حياتهن العائلية، وأخبار اليوم، وفى بعض المرات يحكن المؤامرات. وكثيرًا منهن يتبعهن عبيدهن ليحكهن وينتف شعرهن . وأشهر الحمامات بمدينة القاهرة هى حمامات العباسية بالقرب من جامع الظاهر ، وحمامات « الشراوى » ، وحمامات «اليسبك » ، وحمام « التمبلى » ، وحمام « السلطان » ، وحمام « الأكسنكور » إلخ.

وعندما تفرد ستارة أو سجادة أعلى الباب بطريقة تغطى المدخل فهذا يبين أن النساء فقط لهن حق الدخول فى المبنى .





(٤٥)

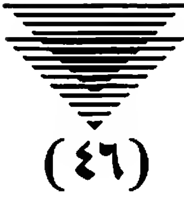
البــازارات

التجار الذين يمارسون نفس النوع من التجارة يشكلون جمعية خاصة يراسها شيخ، وهو نوع من قضاة التجار . وهذا الشيخ أو القاضى يعد مسئولاً ومشرفًا على الشئون التجارية ، ويجب أن يعمل دائمًا على أن يسود الوئام التام بين زملاء المهنة الوحدة . ويعيش التجار هكذا فى مجتمع عمل أو شركة عمل فى نفس الوقت الذى يعمل فيه كل واحد لحسابه الخاص . كما يتجمع التجار فى مكان موحد يمارس كل واحد منهم التجارة بحرية . وأعطيت كلمة بازار لهذه المجموعة من الدكاكين أو البوتيكات . ولا نشاهد فى بازارات المشرق جمال وسمو الدكاكين والمحلات الأوروبية . وبجانب هذه المحلات أو المخازن الكبرى وأسفل أروقة الأحواش تصطف محلات صغيرة عشوائية بدون زجاج محفورة فى السور على بعد متر من الأرض ، ومفتوحة على وسعها فوق أزقة ومسقفة بألواح خشبية أو بالقش مع أماكن فارغة متعددة بحيث تتباعد عن بعضها لتتوغل من خلالها أشعة الشمس . والتاجر يقعمز على دكة مفروش عليها قطعة من السجاد أو من وسادة ، ويدخن البايب غير مهتم بما يدور حوله انتظارًا لمنح أو عطايا المارة ، ولا يبدى أى غيرة عندما يشاهد جاره ومنافسه أكثر حظًا منه من خلال بيعة حقق منها ربحًا كبيرًا ، فهو يعتقد أن دوره سيأتى فى مرة قادمة إن شاء الله . وفى الشوارع الضيقة جدًا يحل محل الدكة قطعة من الخشب أو الشيش الأفقى المنخفض ويشكل نوعًا من المناضد (منضدة) تفرد عليها البضاعة التى تزدحم بها المنضدة . ويوجد فى ركن مظلم أكواب قديمة من النحاس مكتوب عليها آيات من القرآن من الذهب السائل أو الفضة السائلة . كما تفرد هنا غوايش ثقيلة ، وخواتم تركية ، وعقود من الأحجار الكريمة ، وسبح من العنبر ، وميداليات قديمة تبرق وسط النارجيلة

(الشيشة) ، وسيوف ، وأسلحة قصيرة حادة (مطاوى) ودروع نحاسية معلقة من الحوائط أو مدلاة من الأسقف ، كما يوجد فيض من الأنسجة المثنية أو التى تلقى على بعضها فيما يشبه الفوضى ، وأنسجة مزركشة بالذهب ، وأحزمة من الحرير ، وشيلان أو أحجبة مرسوم عليها ترفرف فى كل الاتجاهات . والأماكن التجارية المتقاربة تمتلئ بالسجاد الإيرانى والكرمنى ، وشيلان من الهند ، وقطع من البطاطين والحرير ، والكل يتراكم تحت الأروقة بالقرب من بالات القطن ، والكاوتش أو المطاط ، وبالقرب من القهوة (البن) ، والعاج .

ويتم الشراء بدون الدخول فى المحل (الدكان) ، وفى أغلب الأحيان يكون من المحال على شخص ما أن يجد مكانًا صغيرًا يضع فيه قدمه . ويجلس الزبون على دكة صغيرة . والتاجر يكون دائمًا مؤدبًا ، ودائمًا مستعجلاً ، ولكن ليس هذا الاستعجال النهم الذى يشتهى المكسب ويثير الأعصاب الذى يعد عيبًا أو وباء المحلات (الدكاكين) الباريسية . فيبدأ التاجر بتقديم القهوة والدخان كشىء مفروض قبل الدخول فى أى صفقات . وبعد ذلك يفرد أمام أعين الزبون مجموعة من الأقمشة ، ويضع فى يد الزبون الشىء الذى يرغبه . ولا يمدح بضاعته مطلقًا لأنه على الزبون أن يحكم عليها ، وإذا أبدى الزبون بعض الشك حول قطعة من الحرير ، أو حول أصالة ميدالية . أو سلاح إسلامى فإن التاجر يسحب البضاعة من يد الزبون برفق ويضعها فى مكانها . ويظل التاجر صامتًا ولا يتحدث إلا إذا اتفق الزبون معه . فالتاجر الشريف يعلن السعر ولا يسمح بالتشكيك فى حسن إيمانه ، وهو معتدل فى كلماته ، ويصبح شيئًا خارجًا عن العادة إذا فقد الزبون بالجمل غير النافعة الوقت الثمين المخصص للراحة وللأسف ليس كل التجار هكذا ، فعدد كبير منهم يتحدثون كلامًا لا فائدة منه ويتفق أو يتشابه مع كلام التجار الأوروبيين ، ويبيعون بضاعتهم بنصف الثمن الذى حددوه أولاً ، وفى أغلب الأحيان نجد فوق شال من الهند ، أو قطعة حرير مزركشة بالذهب من سوريا نجد بطاقة فى ركن منسية سهوًا مكتوب عليها أنها صنعت فى « ليون » بفرنسا .

* * *



(٤٦)

الرواة الشعبيون

فى أكبر جزء من القهاوى العربية بالمشرق ، وخاصة بالقاهرة نجد نوعًا من الوعاظ يحكى أو يغنى قصة عجيبة أو رواية شعبية وبصحبته « ربابة » ، وهى آلة موسيقية ذات حبل واحد وصوت منخفض يستخدمها حتى يحسن التعبير عن بعض أجزاء من قصته . والرواة أو المحدثون هم فى الأصل علماء فقراء يعيشون على ما يدفعه لهم من يسمعوهم . وهم يشكلون جمعية مقسمة إلى عدة درجات ، وتحكى كل درجة نوعًا معينًا من القصص . والروايات الشعرية الأكثر شهرة هى روايات أبو زيد الهلالى ، والظاهر (السلطان الظاهر بيبرس) ، وعنترة ، والزناتى ، و « رستم زال » (محارب فارسى أو إيرانى) .

وها هو تحليل فى بضعة أسطر لمغامرات أبو زيد :

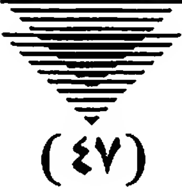
- يحكى أن أميرًا عربيًا يدعى « رزق » كان قد تزوج من ست سيدات ولم ينجب أى ذرية ذكور سوى طفل ذكر بدون ذراعين وبدون ساقين . وبعد أن فقد الأمل تزوج بزوجة جديدة تدعى « خضرة » وهى التى حملت بعد فترة قليلة من زواجها بالأمير . ويومًا ما عندما كانت « خضرة » تتنزه مع عبيدها رأت عصفورًا أسود يحط على عصافير أخرى فقتل منها عددًا كبيرًا وشتت الباقى . فتأثرت عند رؤية هذا المشهد وتضرعت إلى الله سبحانه وتعالى لكى يعطيها ابنًا قويًا وشجاعًا مثل هذا العصفور حتى لو كان يجب أن يكون أسودًا مثله . فاستجاب لها ربها . فوضعت طفلاً أسودًا . وفرح الأمير فرحًا شديدًا عند رؤية ابنه ودعا أصدقاءه إلى وليمة ليشاركوه سعادته .

وفى اليوم السابع عُرض الطفل على المدعوين . فحث هؤلاء الأمير على طرد الزوجة غير الوفية التى وضعت طفلاً كشاهد حى على خزيها أو زناها . فاستجاب الأمير - ولكن مع ندم - لأنه كان يحب زوجته حبًا جمًا ولم يشك فى أن الطفل من صلبه حقيقةً. فطُردت خضرة إلى بيت والدها . وبعد فترة من الزمان شعر أمير آخر بالشفقة عند سماعه عن مآسى الزوجة الشابة ، فاستقبلها فى بيته وربى ابنها مثل أولاده وأعطاه اسم « بركات » . وبرهن هذا الطفل على قوته غير العادية وشجاعته اللانهائية منذ نعومة أظفاره . وعندما أصبح غلامًا (وصل لسن المراهقة) حارب القبائل القريبة واشتهر بإنجازاته غير العادية . ويومًا ما سأل أمه عن قصته . فقالت له « خضرة » أن رزق هو سبب أحزانه وقاتل والده ومدمر قبيلته وذلك لأنها كانت تريد أن تنتقم من الزوج الذى شتمها . فأراد بركات الشجاع أن ينتقم . فبحث عن « رزق » وصنع حربًا معه ، وانتصر عليه وهم بأن يقتله عندما دخلت خضرة لتمنع قتل الابن لوالده وكشفت الحقيقة لابنها . فتعرف رزق على بركات ، ودخلت « خضرة » إلى حرملك زوجها الذى أجزل لها العطاء والحنان ، وأخذ بركات اسم أبو زيد الذى كان قد أعطى له عند ولادته » .

كان هذا ملخصًا للجزء الأول من قصة أبو زيد الذى تنتشر فى مغامراته قصص غير عادية . ويبدو أن هذه الرواية كانت قد كتبت فى القرن العاشر بعد الميلاد .

وحكايات الراوى لا تتنوع كثيرًا . غير أن قصصه تجذب المستمعين وتجعلهم دائمى الانتباه إلى كلماته الحية وحركاته المليئة بالتعبير . ويضيف الراوى وفقًا للأثر الحادث لدى المستمعين فى بعض الأحيان بعض إضافات على النص الأصلى . وعندما تنتهى القصة يحصل الراوى من سيد المكان على أجر قليل ، ويجعل أحد الخدام يطوف بصينية . يمكن فى بعض الأحيان أن تمتلئ بقطع من النقود النحاسية ، ولكن نادرًا ما تظهر فيها قطع صغيرة من الفضة .

* * *



(٤٧)

الأغانى والمواويل

كل المصريين بدون أى استثناء لهم شعور بالنغم ، وهم يحبون تكرار القافية أو السجع ، وفى أغلب الأحيان يكررون باستمرار سطرين فقط يأتى بعدهما نفس المقطع المتغير ، وفى بعض الأحيان يكررون نفس الكلمة المحببة مثل على سبيل المثال يا ليل يا ليل . وشملت القصيدة العربية جميع الأنواع والحالات ، ولكن النوع الذى نجده بكثرة هو قصائد (أشعار) الحب . فكل القصائد (الأشعار) تقريبًا تم غناؤها على نغمة رقيقة وحزينة تشير إلى معاناة المحبين . فالصورة التى ازدهرت فيها أشعارهم اقتبست من أخلاق مصر ، ومن الحب الذى نسمع عنه فى المشرق - أى مزيج من الصوفية والشهوانية ، ويلعب التعصب دورًا كبيرًا ، ويجىء اسم الله وسط النقلات الأكثر إثارة مع عودة للحزن على فناء الأشياء وسرعة الزمن . وكل من عطور الياسمين ، ورقة صبغات الورد ، وصبر الجمال ، وقوة وجلال الأسد ، والتمايز ، وخفة الغزال وجمال عينيه ، وخصوبة النيل ، وصمت وهدوء الليالى ، والقمر الذى يرتفع والفجر إلخ . كل ذلك يمد الشاعر بأشكال متعددة . ويسمح غنى اللغة العربية وسهولة تطويعها للشاعر بأن يجد بسهولة حتى فى حالة التداخل شكلاً متماوجًا وفقًا للانطباعات التى يعبر عنها القلب . وها هى بعض الأمثلة للأشعار العربية :

« حبى الذى خبأته طويلاً قد ظهر أخيرًا فى عينيك . وقد ألبستنى الملابس الغامضة كما غلفتنى بانهيار مميت ، ولكن اليوم قلبى يفيض ولا أستطيع أن أخفى سرى . لقد حان الوقت لننسى فى خضم سعادة الحب أن الوقت يمضى بسرعة ،

يمضى بسرعة ، يمضى بسرعة ولا يتوقف . ولا ترد مطلقًا رقتى من البداية الغريبة ، ومن مصالحك ، لأن الشباب يتطاير مثل العطر الذى يطير فى الهواء ... وعندما تمر بطول مسالك الوحدة لحديقتك البديعة ، وأنه لكى تتنفس نقاوة أو طزاجة الظل تقذف الحجاب الذى تخفى تحته جمالك الطاغى ، فيتوقف العندليب عن غناء أغنية الحب ، وتغير الوردة من سحرك . وتميل فروع الأشجار أو العليقة على خطواتك مع همس حزين . والشمس ذاتها يبدو أنها تغدق عليك بمداعبات المحبة . وقدك المياس أصبح خفيفًا ومحببًا مثل ساق النباتات العطرة . كيف لا يشتاق قلبى إليك يا حبيبتى . ونظراتك السماوية تشبعنى ، وكلماتك تسحرنى وهما أرق من ضوء القمر وسط الليل ، وقبلاتك تسكرنى ، ومداعباتك تجعلنى أموت . يا بديعة الجمال ! لا شىء قبلك ، ولا شىء بعدك » .

أو ما يلى :

« إذهب يا رسول الحب ، إذهب ابحث لى عن غزالتى ، أحضر لى هذه الجميلة التى يشبه فخذها اللؤلؤ ، قل لها أن شفتى تنادى قبلاتها . ها هى ، إنها تبعد الحجاب الذى يغير ويسرق منى سماتها الإلهية . هل هذا ضوء سماوى يشع فى عينىّ ، أو إذا كانت النيران المشتعلة فى الصحراء بواسطة القوافل التى تضىء وتسطع بالليل ... ومن الثديين حيث يزهر الورد يتلاشى عطر بسبب انحراف الروح . ورأسها المائلة على صدرى قد وقفت ، وعيناها السوداء الجميلة المرطبة بالحب قد قابلا عينىّ ، وفمها الذى يشبه رمانة مفتوحة تمتم قائلاً : إنى عبدتك ! .. » .

أو كذلك :

« يا زهرة الليمون انفتحى عند ندى الليل ! الشخص الذى قبلك سعيد ! والشخص الذى فك أذرعه من حولك أحمق ! والشخص الذى يحضنك بشدة عند المساء ولا يفتح ذراعيه عند ضوء النهار سعيد سعيد سعيد » .

ترجمة لأغنية جندى :

- إنى ولدت فى قليوب، ومنذ ساعة ولادتى رأيت النيل يغمر الحقول ست عشرة مرة .

- وكان لدى جار يسمى الشيخ عبد الله له ابنة لم ير أحد وجهها سواى . ولا شىء يشبه فاطمة فى رقتها وفى جمالها ، فعيناها واسعتان مثل الفنجان . وجسمها ملفوف ومتناسق وله قوة الشباب ، ولدينا قلب بلا منافسين ، وكنا نستعد للاتحاد عندما ربط الكاشف - فليلعنه الله ويجعل مثواه النار - يدىّ ، وربطنى فى رقبتى مع خمسين من زملائى وقادنى إلى المعسكر . وبما أنى كنت فقيرًا وجارى كذلك فلا شىء يستطيع أن يطرى الكاشف . فليلعنه الله ويجعل مثواه النار ! .

- الطبول والدفوف والمزمار سببوا لى اضطرابًا لدرجة أنى نسيت خيمتى (كابينتى) ، وعنزاتى وشادوفى (آلة للرى) ، ولكنى لا أستطيع أن أنسى شمس حياتى ، وضوء تفكيرى ، فاطمة الفقيرة .

- وأعطونى بندقية كهدية ، وملابس نيران ، وصندوق طلقات ، ثم يجب أن أدير الراس إلى اليمين وإلى اليسار ، وأقف على رجل واحدة ، وكغلام حكيم تعلمت بعد فترة قصيرة ديوان دور ! سلام دور ! (السلاح فى الذراع قدم الذراع) وكثيرًا من الأشياء الأخرى الجملية .

- وها أنا قد ذهبت مع مجموعة من الجنود إلى مكة ، وشاهدت الكعبة وبنينا خيمًا فى الصحارى وفى الصخور وفى الجبال ، وقتلنا أعداء النبى ، وأخيرًا سأدخل كحاج إلى مكة .. كم تمنيت ذلك . فلنسبح الله سبحانه وتعالى !

- ثم جعلونى عريفًا ، وبعد ثلاث سنوات من الحرب حشرونا فى السفن . ثم عدنا إلى بلد النهر المبارك . وها أنا فى المعسكر مضطرب جدًا لوجودى بالقرب من قليوب من فاطمتى الفقيرة . وأنا لا أجرؤ على الذهاب إليها خوفًا من أن ارى الأشياء قد تغيرت.

- وفجأة استولت على الحمى .. أصبت بالحمى ، وقادونى إلى مستشفى أبو زعبل الكبير ولم أحتمل الأطباء الأوروبيين كما لم أحتمل المرض ، ومنعنى هؤلاء الأطباء من الأكل ليبيعوا حصتى فليلعنهم الله ويجعل مثواهم النار !

- وأصبحت كل يوم أكثر ضعفًا وأكثر تعاسة ، وكنت سأموت . وفى صباح يوم ما أحضر لى الأطباء دواء أرعبتنى رائحته وجعلتنى أكثر مرضًا . وكان الفنجان على شفتىّ حينما أتانى من الخارج صوت ثقبنى حتى وجدانى ونادانى : حسن ! حسن ! يا عينى.

- وقذفت الفنجان فى أنف الممرض ، وجاءتنى القوة من جديد وانسابت فى دمى . فوقفت على رجلىّ وقد شفيت ، وتخيل هؤلاء الأطباء الأغبياء أن دواءهم قد شفانى . فطلبت تذكرة الخروج وأعطونى تذكرة الخروج .

- ها أنا بين ذراعى فاطمة التى كانت تنتظرنى وهى مضطربة تمامًا . وبعد قبلاتنا وأحضاننا حكت لى كيف كانت قد عرفت عودتى وكيف جاءت إلى المعسكر .

- ثم قالت عندما كانت تريد الدخول ، رفع أحد الزنوج سلاحه الأبيض نحوها وصاح : دور ! (قف !) وبما أنها لم تكن تعرف ماذا تعنى كلمة « دور » لم تجب ، وصاح الرجل الأسود بصوت أعلى وهو يتقدم نحوها عندما وصل ضابط تركى وسألها ماذا تريد .

- فقالت له : أريد فتاى حسن ، حبيبى الذى لم أره منذ ثلاث سنوات ، فأدار الضابط ظهره لها وقال : وأنا مالى . فانسحبت الفتاة الفقيرة خجلة . وأخيرًا قابلت أخت الرقيب التى قالت لها :

- « حبيبك موجود فى المستشفى ، وهو مريض بسبب عدم رؤيتك . فاقتربت حبيبتى ونور حياتى بسرعة أكثر خفة من الغزال ... اقتربت من إحدى نوافذ المستشفى وصاحت : حسن ! حسن ! يا عينى ! .

- وبكل سرور وسعادة أحضرتها مزهوًا بها إلى معسكرى وقدمتها كمجنون إلى كل قادتى (كولونيل ، وكومندان ، كابتن ، ليوتنانت إلخ) .

- وبعد حصولى على تصريح ذهبنا لنتزوج فى قليوب . حيث كان ينتظرنا الشيخ العجوز « عبد الله » ليباركنا . فلنسبح الله سبحانه وتعالى والحمد لله .





(٤٨)

المسارح

فى شهر نوفمبر ١٨٦٨م لم يكن بالقاهرة أى مظهر من مظاهر المسرح . وبدئ فى هدم أحد الأبنية التى كانت توجد حينئذ فى المكان الذى يوجد فيه فى الوقت الحالى (وقت كتابة هذا الكتاب) مسرح « الكوميدى فرنسا » Comédie- Française . وأشرف كل من السيد « دى كوريل » و « فرانتزبيه » ، و « أرنست لينانت » على أعمال البناء. وكان على الممثلين أن يمثلوا أثناء الموسم قائمة الأعمال الفرنسية من كوميديا ساخرة ، وكوميديا خفيفة مبنية على المؤامرات ، وأوبريتات . ووصلت جماعة الممثلين إلى الإسكندرية يوم ٢٠ نوفمبر ١٨٦٨م ، وأخذت مباشرة الطريق إلى القاهرة ، وكل فرد من المجموعة كان يريد أن يرى المسرح ! ولكن للأسف لم يكن مجرد ظل للمسرح . وأثناء دوران الفنانين حول المكان الذى يجب أن يبنى المسرح فوقه انبسطت أساريرهم عند رؤية مئات الأطفال العرب وهم يسيرون مثل النمل ، ويغنون التسابيح لله عز وجل ويحمل كل واحد سلته أو صندوقه من الجبس أو من الأحجار ببطء وفقدان للأمل . وعلى النقيض من الانتظار العام أصبح المسرح معداً فى أول يناير ١٨٦٩م ، وكان الافتتاح يوم ٤ يناير ١٨٦٩م حيث قدمت مسرحية « هيلانة الجميلة » Belle Hélène . وكانت فترة شهرين كافية بالكاد لبناء كل شىء وتجميله وإقامته .

وأثناء هذا الموسم المسرحى ثارت لدى الخليفة إسماعيل فكرة بناء أوبرا مناسبة لاستقبال ملوكه الضيوف الذين سيدعون بعد قليل لحضور افتتاح قناة السويس . وصار السيد « منسى » مسئولاً عن الأعمال فقادها بسرعة لا يمكن تخيلها ، وجرى افتتاح

الصالة الجديدة فى الأيام الأولى من شهر أكتوبر . وتم تعيين السيد «درانت بيه» وزيراً للمسارح . عندئذ تم تكليف مجموعة ملكية حقيقية مكونة من الشخصيات الموسيقية المشهورة فى هذه الفترة مثل «نودان» بألف جنيه شهرى أو (٢٥,٠٠٠ فرنك)، و « فاروسى » ، والراقصة المشهورة « كوشى » .

ولا شىء يمكن أن يقال عن عمارة مسارح القاهرة التى تم نسخها بكل بساطة ونقاء من النماذج الأكثر شهرة فى أوروبا . والواجهة الحالية للأوبرا وكل المبنى المغلف بطبقة من الأسلاك يرجع تاريخه إلى عام ١٨٦٩م . أما الجزء الخلفى فلا يرجع تاريخه سوى إلى عام ١٨٧٣م وفى هذا الجزء توجد كل المواد . وعلى مستوى المسرح توجد الديكورات نلاحظ من بينها قطعًا من القماش عليها توقيعات «ديسبلشين» Desplechin ، و «كامبون» Cambon ، و «لافستر» Lafastre ، و «ورروب» Rube ، و « شابرون » Chaperon ويوجد أعلاها محلات الجواهر ،. والدروع ، والبدل ، والمكتبة ، ومحلات الأشياء المزركشة بالذهب والحرير والتقسيمات . والمكان جميل جداً والصالة موزعة توزيعًا جيداً ، ونلاحظ بصفة خاصة كشغف غير معروف فى أوروبا مبنى واسعًا لمسكن البواب به شبكة من الأسلاك ينتمى إلى حرملك الخليفة . وعلى صالة مسرح أوبرا القاهرة تم تمثيل « أوبرا عايدة دى فردى » Aida de Verdi للمرة الأولى .

* * *



(٤٩)

المكتبة

والمكتبة القومية أسسها على باشا مبارك ، وأقيمت عند وزارة التربية العامة بحى «درب الجماميز» . وهى تحتوى على حوالى خمسة وثلاثين ألف مجلد توجد بينها المخطوطات الشرقية التى لا تقدر قيمتها بمال . وتعد المصاحف أو نسخ القرآن الكريم هى الأكثر تفردًا وخصوصية وهى تأتى من مختلف جوامع القاهرة . وهذه المصاحف الثمينة هى كل ما أنتجه الفن العربى من رسم جميل ومن كتابة جميلة .

وأقدم مصحف (٣٢سم / ٢٣سم) مكتوب بخطوط كوفية ولا يحتوى سوى على نصف القرآن . وللأسف قد عانى كثيرًا ، وفى مرة أوشك على الاحتراق أثناء حريق . وعناوين الصور أو الأصحاحات محاطة بالذهب السائل والنص مصان ومحفوظ بطريقة جيدة . ووفقًا لشهادة أحد الشيوخ الذى رأى هذا الكتاب كاملاً ، فإن هذا الكتاب كتب بواسطة الإمام « جعفر الصادق » ابن « محمد الباقر » ابن « على زين العابدين » ابن الحسين ، بن على بن « أبى طالب » صهر النبى (ﷺ) . وهذا الإمام جعفر كان أحد كبار العلماء فى هذه الفترة ، وكان متخصصًا فى علم الكيمياء وعلم الفلك . ويؤكد كل من تلميذاه « الطرطوشى » وفيما بعد ابن خلكان أن هذا العالم قد كتب أكثر من خمسمائة نسخة من الكتاب المقدس أو القرآن ، وقد عاش من عام ٨٠ حتى ١٤٨ من الهجرة (٦٩٩ حتى ٧٦٥م) .

والمصاحف الأخرى كتبت أثناء حكم سلاطين المماليك ومن أتى بعدهم . فمصحف عبد الرزاق يرجع تاريخه إلى عام ٥٩٩ من الهجرة . ومصحف عبد الرحمن

ابن أبى الفتحة أخذ من مسجد « الحسين » ويقيس ٢٩سم على ٣٣سم ويتميز بالطريقة التى ازدانت بها عناوين السور ومبين به عدد الأسطر ، والكلمات والحروف، ومبين به كذلك كثير من الأحكام التى تم جمعها وفقًا للتقليد ونقلت بالتالى أعلى كل « سورة » أو قبل كل « سورة » .

ومصحف آخر مكتوب كله بحروف من ذهب يرجع تاريخه إلى عام ٧٣٠ من الهجرة، وينتمى للسلطان محمد الناصر ابن سيف الدين قلاوون (١٢٩٣م حتى ١٣٤١م) وكتب بواسطة أحمد يوسف التركى (٥٤ سم على ٣٦ سم) .

ومن بين المصاحف البديعة التى نقلها السلطان شعبان الابن الأخير لابن السلطان قلاوون (١٣٦٣م حتى ١٣٧٦م) يوجد مصحف كتبه يعقوب بن خليل بن محمد ابن عبد الرحمن الحنفى فى ١٣٥٦م (٧٥٧هـ) ، ومصحف آخر تم نقله بواسطة ريشة على بن محمد الأشرفى (١٣٧٢م) . والأرابيسك والخيوط المضفرة التى انفصلت فوق خلفية زرقاء تم تنفيذها بواسطة « إبراهيم العميدى » . والنسخة الأكثر تفردًا من هذه المجموعة هو المصحف الكبير (٧١ سم على ٥٠ سم) وهو مغطى بزينات ذات رقة ملحوظة وهو محفوظ حفظًا جيدًا ، وهو هدية موثقة من الأميرة « شند بركة » أم السلطان شعبان . والمصاحف الأخرى تتميز بأبعادها وجمال كتاباتها ، والرسومات أقل تنوعًا ، وهذا حقيقة ولكن تنفيذها مصان جدًا فى كل مكان . ومصاحف كثيرة تضع قبل بداية كل سورة الافتتاح العادى بحروف من ذهب بسم الله ، إلخ . ومصاحف بها علامات ذات لون أحمر زاه يعلو بعض كلمات النص ، وذلك لتعليم تغيرات الصوت عند تسميع الآيات .

وثلاثة مصاحف تأتى من السلطان برقوق (١٣٨٢م - ١٣٩٩م) المصحف الأول يحمل تاريخ ٧٦٩هـ وأبعاده ١٠٥سم على ٨٢ سم ، وكتب بأمر من محمد بن محمد ويسمى ابن بطوط ، وبواسطة عبد الرحمن الصغير بريشة واحدة فى ستين يومًا ، وتم تصحيحه بواسطة محمد بن أحمد بن على الملقب بالكوفى . والنسخة الثانية لها نفس الأبعاد . وبعض الصفحات تم تصحيحها ، ولكن من السهل معرفة خط اليد الحديثة .

والثالث يرجع تاريخه إلى عام ٨٠١هـ - ١٣٩٨م ، ومكتوب كله بحروف من ذهب وأبعاده ٨٩ سم على ٥٠ سم .

وأكبر مصحف تمتلكه المكتبة يرجع تاريخه إلى حكم السلطان « قايتباى » (١٤٦٧م- ١٤٩٦م) وأبعاده ١,١٥ متر على ٩٠ سم وكتبه « الخاتم عصفى - غنى بيه » .

ونذكر كذلك مصحف نقله السلطان المؤيد (١٤١٢م - ١٤٢١م) وكتبه موسى ابن إسماعيل الكنانى الهجينى فى ٨٢٠هـ - ١٤١٧م ، ويتميز بأبعاده وغنى زيناته الذهبية ولونه على خلفية زرقاء . وتوجد نسخة صغيرة تنتمى للأميرة صفية أم السلطان عثمان محمد شاه . وتحتوى نسخة أخرى على ترجمة فارسية فيما بين الأسطر بالحبر الأحمر ، وأهداه إلى الخليفة رجل هندى بدى حكمدار وأبعاده (٤٦ سم على ٣٣ سم) .

ومصحف آخر يتبعه أربع تعليقات . اثنان منهما باللغة العربية كتبها « بدوى » و«الجلالين» ، واثنان باللغة الفارسية مع كتاب صلوات « دليل الخيرات » مكتوب فوق خلفية مذهبة أهداهما أمير من « بخارى » «Boukara» .

ومصحف آخر صغير ومتميز جدًا وعجيب كعمل يتطلب الصبر والدقة ، وكتبه محمد روح الله فى عام ١١٠٩ من الهجرة . وهو يحتوى على ثلاثين ورقة بها الأجزاء الثلاثين من القرآن ، ويبدأ كل سطر من النص بحرف ألف ، وهو الحرف الأول من الحروف العربية .

كما يوجد مصحف آخر ينتمى إلى « محمد بيه أبو دهب » الذى كان يعيش عند نهاية القرن الثامن عشر، وهو مكتوب بحروف مغربية بأمر من الأمير على ابن السلطان العثمانى محمد بن عبد الله بن إسماعيل (١١٤٢هـ - ١٧٢٩م) .

وأخيرًا يوجد مصحف للسطان « حلجى اليوسفى » مكتوب بنوعين من الخطوط تسمى الخطوط الكبرى « ثلث » ، وتسمى الخطوط الصغرى « نسخ » (٥٢ سم على ٤١ سم) .

وبالإضافة إلى المصاحف تمتلك المكتبة عددًا كبيرًا من المخطوطات كنسخ للروايات أو الأحاديث « سنة النبى (ﷺ) » . ومجلدات من الشريعة الإسلامية وكتابات أو مقالات للمتنبى (٥٥٢هـ - ١١٥٨م) مع تعليقات بواسطة ابن الجنين وكمية من المخطوطات القديمة جدًا مكتوبة بالخطوط الأكثر تميزًا لكل دول الإسلام . كما يوجد بين الكتب مجلد صغير فريد فى نوعه بعنوان « صناعة الكتابة » ألفه وكتبه عبد الرحمن الصغير ، ومخطوط بديع ينتمى إلى شاه إيرانى مسئول عن الزينة بالمياه ، وكتبه فردوسى .

* * *



التربية والتعليم العامان

وفقًا لإحصاء عام ١٨٧٨م كان عدد المدارس الابتدائية ذات المستوى المنخفض لكل مصر ٥٣٧٠ مدرسة أى مدرسة واحدة لكل ١٢٠٨ مواطنين . وكان عدد التلاميذ هو ١٣٧,٥٥٣ أى فى المتوسط خمسة وعشرون لكل مدرسة ، أو تلميذ واحد لكل أربعين مواطنًا . وعدد الأطفال الذكور فى سن الذهاب إلى المدارس كان حوالى ٣٣٤٠٠٠ . فنرى أن ٤١ لكل ١٠٠ يحصلون على مبادئ التعليم البدائى و ٥٩ لكل ١٠٠ ممنوعون منه تمامًا .

ويوجد بالقاهرة بالإضافة إلى المدارس الصغيرة التى تسمى « كتاتيب » ست مدارس أميرية : مدرسة خيرت بيه ، ومدرسة الجمالية ، ومدرسة باب الشعرية ، ومدرسة حسانين ، ومدرسة عابدين ، ومدرسة بمصر القديمة . وهذه المدارس تخضع مباشرة لوزارة التعليم العام (التربية والتعليم حاليًا) . كما توجد مدارس أخرى تشرف على صيانتها وزارة الأوقاف ، ألا وهى مدارس الحبانية ، ومدرسة « الشيخ صالح » ، ومدرسة « السيدة زينب » ، ومدرسة قلاوون إلخ . وتوجد كذلك مدارس خاصة بمصروفات مثل مدرسة « خليل أغا » ، ومدرسة أم عباس ، ومدرسة حافظ باشا ، ومدرسة راتب باشا .

وتعرف المدرسة الابتدائية باسم المبتديان ، وتحتل المبنى القديم من المعهد ، وبها حوالى سبعمائة تلميذ . ويتكون سلك التدريس من أربعة وأربعين مدرسًا أو مكررًا ،

ثمانية للقرآن ، وستة للغة العربية ، وثلاثة للغة التركية وواحد للغة الألمانية ، واثنان للغة الإنجليزية ، وسبعة للغة الفرنسية ، وثمانية للحساب ، وواحد للتاريخ ، وأربعة للرسم ، واثنان للخط العربى ، واثنان للكتابة الأوروبية .

ويصل عدد تلاميذ المدرسة الإعدادية إلى ثلاثمائة . ويتكون سلك المدرسين من سبعة وثلاثين مدرسًا أو مكررًا يرتبط تسعة عشر منهم بالمدرسة .

والمدرسة العادية المخصصة لتخريج المعلمين ومساعديهم لفصول الابتدائى تم بناؤها فى ۱۸۷۲ وكان يوجد بها حتى نهاية ۱۸۸۱م خمسة وثلاثون تلميذًا . ويعطى سبعة مدرسين دروسًا فى (علوم الدين) ، والتقليد الدينى ، والقانون الإسلامى ، والتاريخ والآداب العربية ، والحساب ، والجغرافيا والخط ، والتاريخ الطبيعى والطبيعة والكيمياء . ومنذ ۱۸۸۱م أعيد تنظيم المدرسة العادية ، وقسمت إلى قسمين يشمل القسم الأول « دار العلوم » أى المدرسة العادية ، وتهتم المدرسة الثانية بدراسة اللغة الفرنسية يقوم بها مدرستان فرنسيتان يساعدهما بعض الملقنين أو المكررين .

ويوجد بالمدرسة الفنية ستون تلميذًا ، ويتكون السلك التعليمى من ستة عشر مدرسًا ، ستة منهم للعلوم الرياضية البحتة والتطبيقية ، ولا يشمل هذا العدد المدير الذى يعطى دروسًا فى علم الفلك « وقياس الأرض » ، واثنان منهم لعلوم الفيزياء (خواص الأجسام وتأثير أحدها على الآخر) ، ولعلوم الكيمياء ولعلوم الطبيعة ، وواحد للعمارة ، وللإنشاءات والرسم، وأربعة للغة العربية ، واللغة الفرنسية ، واللغة الإنجليزية، واللغة الألمانية ، واثنان للخط العربى . ومدرسة لقياس سطح الأراضى موجودة تحت نفس إدارة المدرسة الفنية . وبها سبعة وعشرون تلميذًا مقسمون إلى قسمين . ومن ناحية دراسة اللغات الأجنبية يدرس خمسة وعشرون طالبًا اللغة الفرنسية واثنان اللغة الإنجليزية .

وتأسست مدرسة الحقوق فى عام ۱۸٦۷م وبها ثمانية وأربعون طالبًا مقسمون إلى أربعة أقسام ، ثلاثة منهم يدرس بها القانون ، والقسم الرابع لا يهتم سوى بدراسة اللغات . ولا يوجد بالمدرسة فى الوقت الحالى سوى أربعة مدرسين ، ثلاث لكل من اللغة

العربية ، واللغة التركية واللغة الإيطالية ، وواحد لكل من اللغة الفرنسية واللغة اللاتينية. ومع وجود هذا العدد المحدود من المدرسين يجب على التلاميذ أن يحصلوا على دروس فى كل أفرع القانون . مثل القانون المدنى المصرى « محاضرتين » ، والقانون التجارى البحرى « محاضرة » ، والإجراءات القانونية « محاضرتان » ، والقانون الجزائى « محاضرة » ، والعلوم الجنائية « محاضرة » ، والقانون الرومانى « ثلاث محاضرات » والاحتفاظ بالمراجع « محاضرة » .

وتأسست مدرسة اللغات فى ١٨٧٨م وهى أحدث المدارس العليا الموجودة فى الوقت الحالى ، وتأسست لتخريج مترجمين وأساتذة فى اللغات الأجنبية . ويحصل الطلاب فيها على دروس فى كل من اللغة العربية واللغة الفرنسية ، واللغة الإنجليزية ، واللغة الألمانية ، واللغة التركية ، واللغة الفارسية ، وفى التاريخ والجغرافيا ، وبالإضافة إلى ذلك يقوم أساتذة زائرون من مدارس أخرى بإعطاء محاضرات فى القانون الإسلامى (الشريعة الإسلامية) وفى الخط . ويوجد بمدرسة اللغات خمسة وثلاثون تلميذًا وسبعة أساتذة .

ويوجد بمدرسة الطب فى الوقت الحالى مائة وخمسون تلميذًا مقسمون على ستة فصول وخمسة وعشرون أستاذًا منهم ستة عشر للعلوم الطبية ، وخمسة لكل من العلوم الفيزيائية (يدرس خصائص الأجسام وتأثير بعضها على بعض) والعلوم الكيميائية ، وواحد للعلوم الطبيعية ، وثلاثة للغات . وكل هؤلاء الأساتذة تقريبًا لهم عمل بالمدرسة وعمل بالمستشفى . وترتبط مدرسة الصيدلة بمدرسة الطب ، ويوجد بها سبعة تلاميذ فقط ، ومدرسة الأمومة يوجد بها ثلاثة عشر تلميذًا .

وتأسست مدرسة المهن والفنون فى ١٨٦٧م وبها حوالى خمسون تلميذًا وسبعة أساتذة . ويهتم التلاميذ فى الفترة الصباحية بالدروس النظرية ويمارسون فى فترة بعد الظهر مختلف الأعمال التطبيقية فى الورش ، ويهتم ثمانية وثلاثون تلميذًا تحت إدارة اثنين من رؤساء الورش بأعمال الضبط وعمل الأقفال والمفاتيح ، ويمارس أربعة منهم عمل الأثاث (من الخشب) ، ويتعودون على إتقان الموديلات ، كما يعمل اثنان منهم

بورش السباكة ، وأربعة بورش صهر معدنى الحديد والنحاس ، وعدد رؤساء الورش والعمال والحمالون المرتبطون بالورش هو ثمانية عشر .

وترسل الحكومة المصرية منذ حكم محمد على ، كل عام تقريبًا إلى أوروبا عددًا معينًا من الشباب لاستكمال دراستهم . ويختلف عدد هؤلاء التلاميذ لمصادر الميزانية . ففى عام ١٨٧٣م كانوا واحدًا وخمسين مقسمين هكذا . أربعة وعشرون إلى فرنسا ، وثلاثة عشر إلى إنجلترا ، واثنا عشر إلى إيطاليا ، واثنان إلى ألمانيا . وفى عام ١٨٨١م نقص عدد المبعوثين إلى أربعين . منهم ثمانية وثلاثون تلميذًا إلى فرنسا ، وواحد إلى إنجلترا وواحد إلى سويسرا .

مدرسة المكفوفين والصم والبكم :

تعد مدرسة الصم والبكم من المعاهد التى تثير الاهتمام الخاص فى مصر ، وقد تأسست فى عام ١٨٧٥م بواسطة رجل مملوء بأنبل المشاعر . وكانت طموحاته فى حب الإنسانية منذ زمن طويل يثيرها غرض حى لجلب بعض الارتياح لعدد كبير من المكفوفين فى بلده يراهم كل يوم مصابين بفقر يؤدى إلى فساد الأخلاق ، وخاصة إلى كسل أكثر إفسادًا للأخلاق . ودهش جدًا من النتائج البديعة التى لاحظها أثناء «معرض ڤيينا» فى عام ١٨٧٤م لدى طلاب العديد من مدارس المكفوفين فى أوروبا الذين شاركوا فى هذا المعرض . فقرر « حسنى بيه » أن ينشىء فى القاهرة مبنى مخصصًا لمساعدة ولتعليم هؤلاء التعساء الذين فقدوا إحدى ميزاتهم الطبيعية ، وعددهم للأسف كبير جدًا فى القاهرة .

فبدأ « حسنى بيه » أولاً بأمواله الخاصة بالتجربة على ثمانية شبان مكفوفين بعد أن صنع بنفسه حروفًا عربية بارزة ، ثم عمل تمارين للقراءة والكتابة وكذلك « كروت » ، وعمل كذلك توليفة من الحروف المتحركة للعمليات الحسابية . وبعد أربعين يومًا من العمل الدؤوب المتواصل قام بعمل امتحان رسمى لتلاميذه الثمانية فقرأ منهم أربعة وكتبوا بطلاقة عند الإملاء ، أما الآخرون فكانوا يتميزون بحكمتهم فى بعض عمليات

الحساب ، وكانوا يكتبون بطريقة مقبولة جدًا . فجذبت هذه النتيجة المبهرة أنظار الذين كانوا حينئذ على رأس الحكومة ، وفى شهر إبريل عام ١٨٧٥م اعترفت الحكومة بمدرسة المكفوفين وتم تعيين مؤسسها مديرًا لها .

وفى عام ١٨٧٨م جاء « حسنى بيه » للمرة الأولى إلى أوروبا ودرس بدقة فى «معرض باريس» الوسائل الأكثر تداولاً فى مدارس المكفوفين والصم والبكم ، وزار المعاهد الرئيسية لهذا النوع فى فرنسا ، وفى إنجلترا ، وفى سويسرا ، وفى بلچيكا ثم عاد إلى القاهرة حيث تحدث بخصوص هذا الموضوع إلى وزارة الأوقاف وعن مشاريعه بتأسيس « مدرسة للصم والبكم » التى تأسست بسرعة على نفقة المدير وانضمت إلى مدرسة المكفوفين .

ومنذ هذا التاريخ تعمل المدرسة بنظام تام ، ويتعلم فيها التلاميذ القواعد ، والقرآن ، والآداب والتاريخ ، والجغرافيا والشريعة الدينية والحساب وكل المهن التى يمكن التطبيق عليها ، ونلاحظ فيها بصفة خاصة ورش نسج أقمشة الحرير ، وأعمال من الخشب المنحوت أو الملفوف أو أعمال من شرائح من الخشب أو من الرخام ، وأعمال بالإبرة ، ورسومات إلخ . وعندما نزور المدرسة نتأثر تأثرًا عميقًا وسط كل هؤلاء التعساء . فهنا (فى هذا الركن من أركان المدرسة) فى صالة مضاءة بضوء باهت يقوم العمال بمهن بدقة مدهشة . وهنا مجموعة من الشباب الصم البكم يرون بأعينهم وروحهم مضيئة وفمهم أحمر ولكن للأسف لا يخرج منه مطلقًا أى كلمة ، وهم يدربون أصابعهم الطيعة أو المرنة الصغيرة على عمل السجاد أو الدانتيل تحت أعين مدرستهم . وفى صالات الدراسة نجد شبابًا يقرأون أو يكتبون الدروس ، وآخرون يمارسون تمارين الكتابة أو الجغرافيا على كروت بارزة ، أو العمليات الحسابية على سبورة مغطاة بثقوب تغوص فيها حروف أو أرقام . وفى أغلب الأحيان يعطى أستاذ كفيف « كذلك » الدرس ، وتضطرب يداه على سبورة كبيرة سوداء فهل يخطئ الأستاذ ؟ ويقول هذا الأستاذ الكفيف لتلميذه (الكفيف) برقة « شوف » ، وكلمة شوف هذه الموجهة إلى كفيف لها بعض الألم والتأثير فى آن واحد . وكل شىء يحدث بنظام جيد تحت النظر والإشراف

الدقيق من المدير الذى يتأمل عمله بشعور قانونى بالرضا الداخلى وسط كل هؤلاء التعساء الذين يدينون له بحياة ثانية .

مدارس الفتيات الشابات :

المبنى الأول الذى أنشئ فى مصر لتعليم الفتيات أفتح فى « صوفية » فى عام ١٨٧٣م ، وبعد ذلك بعامين تأسست مدرسة أخرى ، الا وهى مدرسة « خيرت بيه » Qérabieh . وانضمت هاتان المدرستان فى الوقت الحالى ويوجد بهما مائتان وأربعون تلميذة . ثلاثون فقط من هذا العدد طالبات من خارج المدرسة . والعدد الآخر يأكل ويشرب داخل المدرسة . ولا تؤدى المدرسة فى الوقت الحالى الخدمات المنتظرة منها . وسكان القاهرة لا يهتمون كثيرًا بها . ونرى ذلك واضحًا فى العدد القليل من الطالبات المنتسبات إلى المدرسة (من خارج المدرسة) . وأثناء العامين الثانى والثالث من الدراسة بمدرسة صوفيا يبدو أن تعليم الفتيات الشابات قد نجح تمامًا ، والطالبات تتقاطرن بكثرة على المدرسة ، ويحصلن على نتائج ممتازة ، ثم توقف هذا التطور ، وتدهورت المدرسة ، وفقدت كثيرًا فى وجدان الشعب المصرى بالقاهرة . ولكن هذا الفشل ليس « دون شك » سوى أزمة عابرة . ويجمع أعضاء مجلس التعليم الشعبى فى رأيهم على وجوب الاهتمام بجدية لرفع المستوى التعليمى بالمدرسة .

ومن بين العديد من المدارس الخاصة بالقاهرة نذكر « كلية الأخوة ذات المذهب المسيحى » (Collégedes Frères) (كلية الفرير) ، « معهد مارسيل » «Marcel» ، والمدرسة الإيطالية المجانية ، ومدرسة الإرسالية الأمريكية ، والمدرسة الداخلية لأخوات « الراعى الصالح » ومدرسة سيدات فيلق (Légion) الشرف ، ومدرسة « المكاز الخيرية» ومدرسة التوفيق الخيرى ، اللتين تشرف عليهما الجمعية الخيرية المصرية ، وصاحب مدرسة « مكاز الخيرية » هو الأمير ولى العهد « عباس بيه » ، وصاحب مدرسة «التوفيق الخيرى» هو أخوه « محمد على » .

* * *

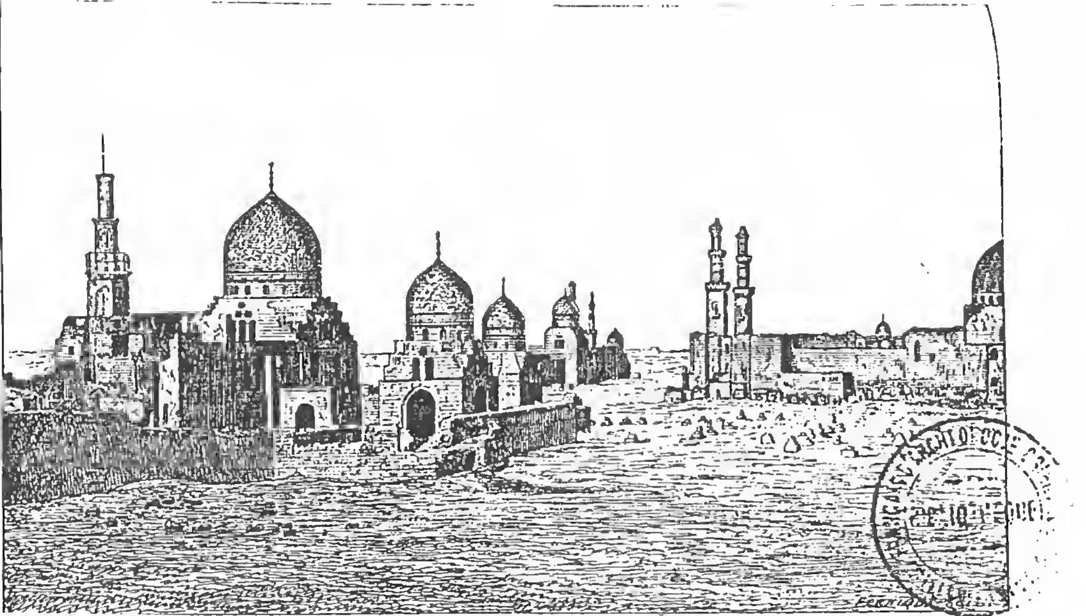


وادى الجبانات (القبور)

ترتفع الجوامع الجنائزية لسلاطين المماليك القدماء فى المدافن الواسعة التى تمتد فى شرق القاهرة وسميت على سبيل الخطأ « بقبور الخلفاء » . وهذه الآثار لم تحصل منذ بداية القرن التاسع عشر على النقود المخصصة لصيانتها ، فأصبحت مهجورة تمامًا ، وامتُلئت حوائطها بالثقوب ، وسقطت المنارات التى قطعت قممها فسقطت منهارة ، وفى بعض الأماكن أمدت القمم المنهارة العرب بمواد كثيرة لبناء المساكن لعائلات كاملة على ظل المبانى المنهارة التى تعد آخر الأعمال العظيمة للعمارة الإسلامية النقية . ورمم منذ فترة وجيزة جامع وحيد ، ألا وهو جامع « قايتباى » الذى يعد لؤلؤة آثار القاهرة بتفاصيله البديعة .

ومعظم هذه المبانى الحزينة المتروكة وسط الصحراء المنبسطة ، فهذه المنارات التى ترتفع كأبراج عظيمة للمراقبة ، وتبدو كأنها تواجه تأثيرات الزمن الذى هدمها لكى تسهر حتى الساعة الأخيرة على مدينة الأموات التى عينت لحراستها ، ويظهر عن بعد الأفق اللانهائى الذى يغلق فجأة عند الجنوب الشرقى بواسطة الأجناب المنهارة لجبل المقطم . كل ذلك يشاهد عند الخروج من القاهرة عن طريق باب النصر فيحدث أثرًا قويًا من الصعب وصفه . ولا شىء يفرض على الناظر ويدهش الخيال سوى هذا الركن من الصحراء عندما يشاهد عند غروب الشمس . فغروب الشمس يزيد من الوحدة وجلال المكان ، وهذه الأشعة المنعكسة الحمراء تعطيه مظهرًا مدهشًا . ومن وقت لآخر

يعبر أحد الطيور الجارحة الفضاء ليأتى ويحط على قمة المنارة حيث وضع عشه ، وتصرخ غربان مجتمعة على أجنحة طواحين الهواء الموجودة بجوار الجامع على المسافر المتأخر، تصرخ بصوت ينم عن فأل ردئ . ونسمع عن بعد صوتًا عبر الهواء يتلاشى فى اللانهاية، ألا وهو صوت مؤذن جامع قايتباى الصغير ، وهو يؤذن للمرة الأخيرة فى اليوم لصلاة العشاء ثم يخيم على المكان هدوء مخيف .



مدافن سلاطين المماليك



(٥٢)

جامع الأشرف - إينال

فى الجزء الشمالى من وادى القبور ، وليس بعيدًا عن أضرحة كل من « أبو سعيد قنصوه الغورى » ، و « جمال الدين يوسف بن بيبرس » يوجد جامع السلطان الأشرف- إينال الذى يظهر من بعيد بقبته المكونة من قوسين متقاطعين أو معقودين التى تقطع بخفة عند قاعدتها . ومنارته ذات الأشكال الرقيقة والمحببة . وللأسف لقى هذا الأثر مصير أمثاله من الجوامع . وأهملت صيانته ليصير مهجورًا ، وقد اعتبر المسئولون أن عملية ترميمه لا جدوى منها وليست ضرورية على الأقل ، ففضلوا تحويله إلى محل معدات عسكرية ، وفى الوقت الحالى تستخدم صالات هذا الجامع البديعة وسقوفه المقوسة المزدانة بالأرابيسك التى تبرز عددًا لا نهائيًا من النجمات الذهبية ، والزينات المعلقة المرسوم عليها بالمحارة . تستخدم كمأوى لبراميل البارود ، ومعدات الحرب . ودخول الجامع ممنوع ، كما يمنع جنود الحراسة بشدة الاقتراب منه .

تاريــــخ

كان الخليفة القائم بأمر الله الرئيس الروحى للإسلام قد نجح فى قلب السلطان عثمان بن الجاكماك من كرسى الحكم واستعد للاستيلاء على السلطة الوقتية ، ولكن الأمراء فضلوا عليه مملوك عجوز يسمى « أبو النصر إينال » الذى أعلنوه ملكًا تحت اسم « الملك الأشرف » فى ١٤٥٣م (٨٥٧هـ) .

وفى نفس العام استولى محمد بن مراد (محمد الثانى) على القسطنطينية (اسطنبول حاليًا) وحطم إمبراطورية اليونانيين .

ولم يترك السلطان إينال كذكرى سوى الجامع الذى دفن فيه . ولم يسمح له سنه الكبير مطلقًا بالاهتمام بشئون الدولة . وقد كان يؤمن بالخرافات ، ويجعل علماء الفلك الذين أتى بهم من أعماق منغوليا وإيران (فارس) يجعلهم يفسرون أحلامه . ومن بين ثمانية أعوام قضاها فى الحكم أمضى ستة فى رفت وزرائه بنظام كامل .

* * *



(٥٤)

جامع برقوق

عندما نترك إلى اليسار جامع الأشرف إينال نصل بعد قليل إلى جامع السلطان برقــوق ، وهو أوسع وسط جنائزى بالمدافن ، ويرجع تاريخ بنائه إلى عـام ١٣٨٦م أو ٧٨٨هـ .

تاريـخ

صعد الملك الظاهر برقوق مؤسس الأسـرة الثانية للمماليك إلى كرسى الحكم فى (١٣٨٢م - ٧٨٤هـ) بعد أن نفى هاجى الابن الأخير للسطان قلاوون بحجة أن حيوية شباب هذا الأمير تهدد الإدارة الحسنة لأعمال الدولة . وكان برقوق ابنًا لرجل شركسى أنكر دينه وتم شراؤه من « أوكرانيا » بواسطة تاجر يدعى « عثمان » الذى أحضره إلى مصر وباعه للأمير « يلبغا » (١٣٦٤م - ٧٦٥هـ) الذى جعله ضمن حاشيته . وجعلته ترتيباته وتخطيطاته المبهرة أهلاً للحصول على أحسن النعم من سيده . كما حصل على تعليم مميز ، وكان يتميز فى علم الدين والشريعة الإسلامية . وأصبح سلطانًا بقوة المؤامرات ، وجمع كلاً من الخليفة المتوكل بالله وشيخ الإسلام والعلماء والأمراء ، وشرع استخدامه للعنف وحصل على لقب « الملك الظاهر » .

وفى هذا الوقت ملأ تيمور لنك (تامر لنك) الأرض بغزواته وأرعد اسمه كل الأرض . وكان هؤلاء التتار البدو الرحل على وشك غزو مصر . فجمع برقوق على عجلة أحسن قواته (جماعاته) ، وتقدم نحو سورية ونجح فى إيقاف زحف غزاة آسيا . ولكن

بينما كان يواجه العدو الخارجى علم أن مؤامرة تحاك فى القاهرة ضد شخصه . وفى الحال رجع السلطان إلى مصر فوجد العاصمة بها هياجًا تامًا (ثورة أو انتفاضة) . فتمت معاقبة رؤساء الثورة بشدة ، وأخضع الآخرون وأعلنوا تأييدهم بلا حدود للسلطان . فأنعم برقوق عليهم وعفى عنهم ، ولكن بعد قليل بدأت المناورات السرية من جديد ، واندلعت الخيانة لدى هؤلاء الذين حلفوا اليمين الأكثر صدقًا فى الظاهر ، وتمت تنحية « برقوق » بعد ملك دام عشرة أعوام ونصفًا . وبعد ثمانية أشهر استعاد إدارة الحكومة من جديد وأكد على هدوئها بقتل أعدائه .

ويبدو أن السلام الداخلى قد حل من جديد وكان « تيمور لنك » على وشك أن يشن حملة ضد العثمانيين بقيادة بيازيد (باجازيت الأول) ، وكان يبدو أنه نسى القاهرة عندما استقبل المسئولون فى القاهرة رسلاً من ملك التتار الذين جاءوا ليهددوا سلطان مصر بأكثر التهديدات وقاحة بأن يخضع لتيمور . وفى الرسالة التى أرسلها الغازى الأسيوى « لبرقوق » نلاحظ هذه الفقرة : « لا يجب أن يكون سوى سيدًا واحدًا على الأرض . كما أنه لا يوجد سوى سيد واحد فى السماء » فالسلطان الذى شُتم بوقاحة شديدة ، قام بقتل المندوبين أو المرسلين معتمدًا على المعاهدة التى وقعها مع « بيازيد » واستعد لمقاومة العدو مقاومة شديدة .

فأسرع التتار بالانتقام بنشر الدم عبر الشعوب السورية ، وكانت مصر بدورها ستصبح فريسة لهؤلاء القبائل الرحل المتوحشين عندما نادت غزوة الهند « تيمور » وتحول الإعصار عن مصر . ولم يؤد ابتعاد العدو إلى الإقلال من يقظة « برقوق » وصنع أسلحة كبيرة وحديثة لمقاومة الغزو المحتمل الذى تنبأ به . ووسط هذه الاستعدادات مات فى سن الستين بسبب نزيف فى المخ .

ومسجد برقوق على شكل مربع ، وعند زوايا الواجهة ترتفع منارتان متشابهتان ، بهما ثلاثة صفوف من الأروقة ، أولاً مربعة ثم اسطوانية وتنتهى بمصباح له ثمانية أضلاع ، وهذه الأضلاع المسدودة تأخذ من هذا الجزء كل خفتة ، وعند الزاويتين المتقابلتين توجد قبلتان جنائزيتان تعلوهما قبة بها خيوط متماوجة مضفرة .

والمدخل الرئيسى المغلق فى الوقت الحالى يقع عند الواجهة الشمالية الغربية ، وهو مزين بكتل كلية منفذة بدقة متناهية ، والجزء الواقع على تيجان الأعمدة مصنوع من الجبس وله تأثير جميل . وفى المدخل الذى نجد أنفسنا فيه بعد أن نعبر عتبة من الجرانيت نعجب بقبة جميلة على شكل نجمة مليئة بالزينات الرقيقة وزينات من الرخام ذات لون باهت . وهذا الجزء من الأثر فى مثل هذه الحالة من الانهيار لدرجة أنه يجب الحذر عند المغامرة بدخوله . ويفضل الدخول إلى الحوش من مدخل آخر ، وهذا المدخل مهدوم تقريباً مثل المدخل الآخر عند الزاوية الجنوبية .

والحوش الذى نضبت وسطه إحدى النافورات أصيب بالتقادم ، وتوجد على حدوده فتحات مقوسة وهو مكون من قوسين ومسنود بأعمدة مربعة فى مواجهة حائط بدلاً من زاوية ، ويرتبط بمصاريع من الخشب . وهذه الفتحات المقوسة التى انهار جزء كبير منها كانت تؤدى من قبل إلى صالات استماع وإلى مساكن مخصصة للأجانب . وكانت الصالات الرئيسية مرطبة بنافورات المياه التى مازلنا نشاهد أحواضها التى ستتلاشى بعد فترة وجيزة تحت أنقاض الأسقف المقوسة التى ستنهار تحت تأثير الزمن . وعلى الجانب الذى يواجه القبلة نشاهد أو نكتشف تجويفًا كبيرًا حيث كانت توضع خشبة مرتفعة كان يقف عليها السلطان أيام الحفلات الكبرى .

والمحراب أو القبلة له ثلاثة صفوف من الأعمدة ، ونلاحظ أن المنبر مبنى من الأحجار ، ويعلوه سقف مقوس مزين بباقة من الزهور . ويمكن أن يكون هذا المنبر مبنيًا من كتلة كثيفة ولكن الزينات المغطى بها منحوتة بطريقة جميلة ، ويعتبر الباب نموذجًا للأبواب من هذا النوع . والقبلة الرئيسية - أى الأقرب من المنبر تعلوها قبة صغيرة منحوتة على هيئة نصف كرة .

وتفتح عند طرفى القبلة وسط فواصل كبيرة من الخشب المزين - تفتح بابا إلى قبور السلطان والحرملك الخاص به . وتحت القبة الموجودة جهة اليسار ، وبالقرب من تميز مصطبة من الجبس المنحوت المكان الذى يرقد فيه جسد برقوق ، وبالقرب من ذلك يوجد عمود من الرخام تعلوه نوع من العمم يبدو كأنه حارس أمين يحرس منذ قرون المكان الذى يرقد فيه سيده . هذا العمود المنخوت فوقه ملاحظة عن قصة حياة

السلطان تذكرنا بارتفاعها بارتفاع السلطان . والقبر الثانى الموجود فى نفس الصالة يحتوى هلى جسد « فرج » ابن برقوق وخليفته ، وقطعت رأسه فى سوريا فى ١٤١٢م (٨١٥ هجرية) والقبر الثانى ينتمى لشقيق فرج عبد العزيز الذى مات بالإسكندرية (١٤٠٥م - ٨٠٨هـ) . وتشتهر قباب جامع « برقوق » - مثل القباب الجنائزية لكل من جامع « قلاوون » وجامع « السلطان حسن » - تشتهر بنوع من القداسة ، كما يحتوى جامع « برقوق » على حجر أسود أحضره من مكة أحد الحجاج الأتقياء (المؤمنين) ولا ينسى المسئولون عن الجامع مطلقًا أن يعرضوه على الزوار . وينسب المؤمنون لهذا الحجر الثمين صفات إعجازية .

ويتميز جامع « برقوق » بانتظام خطوطه ، والتوافق الذى يسود فى كل أقسامه . وهذا الجامع مهجور تمامًا فى الوقت الحالى . والأحجار تنفصل عن المبنى واحدًا واحدًا ويؤدى سقوطها من الحائط إلى انهياره بصورة محزنة بسبب نقص الأعمدة والسنادات ، والمبنى بأكمله سوف يدفن تحت أنقاضه بعد فترة قليلة . ولحسن الحظ لقد قاومت القبلة والحوائط الخارجية تأثير الزمن والتقادم . ولكن بعد زمن ليس ببعيد سوف تصبح هذه القباب الجميلة أكثر ثقلاً بالنسبة إلى حواملها الخفيفة ، وسوف تجمع هاتان المنارتان التوأم البديعتان المميزتان المتقادمتان بفعل الزمن تجمعان جهودهما بلا جدوى لمقاومة رياح الصحراء العنيفة . وكل شىء سيتلاشى عما قريب بعد أن يئن ويلفظ الزمن الأخير للغيبوبة ، وسيصبح السلطان الغنى نفسه منسيًا تحت أنقاض الجامع الذى يجب أن يحيى ذكراه . وللأسف لن نستطيع فى الوقت الحالى أن ننفذ هذا الأثر الذى يذكرنا بذكريات كثيرة من الدمار والهلاك ، وعندما تحين الساعة، وعندما تكمل القرون عملها التدميرى ، سوف يذهب العربى الشيخ الهرم الذى يعد اليوم الحارس الوحيد لهذا الجامع المنهار - يذهب حزينًا ليلقى نظرة أخيرة على هذه الأكوام من الحجارة المنتشرة فوق الأرض ، وهو يتنفس هواء الخضوع للمصير : الله أعلم ، الله أكبر ! .





(٥٤)

جـامع برسـباى

إلى الغرب من جامع « برقوق » ترفع العديد من القباب الجنائزية نلاحظ من بينها « قبة » سليمان مزينة بأجمل المنحوتات والكتابات على الخزف أو الزجاج وقد دمر جزء منها ، وقبة السبع بنات ، وهى على هيئة نصف كرة ، وتتميز عن قباب المقابر القريبة بشكلها الخاص جدًا ، وقبة « بارسباى » المعروفة بمنارتها المنهارة ، والتى لا يوجد بها أى زينة وتنتهى بعمود من الخشب يرتفع فى الهواء .

تاريـــخ

« بارسباى » هو عبد مملوك من عبودية السلطان « تاتار » واستولى على الحكم بعد وفاة سيده بأربعة أشهر ، وأعلن سلطانًا رسميًا فى ١٤٢٢م (٨٢٥هـ) وحصل على لقب الملك الأشرف (الأسمى) . وكانت حكومته حكيمة ومعتدلة وسلمية ، وجمل القاهرة بالعديد من الآثار من بينها جامع الأشرف الذى بناه فى السنة الثانية من ملكه فى حى البازارات عند مدخل الحمزاوى .

وقام « بارسباى » بالعديد من الحملات ضد الفرنجة ، وأخضع جزيرة قبرص ، وأجبر الملك « يوحنا دى لوسيان الثالث » على الاعتراف بخضوعه لمصر ، وكان يقدم لها سنويًا جزية كبيرة .

وأثناء حكم السلطان « بارسباى » وقعت الاتفاقيات الأولى للتحالف بين مصر و«الباب العثمانى» الذى كانت سلطته تمتد حينذاك فوق كل آسيا الصغرى أثناء حكم

السلطان مراد الثانى . ويتفق المؤرخون العرب على تقديم « بارسباى » على أنه أكمل كل سلاطين أسرة المماليك الشراكسة ، ويشهدون صراحة بصفاته الشخصية ، ومات السلطان بارسباى فى ١٤٣٨م - ٨٤١هـ .

وبوابة جامع بارسباى يسبقها سلم مزدوج . وبالقرب من المنارة عند الزاوية الشمالية توجد قبة كبيرة مغطاة بزينات مشكلة بخيوط مضفرة وعصى مكسورة ، وهذه القبة تغطى قبر السلطان . والجزء الداخلى من المبنى فى حالة دمار ورممت الواجهات حديثًا بالحبس وتم سد جزء منها . وشبكات البرونز البديعة التى كانت تحميها تم رفعها لتزيين إحدى المنشآت الجديدة .

والجزء الغربى من المدافن مغطى بالأضرحة ، والتى تعلوها كلها قبة نصف كروية وغنية بالزينات ، ولكنها دائمًا ذات ذوق حسن .

* * *



جامع قايتباى

إلى الجنوب من مدافن برقوق و « بارسباى » ووسط كمية من المنازل الفقيرة (العشش) المسكونة يرتفع عند زاوية حوش واسع مهجور مبنى ذو أبعاد متناسقة بديعة ، ألا وهو جامع السلطان « قايتباى » ، وهو أحد الأعمال الهامة للعمارة العربية فى مصر فى القرن الخامس عشر .

تاريخ

فى ١٤٦٧م – ٨٧٢هـ تم اختيار الأمير « قايتباى » ليوضع على رأس الحكومة ولقبه رؤساء المليشيات على الملأ بلقب الملك الأشرف . وقد كان مثل أغلب رؤساء أو سلاطين أسرة المماليك عبدًا تحرر يدين بقيمته ومواهبه العسكرية لتربيته بسلطنة مصر . واشتهر بحملاته الكثيرة فى سورية . وكان يرافقه الأمير « أزبكى » عدة مرات مع الجيوش العثمانية ، وضمن السلام فى دولها باتفاقية عام ١٤٩١م (الموافق ٨٩٦هـ) التى وقعها مع « بيازيد الثانى » الذى كان يملك حينئذ فى الآستانة (اسطنبول حاليًا) .

وجامع قايتباى تم ترميمه حديثًا (وقت كتابة هذا الكتاب) وأسفل المنارة التى تتميز بتفاصيلها الفنية تفتح فتحة كبيرة ذات قوس على شكل ورقة خضراء ، مع أبنية مغلفة من كتل كلسية . وخلف المدخل الرئيسى يوجد تجويف به مقعد ضيق وطويل من الرخام كان يجلس عليه السلطان أثناء الصلاة العامة وأيام الحفلات الكبرى . ونصل إلى هذا النوع من العرش بعد أن نعبر درجات السلم المزدوج التى كانت توضع فوقها

مجموعة من جنود المدفعية . وإلى اليسار يوجد « سبيل » أو « نافورة عامة » وأعلاه صالة مدرسة . وإلى اليمين يؤدى ممر إلى صالة كبيرة يفتح فوقها « محراب » « قبلة » نعجب بإطاراتها ذات العمل العجيب المذهل . وينقسم السقف إلى أقسام مغطاة بأرابيسك تعلوه خيوط من ذهب . وباتباع ممر صغير يتبع أو يلى ممر الدخول نصل إلى صالة مربعة تعلوها « قبة » بديعة ، ومضاءة بأشعة الشمس مباشرة التى تسقط من صف من الفتحات الصغيرة من زجاج ملون يتوج المعلقات : هذا هو قبر السلطان «قايتباى» ، والزينة المعمارية للنوافذ (على شكل أوراق مجمعة بطريقة متماثلة) تنفذ بدقة متناهية . والقبر تحاط به شبكة من الخشب أو مشربية ويوضع أمام القبلة . ومن الناحيتين توجد كتلتان صغيرتان من الجرانيت ، إحداهما سوداء نشاهد عليها آثار قدمى النبى ﷺ والأخرى وردية اللون تحمل أثر الرجل اليمنى فقط . وهذه الأحجار التى يقال إنها جاءت من مكة بواسطة قايتباى نفسه موجودة داخل نوعين من الإطارات أحدهما من الرخام تعلوه قبة صغيرة على هيئة نصف كرة من البرونز مرسوم فوقها بخيوط ذهبية ومحملة بأربعة أعمدة صغيرة ، والإطار الآخر من الخشب المدهون على شكل هرم .

وتم تنفيذ ترميم جامع « قايتباى » بواسطة يد أستاذ فى الترميم . وهو الآن (كتابة هذا الكتاب) يعد المبنى الوحيد فى القاهرة الذى نستطيع أن نأخذ منه فكرة دقيقة عن كل مفردات أو تجمعات الفن العربى منذ أربعة قرون (خمسة قرون من الآن) ويمثل كل جزء من الأثر دافعًا للدراسات الخاصة . وتقوسات القوس مرتبة من أحجار من الرخام بيضاء وسوداء على الترتيب ، والحوائط والأرصفة مقسمة إلى أجزاء من الرخام بدرجات مختلفة من الألوان تخرج من فوقها خيوط طويلة بيضاء ، وشرائط ، وخيوط مضفرة سوداء ورسومات فجائية أو مباغتة (فانتازيا) مختلفة إلى مالانهاية . ويقول السيد رونيه : « عند رؤية المصادر العجيبة التى عرف العرب كيف يجدوها فى الهندسة لتجميل المبانى يقل أسفنا للفن لأن القانون الإسلامى قد منع إدخال أى تمثيل فيها لكائنات حية كعمل من أعمال عبادة الأوثان . غير أن هذه التغييرات أقل إطلاقًا

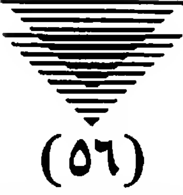
مما نعتقد فيه بصفة عامة ، فمن يعرف أنه يمنع الفنانين العرب عن النحت وإقامة التماثيل. فلم يحتفظوا بذلك فى طريق هذه الملكة الخاصة والمتميزة التى لدى الساميين لكل التجمعات الدقيقة وخاصة لتجمعات الأعداد ، والخطوط والأشكال الهندسية ؟ فكل محاولات مسلمى بلاد فارس وعرب أسبانيا الأكثر حرية من سكان سوريا ومصر فى النحت وفى الأشكال الحية (التماثيل) هى ككل أقل من المتوسط . وعلى النقيض من ذلك من وجهة نظر مجال التجميل ظلت كل الشعوب السامية بدون منافس » .

وعند طرف القاهرة فى حى طولون يوجد جامع آخر صغير لقايتباى التى يبدو أن له نفس الأصل الذى نتحدث عنه . فهو مثل الجامع الأول عمل فنى مهم وجميل . وتعد البوابة الرئيسية من أبسط الأبواب ، ولكن المدخل على وجه الخصوص يتميز بالأسقف ذات الأعمدة العرضية المزينة بالأرابيسك المذهب ، وبرسومات على شكل معين مع بروزات من الخشب معلمة بالصدف . وهذا الأثر الذى جعله أحد الزلازل يمتلئ بالتجاويف والحفر يبدو منسيًا من سكان الحى .

وعندما نترك مدافن السلاطين المماليك ندخل فى العادة إلى القاهرة عن طريق باب الغريب أو عن طريق الشارع الجديد ونعبر عن طريق حفرة وسط تلال منخفضة من الأطلال التى تحد المدينة من هذا الجانب . وفوق هذه المرتفعات كان يوجد حصن دوبوى Dupuis ، وحصن روبول Reboul . ومن حصن « روبول Reboul » ضرب الجنرال « دومارتان » أثناء ثورة القاهرة فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨م (٢٨ جمادى الأول ١٢١٣هـ) ضرب بأمر من « بونابرت » الثوار الذين لجأوا إلى حوش جامع الأزهر . والبانوراما التى نكتشفها من أعلى هذه القمم بديعة حقيقة ؛ فنشاهد بأعيننا هذه اللوحات النادرة التى نشرت فيها الطبيعة كل جمالها ، كالحدائق الواسعة ، والسهول المتناهية الأطراف التى تزرع فيها الأشجار الكبيرة ، والنهر ، والقنوات ، والجبال ، والصحراء ، ووسط كل ذلك مدينة هادئة مليئة بالأسرار يذكرنا كل حى ، وكل شارع وكل أثر فيها بذكريات . وهذا الجزء من المدينة الذى يقع شرقها يحتفظ حتى الآن (حتى هذا التاريخ) بكل أصوله الشرقية ، فكما كانت فى زمن الخلفاء والمماليك هى كذلك فى هذا الوقت

(وقت كتابة هذا الكتاب) فالعادات الغربية فى شق شوارع جديدة ، وفى هدم أحياء بأكملها لتحديثها على النمط الأوروبى لم تتوغل حتى هذا المكان . فإلى الشمال ، وإلى الغرب وإلى الجنوب ليس للقاهرة حدود واضحة . وفى الأحياء الخارجية تصبح المنازل نادرة أكثر فأكثر كلما تقدمنا نحو الصحراء ، وينتهى الأمر ببعض المساكن المعزولة التى تختلط مع منازل الضواحى ، هنا تنتهى المدينة بحدة بسور قديم متعرج يمتد إلى اليسار حتى القلعة ، وإلى اليمين حتى برج الزفر (برج الأرواح) لينضم إلى حصون باب النصر .





(٥٦)

مدافن الإمام الشافعى - قبر الإمام

تمتد المدافن الواسعة - التى أعطاها قبر الإمام الشافعى اسمه - إلى جنوب المدينة بين جبل المقطم والقاهرة القديمة (مصر القديمة) . وعند الخروج من « باب القرافة » عند طرف ميدان « محمد على » نترك إلى اليسار حقلاً مغطى بالجوامع الجنائزية المتهدمة التى تنتمى إلى السلاطين المماليك ، وعندما نتجه مباشرة فى اتجاه الجنوب نكتشف عبر العديد من الأضرحة الحديثة القبة الرمادية التى يرقد تحتها الجسد المبجل للإمام .

عاش محمد ابن إدريس الملقب بالشافعى أثناء حكم الخليفة المأمون بن هارون الرشيد وخليفته . هذا العالم المهشور هو مؤسس أحد المذاهب الفقهية الأربعة التى يعرفها الدين الإسلامى . والذين يتبعون مذهبه أو طائفته عددهم كبير فى مصر ويسمون بالشافعية . ومات الإمام فى عام ٢٠٤هـ الموافق ٨١٩ م .

ويطل مدخل القبر على شارع مرصوف توجد على أطرافه أبنية ترجع إلى زمن أحمد بن طولون . ونتوغل إلى الداخل بعد أن نعبر أربعة أبواب يعلو الباب الثالث منها كتابة من حروف من ذهب وله مصاريع من كتل الفضة . والصالة ذات غنى مدهش غير طبيعى . والحوائط تصل إلى منتصف ارتفاعها الحقيقى . وتغطى تلك الحوائط بستائر من الرخام من مختلف الألوان ، وشرائح من الخزف الملون ، وتمتد فوق هذه الحوائط قطعة معدنية ذات لون أسمر يبرز منها أرابيسك مجسم . والقبة جميلة جدًا .

ورسوماتها الزرقاء والحمراء محاطة بنوع من الشبكات المذهبة ذات تأثير جذاب . وتتعلق المعلقات بخيوط رقيقة من ذهب يبرز شكلها ويعطيها مزيدًا من الخفة والجمال . ولم يهمل أى شىء من الزينة الداخلية لهذا الأثر الذى رمم منذ فترة وجيزة . ويمكن أن نتحدث عن مشكلة الذوق إذا فحصنا التفاصيل ، ولكن كل هذا التجمع من الألوان الذهبية ، ومن الدهانات ، ومن الموزايك وحتى السجاد الثقيل الذى يغطى الأرضية . كل ذلك يمثل نظرة أولى وبعض التجانس الذى يتملكه الإعجاب .

وتوجد القبلة على يسار المدخل مباشرة فى زاوية يسندها عمودان صغيران ، وعند الجزء العلوى توجد كتابة على خلفية من اللون الأحمر الزاهى يعلوها عدة صفوف من الخزف الملون ذات رسومات زرقاء وخضراء . ويحاط القبر بشبكة من الخشب الأسود ذات شرائح من الفضة المرصعة بالأصداف : ومغطى بنوع من الخشب المرتفع تتدلى منه مصابيح من الزجاج الملون ، وبيض نعامة محفوظة فى ضفائر من الحرير . ونلاحظ من ناحية الرأس عمودًا من الرخام يحمل - كما هو الحال فى قبر برقوق - ملحوظة عن قصة حياة (السيرة الذاتية) محفورة ببروز ، وحفرة كبيرة يوجد عند أطرافها شمعدانان كبيران من البرونز . ويوجد بالقرب من ضريح الإمام ضريحان آخران محاطان بشبكة مدهونة بالأخضر ، وينتمى أحد هذه الأضرحة إلى السلطان محمد الكامل ، وينتمى الضريح الآخر إلى والدته الأميرة شامسا التى بنت قبة الأثر . كما يوجد ضريح ثالث خاص بابن عبد الحكم يوجد عند مدخل مقصورة صغيرة تستخدم كمكان للتأمل . وعند الزاوية الجنوبية الغربية من الصالة توجد دواليب تحتوى على مخطوطات وأعمال دينية خاصة بالمذهب الشيعى .

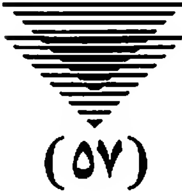
وقبر الإمام من الصعب دخوله بالنسبة للأجانب ، والتبجيل العظيم الذى يحظى به يفرض على المسلمين المؤمنين أن يذهبوا كل يوم تقريبًا ليمارسوا شعائرهم الدينية فى المسجد الصغير الذى يلامس القبة الجنائزية . وهذا المسجد الصغير فى حالة فقر مدقع ، فالحوائط مبيضة بالحجر الجيرى . وبه ثلاثة صفوف من الأعمدة غير المتناسقة من الرخام الأبيض الذى به شعيرات ، ومعظم هذه الأعمدة مائلة ، وتسند

أقواسًا على هيئة قوسين متقاطعين مرتبطين بأربطة من الخشب ، وتضاء القبلة بفتحة واسعة مربعة على شكل « ملقف » ، وتوجد هذه الفتحة وسط السقف وكلها مزينة بالورد الأحمر . كما توجد قبلة متواضعة مكونة من نفس الرخام الذى بنيت به الأعمدة وليس لها كزينة سوى شرح عربى قصير بحرورف من ذهب فوق خلفية زرقاء ، وتوضع هذه القبلة المتواضعة وتسمى المنبر وهو مدهون من الخشب الأسمر وبجانبه الحائط من جهة القبلة ، ويوجد حوض فى نوع من الأحواش على يمين المدخل .

ولا يوجد شىء فى هذا الجامع يستحق مجهود الفحص ، ومع ذلك يتم عرضه على الزوار كما لو كان أكثر الأشياء إثارة التى تستحق الرؤية فى هذه المنطقة . ويغلق القبر بقسوة فى وجه أى من غير المؤمنين إلا إذا حصل على تصريح سليم ، وكذلك فى كل مرة يتقدم فيها يتم ترحيله بأدب بحجة مقبولة . والتصريح الذى تصدره مجانًا وزارة الأوقاف ويعطى لحامله الحق فى زيارة كل الجوامع حتى الجامع الأزهر ، هذا الكارت (أو التصريح) غير كاف لدخول هذا الجامع الصغير . فيجب الحصول على رسالة خاصة لزيارة قبلة أو محراب الإمام . وإذا كان السائح لا يتكلم اللغة العربية بدرجة كافية فيجب أن يرافقه مترجم مسلم .

وإذا هبطنا قليلاً فى اتجاه الشمال الغربى نصل إلى حصن يحتوى على أضرحة جميلة للمماليك ، وهى عبارة عن آثار صغيرة منحوتة ومعها أعمدة ناعمة أو أعلاها عمامة ويوضع الأغنياء تحت نوع من الأسقف المقوسة فى البناء . وفى المجموعة الأولى التى نشاهدها بالقرب من المدخل نلاحظ قبر على بيه الشهير الملقب بالكبير (العظيم) وقبر إسماعيل بيه ، ويحمل الأول تاريخ ١١٨٦هـ - ١٧٧٣م ، والآخر ١٢٠٥هـ- ١٧٩١ م .

* * *

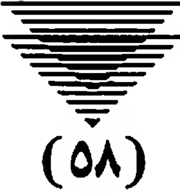


(٥٧)

مقابر عائلة محمد على

القبلة الجنائزية التى يرقد تحتها أحفاد عائلة محمد على تعد واحدة من أكثر مقابر الإمام إثارة . والأضرحة ذات أشكال بسيطة جدًا ومليئة بالكتابات والدهانات والخيوط الذهبية . وعندما ندخل من الباب الذى يلامس قبر المملوك الذى تحدثنا عنه نجد أمامنا مقابر عباس باشا نائب ملك مصر الذى مات فى « بنها العسل » فى ١٨٥٤م، وقبر ابنه إلهامى ، ومن بين قبور الشخصيات الرئيسية يجيئ بعد ذلك قبر أحمد باشا ابن إبراهيم الذى غرق فى النيل عقب حادث على خط السكة الحديد ، وقبر « طوسون باشا » الابن الثانى لمحمد على الذى مات عند عودته من حملة بالجزيرة العربية فى « برمبال » بالقرب من « رشيد » مات ضحية لحبه لأمة يونانية مريضة بالوباء وماتت بين ذراعيه ، وقبر إسماعيل باشا أخوه الذى مات محترقًا فى « شندى » أثناء حملة على السودان ، وقبر السفاح « أحمد بيه الدفتردار » الذى مات فى ١٨٣٢م ، وأخيرًا قبر إبراهيم باشا الذى انتصر على « نزيب » ومات فى ١٨٤٨م .

* * *



جامع سيدى شاهين

بالقرب من مقابر الإمام الشافعى يوجد جامع صغير منهار يثير شغف السائح بسبب موقعه البارز الجميل . وقد بنى هذا الجامع فى القرن الثالث عشر بواسطة أحد الخصيان ويدعى « سيدى شاهين » الذى ينتمى للسلطان « بيبرس » . وهذا الجامع الذى يبدو كأنه مغلق بجانب جبل المقطم هو أصيل (لم يرمم) ، ونصل إليه عن طريق تسلق أحد الطرق الحجرية السريعة خلف قبر « الشيخ عمر الفارض » وسط أرض فضاء . وإذا عانينا بعض الصعاب عند القيام بهذه الرحلة فإننا سنكافأ مكافأة جيدة عن هذا المجهود بالمنظر البديع الذى سنتمتع به عندما نصل إلى رواق المنارة التى ترتفع عند الزاوية الشمالية الغربية . والمنظر الذى نكتشفه يتحدى كل وصف ، فالعين تعانق للوهلة الأولى جبلاً مكونًا من سبعين قرنًا ، وفيما وراء النيل توجد أهرامات مدافن «ممفيس» الواسعة من الجيزة حتى « دهشور » . ومصر العتيقة مع الحدود الدقيقة «للفسطاط» ، والعسكر ، والقطائع . كما تعانق العين القاهرة مع قلعتها والأبنية الحديثة على النظام الأوروبى ، والعينة الأكثر قربًا من المشاهد هى محطة سكة حديد حلوان . وعلى يمين مدخل المنارة توجد كتابة تقرأ اليوم بصعوبة كتبها أحد الحجاج الهنود فى ١٨٦٩م الزمن الذى شاهدنا فيه للمرة الأولى . وها هى ترجمة الكتابة : « سلام عليك أيها السيد المبجل الذى يرقد هنا ، يجب أن يكون لك قلب كبير ونفس جميلة حتى يضع أصدقاؤك بقاياك فى مواجهة أفق كبير ... » .

وبجانب هذه القاعات المنهارة والأسوار المتهدمة يعد المحراب الجزء الوحيد من الأثر الذى يمنح وقاءً ضد أشعة الشمس . كما توجد أربعة أعمدة مدهونة بالخزف الأحمر تسند سقفًا من الخشب بدا يتداعى من التقادم . والقبلة الصغيرة لا تقف

منتصبة . فكل من قطع الرخام الجميلة الخاصة بها المكونة من الرخام الأحمر والأبيض، والأسود والأخضر والصفوف الثلاثة للنجوم تسقط فى شرائح مبرقة فوق أرضية مغطاة بالجبس . وقبر المؤسس والاثنان الآخران اللذان ينتميان لعائلته ينفصلون عن المحراب بفاصل من الخشب المزين . وعمود الرخام الضعيف الذى يستخدم كسند لدكة موضوعة فى زاوية هو موضوع لقصة تثير الشغف . فلقد تم إحضاره من دمشق بسبب شكله الخاص . والدائرة الواسعة من الفضة التى تزين جزأه العلوى والتى نُحت فوقها علامات سحرية لم يستطع أحد أن يفسر معناها فلقد وضع هذا العمود أولاً فى قصر صلاح الدين ، ثم فى المكان الذى يوجد فيه حاليًا . وفى أحد الأيام جاء فارسى أو إيرانى بالصدفة ليزور قبر « سيدى شاهين » وأعطى تفسيرًا لهذه العلامات السحرية . فكان الخاتم (الحلقة المعدنية) عبارة عن أداة لشفاء جميع الأمراض ، وتعطى الخصوبة للسيدات العقيمات . وكان للناس السذج ثقة عمياء فى الفضائل الإعجازية لهذه الجوهرة السحرية التى بفضلها حملت أكثر من امرأة وزفت هذه البشرى لزوجها الساذج ، ويومًا ما اختفى هذا الخاتم أو اختفت هذه الحلقة المعدنية . فلقد سرقها أحد اليهود .

وإذا اتبعنا طريقًا ضيقًا يسير بمحاذاة سفح الجبل إلى الشمال فإننا نقابل بالقرب من المناجم التى تستغل فى الوقت الحالى - نقابل جذوع أعمدة مكسورة ، وكتلاً من الرخام والجرانيت وبعض ركام الحوائط من الأحجار المقطوعة . كل ذلك ينتمى إلى معبد يقول عنه التقليد وبعض الكتاب العرب أنه يرجع إلى عصر الفرس الذين أسسوا «بابل» المصرية . ويحكى أحد كتاب القرن الحادى عشر ، ويدعى عبد الله البستنجى يحكى : «أن معبدًا قديمًا كان موجودًا إلى الشرق من مدينة الفسطاط أسفل المقطم ، وكان يستخدم كملجأ لكثير من الأمراء السود الذين كانت لهم علاقات سرية مع ضباط عدوهم « ناصر الدولة » . وهؤلاء الضباط الذين كانوا يخونون سيدهم كانوا يخونون كذلك الأمراء خوفًا منهم . فتم شنق هؤلاء الأمراء فجأة عندما كانوا يدبرون مؤامرة لاغتيال الخليفة « المستنصر » . وهذا المعبد الذى كانوا قد اختاروه كملجأ كان مكانًا آمنًا لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه . وكان قد بناه جماعة من الوثنيين من آسيا كانوا قد غزوا مصر فى العصور القديمة ، وغالبًا ما كانت تظهر فيه الأرواح الشريرة » .

* * *



(٥٩)

الشيخ المغاورى

خلف القلعة ، وفى عمق مغارة محفورة فى صخور المقطم يرقد شخص يسمى « بابا كايجوسيس » (بابا غير مهتم) ، وهو شاعر مميز من النظام التركى «للبكتاشيه» وهو مشهور بكتاباته أكثر من شهرته بولايته . ولقبه العرب بالشيخ المغاورى (من المغارة) .

ولزيارة قبر الشاعر نتبع سلمًا مكشوفًا على بعد خطوات من مخزن الأسلحة والبارود . وأعلى السلم ينفتح باب يؤدى إلى سلم آخر يقود مباشرة إلى تكية دراويش مسئولين عن حراسة المكان ، ويعيش هؤلاء الدراويش المتدينون حياة سليمة وبعيدة عن المعالم تحت حماية شيخ المغارة الذى يكنون له احترامًا عظيمًا . وبعد أن نعبر حديقة صغيرة ومدخلاً مزدانًا بأسدين من الحجر الجيرى نجد أنفسنا فى مواجهة مغارة منحوتة فى الصخر الخام يوجد أعلاها كتابة أثرية منحوتة بخط كبير . وعرض المغارة حوالى خمسة وعشرون مترًا وعمقها خمسة وسبعون . وفى زاوية على يمين المحراب يوجد ما يشبه « القبلة » ، وإلى اليسار وفى الخلف توجد قبور الدروايش ، ويرقد جسد الشيخ المغاورى فى قبر داخل محراب صغير مغلق بمشربية من الخشب ، ويوجد هذا المحراب عند طرف ممر طويل فى الوسط .

وكانت التكية تتكون فى السابق من بنايات عشوائية من الطوب الخام ، وأعيد بناؤه تمامًا فى ١٨٧٢م . والدراويش الذين يسكنون يرتدون بدلة خاصة من الصوف الأبيض .

ويرتدون قبعة من نفس الصوف على شكل اسطوانى . وملابسهم نظيفة ولامعة . وهم غير معتادين على زيارة السياح لذلك فهم لا يتعجلون الإجابة على أسئلتهم . وفى أغلب الأحيان يقدم هؤلاء الدراويش للسياح القهوة والسجاير والانتباه الدقيق والمحبب الذى نادرًا ما يقابله السياح أثناء رحلاتهم بمثل هذا الأدب الجم . وأعلى مغارة الشيخ المغاورى نشاهد جامعًا صغيرًا منهار يسمى بصفة عامة « سيدى الجيوشى » باسم أحد هضاب جبل المقطم الذى بنيت فوقه . ولا يؤم هذا الجامع سوى عدد نادر من الزوار ولا شىء فيه يثير الاهتمام سوى موقعه ، فهو يطل على أفق لانهائى ، ونشاهد منه كل السهل من الفيوم حتى إقليم المنوفية ، على الجانب الآخر من « سد النيل » .





(٦٠)

جامع السيدة نفيسة

إذا تركنا مدافن الإمام ودخلنا إلى القاهرة عن طريق باب السيدة نفيسة فإننا نقابل بالقرب من الباب القديم على اليمين شارعًا مرصوفًا يوجد فى آخره جامع صغير فقير المظهر ، لكن سكان الحى يكنون له تبجيلاً عظيمًا وخاصة بين النساء. وقد شيد هذا الجامع تشريفًا الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الإمام الحسن ابن على ابن أبى طالب ، وسميت هذه الابنة « نفيسة » . فالحياة الخيّرة « للسيدة نفيسة » وفضائلها وتقواها جعلاها تريح كل قلوب المسلمين الذين كانوا يعجبون بها أيما الإعجاب . وعندما جاء الإمام الشافعى إلى مصر ذهب لزيارتها وعاد من عندها والمشاعر الراقية التى تميز هذه السيدة تتوغل فى داخله . وعندما مات الإمام وضع المؤمنون جثمانه فى ضريح السيدة نفيسة أثناء قيامهم ببناء قبر لهذا الجثمان . ولم يجد أصحابه مطلقًا فى القاهرة منزلاً أكثر استحقاقًا لاستقبال بقايا الراحل المشهور .

ولا يتميز الجامع سوى ببعض الموزايك والأوانى الخزفية الملونة التى تختلط مع الدهانات الحديثة العشوائية . وبنى مكان الوعظ الذى ترقد فيه القديسة فوق الغرفة التى كانت تعيش فيها . ويوجد المدخل داخل قاعة منخفضة تتراص فيها ثلاث ساعات كبيرة ذات صناديق من خشب الزان تعطى تأثيرًا غريبًا وسط المنبهات المعلقة على الحوائط أو المدلاة من السقف . والقبر غنى جدًا بمحتوياته ومحاط بشبكة من البرونز

تخفى نصفها سجادة خضراء ، وتغطى الأرضية سجادة ناعمة وسميكة نادرًا ما تدوسها أقدام أحد غير المؤمنين .

وماتت « الست نفيسة » فى عام ٨٢٣م الموافق ٢٠٨ من الهجرة وأراد زوجها أولاً أن ينقل رفاتها إلى المدينة المنورة ، ولكنه عدل عن هذا المشروع نزولاً على إلحاحات الشيوخ والعلماء ووافق على أن جسد الطاهرة لا يبرح القاهرة مطلقًا .

* * *



القاهرة القديمة

تشكل مدينة « الفساط » التى أسسها عمرو فى ٦٤٠م اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) تشكل ضيعة يعيش فيها حوالى ثلاثة آلاف مواطن ، وتمتد بطول النيل فى مواجهة جزيرة روضة . وهى نوع من ضواحى القاهرة التى يسميها العامة باسم « القاهرة القديمة » وهى تسمية لا تبرهن على شىء ، لأن هذه المدينة لم تحمل مطلقًا اسم العاصمة الحالية لمصر .

تاريخ

فى الفترة التى ظهرت فيها الجيوش الإسلامية على ضفاف النيل كانت مصر خاضعة للسيطرة الرومانية وأدت المنافسة بين المذاهب الدينية إلى اضطهاد عظيم . وتضاعفت أعمال الطاغية الرومانى من عزل للكهنة والأساقفة المنشقين وسجنهم ، أو سجن الذين يدينون بمذهب دينى آخر ، وعمليات النفى ، وتوقيع الغرامات ، والمصادرات ، وإغلاق الكنائس ونهب الأديرة ، والاغتيالات ، والإبادة الجماعية للنساء والأطفال . كل ذلك كان قد تضاعف بطريقة لا يمكن التسامح فيها . ووصلت الأمور إلى درجة أن شعورًا واحدًا كان يحرك أغلب سكان مصر تقريبًا . أى إلى كراهية لا يمكن التصالح فيها بالنسبة للمضطهدين من القسطنطينية وبالنسبة لعملائهم الطغاة. وهذا الشعور المعادى للإمبراطور كان قد تطور فى فترة وجيزة لدرجة أن كلاً من اليونانيين والأقباط كانوا يشتركون فى نفس المشاعر . فكانت القسطنطينية

وبلاطها أعداء يستحقون الكراهية الكونية . فكل مجهود داخلى أو خارجى يهدف إلى اقتلاع مصر من سيطرة «هرقل» يجعل من يحاولون ذلك يدعون ويستقبلون كأصدقاء ومحررين .

تلك كانت الأوضاع فى مصر عندما تلقى عمرو بن العاص من الخليفة عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) الذى خلف أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) تلقى الأمر بغزو مصر . وقد صدر هذا الأمر من المدينة المنورة حيث كان الخليفة يعتكف بعد أن أخضع سوريا .

وعندما وصل « عمرو بن العاص » أمام « ممفيس » كانت هذه المدينة (ممفيس) وحصن بابليون تحت القيادة العسكرية لقائد مدنى يسمى « المقوقس » ، وهو يونانى الأصل ولكنه ولد فى مصر ، وكانت علاقاته العائلية وارتباطاته تتحدان مع قضية الأقباط المضطهدين . وكان المقوقس قد قام ببعض الاتصالات مع النبى (ﷺ) وأرسل إليه كهدية كثيرًا من شباب العبيد المصريين . فبدا المسلمون للمقوقس ليسوا كأعداء لكن كحلفاء ومحررين يجب أن يتعاون معهم للتغلب والانتصار على المنشقين الدينيين ، الذين أقاموا كراهية مميتة بين مسيحى الإسكندرية ومسيحى ممفيس . وبعد أن استولى عمرو على ممفيس وعلى حصن بابليون استعد لبدء حصار الإسكندرية . فهذه المدينة المحصنة جيدًا ، والتى تحميها حامية كثيرة العدد لم يكن من الممكن مهاجمتها سوى عن طريق البر فقط ، فاتصالاتها مع عاصمة الإمبراطورية كانت سهلة بسبب وضعها البحرى الذى يجعلها على استعداد لاستقبال كل المساعدات التى يستطيع هرقل إرسالها بدون أى عائق . فالاستيلاء عليها كان إذن مهمًا . فبدون الاستيلاء عليها يصبح الاستيلاء على مصر غير مؤمن بدرجة جيدة . فأمر عمرو الذى أقام معسكره بين النيل وحصن بابليون - أمر بأن يتوجه جيشه إلى الإسكندرية . وأثناء هدم الخيام جاء الجنود ليعلنوا (لعمرو) أن الحمام كان قد بنى عشه أعلى قمة خيمته ، وأن البيض سيفقس عما قريب . فأراد عمر احترام هذه العصافير وأمر أن يتركوا الخيمة واقفة حتى عودته . فهذا الحدث البسيط والقليل الأهمية كان سبب تأسيس أول مدينة إسلامية على أرض الفراعنة .

وبعد حصار دام أربعة عشر شهرًا دخل العرب الإسكندرية فى الجمعة الأولى من شهر محرم سنة ٢٠ هجرية الموافق (٢٢ ديسمبر ٦٤٠م) فى ساعة الصلاة الرسمية التى أداها الفارس على الملأ فوق أكبر ميدان للمدينة مكرسًا بهذا العمل الدينى انتصاره الجديد وإنجاز إخضاعه لمصر كلها للإسلام . وبعد أن ترك فى الإسكندرية حامية كافية رجع عمرو ليقيم معسكره على ضفاف النيل فى المكان الذى كان قد ترك فيه خيمته .

فبنى جنوده حول هذه الخيمة كبائن (منازل بدائية) مؤقتة تحولت بعد قليل إلى مساكن أكثر صلابة وأكثر ديمومة ، وبنى القادة مساكن واسعة ، وأصبحت هذه المنطقة السكنية فيما بعد مدينة كبيرة سميت « فسطاط » (خيمة) للاحتفاظ بذكرى هذا الحدث قليل الأهمية الذى كان سببًا فى تأسيسها . ومع الاحتفاظ باسم الفسطاط أخذت اسم مصر ، وهو الاسم الذى سميت به عواصم أقاليم مصر ، واحتفظت به ممفيس حتى هذا الوقت (الفتح الإسلامى) على الرغم من منافسة الإسكندرية .

وفى زمن تأسيس القاهرة كانت الفسطاط قد ضعفت تحت حكم الطولونيين وفقدت كل أهميتها لمنفعة مدينة الفاطميين الجديدة (القاهرة) . وفى زمن حكم صلاح الدين أشعل السكان النار فى الفسطاط ليمنعوا سقوطها تحت سلطة الصليبيين، ودام الحريق ثلاثة وخمسين يومًا . ومنذ هذا التاريخ لم يعد ينظر إلى الفسطاط إلا على أنها أحد ضواحى القاهرة .

* * *



بابليــــون

القلعـة القـديمة التى قام بتـأسيسـها جنود قمبيز تسـمى حاليًا وقت كتابة هذا الكتاب باسم « قصر الشمع » أو الاسم الأكثر عمومية هو دير النصارى (المسيحيين). وهو محاط بأسوار عالية فيما عدا الجهة الشمالية الشرقية ومغلق بأبواب ، ويوجد الباب الرئيسى فى الناحية الشمالية . والأسوار يبدو أنها أسوار الحصن كما كانت فى الأصل ، ولكن الحوائط ذات بناء رومانى ، فهى مبنيـة من الطوب ، وتحمل فى بعض المواضع آثار الترميمات المتتاليـة التى جرت لها فى أزمنـة مختلفة تحت السيطرة العربية. وإلى الجنوب الغربى يوجد باب من العمارة اليونانية القديمة ، وأصبح اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) مسدودًا . وتعلو هذا الباب زينة على شكل مثلث تحمل كتابة لا يمكن قراءتها ونسرًا إمبرياليًا (إمبراطورى) . وأحد البرجين اللذين يقعان على جانبى هذا الباب البرج الغربى يحتوى على غرفة يوجد فيها تابلوهات (لوحات) ذات خلفية من ذهب ، ومنحوتات تثير الشغف فوق خشب من نهاية القرن الثالث ، وفى نفس الغرفة نلاحظ قطعة صغيرة من الأثاث مغشاه كلية من العاج وموضوعه فوق قطعة من الحجارة الناعمة منقوش عليها كتابة يونانية تنتسب إلى عمود «الإمبراطور دقلديانوس» بالإسكندرية .

ويتكون مدخل قصر الشمع من شوارع صغيرة تسكنها جماعات فقيرة جدًا من الأقباط واليونانيين ومن الأقباط خاصة . وكنيسته الرئيسية - وهى تحظى على الأقل بتبجيل عظيم - كما أنها ذات قدم لا يناقض ، وهى مكرسة للعذراء (مريم) . وقد

بنيت هذه الكنيسة - كما يقال - فوق قدس أقداس استخدمته العائلة المقدسة كملجأ ، ولكن ضد من ؟ يهمل التقليد فى الرد على هذا السؤال ، ولا يتحدث الإنجيل عن أى مضايقات أثيرت فى مصر ضد مخلص الإنسانية القادم .

والكاهن القبطى العجوز ذو الذقن الرمادى الذى طرحنا عليه هذه الملاحظة جعلنا نلاحظ باقتناع بأنه على سبيل الحذر تم إخفاء الطفل الإلهى فى هذا المكان خشية أن يفضح حاكم مصر أمره إلى هيرودس . وينقسم قدس الأقداس النفقى إلى ثلاثة أقسام ضيقة جدًا ، تظهر فيها أحواض المعمودية . وتجاويف كان يرقد فيها الطفل يسوع . والكنيسة صغيرة مظلمة ، وتحظى بصيانة رديئة جدًا . كما تمتلك الكنيسة بعض المنحوتات الخشبية لها بعض الأهمية وكتبًا عن أنظمة الصلوات القبطية باللغة القبطية مع تفسير عربى لها . لأن اللغة القبطية لم تعد منذ زمن طويل سوى لغة ميتة بالنسبة للأقباط أنفسهم .

ويقع دير القديس جورج اليونانى فى الدور الثانى ، ويمتلك تابلوهات (لوحات) بيزنطية بديعة. ووسط الكنيسة يوجد عمود يحمل مصباحًا دائم الإنارة ، وعند منتصف الارتفاع توجد سلسلة من الحديد مثبتة فى العمود ، ويؤكد الشهود بأن هذه السلسلة تتمتع بفضيلة شفاء الفتيات الفاقدات لعقولهن ، وتستخدم هذه السلسلة فى ربطهن فى انتظار حدوث المعجزة . وتتمتع كنيسة القديس جورج بين اليونانيين المصريين بشهرة عالية من القداسة . ويزدحم مدخلها دائمًا بالمرضى الذين ينتظرون شفاء إعجازيًا ، وبما أن وضعها مقدسًا فالناس تأتى إليها من القاهرة كما يأتون إلى مستشفى . ويعد الموقف من أكثر المواقف ضحكًا ، ونرى عبر النوافذ مشاهد جميلة على النيل . وتوجد أديرة أخرى داخل أسوار الحصن القديم ، وتتشابه كلها تقريبًا ، وكلها تمتلك أجزاء من أجساد القديسين داخل توابيت ، وتمتلك كذلك منحوتات شيقة (مثيرة للشغف) ولافتات بديعة مغشاة بالأصداف والعاج .

* * *



(٦٣)

جـامع عمـرو

أول جامع بنى فى « مصر » هو جامع عمرو ، ويرجع تاريخ تشييده إلى عام ٢١ من الهجـرة أو ٦٤٢م ، أى قبل تأسيس القاهرة بثلاثة قرون . وتم بناؤه فوق قطعة أرض يمتلكها الجيش بالقرب من مدينة بابليون العتيقة . ووضع الحجر الأول فى حضور ثمانين شخصًا من صحابة النبى (ﷺ) . وفى الأصل كانت أبعاد هذا الجامع خمسين ذراعًا طولاً وثلاثين ذراعًا عرضًا . ولكن تم تكبير هذه الأبعاد بنسب ملحوظة على فترات مختلفة . وبنى « مسلمة بن مخلد » والى مصر المنارة الأولى ، وبعد ذلك بقرنين من الزمان بنى الخليفة « العزيز بالله » منارة أخرى ووضع مكان المنبر منبرًا آخر أكثر فخامة . وفى ١٠٤٧م (٤٣٨هـ) تحت حكم « المستنصر » تم تغطية عمودى القبلة بشرائح من الفضة ، وزين الجزء العلوى بشريحة من نفس المعدن (الفضة) نقرأ عليها اسم الخليفة « عمر بن الخطاب » بخط كبير بارز . وغطى كل من السلطان قلاوون والسلطان بيبرس حوائط الأروقة الداخلية بستائر من الرخام . وكلف « بارسباى » مهندسًا معماريًا قبطيًا بعمل ديكورات « القبلة » من الموزايك (تجميع أهرامات صغيرة من مواد مختلفة ملونة) . وبتكبير وتوسيع حائط السور ، وإعادة بناء نافورة المياه للوضوء . وأجريت الترميمات الأخيرة بأمر من « مراد بيه » قبل الحملة الفرنسية ببضع سنوات .

ويحكى كتاب القرن الرابع عشر العربى بأن جامع عمرو كان يضاء كل ليلة بواسطة ثمانية عشر ألف مصباح (كلوب) ، وألفوا قصة خيالية حقيقة عن العظمة

والخيال المنتشرين فى أرجاء هذا الجامع . ولا نجد اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) أى علامة على هذه الزينات أو الديكورات الفنية الفخمة التى ذكرت أثناء حكم الوزير محمد باشا فى ١٦٢٣م . ويسود المبنى ككل البساطة والتجرد . والصحن مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ثمانين مترًا ، ويوجد وسط الصحن نافورة مياه للوضوء تظللها شجرة جميز كبيرة . والقبلة بها مائة وستة وعشرون عمودًا موضوعة فى ستة صفوف ، وهى تعطى سلسلة من النماذج المتنوعة ، ونقابل فى هذه الأعمدة جذوع وتيجان منحوتة من كل الأنظمة ومن كل العصور المصرية ، واليونانية ، والرومانية والبيزنطية التى تم رفعها من الكنائس والمعابد القديمة . وتيجان الأعمدة وقواعدها تم ضبطها بالصدفة حتى يتم رفع الأعمدة إلى ارتفاع منتظم من خمسة أمتار . وعند هذا الإرتفاع تثبت قطع أفقية من الخشب لتحفظ المسافة بين الأعمدة . وعند الزاوية الجنوبية الشرقية من القبلة يوجد قبر رمزى للمؤسس . وفى الناحية الأخرى يوجد مصدر للماء المالح يتصل وفقًا لتأكيد حارس الجامع مع النافورة المقدسة لمكة التى تسمى « زمزم » .

وبالقرب من المنبر تميز عمود ترتبط به قصة تاريخية لا يمل الحارس من سردها للزوار . ألا وهى أثناء بناء عمرو لجامعه تخيل عمرو الذى كان عالمًا كبيرًا - تخيل يومًا ما أنه يتنزه تحت أبواب مسجد مكة ، وأن العمود الواقف فى هذا المكان كان مقطوعًا أو مفصلاً بطريقة رديئة ، فتحدث عمرو إلى أحد الأعمدة الموجودة بالقرب منه وقال له : « إنى آمرك أن تنتقل فى هذه اللحظة نفسها إلى جامع عمرو بمصر ، وأن تقف أمام القبلة » . ولكن العمود ظل ساكنًا . فاندهش عمرو ودفع العمود بيده وهو يأمره بأن يذهب إلى الفسطاط . فى هذه المرة اهتز العمود ، ولكن لم يطع هذا الأمر الرسمى الجديد . حينئذ اغتاظ عمرو ورفع الكرباج الذى يمسكه بيده وضرب العمود بعنف وهو يقول له : « بسم الله الرحمن الرحيم ارحل ... » فأجاب العمود : « لماذا نسيت أن تسمى باسم الله ؟ » . وفى الحال اندفع العمود فى الهواء ودار حول نفسه لحظة فوق الكعبة ثم استكمل طيرانه فى اتجاه مصر ، وجاء ليقف فى المكان الذى احتله حاليًا (وقت كتابة هذا الكتاب) . وكدليل على صدق هذه القصة يسير الحارس اليوم (وقت

كتابة هذا الكتاب) إلى مكان ضعيف فوق هذا العمود وإلى شريان طويل أبيض هما آثار ليد عمرو ولضربة كرباجه .

وجامع عمرو لا يؤمه أحد ، وأجزاء عديدة من المبنى تسقط منهارة . وتم رفع أعمدة البوابتين الجانبيتين لتستعل فى آثار أخرى . وكان الحوش الخارجى الذى يسبق دخول الجامع - كان يحتوى فى السابق على مبان مخصصة للسياح ، وهذه الأبنية غير موجودة اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) ، وترتفع مكانها بعض المنازل العربية الفقيرة التى يستخدم الكثير منها كورش لصناعة الخزف .

ووفقًا لتقليد قديم عندما يؤدى الفيضان المنخفض للنيل إلى التنبؤ بالمجاعة يتوجه الأئمة والشيوخ ، والكهنة الكاثوليك والأقباط واليونانيون ورجال الدين اليهودى إلى جامع عمرو كل مع أتباع دينه . وتقف كل طائفة متحدة خارج المسجد للتضرع لطلب مساعدة السماء ولتطرد كذلك الأحزان التى تهدد البلاد (مصر) لعدم كفاية الفيضان وتقام هذه الحفلة بكثير من النظام . فكل الأديان تكن لبعضها البعض احترامًا متبادلاً ، وتسلك كما لو كانت عائلة واحدة .

* * *



جزيرة الروضة - مقياس النيل

سميت جزيرة روضة هكذا بسبب خصوبتها ، ويعنى اسمها باللغة العربية « أرضية من الزهور ، حديقة » . وهى تمتد فى جنوب غرب القاهرة . ونلاحظ فيها كمية الأشجار والنباتات الأجنبية التى تمتلئ بها . فنخيل جزر العنتيل تهزه أوراقه الراقية ، والنباتات الخاصة بالهند مثل البامبو تأخذ أبعادًا عملاقة ، وتتعدى بكثير أكثر الأشجار علوًا . وهذه الأوراق الغريبة المقطعة بغرابة ، وهذه الفاكهة غريبة الشكل والطعم والذوق ، كل ذلك يطبع هذه الحدائق النابتة بطابع فريد أصيل . أضف إلى ذلك العديد من الطرق الواسعة المظللة ، وكتل الأشجار التى يستحيل التوغل فيما بينها ، وأرضية مغطاة بالورد ترتفع وسطها مساكن بديعة ، وأرضية مكسوة بالحشائش مثل الأحجار الكريمة الخضراء ، وتعبرها روافد المياه الصافية التى تشبه الفضة فى لمعانها . وعند الطرف الجنوبى للجزيرة عند المكان الذى ينقسم فيه النهر إلى قسمين ، قسم يذهب ليروى ناحية الجيزة ، والقسم الآخر يذهب ليروى القاهرة القديمة ، عند هذا المكان يقع مقياس النيل (نيلو ميتر) . وهو يتكون من بئر مربع ينزل إليه بسلم ، وينتصب وسطه عمود من الرخام له ست أضلاع مدرج بأذرع عددها سبعة عشر ، وينقسم إلى أربع وعشرين قيراطًا . وإذا كان طول الذراع وفقًا لمحمود باشا ٠,٥٤٠٤ متر فيكون ارتفاع العمود كنتيجة لذلك ٩,١٨٧ متر . ويقول « محمود باشا » : « إن ارتفاع العلامة العلوية للأذرع السبعة عشر هو ١٧,٨٣٣ متر أعلى السطح المتوسط لمياه البحر الأبيض المتوسط ، فتكون علامة الصفر على مقياس النيلومتر هى إذن ٨,٦٤٦ متر أعلى

السطح المتوسط لمياه البحر الأبيض المتوسط » . وأسوار البئر محفورة بأربعة تجاويف ذات أعمدة تسند أسقفًا من الأقواس المتقاطعة أو المعقوفة تعلوها كتابات كوفية . والمقياس كلمة تعنى « آلة للقياس » وهى تستخدم لمعرفة ما إذا كان الفيضان مناسبًا للزراعة أم لا ، وذلك بملاحظة ارتفاع المياه أثناء الفيضان .

وقبل الفتح العربى كان النيلومتر (مقياس النيل) موضوعًا فى حلوان وهى قرية فى مواجهة ممفيس . وأثناء حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك دمر هذا المقياس ، وبنى أسامة حاكم مصر مقياس جزيرة روضة فى عام ٧١٥م (٩٧هـ) ، ومن المحتمل جدًا أن يكون العمود الذى نراه اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) هو نفسه الذى وضع فى هذه الفترة – على الرغم من أنه رمم مرات كثيرة ورفع. وفى عام ٨١٤م (الموافق ١٩٩هـ) بنى الخليفة العباسى المأمون بن هارون الرشيد المبنى من جديد . والكتابات الداخلية على الإفريز أو البرواز من الشرق ومن الغرب ترجع إلى هذه الفترة . أما الكتابات الموجودة فى شمال وجنوب الإفريز (البرواز) فيرجع تاريخها إلى عام ٨٤٨م . وبعد بناء المقياس بقرن ونصف تمت إعادة ترميمه كلية بأمر من الخليفة « المتوكل » وسمى حينئذ بالمقياس الجديد . وفى عام ١٠٩٢م (٤٨٥هـ) غطاه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بقبة تسندها أعمدة جميلة من الرخام . ودمر المماليك هذه القبة أثناء الحملة الفرنسية .





(٦٥)

هليوبوليس

يقع المكان الذى ارتفعت فيه فى السابق مدينة « هليوبوليس » على بعد تسعة كيلو مترات من شمال القاهرة . ويتوجه السياح إليها عبر طريق العباسية الذى رصف وسط رمال الصحراء . فبعد عبور « الأوبزر فاتوار » (الملاحظة) يتبع السائح طريقًا تحدوه أشجار الجميز والورد العطر الأصفر الذى يعبر الحشائش (الأرض الخضراء) . وفيما بعد عندما نترك قرية المطرية على اليمين يكتشف السائح مسلة قديمة ، وهى الأثر الوحيد الباقى واقفًا وسط تلال الأنقاض التى تغطى أطلال المدينة المصرية القديمة . ولم يتبق فى كل مصر المنخفضة (الوجه البحرى) من مدن تاريخية هامة سوى مدينة هليوبوليس . والاسم الهيروغليفى لهذه المدينة هو « آن » ، والعبرى «أون» وكانت مدينة « رع » مدينة للشمس بكل امتياز . ووفقًا « لاسترابون » كان الكهنة المصريون يأتون إلى هليوبوليس (مدينة الشمس) ليدرسوا فيها الفلسفة وعلم الفلك . وجاء إليها كل من سولون ، وبلاتون ، وإيدوكس ، وكثير من الفلاسفة والعلماء اليونانيين الآخرين ليبحثوا عن العلم .

وعندما زار سترابون مصر قبل عصرنا ببضعة أعوام كانت هليوبوليس مهجورة تقريبًا . وقال عالم الجغرافيا اليونانى إنه لم يتبق بها سوى عدد قليل من السكان . والمعبد الكبير الذى يسبقه عدد كبير من المسلات وشارع أبو الهول الطويل كان مغلقًا لا تقام فيه مراسم العبادة . والبحيرة التى كانت تمتد أسفل هذا الشارع كانت جافة بسبب عدم صيانة القنوات التى تغذيها . وعبر عن ذلك الطبيب العربى البغدادى

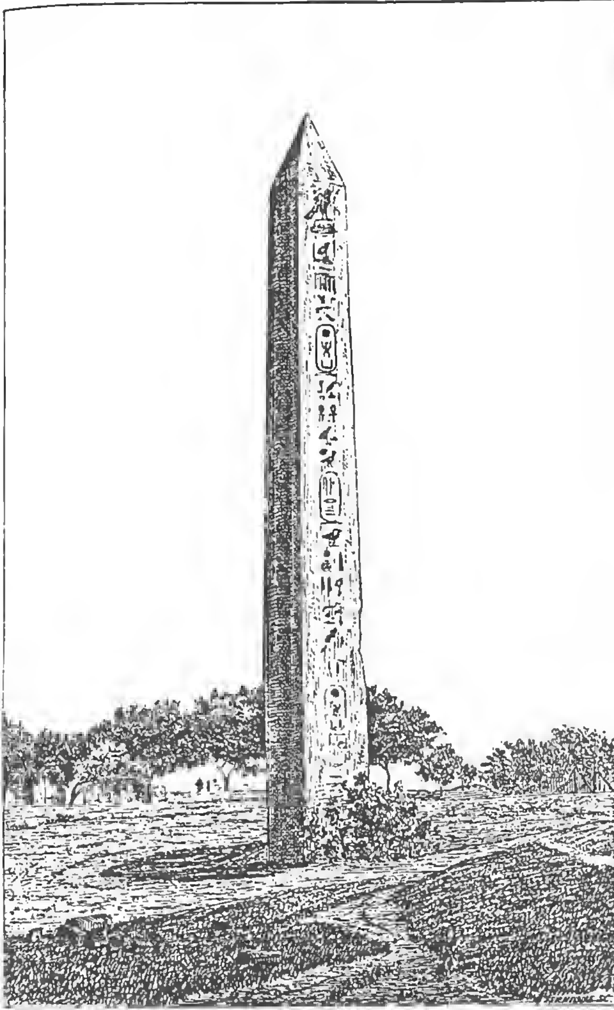
عبد اللطيف الذى زار مصر فى حوالى عام ١١٩٠م هكذا : « نجد فى هذه المدينة أشكالاً مخيفة وضخمة ومسلتين مشهورتين يلقبان بمؤشرات فرعون . وتتكون هذه المسلات من قاعدة مربعة طولها يساوى عرضها يساوى عشرة أذرع وارتفاعها يساوى طولها تقريبًا . وترتفع هذه المسلة على أساس صلب فى الأرض . ويرتفع أعلى هذه القاعدة عمود مربع ذو شكل هرمى . وتغطى الرأس بقبعة على شكل إناء نحاسى مخروطى يهبط حتى حوالى ثلاثة أذرع من القمة . وقد صدأ هذا النحاس وتلون باللون الأخضر تحت تأثير المطر والسنين ، وانساب جزء من هذا الصدأ بطول جذع الأثر . ويغطى كل السطح بهذا النوع من الكتابة الذى تحدثنا عنه . ولقد رأيت واحدة من هذه المسلات (مصنوعة من كتلة واحدة من الحجر) كانت قد سقطت وانقسمت إلى جزئين عند سقوطها بسبب وزنها الثقيل . وحول هذه المسلات يوجد كثير من المسلات الأخريات التى لا نعرف كيف نعدها ، ولا يوجد منها سوى نصف أو ثلث قواعدها قائمة بالمكان » .

ويقول السيد « مارييت » : « إن تاريخ هليوبوليس يمكن أن يصاغ فى بضعة أسطر. والمبنى ذو البناء العشوائى الذى يتحدث عنه « سترابون » يجب أن يذكرنا فى عمارته بمعبد « هرمكيس » فى أهرامات الجيزة ، ويثبت أن هذه المدينة كانت موجودة من قبل وأثناء الإمبراطورية القديمة . ونجد أثرًا « لهليولبوليس » أثناء حكم الأسرة الثانية عشرة فى مسلة « سنوسرت » التى مازالت واقفة . والكتل التى اكتشفناها عن طريق أعمال التنقيب التى قمنا بها فى ١٨٥٨م أثبتت أن تحتمس الثالث عمل على توسيع أحد معابده » . والمسلة هى كتلة حجرية واحدة من هذا النوع نقابلها فى كل مصر ، وارتفاعها أعلى قاعدتها هو ٢٠,٧٥ متر ، ومسقطها الأفقى على شكل مستطيل تقريبًا أبعاده ١,٨٤ متر × ١,٨٨ متر . واسم الفرعون « سنوسرت الأول » الملك الثانى من الأسرة الثانية عشرة مكتوب على أحد أوجهها . ويرتبط هذا الشاهد على أصالة المسلة مع الكتابة المتكررة على أوجهها الأربعة ليجعلا هذه المسلة ترجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد . وها هى ترجمة النص المنحوت على الأثر وفقًا للسيد « بروجش Brugsch »

« حورس » ملك مصر العليا والسفلى الذى تستمد الحياة من ولادته، و « خبر- كا- رع » سيد التيجان الذى تستمد الحياة من ولادته ، وابن الشمس ، « سنوسرت » المحبوب من أرواح مدينة هليوبوليس فليعيش إلى الأبد ، وهو الصقر الذهبى ، وتستمد الحياة من ولادته . والإله المنعم « خبر - كا - رع » بنى هذه المسلة فى بداية عيد له حتى يوهب له أن يعيش إلى الأبد » .

ويعطى جمال المكان لمسلة هليوبوليس جاذبية لا تقارن ، ويبدو أن الطبيعة سعدت بتزيينها بكل زينة ممكنة بمجموعة من الأشجار التى تبعث على البكاء ، ويبكى كل منها على هذه المدينة الميتة التى يشبه فيها هذا الأثر القديم العمود الجنائزى الذى يزين المدافن . فلقد عايشت هذه المسلة القديمة كل مراحل الحياة المزدهرة والمضمحلة لعاصمة مصر ذات المراسم الدينية الخاصة التى دفنت اليوم تحت أقدام هذه المسلة . ويسأل السائح بطريقة لا إرادية فى خياله هذا الشاهد الأخرس عن العديد من الأحداث . فهنا الشاهد الذى يطفو وسط الأطلال يبدو كأنه يتوغل رويدًا رويدًا فى الأرض كما لو كان يختفى عن الذكريات التى أحزنت وطنه . وحتى الكتابات التى تذكرنا بالأيام السعيدة تم تغطيتها بستارة من الحزن . فاستولى النحل المتوحش على حفر الكتابات الهيروغليفية ليصنع وينتج عسله . ونشبه التمتمة المستمرة للعمال بالأنين الصامت للأنفس الميتة .. وهذا النوع من الآثار الذى تم نقله إلى باريس فى ميدان الكونكورد أو إلى لندن على ضفاف نهر التيمز لا يحدث نفس الأثر الذى تحدثه وهى قائمة فى مكانها الأصلى الذى أقامها فيه رجال زالوا من على وجه الأرض منذ عدة قرون ، أقاموها بشعور مرهف . والمسلات الأولى كانت أداة للشغف الطفولى أو للشىء الباطل الأكثر طفولية أيضًا ، والمسلات الأخرى لها قداسة المومياوات الحقيقية .

كما تتميز هليوبوليس بأنها كانت ميدانًا للمعركة التى انتصر فيها مجموعة من الجنود الفرنسيين بقيادة كليبر على جيش عثمانى قوامه عشرة أضعاف قوام الفرنسيين . ويتقابل الأحياء فى غضبهم الشرس فوق مقابر الأجيال السابقة ، ويزيلوا بدمهم التراب من فوق مقابر الأموات .



مسلة « هيليوبوليس »

معركة هليوبوليس :

كان كليبر يستعد لإحضار جيشه إلى فرنسا ، وكانت الأماكن القوية « لقاطيه » و« الصالحية » ، و « بلبيس » ، و « ليسبة » قد سلمت للأتراك . وفجأة غيرت الظروف من استعدادات وترتيبات قائد الجيش (كليبر) .

ففي يوم ٨ مارس ١٨٠٠م ألغى كليبر كل الأوامر التي أعطاها من قبل للرحيل وأرسل إلى « يوسف باشا » قائد القوات العثمانية أمرًا بالانسحاب في اتجاه الحدود . ولكن الوزير الكبير الذي كان يفتخر بتفوقه العددي رفض الانسحاب ، وقرر أن يدخل القاهرة بجيشه . وكنتيجة لذلك أرسل يوم ١٨ مارس طلائع قواته إلى قرية المطرية التي تبعد عن العاصمة أربع ساعات سيرًا على الأقدام . وقام كليبر منذ الصباح بتحريك قواته واستعد للتقدم بنفسه للقاء العدو . وفي اليوم التالي (٢٣ شوال ١٢١٤ هجرية) خرج من القاهرة قبل شروق الشمس بوقت كاف على رأس عشرة آلاف رجل لينتشر في السهول الغنية التي تقع على الضفة الشرقية للنيل . وكان جنود الجيش يرون الصحراء عن يمينهم والنهر عن يسارهم وأطلال هليوبوليس أمامهم . والليلة المضيئة في مصر تجعل المناورات سهلة ولا يميزها العدو على الرغم من ذلك . فقد قسم كليبر قواته إلى أربعة مربعات رئيسية . اثنان منها على اليمين بقيادة الجنرال «رينيه» واثنان على اليسار تحت قيادة الجنرال « فريان » . وفي حوالي السادسة صباحًا تمت مشاهدة الطلائع التي دفعها الوزير الكبير قبل ذلك بيومين إلى قرية المطرية ، وحدث أول اشتباك ، ولاذت طليعة الجيش التركي بسرعة بالفرار . وحصل الفرنسيون على أوامر الصباح - أي أنهم تشكلوا من جديد إلى مربعات كثيرة وعبروا أطلال هليوبوليس ، ولاحظوا سحابة من الأتربة جعلتهم يميزون على الرغم من وجودها بين قرى « سرياقوس » و « المرج » ، الخط المتعرج للجيش التركي . ورأوا حينئذ آلافًا من أعلام جيش العدو وهي ترفرف وجزء من فرسانه وهو يندفع في اتجاه مربع الجنرال «فريان» وأثناء ذلك انتشر العديد من القناصة فوق أشجار النخيل التي تقع بالقرب من

الصحراء . وتركهم الجنرال فرييه الذى كان ينتظرهم وهو ثابت ، تركهم يقتربون منه ثم أمر فجأة بإطلاق نيران المدفعية عليهم فسقط منهم المئات بين قتيل وجريح . ثم انسحب الآخرون بطريقة فوضوية .

ولم يكن ذلك سوى مقدمة لعمل عام . واندلعت أخيرًا المعركة بمعناها الحقيقى . وتزعزع سلاح الفرسان التركى تمامًا ، واندفع كالطوفان فى اتجاه الواجهات الأربع المربعة وداروا حول أنفسهم وحول سلاح المدفعية الفرنسى . فسقطت المجموعات الأكثر قربًا بنيران حصينة جدًا . وسادت الفوضى المخيفة فى كل مكان . وأظلمت السماء لبعض الوقت بفعل الأتربة والدخان . وأخيرًا ظهرت السماء من الجديد واكتشفت الأرض . وحينئذ تأمل الجيش الفرنسى المنتصر حوله ورأى كتل الرجال والخيل الذين سقطوا تحت نيران المدفعية . كما شاهد كذلك حتى أبعد مرمى للبصر مجموعات الهاربين وهى تجرى إلى كل مكان فى الأفق تقريبًا . فاندفع كليبر الذى لم يكن يريد أن يعطى للأتراك أى راحة فى أثر هذه المجموعات ، ووصل فى مساء نفس اليوم إلى قرية الخانكة . وعندما رأى يوسف نفسه أنه مضغوط عن قرب استمر فى الهرب فى وسط فوضى تكبر رويدًا رويدًا تاركًا أمتعته ومواده الغذائية .

* * *



(٦٦)

المطـريــة

فى الطـريق من هليـوبوليس إلى القـاهرة ، وعلى بعـد كـيلو مـتـر مـن هليـوبوليس نشاهد عند قرية المطرية شجرة جميز كبيرة استراحت تحتها العائلة المقدسة وفقًا للتقليد عند مجيئها إلى مصر بحثًا عن ملجأ من اضطهادات هيرودس . وتوجد هذه الشجرة فى حديقة يملكها أقباط . والمجرى المائى الصغير الذى ينساب بالقرب منها يأتى من مصدر للمياه جعله الطفل يسوع يندفع بمعجزة ليروى عطشه . وكنا نرى منذ قرنين من الزمان بقايا منزل يحتمل أن تكون العائلة المقدسة قد سكنت فيه ، وفى البركة الصغيرة التى توجد عند مدخل قرية المطرية غسلت العذراء مريم الملابس الداخلية للطفل . وهذا ما يقوله الأب « فنسلاب » الذى زار مصر فى ١٦٧٢م : « يوم ١٢ يوليو كنت بصحبة بعض التجار الفرنسيين فى قرية المطرية التى تقع فى الناحية الشمالية من القاهرة . وتبعد عن القاهرة مسافة يقطعها الحصان فى حوالى ساعتين ، وذلك لأشاهد الأماكن التى أقام فيها المسيح وأمه العذراء مريم . وكذلك الحديقة التى كان يزرع فيها من قبل النباتات العطرة » .

« وعندما ندخل الحوش نشاهد على اليد اليمنى قبة صغيرة للأتراك تم بناؤها فوق أنقاض كنيسة قبطية صغيرة ، ويحترم الناس فى هذه القبة بعض الأطلال الخاصة بالمسيح وأمه العذراء . وتسمى هذه القبة المقعد (مرقد) أو « مكان للراحة » . ويوجد فى هذا المقعد إناء صغير . ويقول تقليد الأقباط أن العذراء اعتادت أن تغسل فيه الملابس الداخلية لطفلها ، وأثناء اهتمامها بهذا العمل كانت تجلس طفلها فى تجويف موجود بسور المقعد ، وفى هذه الأماكن كان المتدينون الفرنجة يصلون من قبل القداس بالتكريس . وبالقرب من المقعد أو المرقد يوجد بئر تم حفره بطريقة إعجازية » .

« كما يتفق التقليد القبطى مع المؤرخين المسلمين فى أن المسيح كان يستحم فى هذا البئر . وبعد أن تناولنا وجبة خفيفة فى المرقد وشربنا هذه المياه بغرض التبرك أو التكريس ودخلنا فى الحديقة ... » .

ويقال أنه بعد أن اختبآ فى هذا المكان أنقذا من أيدى أتباع هيرودس بفضل خيوط عنكبوت غطتهما ، وتبدو هذه الخيوط قديمة جدًا غير أنه تم نسجها فى لحظة عن طريق معجزة إلهية . وتناقش الآباء الكرادلة من الأرض المقدسة الذين ظلوا بالقاهرة - تناقشوا مع القائمين على صيانة الحديقة حول ملكية هذه الشجرة ، وقال الآباء إن هذه الشجرة سقطت بفعل تقادمها فى ١٦٥٦م وأنهم جمعوا القطع الأخيرة منها واحتفظوا بها فى مكان حفظ « زينات الكنائس » حيث شاهدتهم كبقايا ثمينة جدًا. وأظهر القائمون على صيانة الحديقة على العكس من ذلك فرعًا من الشجرة باقيًا فى الأرض وقد رأيته كذلك ، ويؤكد القائمون على صيانة الحديقة على أنه هو ما تبقى من شجرة الجميزة القديمة ... » .

ووفقًا لقصة « الأب فانسلاب » يمكننا أن نجزم إن الشجرة الموجودة حاليًا ليست هى نفس الشجرة التى تتحدث عنها الكتب المقدسة إلا إذا كانت قد حدثت معجزة جديدة . أيًا ما كان الأمر فإن شجرة الجميز الحالية التى تتساقط أفرعها بفعل التقادم تسمى « شجرة العذراء » وتقدم على إنها هى الشجرة الأصلية . والمسلمون أنفسهم الذين يكنون إحتراماً كبيراً لعيسى بن مريم ، وينظرون إليه على أنه أحد أنبيائهم يرجعون وجود هذه الشجرة المقدسة إلى أزمنة أو عصور الفراعنة . ولكن الناس يحترمون قدم هذه الشجرة ، ومن الصعب على العين أن تنظر إلى أى إساءه لهذه الشجرة . فجزؤها العلوى قد قطع بيد الزوار وقلعت أوراقها ، وهى تسعد كثيراً عندما لا يقتطع منها فروعاً كاملة ، ومنذ سنوات قليلة قام أحد الأوروبيين الموجودين بالقاهرة- وكان بلا شك مدفوعاً بحب كبير للبقايا المقدسة - ، وجعل الشجرة تعانى من اقتطاع جزء كبير منها ، فقد قام بقطع أحد الجذوع الغليظة بها وصنع منه « علب دخان » قام بنفسه بتوزيعها كهدايا أو مجازاة فى الأبنية الدينية فى إيطاليا .

* * *



(٦٧)

شبرا

النزهة المفضلة لنبلاء القاهرة هى شارع شبرا الموجود فى شمال المدينة على الضفة الشرقية للنيل . وتحد هذا الشارع أشجار الجميز العتيقة التى تتشابك أفرعها ، وتكون سقفاً مقوساً على ارتفاع كبير لا تستطيع أشعة الشمس أن تخترقه . كما توجد على يمين وعلى يسار الشارع فيللات بديعة محاطة بحدائق . والقصر الذى يرتفع عند طرف هذا الشارع تم بناؤه بتكاليف كثيرة لمحمد على بواسطة مهندسين معماريين كانوا يعتقدون دون شك أنهم يتميزون بخلق نوع من الذوق الغريب البدائى ، ولكن للأسف لم ينجحوا سوى فى بناء مبنى كامل خال من الذوق والنظام . والحديقة التى يخطها عدد كبير من المجارى المائية تم رسمها بالطريقة العربية على شكل ممرات مستقيمة تتميز بالأشجار الثمنية المتجمعة فيها مع الورد . وفى الوسط يمتد حوض واسع مستطيل الشكل من الرخام الأبيض محاط بصف من الأعمدة من نفس الرخام . وصف آخر من الأعمدة مع أكشاك تتقدم نحو المياه ، وعند كل زاوية توجد قاعة مؤثثة بالأرائك الوثيرة . وهذه البوابات المنهارة ، وهذه الأسقف ذات الزوايا التى تطل بثقل على هذا الحمام ، فكل هذه الفخامة غير المحببة يبدو أنها تتنفس الهجر والتعاسة . وبالقرب من القصر يقف مبنى صغير منعزل يطل على سلسلة متعاقبة من الأراضى المرتفعة المغطاة بالخضرة ، ونتمتع عبر هذا المبنى بمنظر بديع على النيل وعلى الريف .

وتعد حديقة شبرا اليوم (وقت كتابة هذا الكتاب) حديقة مصانة ، ولا يسمح بالدخول فيها سوى لمن يحمل بطاقة (كارت) يصدرها سيد حفلات الخليفة ، ويتم الحصول على هذه البطاقة بتقديم رسالة يضعها قنصل أى سفارة دائمًا تحت طلب مواطنيه (الذين يحملون جنسية هذه السفارة) .

* * *



الدراويش

الرفض الكلى للعالم وازدراء الغنى والسلطات ، والخضوع الإرادى الأكثر قساوة . واقتناع عميق فى مكاشفات الصوفية . كل ذلك يجعل بعض المؤمنين ينعزل عن باقى أتباع دينه لكى يخضع لممارسات العقاب الصارم . وقال فريد الدين : « كن لا شىء ذلك هو الكمال . وانكر ذاتك ذلك هو ضمان اتحادك مع الله . وافقد نفسك فى الله أو تلاشى فى الذات الإلهية لتكتشف هذا السر ، وكل شىء فيما عدا ذلك هو إضافة وزائد عن الحد ... » وعندما توغلت هذه المشاعر فى الدراويش استراحوا فى نشوة الحياة التأملية ، وكانت روحهم مركزة على نقطة واحدة ، إلا وهى الحب الصوفى ، وفى بعض المرات وصلوا إلى درجة معينة من الإلهام لدرجة أنه فى تسابيحهم غير العاقلة كانوا يعتقدون بإيمان قوى أنه كان لهم اتصالات سرية مع الذات الإلهية . وفى أغلب الأحيان فى أقسى حالات انحرافهم الروحى كانوا فريسة لاهتزازات عصبية من نوع التشنجات الشهيرة « للقديس مدارد » . ومرات أخرى سقطوا فى حالة من فقدان الوعى والشعور امتدت أثناء أيام كثيرة وتعطى للجسم كل خصائص الموت . فتلك كانت فى الأصل الصفات التى ميزت هؤلاء الأتقياء المتوحدين الأوائل الذين حملوا لقب « دراويش » .

واليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) ينقسم الدراويش إلى مجتمعات ، وضعف الشعور الدينى بدرجة كبيرة ، وتم الاحتفاظ بالجانب الخارجى وحده . وحياة الوحدة التى يقدمها الإسلام تختلف تمام الاختلاف عن تلك التى نقابلها فى أوروبا . فإذا كان المشرق الإسلامى يعرف نظام الأديرة فهو لا يعترف بالدير سوى بأنه معهد مسيحى .

فقد منع النبى (ﷺ) الأديرة وقال : « أما بالنسبة لحياة الدير فالمسيحيون هم الذين ابتدعوها » . ولكن تلك هى جاذبية الوجود التأملى ، وخاصة فى المشرق عندما يتغلب المؤمنون على الصعوبات بالاعتماد على هذه الحكمة ، ألا وهى « الفقر يصنع مجدى » . وأدت أعمال الخير والهبات العامة إلى إيجاد ما يسمى بالتكايا التى كانت فى الأصل ولم تكن حتى اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) سوى خلوة بالنسبة للفقراء . وتتكون التكايا بصفة دائمة تقريبًا من مبنى كبير على شكل مستطيل يحيط بحوش أو حديقة داخله . كما يوجد سلم واسع يقود إليه عبر الشارع ، ويؤدى إلى صف من الأعمدة يحيط بطول الواجهات الداخلية الثلاث . ويوجد فى وسط الحوش حوض واسع للوضوء (أو التطهير) محاط ببعض نباتات الزينة ، وتظلله بعض أشجار النخيل أو أشجار الورد العطر . وفى الخلفية يحتوى الجزء الذى يترك حرًا من المبنى على قاعة للصلاة . ويشغل الجزء الرئيسى من المبنى عدد اختيارى من الخلاوى أو الأروقة لكل منها شباك صغير وبابها يفتح على المنتزه العام . وتستخدم إحدى هذه الخلاوى ، وهى أكبر من الأخريات كمسكن للشيخ المسئول عن إدارة المبنى . ومن ناحية الشارع أسفل المبنى على يمين وعلى يسار المدخل الذى يؤدى إلى السلم يوجد العديد من المساكن المنعزلة الصغيرة التى تستخدم كورش أو دكاكين . وتمثل الواجهة ذات الخاصية شديدة الفوضى سورًا كبيرًا على نمط واحد . ولا يكسر هذا النمط سوى بواسطة شبابيك صغيرة مثقوبة من مكان لآخر تضىء الجزء الداخلى إضاءة ضعيفة .

ولا تجبر التكية الدرويش على الاعتكاف أو على العزوبية ، بل يسمح له بقضاء الليل فى مسكنه الخاص إن وجد . غير أنه فى العادة يأتى الدرويش من وقت لآخر ليستريح تحت نفس السقف مع إخوته . فالتكية هى إذن بالنسبة له مكان اجتماع حيث يمارس تمارينه الروحية الخاصة ، ويمارس عاداته (الذكر) ، ويمارس التقشف ، ويمارس صلاته . والدراويش يمارسون جميع المهن اليدوية ، ويصنعون من هذه المهنة مجدًا لهم . واحد فقط من أنظمتهم العديدة يسمح لأتباعه بالتسول . وجميع

الدراويش الآخرون يكسبون لقمة العيش بممارسة العديد من المهن ، وهم لا يبحثون عن الغنى ، ولكنهم يدينون الكسل ويتجنبون بذلك العيوب التى يعد الكسل أمها أو منبعها وفقًا لأصدق الأمثال . وهم يعجبون بمؤسسى طوائفهم المتتالية ويقتنعون بهم . وقد تبنوا بصفة عامة - ليس فقط المهن التى كان يتعايش منها هؤلاء المؤسسين والتى كانت تعلو من شأنهم - ، بل تبنوا كذلك أسماء هؤلاء المؤسسين . فالبعض منهم صيادون ، والآخرون ترزية ، وصناع خيام ، وصناع برادع (جمع بردعة) ، وشباشب (بانتوفلى) ، وهم يفضلون المهن الأكثر سلمية أو التى لا يوجد بها عنف . وجعلهم كل من أمانتهم وتقشفهم فى الحياة يكتسبون التقدير العام فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة .

والأنظمة الرئيسية للدراويش هى :

١ - الرفاعى :

طريقة أسسها السيد أحمد الرفاعى ، وهم يمتلكون تكية بالقرب من جامع السلطان حسن، وأعلامهم وعممهم سوداء . ويشكل هؤلاء الدراويش العديد من الطوائف أشهرها طائفة أولاد حوان أو الحوانية والصعايدة . ويتميز أتباع الطائفة الحوانية فى الحفلات العامة بالازدراء العميق للآلام الجسدية . فهم يثقبون لحمهم بسنون من حديد ويمسكون بأياديهم قطع الأخشاب المشتعلة ، ويكسرون الزجاج بين أسنانهم إلخ . والآخرون لديهم أعلام خضراء ، فهم حواة للثعابين (أو ينومون الثعابين تنويمًا مغناطيسيًا) ويجعلوها تمر فوق أجسادهم أثناء حفلات « الدوسة » .

٢ - القادرية :

أسسها السيد عبد القادر الجيلانى ، وهم يحملون أعلامًا وعممًا بيضاء . وأغلبهم يمارس مهنة صيد السمك ، ويصنعون الشباك ذات الألوان المختلفة ، والخيوط وأشياء أخرى ترتبط بمهنة صيد السمك .

٣ - الأحمدية :

أسسها السيد أحمد البدوى ، وأعلامهم وعممهم حمراء . ويرتبط بهذا النظام العديد من الطوائف . والطوائف الأكبر من حيث عدد الأتباع هم كل من الطائفة «الشناوية» التى تلعب دورًا رئيسيًا عند قبر السيد أحمد أثناء حفلات « طنطا » ، وطائفة « أولادنر» وهى تتكون بصفة عامة من دراويش يحملون قبعات مرتفعة ومدببة كعلامة مميزة ، وتوجد على صدورهم العديد من العقود التى تتكون من جواهر من زجاج وكور صغير يمر فيها خيط .

والانتماء لنظام معين من أنظمة الدراويش من أبسط ما يمكن ، فالحفلات غير محاطة بأسرار ، فيتقدم الطالب لدى شيخ النظام الذى اختاره ، وبعد أن يتطهر بماء الوضوء المستخدم ، ثم يقود بتلاوة توبة يعبر بعدها عن ندمه الصريح عن الخطايا التى اقترفها ، وعن القرار الذى اتخذه لتصحيح نفسه ، ثم يقسم بأن يظل وفيًا للنظام الذى يرغب فى الدخول فيه ، ثم يقول بعد ذلك على ثلاث دفعات اعتقاده الإيمانى : لا إله إلا الله ... ويقبل يدى الشيخ .





الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم

والدراويش المولوية ويسمون بصفة عامة بالدراويش الذين يدورون حول أنفسهم ولهم تكية فى حى الحلمية بالقرب من ميدان محمد على . وهذا النظام أسس فى القرن الثالث عشر بواسطة « المولى » أو السيد « جلال الدين الرومى » الذى ولد فى بالقة « بفارس » (إيران) ، فى عام ٦٠٤هـ (١٢٠٩م) . وتقام حفلات « الذكر » العامة الخاصة بهم كل يوم جمعة فيما عدا شهر رمضان ، فى حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، وتقام الحفلة فى قاعة مربعة يوجد فى وسطها قطعة دائرية من الخشب تحدها أعمدة صغيرة من الخشب ترتفع من عندها أعمدة خرسانية تسند رواقًا يخصص جزء منه للنساء ، تحاط به مشربية أو شبكة من الخشب ، أما الجزء الآخر فيخصص للرجال الأوفياء وللموسيقيين الذين يتبعون حركات الدراويش الدينية بآلاتهم الموسيقية . ويدخل الدراويش ببطء الواحد تلو الآخر ويأخذون وضعهم داخل المبنى أو فى حصن المبنى ، ويدير كل منهم وجهه تجاه القبلة التى يقف أمامها شيخ يجلس على سجادة . وهم يرتدون على رؤوسهم قبعات على شكل مخروط ناقص . كما يرتدون جاكت بدلة ضيق وقصير يوجد تحته جلباب أبيض طويل ضيق على المقاس ، وينتهى بوسادة من الرمال تستخدم فى تنظيم حركتهم الدائرية ، وتغطى أكتافهم ببالطو أو معطف خفيف من اللون الغامق . ولا يتميز القائد من الدراويش الآخرين سوى بأنه يرتدى عمامة سوداء ملفوفة حول قبعته . ويبدأ الشيخ بصوت منخفض تقريبًا يبدأ طلبة (أو صلاة) يجيب عليها « إمام » من أعلى المنبر بصلاة باللغة الفارسية

(الإيرانية) . ثم يعزف أحد الدراويش بمفرده على آلة العود ، وتشبه تموجات هذا العزف غناءً حزينًا ذا رقة كبيرة ، ثم تعلن كل من الطار والدرابوكة (الطبلة) بصوت عالٍ أن الذكر سوف يبدأ .

والدراويش الذين ظلوا حتى هذه اللحظة مقعمزين فى وضع التأمل العميق ينتصبون ويدورون ببطء متبعين محيط الحصن الداخلى وأذرعهم متعاقدة أو مربعة فوق صدورهم ، وفى كل مرة يمرون فيها أمام القبلة يستدير الدرويش الأول ويحيى بعمق الدرويش الذى يأتى من بعده . وتستمر الموسيقى دائمًا ولكن بنغمة أكثر حدة ويختلط صوت الدراويش بصوت الآلات الموسيقية . وفى لحظة معينة يتوقف الشيخ ويخلع الدراويش معاطفهم ويحيون بعضهم بعضًا من جديد ، ثم يبدأون الدوران بهدوء ورقة حول أنفسهم ، بعضهم يعقدون أو يربعون أذرعهم فى وضع الاحترام الذى احتفظوا به منذ دخولهم ، والبعض الآخر يمدون أذرعهم وتتجه باطن اليد اليمنى لكل منهم نحو السماء ، وباطن اليد اليسرى نحو الأرض ، وعيونهم مغلقة ، وتميل رؤوسهم على أكتافهم ، وتعلن سماتهم عن سوء حالتهم الصحية بسبب نشوة نفسية لا نهائية انطلقت منها نفوسهم حتى تجاه الأقاليم السمائية . وحركة الموسيقى تزداد سرعة رويدًا رويدًا ، والذكر السرى حول الذات يصبح أكثر سرعة ، وأثقال الوسائد الرملية (أو الممتلئة من الرمل التى تحفظ الجلاليب تجعلها ترسم أشكالاً بيضاوية تتلاقى ولا تتلامس مطلقًا ، ونسمع فقط حك الأقدام العارية على أرضية الغرفة الخشبية . ويقف الشيخ بلا حراك أمام القبلة ويخبئ يديه فى الأكمام الواسعة من معطفه ويشرف على التمارين المقدسة ، وبعض الأحيان يمر ثم يعاود المرور بصعوبة وسط الدوامة الحية ثم يعود إلى مكانه وهو منحن تحت ثقل السر الذى يتم أو يكتمل أمام عينيه . وبعد مضى ربع ساعة تتباطأ الموسيقى رويدًا رويدًا وتتوقف الطنابير ، ويستمر العود وحده فى عزف نغماته الضعيفة والحزينة ، ويتوقف الدراويش لبضع ثوان ثم يعاودون الذكر الدينى بنفس الحماس ونفس الحمية دون ن يبدو عليهم الشعور بأى تعب .

ويدوم الذكر حول الذات لمدة ساعة ، ويتوقف بالكاد ثلاث أو أربع مرات . وأخيرًا يستعيد الدراويش معاطفهم ويقعمزون على شكل نصف دائرة بطول الأعمدة التى على هيئة دائرة ، والتى تفصل القبلة عن باقى القاعة التى يقبل فيها الأشخاص الذين لا ينتمون للدراويش . ويسمع الإمام صلاة من فوق المنبر ، ويستمر أحد المرافقين بنوع من التسابيح التى تنتهى بالمجد لله ! وعند هذه الكلمات يسجد الدراويش ووجوههم على الأرض وعند وقوفهم يصرخون « هو الله » ثم ينسحبون .

* * *



(٧٠)

الدراويش الذين يزأرون

تقع تكية الدراويش الذين يزأرون فى شارع قصر النيل على طريق القاهرة القديمة بالقرب من مدرسة الطب . وتقام حفلات الذكر الخاصة بهم فى نفس الساعة التى تقام فيها حفلات ذكر الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم بالحلمية . وتقع التكية فى آخر شارع صغير يؤدى إلى النيل فى مواجهة جزيرة روضة .

وقاعة الاحتفالات مربعة وتعلوها « قبة » مثقوبة بشبابيك صغيرة . وتتدلى من الحوائط دبابيس ، ورماح ، وأسلحة قصيرة مدببة ، وفئوس ، وأدوات تعذيب التى لا تعطى مشاهدتها الأمان للناس الخجولين أو يعتقدون بأنهم نقلوا فى قاعة محكمة للمناهضين للدين ، وبالقرب من القبلة عُلقت بعض اللوحات الصغيرة التى تمثل بعض الحِكَم التقية أو بعض الآيات الدينية وزينات مختلفة تبعث صورها مزيداً من الأمان ، وإلى اليسار ينفرد علم أخضر مزين عند حافته بشريط أحمر ، ويجلس الدراويش فى حلقة فوق سجادة ، ويبدأون بصلاة أو طلبة على نغمة بطيئة ثم يسرعون رويدًا رويدًا ، ومن وقت لآخر تقطع هذه الصلاة بصيحات عالية تعبر عن الفرح ، ويتكرر اسم الله كثيرًا خلال هذه الصيحات (هو!) . وما أن تزداد الحركة سرعة يرتفع الصوت أكثر فأكثر ممرورًا بكل درجات سلم الصوت البشرى . وعندما تنتهى هذه المقدمة ، ينشد أحد المبلجين صاحب الصوت الجميل صلاة بصوت عال بينما تصحبه نغمة رقيقة من المزمار لتقلل من ذبذبات الرثاء . وأثناء الصلاة يبدأ الجزء الأول من الذكر أولاً بلا شعور ليصل بالتدريج إلى أعلى فترة من التمجيد الحماسى . ويدير

الدراويش رؤوسهم إلى اليمين وإلى اليسار ، ثم (يحركون) أجسامهم إلى الأمام وإلى الخلف ، ويلفظون عند كل حركة اسم الله ، ويكررون على فترات قصيرة صرخة السعادة هو ! ... وأثناء الجزء الثانى من التمارين بصفة خاصة يبرر الدراويش تسميتهم « بالذين يزأرون » . فيقفون ورؤوسهم عارية وشعورهم الطويلة تتماوج فوق أكتافهم ، ونظراتهم مثبتة فى اتجاه السماء ، ويلفظون بصوت ممدود إعلانهم بالإيمان ، الا وهو « لا إله إلا الله .. » ويقف الإمام الذى يرتدى فوق رأسه عمامة خضراء - يقف وسط الدائرة وينظم الحلقة ، ويركع جميع (الدراويش) حتى الأرض (يسجدون) ثم ينهضون وهم يلفظون كلمة هو! بدرجة معينة من السلم الصوتى لدرجة أنه بطريقة لا إرادية يرفع الدراويش نظرهم على مجموعة الأسلحة المعلقة بطريقة فنية ، ونتساءل عما إذا كان الوقت قد حان لكى نرفع أو ننزل الأدوات المخيفة المعلقة . والعود الوحيد الذى كنا نسمع صوته حتى هذا الوقت يتم تدعيمه بعيدان أخرى وبطارات ورقوق . ويتزايد اتزان الأجسام إلى الأمام وإلى الخلف أكثر فأكثر ، ويزيد الأوركسترا من معدله . وتتزايد الأصوات مع غضب شرس . ويختار الشيخ الذى يقف دائمًا وسط الدائرة من بين الذين يحيطون به درويشًا ليحل محله ليقود طبقة الذكر حتى ينهار هذا الدرويش من التعب فيحل محله درويش آخر . وتدق الدفوف والطارات بالأذرع ، ويصاحب صوت عجاج التقلصات العضلية فى حلقة الذكر ، ويصل التمجيد إلى أقصى درجة له . وكل هؤلاء المتدينون الذين تأخذهم دوخة يشبهون آلات تم تحريكها ولا تتوقف إلا بعد إيقاف القوة المحركة . وفى أغلب الأحيان تتنوع الحلقة بأذكار لبعض الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم والذى ينفذون ذكرهم بطريقة محببة .

ويتوقف الدراويش بعد أن يستنفذوا قوتهم ، ويتلو أحدهم صلاة يصحبها صوت موسيقى العود ، ويبدأ تمرين آخر . وهذا التمرين أقل صعوبة من السابق ، ويظل القدمان ثابتان ، ويتزن الجسم إلى اليمين وإلى اليسار . ويصاحب كل حركة تتسارع رويدًا رويدًا اسم الله منطوقًا بصوت قوى وغير مفهوم تقريبًا . وأخيرًا يلفظ صوت هو! تتبعه دعاء قصير لتعلن عن انتهاء الحفلة . ثم ينسحب الدراويش عندئذ داخل غرفهم

الخاصة حيث يمرحون ويتباسطون بعد أن يتناولوا القهوة مع بعضهم . وبعض هذه الغرف الصغيرة مغطى من الداخل بستائر من البورسلين مما يجعلها أكثر رطوبة . ويقضى هؤلاء المتدينون حياتهم فى هدوء كامل .

وأثناء الفيضانات العالية للنيل تمتلئ قاعات الحفلات العادية أحيانًا بالمياه ، فتقام حلقات الذكر حينئذ فى صالة أخرى تطل على النيل ، وحيث يوجد قبر أحد الشيوخ يعلق أعلاه مصباح يستحق الفحص فى كل تفاصيله . وجسم المصباح مصنوع من الفضة السميكة ، وهو منحوت بدقة نادرة ومزين بدهانات زرقاء وخضراء ، والزجاج مغشى بخيوط ذهبية تحيط بكتابات باللغة الفارسية . وهذا العمل الثمين هو الأجمل من هذا النوع الذى نعرفه فى القاهرة ، ويحمل تاريخ ٦٥٨هـ (من الهجرة) .

* * *



(٧١)

التوافق بين التواريخ العربية، والقبطية، والغريغورية

الشهور العربية	الأشهر القبطية
محرم ٣٠ يومًا - رجب ٣٠ يومًا	توت ٣٠ يومًا - برمهات ٣٠ يومًا
صفر ٢٩ يومًا - شعبان ٢٩ يومًا	بابة ٣٠ يومًا - برمودة ٣٠ يومًا
ربيع الأول ٣٠ يومًا - رمضان ٣٠ يومًا	هاتور ٣٠ يومًا - بشنس ٣٠ يومًا
ربيع الآخر ٢٩ يومًا - شوال ٢٩ يومًا	كيهك ٣٠ يومًا - بؤونة ٣٠ يومًا
جمادى الأولى ٣٠ يومًا - ذو القعدة ٣٠ يومًا	طوبة ٣٠ يومًا - أبيب ٣٠ يومًا
جمادى الآخرة ٢٩ يومًا- ذو الحجة ٢٩-٣٠ يومًا	أمشير ٣٠ يومًا - مسرى ٣٠ يومًا
	٥ أو ٦ أيام إضافية (نسيء)

أول محرم ١٣٠٠هـ يتفق مع ١٢ نوفمبر ١٨٨٢م ومع ٤ هاتور ١٥٩٩ قبطية .

أول محرم ١٣٠١هـ يتفق مع ٢ نوفمبر ١٨٨٣م ومع ٢٣ بابة ١٦٠٠ قبطية .

أول محرم ١٣٠٢هـ يتفق مع ٢١ أكتوبر ١٨٨٤م ومع ١٢ بابة ١٦٠١ قبطية .

أول محرم ١٣٠٣هـ يتفق مع ١٠ أكتوبر ١٨٨٥م ومع أول بابة ١٦٠٢ قبطية .

أول محرم ١٣٠٤هـ يتفق مع ٣٠ سبتمبر ١٨٨٦م ومع ٢١ توت ١٦٠٣ قبطية .

ملحوظة : تعتمد الشهور العربية على رؤية هلال القمر أول كل شهر .

أول محرم ١٣٠٥هـ يتفق مع ١٩ سبتمبر ١٨٨٧م ومع ٩ توت ١٦٠٤ قبطية .

أول محرم ١٣٠٦هـ يتفق مع ٧ سبتمبر ١٨٨٨م ومع ٣ نسىء ١٦٠٤ قبطية .

أول محرم ١٣٠٧هـ يتفق مع ٢٨ أغسطس ١٨٨٩م ومع ٢٣ مسرى ١٦٠٥ قبطية .

أول محرم ١٣٠٨هـ يتفق مع ١٧ أغسطس ١٨٩٠م ومع ١٢ مسرى ١٦٠٦ قبطية .

أول محرم ١٣٠٩هـ يتفق مع ٧ أغسطس ١٨٩١م ومع ٢ مسرى ١٦٠٧ قبطية .

أول محرم ١٣١٠هـ يتفق مع ٢٠ يوليو ١٨٩٢م ومع ٢٠ أبيب ١٦٠٨ قبطية .

أول محرم ١٣١١هـ يتفق مع ١٥ يوليو ١٨٩٣م ومع ٩ أبيب ١٦٠٩ قبطية .

* * *

أول توت ١٥٩٩ قبطية يتفق مع ٢٥ شوال ١٢٠٩هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٢م .

أول توت ١٦٠٠ قبطية يتفق مع ٩ ذو القعدة ١٣٠٠هـ ومع ١١ سبتمبر ١٨٨٣م .

أول توت ١٦٠١ قبطية يتفق مع ١٩ ذو القعدة ١٣٠١هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٤م .

أول توت ١٦٠٢ قبطية يتفق مع ٣٠ ذو القعدة ١٣٠٢هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٥م .

أول توت ١٦٠٣ قبطية يتفق مع ١١ ذو الحجة ١٣٠٣هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٦م .

أول توت ١٦٠٤ قبطية يتفق مع ٢٢ ذو الحجة ١٣٠٤هـ ومع ١١ سبتمبر ١٨٨٧م .

أول توت ١٦٠٥ قبطية يتفق مع ٤ محرم ١٣٠٦هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٨م .

أول توت ١٦٠٦ قبطية يتفق مع ١٤ محرم ١٣٠٧هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٨٨م .

أول توت ١٦٠٧ قبطية يتفق مع ٢٥ محرم ١٣٠٨هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٩٠م .

أول توت ١٦٠٨ قبطية يتفق مع ٦ صفر ١٣٠٩هـ ومع ١١ سبتمبر ١٨٩١م .

أول توت ١٦٠٩ قبطية يتفق مع ١٧ صفر ١٣١٠هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٩٢م .

أول توت ١٦١٠ قبطية يتفق مع ٢٨ صفر ١٣١١هـ ومع ١٠ سبتمبر ١٨٩٣م .

* * *



الأعيـاد العـامة

تنقسم الأعياد العامة إلى ثلاثة درجات : أولاً : الأعياد الوطنية ، ثانياً : الأعياد القبطية ، ثالثًا : الأعياد الإسلامية . ويتم الاحتفال بالأعياد الوطنية وفقًا للسنة الشمسية التى تتكون من اثنى عشر شهرًا وكل شهر من ثلاثين يومًا ، وعند نهاية كل سنة نضيف خمسة أيام فى السنوات العادية وستة أيام فى السنوات الكبيسة . والتقويم القبطى أو « الديوقلطيانى » (نسبة إلى ديوقلديانوس) يبدأ فى عام ٢٨٤م (سنة الشهداء) . وأول يوم من السنة القبطية يتطابق مع يوم ١٠ أو ١١ سبتمبر من السنة الغريغورية . وتنظم الأعياد القبطية وفقًا للتقويم الجوليانى . وتتبع الأعياد الإسلامية السنة الهجرية التى تتكون من ٣٥٤ يومًا ، وبدأ هذا الحساب فى عام ٦٢٢م .

* * *



(٧٣)

الأعياد الوطنية المصرية

الأعياد الوطنية تتبعها جميع الأديان ، ونميز من هذه الأعياد نوعين ، وهما نوع يرتبط بالمواسم ، وهو يوجد فى أغلب الأحوال منذ أزمنة الفراعنة ، ونوع آخر تم تأسيسه إجلالاً وإكبارًا لبعض المصريين سواء كانوا مسلمين أم أقباطًا .

١ - شم النسيم عيد الربيع : وتعنى التسمية العربية حرفيًا « تنفس الزفير » ويحتفل به يوم الاثنين التالى لعيد الفصح أو عيد القيامة للأقباط . وفى هذا اليوم اعتاد الناس على الذهاب إلى الريف ليتنفسوا الهواء ، وليحصلوا على ما هو ضرورى منه لكل العام ، ويرجع تأسيس هذا العيد الأكثر شعبية من جميع الأعياد - يرجع إلى زمن قديم جدًا ومنذ هذه الفترة اتبع بدقة من قبل جميع الشعوب الذين سكنوا مصر . واليوم كذلك يعنى التواجد فى المنزل أثناء شم النسيم - يعنى النكوص على كل العادات المقدسة عبر القرون . وتغزو (بالمعنى الحرفى للكلمة) جماعات المتنزهين فى هذا اليوم حدائق المطرية ، وحدائق شبرا ، وحدائق الروضة ، وحدائق الجزيرة ، وتأتى تلك الجماعات لتناول الغداء تحت الظلال الرطبة لأشجار البرتقال ، وأشجار الجميز وأشجار الورد العطر . ويحرص الناس ، وخاصة النساء - يحرصن على تعليق بصلة مداسة على الباب قبل الخروج من المنزل لطرد الشياطين والقسمة التعيسة .

وتبدأ فى اليوم التالى لشم النسيم فترة تسمى خماسين ، وقد أخذت هذا الاسم نسبة إلى الرياح الصحراوية الحارقة (ريح السموم) التى يتعرض المصريون لتأثيرها

طوال خمسين يومًا . ويلاحظ العلماء أو الفقهاء شم النسيم فى اليومين الأولين اللذين يعقبا الاعتدال الربيعى أى عند النيروز السلطانى ، أو العيد الأول للسنة الملكية الجديدة التى يتبعها التقويم الفارسى .

ليلة النقطة :

وفقًا لاعتقاد قديم للأسطورة المصرية يعتقد أن نقطة ماء معجزية (دمعة إيزيس) تسقط كل سنة على النيل فى وقت معين محسوب من قبل علماء الفلك . وهذه النقطة السماوية تخصب النيل وتحدث الفيضان السنوى .

ويقام العيد أثناء الليلة التى تسبق يوم ١١ من الشهر القبطى بؤونة (١٧ يونيو) ، ونادرًا ما يتبع هذا العيد فى الوقت الحالى (زمن كتابة هذا الكتاب) . ففى قرية «امبابة» الصغيرة التى تقع على الضفة الشرقية للنيل يعد هذا العيد مصدرًا لسعادة كبرى . لأنه يقع فى نفس فترة مولد الشيخ « الامبابى » الذى تكن له قرية امبابة تبجيلاً واحترامًا كبيرين .

يوم وفاء النيل : أو موسم « الخليج » ، وهو يوم قطع القناة أو الخليج الذى يعبر القاهرة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . والوقت المعين لقطع القناة التى تحفظ مياه النيل يعتمد من الناحية الطبيعية على ارتفاع النهر ، وبصفة عامة تقام الحفلة فيما بين يوم ٦ ويوم ١٦ أغسطس فى الصباح فى وجود الخليفة الذى يتبعه أفراد منزله المدنيين والعسكريين . وأثناء الليلة التى تسبق الحفلة تجتمع جماعة كبيرة من الناس عند القاهرة القديمة على ضفاف الخليج فى مواجهة جزيرة روضة لحضور الألعاب النارية الصاخبة المثيرة التى تعلن عن العيد الذى يقام فى اليوم التالى .

وفى حوالى الثامنة صباحًا ، وبإشارة من الخليفة تقطع القناة ، ولكن قبل القيام بضربة الفأس الأولى قذفت فى النهر كتلة من الطين تمثل تقريبًا شكلاً بشريًا وتسمى عروسة النيل (أو خطيبة النيل) . ويحكى لنا التقليد أنه فى السابق اعتاد المصريون على التضحية بشابة عذراء للنيل الإله ، ويلقى بهذه العذراء حية وسط المياه حتى يكون

الفيضان مناسبًا . ولنذكر هذه العادة الوحشية التى قيل إن عمرو بن العاص قد قام بإيقافها تقام اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) حفلة « عروس النيل » . (ويتكرر إقامة هذه الحفلة فى الزمن الحاضر) .

وأثناء اندفاع النهر فى مجراه على الأصوات الحماسية لجماعة الناس المتجمعة على ضفاف النهر وأسطول السفن الذى يغطى المياه . ويصير هذا المشهد مثيرًا للشغف عند رؤية الرجال والأطفال وهم يقفزون فى النهر كما لو كانوا يريدون التقاط ممتلكات خاصة منحها لهم الله عز وجل فى هذا اليوم ، وتدوى أصوات طلقات المدفعية المصفوفة على ضفاف النيل ، ويعلن مدفع القلعة على كل المدينة أن فيضان النيل وصل إلى ارتفاعه الطبيعى المعتاد مما ينبئ بمحصول وفير .

٢ - **مولد السيد أحمد البدوى** - يقام هذا العيد ثلاث مرات فى السنة (فى شهر يناير ، وشهر إبريل ، وشهر أغسطس) ، فى طنطا تشريفاً وأحياءً لذكرى ميلاد السيد أحمد البداوى ، وهو مسلم ولد فى « فاس » عاصمة المغرب فى عام ٥٩٦ هـ الموافق ١٢٠٠م . وعندما عاد هذا الشيخ من مكة (بالمملكة العربية السعودية) أقام هو وعائلته فى طنطا حيث مات . وينقل لنا التقليد أن الجامع الذى يحتوى على قبره تم بناؤه فوق مكان كنيسة قديمة تم بناؤها هى كذلك على أنقاض معبد مصرى قديم .

وفى نفس فترة المولد يقام المعرض الذى يؤمه أكثر من مائتى الف شخص وخاصة فى شهر أغسطس ، ويعسكر هذا الجمع الفقير فى خيام عند طرف المدينة .

بعد كل من هذه المعارض التى تقام فى طنطا يتم الأحتفال فى « دسوق » بمولد الشيخ « إبراهيم الدسوقى » ، وفى دمنهور بمولد الشيخ أبوالريش الدمنهورى مؤسس نظام الدراويش البرهامية أو الدراويش الإبراهيمية الذى مات فى سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) .

مولد البيومى :

« السيد على البيومى » هو مؤسس نظام الدراويش البيومية (فرع الأحمدية) ، وهى أحد الجمعيات الأكثر اعتباراً فى مصر . ويتم الاحتفال بالمولد فى فترة « علو النيل » أى فى النصف الأول من شهر أكتوبر على طريق العباسية أبعد قليلاً عن باب الحسينيه .

مولد العفيفى :

بعد عيد السيد البيومى مباشرة يأتى عيد العفيفى الذى يقام فى الصحراء شرق مقابر السلاطين المماليك حيث يوجد قبر العفيفى مؤسس لطائفه من الدراويش تحمل هذا الاسم . ويتجمع أثناء هذا العيد عدد كبير من البدو والفلاحين تنصب خيامهم وسط الرمال بالقرب من المقابر على مقربة من الصخور الحادة (العمودية) « بجبل المقطم » ولها أثر جميل خاصة فى الليل .

مولد الست دميانة :

القديسة دميانه هى إحدى القديسات العظيمات للكنيسة القبطية . ويُحتفل بالعيد الذى تأسس تشريفاً لها يوم ١٢ بشنس (١٩ مايو) فى الدير المكرس لها ، والذى يحمل أسمها فى شمال شرق الدلتا . ويتم الذهاب إلى هذا الدير من المنصورة بأخذ مركب حتى « كيلوه » ، وتقطع باقى المسافة على ظهر حصان أو حمار ، ويتبع هذا الدير إيبارشية مطرانية الأقباط بالقدس . كما يحتوى هذا الدير على غرفة سرية لها خاصية كشف بعض الظهورات التى لها تأثير كبير على نفسية الشعب ، ويحدث ذلك أثناء المولد . وكثير من المعجزات يتم انتسابها للقديسة من بينها شفاء من تمتلكهم الأرواح النجسة . والحج لدير الست دميانه ليس له خاصية دينية مجردة بل تمارس خلاله الأعمال التجارية . ويقام المولد والمعرض فى نفس الوقت لمدة ثمانية أيام . كما يقام حج آقل يقل كثيراً فى الأهمية عن الحج الأول يقام يوم ١٢ طوبة (١٩ يناير) .





(٧٤)

الأعيـاد القبطيـة

فى كل الأعيـاد الدينية الكبـرى القـبطيـة أو الاسـلاميـة اعتـاد الناس على لبس الملابس الجديدة ، وتوزيع العطايا السخية على الفقراء ، وتقديم الهدايا للخدم والعبيد والقيـام بزيارة المقابر . وفى مصر تكتسب الأعياد الدينية الكبرى صفة العمـومية ، ولا نستطيع أن نفهم بطريقة آخرى أن الغنى والفقير لهما حق متساو فى الاستمتاع العام بهذه الأعياد ولكل منها نصيب فيها . فالفقير يضمن عند اقتراب بعض الأعياد الرسمية أنه لن يكون منسيًا . فهو يحصل على نصيبه من « حق الفقراء » . ولكن هذا الحق المخصص للفقراء ليس منظمًا بالقانون كما هو الحال بالنسبة للأوروبيين . فلقد وجد فى كل زمان بدون إجبار مع هذه الروح الخيرة الطبيعية التى أصبحت مثلاً يحتذى، والتى ميزت دائمًا الخاصية المصرية . ولا تتضمن الهبات دائمًا النقود أو الملابس ، بل توزع كذلك (أرباع) الخراف الحية على العائلات المحتاجة ، وفى أغلب الأحيان تقام الموائد فى أحواش الأغنياء ، وتمتلئ هذه الموائد بالأطعمة الشهية المعدة للفقراء .

عيد الميلاد :يحتفل بعيد الميلاد القبطى احتفالاً عظيمًا يوم ٢٩ كيهك (الموافق ٦، ٧ يناير) وتتبع نفس المراسم التى يتبعها الكاثوليك .

عيد الغطاس : يذكرنا بمعمودية المسيح يوم ١١ طوبة (١٨ أو ١٩ يناير) وتسمى الليلة التى تسبق العيد بليلة « الغطاس » وكانت فى السابق معرضًا لحفلات كبرى . فكان الأقباط يجتمعون فى جماعات على ضفاف النيل ، ويقوم أحد الكهنة برش الماء المبارك على النهر ، وفى الحال يغطس الأوفياء (المؤمنون) فى النهر لكى يتطهروا .

عيد البشارة : يوم ٢٩ برمهات (الموافق ٦ إبريل) .

عيد الشعانين : أو عيد السعف ، وهو أحد السعف الذى قبل عيد القيامة أو عيد الفصح بثمانية أيام . ويرغب الكثيرون فى زيارة كاتدرائية الأقباط بالقرب من شارع « كلوت بيه » فى هذا اليوم . فأثناء مراسم الاحتفال يهتم الأوفياء أو المؤمنون بضفر فروع أو سعف النخيل ويشكلون منه رسومات مثيرة للشغف .

عيد القيامة : ويسمى العيد الكبير أو يوم الفصح ، وتقام مراسم الاحتفال فى ليلة السبت وقبل صباح الأحد .

عيد الصعود .

عيد العنصرة : ويسمى كذلك عيد حلول الروح القدس على التلاميذ أو عيد الخماسين .

وتضاف إلى هذه الأعياد أعياد أخرى أقل أهمية نميز من بينها عيد الصليب يوم ١٧ توت (٢٦ أو ٢٧ سبتمبر) ، والخميس المقدس أو خميس العهد ، وعيد الرسل يوم ٥ أبيب (١١ يوليو) .

ويصوم الأقباط صيامًا كثيرًا ، ويدوم صومهم الكبير الذى يسبق عيد القيامة أو عيد الفصح - يدوم أربعين يومًا ، ويدوم أحيانًا فى بعض الإيبراشيات خمس وخمسون يومًا . ولا يقطع هذا الصوم سوى بالأعياد التى تقع فى وسطه . والأصوام الأخرى هى صيام الميلاد خلال الثمانى والعشرين يومًا التى تسبق عيد الميلاد ، وكذلك صيام الغطاس الذى يسمى بصفة عامة بالبرامون ، ويدوم من يوم إلى ثلاثة أيام ، وصيام الرسل منذ عيد الصعود وحتى يوم ٥ أبيب (١١ يوليو) (ويصام حاليًا من عيد العنصرة حتى ٥ أبيب) . وصيام العذراء خمسة عشر يومًا قبل صعود العذراء مريم إلى السماء . كما يصوم الأقباط كل يوم أربع وكل يوم جمعة باستثناء فترة الخماسين - أى الفترة من عيد الفصح أو القيامة حتى عيد العنصرة . والصيام بالنسبة للأقباط يعنى مجرد تناول القهوة ، والخبز والخضروات المطبوخة بالزيت (مع الانقطاع عن الطعام لفترة معينة) .





(٧٥)

الأعياد الإسلامية

ليلة « عاشورا » : فى الليلة من ٩ حتى ١٠ محرم - وقد أسس هذه الاحتفالية الإيرانيون من طائفة (مذهب) الشيعة تذكارًا لموت الحسين بن على وحفيد النبى (ﷺ) وقد قتله « اليزيد بن معاوية » فى معركة « كربلاء » فى ٦١ من الهجرة (٦٨٢م) .

فبعد صلاة المغرب بساعتين - أى بعد غروب الشمس بساعة ونصف يتجمع الإيرانيون فى حوش يسمى « حوش عُطية » بحى الجمالية ، ويسيرون فى احتفالية أمام مسجد الحسين حيث يتم الاحتفاظ براس « الحسين » ، ثم يعبرون جزءًا من شارع الموسكى الجديد ، ويتوقفون عند « الحمزاوى » فى منزل معد لهذه المناسبة .

وسارت جماعة من الإيرانيين الذين يرتدون البدل الغنية الفخمة - سارت على رأس المسيرة التى كانت تتكون فقط من المسلمين الذين كانوا يتبعون الطائفة الشيعية ، كما كان يتبعهم بعض الرجال الذين كانوا يحملون الرايات والمصابيح ، ثم يأتى « فرس أبيض » مسرج بسرج أبيض ، ويجلس عليه فتى صغير مسلح بسيف حاد . ويلطخ الدم كل من رأس الفتى وسرج الفرس . ويتبع الفرس الأول مباشرة فرس آخر رمادى اللون مزين بطريقة سخية لكن بلا فارس . ويمثل الفرس الأبيض فرس الحسين ويتبعه بعض الدراويش الذين يولولون ويظهرون كل علامات الألم العنيف . ويتبع هؤلاء الدراويش بعض مجموعات من المتعصبين الذين يرتدون ثوبًا أبيض أو مجرد كلسون (كيلوت) ، والبعض يمسك سيفًا مقوسًا يتجه حده القاطع تجاه الوجه ، وجلد رؤوسهم مقطع ، والدم ينساب ، ويبدو الوجه كما لو كان مغطى بقناع من الدم المجمد ، والآخرون

يجرحون أنفسهم بمساعدة أدوات حادة يغرزونها فى أجسامهم ، ويقرعون صدورهم بأياديهم وهى منبسطة ، أو يضربون أنفسهم بسياط معدنية تزود فى بعض الأحيان بأطراف مدببة من الحديد وفقًا لحماس (الصابرين) . ويمثل هؤلاء الأشخاص أقارب وأصدقاء الحسين الذين سقطوا وهم يقاتلون بجانبه . وفى كل لحظة نسمع كلاً من اسم الحسين واسم أخيه حسن الذى مات بالسم نسمع هذين الاسمين مع أصوات الألم .

وتصل المسيرة هكذا إلى منزل الحمزاوى ، وتتوغل فى الحوش حيث ينتظر العديد من الأشخاص ، وهم يتلون بعض القراءات التى تذكر بالقصة الدموية لكربلاء . فهنا تتجدد المشاهد البربرية . وعند علامة معينة يسود الصمت ، وتتلى قصة موت أو مصرع أبناء « على » بواسطة التالى بصوت عالٍ ومؤثر . والحاضرون الذين يتأثرون بعمق يصدرون أصواتًا تعبر عن الألم . فنشاهد الدموع وهى تسيل على كل الوجوه تقريبًا . وبمرور الوقت تصير الولولة حادة وعنيفة لدرجة أننا نجبر على « تعليق الحفلة » . وللانتهاء من هذا المشهد المثير يؤتى بخروفين يمثل أحدهما « اليزيد » . ويرتسم السخط على كل الوجوه . وغضب الشعب لا يعرف حدودًا ، فيندفع الناس تجاه قاتل الحسين ويقتلوه بالضرب بالملاكمة (أو التلكيم) . ولا يؤيد السنة أو المسلمون المستقيمون هذا العيد البربرى أو الوحشى ، ولا يعترفون بأى حفلة متعصبة من هذا النوع ، فهم ينظرون إليها على أنها تناقض مبادئ الدين الإسلامى .

« يوم عاشوراء » : ويعنى اليوم العاشر من محرم ، وينظر إلى هذا اليوم باحترام خاص . فيتجمع المسلمون من الجنسين (الرجال والنساء) فى جماعات عند جامع الحسين لأداء الصلوات تشريفًا لأبناء « على » وخاصة الحسين . وتستغل الأيام العشرة الأولى من الشهر فى الاستعداد لهذا العيد عن طريق القيام بأعمال خيرية . وفى هذه الفترة تشترى ربات البيوت اللاتى لديهن ثقة كبيرة فى التبرك بالأشياء المعدنية المقدسة- تشترى أشياءً معدنية لتعلقها فى رقبة أو أذرع أطفالهن .

ليلة الحج : أو العودة من الحج من مكة ، ومن الخيمة المقدسة التى تسمى «بالمحمل» ويقام هذا العيد فى العادة فى حوالى نهاية شهر « صفر » الهجرى أو فى الأيام الأولى من شهر « ربيع الأول » الهجرى . ويجتمع الحجاج فى حدائق العباسية ، ثم يتوجهون إلى القلعة ويعبرون المدينة من الشمال إلى الجنوب ، مع نفس مراسم الاحتفالات التى جرت يوم رحيل القافلة (انظر « المحمل » فيما بعد) .

مولد النبى : أو عيد ميلاد النبى (ﷺ) لقد أسس هذا العيد السلطان « مراد ابن سليم » فى ١٥٨٤م ، ويقام حاليًا (وقت كتابة هذا الكتاب) فى العباسية ، ويبدأ هذا العيد يوم ٤ ربيع الأول ، ويوم ١١ من نفس الشهر (ربيع أول) ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر حيث تتزاحم جماعة كبيرة من محبى الاستطلاع لحضور حفلة « الدوسة » ، فيمر شيخ الدراويش « السعدية » راكبًا على حصان فوق أجساد مائتى أو ثلثمائة منبسطين فوق الأرض فى حضور الجمعيات الدينية المختلفة . ولا يمكن أن نحصل على فكرة عن هذا المشهد إلا عند رؤيته بالعين . وعند نهاية هذا المشهد البربرى ، ينسحب الدراويش السعدية الذين يعدون الحواة المحدثين فى مصر ينسحبون إلى خيمة مجاورة لخيمة الشيخ البكرى ، ويمارسون كل أعمال الحواة مع الثعابين . ولا يؤيد المسلمون العقلاء حفلة « الدوسة » والأعمال الغريبة التى تعد السمات الرئيسية لخصائص مولد النبى (ﷺ) ، كما يدين هذه الأعمال كذلك الأئمة وعلماء الدين الإسلامى . ومنعت أو حرمت حفلة الدوسة التى كانت تقام فى حى بولاق، منعت بأمر من الخليفة فى ١٨٨١م .

والليلة من ١١ إلى ١٢ تسمى ليلة المبارك أو الليلة المباركة مليئة بالممارسات التى تجذب إليها الأجانب بصفة خاصة . فتغطى مساحة تقدر بحوالى أربعين هكتارًا بالقرب من باب الحسينية تغطى بالخيام البديعة ، وكثير من هذه الخيام يغطى بالحرير ويوضع داخله الأثاث . وبعض هذه الخيام مخصص لحفلات الذكر ، والبعض الآخر يخصص للزوار المعروفين وغير المعروفين الذين يأتون ليستريحوا لبعض الوقت داخل هذه الخيام ويقدم لهم المسئولون القهوة والسجائر بسخاء .

مولد الحسين : وهو عيد ميلاد الحسين بن على وأحد أحفاد النبى (ﷺ) من وجهة النظر الدينية ، ويعد هذا العيد بنفس أهمية عيد مولد النبى (ﷺ) تقريبًا . ويدوم هذا العيد خمسة عشر يومًا من يوم ٨ حتى ٢٢ « ربيع الآخر » . وفى نفس الفترة يقام مولد السلطان الصالح (نجم الدين أيوب ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) وأثناء فترة هذين العيدين تضاء الشوارع التى تقع بالقرب من بازار « خان الخليلى » طوال الليل .

مولد الرفاعى : السيد أحمد الرفاعى ابن أخت « عبد القادر الجيلانى » هو أحد كبار الدعاة فى الإسلام ، وهو مؤسس نظام الدراويش الذين أعطاهم اسمه . ومات فى بغداد فى عام ٥٧٨هـ (١١٨٢م) . والجامع الذى يحمل اسمه يتم بناؤه فى الوقت الحالى (وقت كتابة هذا الكتاب) فى مواجهة جامع السلطان حسن بالقرب من القلعة .

ويحتفل « بمولد الرفاعى » فيما بين يوم ١٤ ويوم ٢٦ جمادى الآخرة ، وهو يعد العيد الأكثر تمييزًا من كل أعياد التقويم الإسلامى عن طريق المشاهد المميزة له . وتعبر حلقة « الرفاعية » التى لا تنتهى المدينة مرورًا من تحت باب زويلة (فى حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا) ، وتتجه من هذا المكان فى اتجاه مدافن الإمام الشافعى مرورًا أمام جامع الحسين وعن طريق باب « القرافة » ، وتقام خارج هذا الباب العديد من الخيام بين القلعة وقبر الإمام .

ويتميز الدراويش الرفاعيون بأعلامهم وعممهم السوداء . وتنقسم المسيرة إلى جماعات تسبقهم أعلام ثقيلة يتزاحم تحتها مغنون متدينون وموسيقيون . وكانت جماعة المريدين كبيرة . فالبعض منهم كان أنصاف عراة ويثقب أجسامهم قضبان من حديد أو يحرثون صدورهم بأسلحة قصيرة مدببة ، والآخرون يمزقون الثعابين الحية بأسنانهم ويمضغون الزجاج وجمرات الفحم ، وآخرون يتلاعبون كالحواة مع آلات حادة ويجرحون أنفسهم بسياط مصنوعة من سلاسل من نحاس مزودة بأطراف مدببة حادة ، وفى بعض الجماعات يحمل بعض الفتيان « شمعدان » على صدورهم معلق بجسمهم ، وذلك لإضفاء المزيد من الإثارة على العمل ، كما يوجد أطفال عبرت أصداغهم وأذرعهم إبر

صغيرة من الحديد مزينة بالورود عند أطرافها . ويظهر عن بعد بعض الدراويش المسلحين بالسيوف ويصيحون صيحات الفرح ، ويتظاهرون بفتح بطونهم وقطع رؤوسهم، وعندما يصلون إلى قمة النشوة يلقون بأنفسهم على الأرض فوق ظهورهم ، ويضعون سيوفهم بالعرض على صدورهم ، ويكون الحد القاطع فوق الجلد ، وفى هذا الوضع المؤلم يسير شيخ مسنود من رفقائه من الدراويش يسير بقدم ثابت فوق ظهر السيوف . وعندما تصل المسيرة فوق مكان الاحتفال تتشتت ، ويدخل الدراويش فى الخيام حيث يمارسون الذكر ، وبعض العبادات الأخرى ذات الأثر الكبير .

وسوف يتهمنا الأشخاص الذين لم يحضروا مطلقًا مولد الرفاعى بالمبالغة فى القصة التى انتهينا من حكيها أو سرد وقائعها، ومع ذلك فنحن لم نسرد الحقيقة كاملة. وقد رأينا عدة مرات هؤلاء الذين صاروا فريسة لتعصب أعمى لا يبرره شىء يسقطون فى الطريق من عنف الضربات التى ضربوا أنفسهم بها . ونتساءل : لماذا يسمح فى القاهرة بإقامة هذا النوع من الحفلات فى أيامنا هذه (زمن كتابة هذا الكتاب) . فمن الصعب جدًا فى المشرق أن نسئ إلى العادات التى اكتسبت بمرور الوقت . فرويدًا رويدًا سوف تزول هذه العادات من تلقاء نفسها . واليوم قد ابتعد الكثير من طبقات الشعب المصرى عن هذا النوع من الأعمال الوحشية ، ويلاحظ دائمًا أن الأجانب الذين يأتون من إيران أو من الجزيرة العربية هم أول من مارس هذه المشاهد التى تحدثنا عنها .

مولد السيدة نفيسة : يقام مولد « السيدة نفيسة » عند نهاية شهر جمادى الآخر وهى ابنة حفيد الحسن ابن على . ويحتفل بهذا العيد بالقرب من جامع السيدة (نفيسة) جنوب شرق المدينة . ويكرس يوم الجمعة الأخير من الشهر بصفة خاصة للصلوات والأفراح العامة .

مولد السيدة زينب : كانت السيدة زينب ابنة الإمام على وفاطمة ، ولذلك كانت حفيدة النبى (ﷺ) . ويبدأ العيد الذى تأسس تشريفًا لها فى الأيام الأولى من شهر رجب ، واليوم الرئيسى هو يوم الأربعاء الأكثر قربًا من يوم ١٥ من الشهر المقدس .

ليلة الإسراء والمعراج : وهو العيد الذى يذكرنا بالزيارة الإعجازية (التى تمت بمعجزة) للنبى (ﷺ) فى السماء ، بعد رحلته الليلية من مكة إلى القدس . ويقام العيد بمشاركة رسمية كبرى يشارك فيها كل المسلمين فى ليلة ٢٦ إلى ٢٧ رجب فوق ميدان عابدين . وتبدأ كل من الصلوات والذكر فى الساعة التاسعة . وبعد منتصف الليل يقرأ أحد الشيوخ الذى يحيط به علماء القانون يقرأ جزءًا من (القرآن) خاصًا بهذه المعجزة .

ويتوافق مولد أبو صالح الطشطوشى مع ليلة الإسراء والمعراج . ويقام العيد بالقرب من قبر الشيخ فى مكان مجاور « لباب الشعرية » فى شمال القاهرة .

ليلة النصف من شعبان : وفقًا لاعتقاد قديم يوجد فى ركن من الجنة شجرة تسمى « شجرة المنتهى » كتب على أوراقها اسم كل مؤمن . وفى الليلة من ١٤ إلى ١٥ من شهر شعبان تعانى هذه الشجرة من هزات عنيفة ، ويتبع هذه الهزات سقوط جزء من أوراق هذه الشجرة إلى الأرض . وكل ورقة تنفصل عن الشجرة تمثل شخصًا يقدر له أن يموت قبل حلول الليلة التالية . وتتلى صلوات خاصة للتضرع إلى السماء ، ومنذ غروب الشمس تغزو جماعات الناس المساجد . وتضاء منارات المساجد حتى صباح اليوم التالى .

مولد الإمام الشافعى : فى حوالى النصف من شعبان يوم جمعة .

مولد السلطان الحنفى : فى الأيام الأخيرة من شهر شعبان .

رمضان : يتمسك كل مسلم صالح بصوم شهر رمضان تمسكًا صارمًا ، وعليه أن يمتنع عن الشرب والأكل والتدخين من الفجر حتى غروب الشمس . طوال أيام الشهر الثلاثين . ويبدأ الصوم بعد رؤية الهلال الجديد مباشرة فى ليلة الرؤيا بواسطة شخصين على الأقل يعلنان هذه الرؤيا للمفتى . ويعلن هذا المفتى فى الحال صيام شهر رمضان . وتتشكل جماعات تجوب شوارع المدينة وهى تصيح « صيام » ، « صيام » .

وليالى رمضان مبهجة جدًا ، وتشع كل منارات المساجد بالضوء حتى الرواق الأخير بها . وإذا نظرنا إلى القاهرة من أسطح المنازل العالية نجد أنها تمثل منظرًا بديعًا عجيبًا . وعبر الآلاف من الأضواء التى تسطع فى الفضاء إلى أبعد ما يمكن أن يمتد إليه النظر يمكننا أن نميز المنارات ذات الأبعاد الكبيرة جدًا كظلال مشكوك فيها ، والتى يبدو أنها تثقب قوس الأفق ذى الزرقة الغامقة الذى يغطيها . وتبدو المدينة ككتلة لانهائية أو مترامية الأطراف سوداء اللون تخطها خطوط مشتعلة يختفى فيها صدى صامت ، وفى بعض الأحيان تزدحم الشوارع كما فى ساعة الذروة فى النهار ، ويمتزج صوت الغناء والموسيقى مع أصوات التجار الجائلين وقهقهة الضحكات التى تصدر من القهاوى حيث يجمع القصاصون الشعبيون العديد من المستمعين . وعلى فترات مختلفة يسمع صوت المدفع لينبه بأنه قد حان الوقت لتناول بعض الأطعمة وأن الفجر يقترب . وتعلن ضربة المدفع الأخيرة عن بداية يوم جديد ، فيخبو ضوء النجوم ويذهب القمر ، ويحين وقت الراحة ، وبالنسبة للأوفياء (المسلمين) يبدأ النهار مع الأشعة الأولى للشمس المشرقة . أما الشخص العادى فيفكر فى التركيز على اهتماماته العادية .

والصوم الشخصى لا يعد الخاصية الوحيدة لشهر رمضان ، فتعطى الجمعيات الدينية مجتمعة أو كل جمعية بصفة خاصة تعطى مثل الصلاة المرتبطة بالصوم . ويفتح حوش منزل الشيخ البكرى لكل وافد ، وتقام حلقات الذكر طوال الليل ، ويعطى أحسن المنشدين مواعيد فى هذا الحوش . وفى الليالى التى تسبق يوم ١٣ و ١٤ من شهر رمضان يحتفل بالقلعة فى مسجد محمد على بصلاة رسمية تدوم من ثمان إلى عشر ساعات ، وتقام هذه الحلقة تشريفًا لرئيس العائلة المالكة .

وفى الليلة من ٢٦ إلى ٢٧ ليلة القدر تذكرنا بالفترة التى أرسل الله فيها القرآن فى أقاليم السماء الداخلية حيث كان الملاك جبرايل يوحيه إلى النبى (ﷺ) طول ثلاثة وعشرين عامًا . وأثناء « ليلة القدر » تظل أبواب السماء مفتوحة ، وتكون الصلوات مؤثرة بصفة خاصة . والسورة ٩٧ من القرآن يقول ما معناه : « فى الحقيقة إنا أرسلنا القرآن فى (ليلة القدر) ، وأى شىء يمكن أن يجعلك تفهم كم هى ممتازة هذه الليلة ! ...

(ليلة القدر) خير من ألف ليلة ، لأن الملائكة يرسلون من قبل خالقهم فى هذه الليلة برسالة خاصة . إنه السلام حتى بداية الصباح » . وتقام الاحتفالات الدينية أثناء هذه الليلة . فيجتمع الدراويش وكثير من الجماعات الدينية الأخرى فى هذه المناسبة . ويضاء المسجد إضاءة ساطعة . والتأثير الحادث بواسطة هذا العيد خلاب يجذب الانتباه . وتقام احتفالات مشابهة تقريبًا فى مسجد « الحسين » .

العيد الصغير : وباللغة التركية « رمضان بليرام » ويتبع هذا العيد صوم رمضان مباشرة ، ويحتفل به أثناء الأيام الثلاثة الأولى من شهر « شوال » . وهى فترة الزيارات ، وخاصة بالنسبة للنساء ، ويذهب موظفو الحكومة والقناصل (جمع قنصل أو سفير) يذهبون إلى الخليفة (الخديوى) ليقدموا التحية والإكرام . ويقام العيد الشعبى خارجًا عن باب النصر وباب القرافة . ويقول كل مواطن للآخر : « كل سنة وانت طيب » .

الكسوة : الكسوة هى السجادة التى تغطى الكعبة بمكة المكرمة (المملكة السعودية) من الخارج . وهى تصنع من الكشمير الأسود المزركش أو المزين بكثير من الخيوط الذهبية أو الكتابات المذهبة ، وتصنع كل عام فى القاهرة لكى ترسل إلى مكة . وبعد العيد الصغير ببضعة أيام يتم نقلها باحتفال كبير من القلعة إلى مسجد « الحسين » بقطع منفصلة موضوعة على مركبة . ثم تحاك بعد ذلك وتزين بحزام عريض مزركش ، ثم ترسل إلى العباسية فى انتظار رحيل الحجاج إلى المدينة المقدسة .

المحمل : تقام حفلة المحمل يوم ٢٢ أو يوم ٢٣ من شهر شوال ، وهو يوم رحيل قافلة الحج إلى مكة . والمحمل عبارة عن قاعدة مربعة من الخشب ينتهى الجزء الخارجى ذو الشكل الهرمى بقبة صغيرة من الفضة المغشاة بطبقة من الذهب يعلوها « هلال » من نفس المعدن (الفضة المغطاة بطبقة من المذهب) وتوضع هذه القاعدة على جمل وتغطى بقماش أحمر أو أخضر غالى الثمن . ويزين القماش بزينات من الذهب . ولا يعد المحمل سوى علامة على التجمع بالنسبة للحجاج ، وهو يمثل المقعد الخاص « لشجرة الدر » ملكة مصر (٦٤٨هـ - ١٢٥٠م) عندما أدت فريضة الحج إلى مكة . ولا يجب أن نخلط بين سجادة المحمل المزينة بالذهب مع الكسوة الخاصة

بالكعبة التى تكبرها بعشر مرات . فسجادة المحمل تتغير عندما يبهت لونها أو عندما يجلس خليفة جديد على كرسى الخلافة . أما كسوة الكعبة فتتجدد كل سنة ، وتحل الكسوة الجديدة محل تلك التى أرسلت فى العام السابق التى قطعت إلى أجزاء يتم توزيعها لتزين المقابر الخاصة ، أو يتم الاحتفاظ بها للتبرك بها (يحتفظ بجزء واحد فقط) .

وتتحرك مسيرة حفلة المحمل من ميدان محمد على ، ويعطى الخليفة العلامة (الإشارة) بنفسه وتكرر العلامة بواسطة مدفع القلعة . وتسير إحدى مجموعات المشاة مع آلاتها الموسيقية على رأس المسيرة ، ويسير أمامها بعض الضباط الفرسان مما يفتح الطريق عبر عدد لانهائى من الأفراد ، ثم تأتى بعد ذلك مختلف الجماعات الدينية بأعلامها ، ومغنييها وموسيقييها . وتتقدم المسيرة التى لا تنتهى ببطء وسط الشوارع الضيقة للمدينة القديمة التى تعبرها من الجنوب إلى الشمال . وتزدحم المسيرة من كل جانب ، وتختنق الشبابيك ، والشرفات ، والأسطح من كثرة محبى الاستطلاع . وجماعات الحجاج التى يفصلها جنود راكبون على الخيل (فرسان) تتم تحيتها عند مرورها بالعديد من الزغاريد التى تطلقها النساء المختفيات خلف المشربيات . فهذه المسيرات الحادة الخانقة التى نقابلها فى كل الحفلات تعد فى هذه المناسبة تعبيرًا عن أمنيات رحلة سعيدة . وكلما تتابعت الجماعات ازدادت أهمية المشهد . وفى هذه المسيرة يغنى الفقهاء إعلان الإيمان بتصفيق الأيادى لضبط القياس ، وهنا يتلو الدراويش آيات من القرآن أثناء قيام الآخرين بـ « الذكر » التى ينظم وقعها من خلال صوت الباز ، وهى نوع من الرقوق الصغيرة يعزف عليها بواسطة شريط طويل من الجلد . وهذا الشيخ العجوز الذى يلبس بطريقة غريبة مضحكة ويتلاشى تحت الأعلام الطويلة التى تأخذ شكل الشعلات ذات الكتابات البيضاء والحمراء ، ويسمى كذلك بسبب أنه يحمل بالطة (فاس) صغيرة ثقيلة على الكتف ، وهو يأتى من بعيد جدًا كل عام ليؤدى فريضة الحج المقدس ، وهو ولى مبجل جدًا ، ومؤمن متحمس يشرف روحيًا على القافلة . وهذا الشيخ الآخر النصف عارى الذى يضبط جسمه على جمل وهو يحنى رأسه العارى

المثقل بثقل أفكاره وبشعور بالإيمان العميق ، إنه شيخ الجمل الذى يصطحب كذلك كل عام الكسوة المقدسة ووجوده وسط الحجاج يوحى إليهم ببعض الثقة ، ويعطى الشجاعة من جديد لهؤلاء الذين يضعفون أثناء مراحل المسيرة الشاقة . ويتبع الشيخ الجمل المحمل مباشرة ، ويأتى وراءه سبعة أو ثمانية شيوخ آخرين راكبين على جمال ، ويضربون على طبول ضربات مزدوجة والبعض يحمل قططًا ، وسمكًا جافًا مثبتًا فى شباك ، أو أى نموذج آخر له معنى معين فى جماعتهم .

وعند الخروج من باب النصر تتوقف القافلة عند العباسية بالقرب من جامع المحمدية حيث يجتمع العديد من الحجاج الذين لم يشاركوا فى حفلة « المحمل » . وفى اليوم الثالث توضع الكسوة بكل عناية فى مكانها ، وتسير المسيرة حتى « بركة الحجاج » بعد المطرية بقليل بالقرب من قرية « كفر الجاموس » عند حدود الصحراء . وفى هذا المكان ينضم للقافلة مسافرون جدد ، وتسير القافلة بصفة نهائية فى اتجاه السويس عبر الصحراء ، ومن السويس تتجه نحو مكة عبر طريق « وادى التيه » و « ممر عقبة » ووادى النار . والجزء الأكبر من الحجاج يقوم بالرحلة سيرًا على الأقدام ، وتوضع النساء فى مقاعد تسمى « تختاروان » يحملها جمال ، أو فى مقعد بسيط « هودج » . وعند السويس توضع مراكب بخارية تحت طلب المسافرين الذين لا يريدون أن يتبعوا طريق الصحراء .

وعند الوصول إلى قرية رابغ الصغيرة بالقرب من مكة ، وعلى بعد ساعة زمن من البحر الأحمر ، يؤدى الحجاج الواجب الأول أو الفريضة الأولى من الرحلة وتسمى الإحرام ، ففى الصباح الباكر يحلقون الرأس واللحية ويقصون الشارب حتى بداية فتحة الشفايف ، ثم ينتفون شعر كل الجسم ، وبعد أن يأخذوا حمامًا يغطون الجسم بقطعتين من القطن بدون قص ، تعقد إحداها حول الرئتين ثم تنزل الأخرى حتى القدمين . ولا يسمح منذ هذه اللحظة لأى حاج بقتل أى حيوان أو أى حشرة أو حتى بأن يحك نفسه ويجب أن يفكر كل حاج فى الله باستمرار ، وأن يبدو رقيقًا ، محبًا وسخيًا تجاه كل رفقائه الحجاج ،ويوزع النقود على الفقراء . وحتى يدخل فى المدينة المقدسة يتبع

الحاج فى العادة طريقًا بين جبلين تؤدى إلى « معلا » (قبر) ، وفى هذا المكان يزور قبر السيدة آمنة أم النبى (ﷺ) الذى يقع فى نهاية الطريق على اليمين ، وفى الجهة المقابلة يوجد قبر السيدة « خديجة » الزوجة الأولى للنبى (ﷺ) ثم يتوغل بعد ذلك بعشر دقائق فى المدينة ثم يصل إلى المسجد الحرام ، وهو الوحيد الذى يوجد بمكة عند المرور تحت « باب السلام » .

العيد الكبير : ويسمى باللغة التركية « قربان بايرام » أو « عيد الضحية » ويقام هذا العيد أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ذو الحجة ، ويناسب اليوم الذى يتوجه فيه حجاج مكة إلى منى ويذبحون الخراف . وقد تأسس هذا العيد للتذكير بتضحية إبراهيم . ويعد « القربان بايرام » « اليوم الأكبر فى الاستقبالات الرسمية » . وهو أهم من كل الأعياد الدينية الإسلامية .





(٧٦)

بـولاق

عند غرب القاهرة تمـتد على الضفة الغـربية للنيل مدينـة صغيرة تسـمى بولاق وتكون اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) تقريبًا جزءًا متكاملاً مع العاصمة التى ترتبط بهـا من الشـمـال ، ومن الجنوب بمنشـآت عـديدة تؤسـس على الأرض كل يـوم من الناحية الجنوبية عن طريق قصور ، ومن ناحية أخرى عن طريق مساكن متواضعة . ويسمح لها وضعها غير العادى بالاتصال المباشر مع البحر الأبيض المتوسط عبر النهر ، ومع قناة السويس البحرية عبر قنـاة الإسماعيلية . وبولاق هو ميناء القاهـرة الذى يهتم بكل التجارة البحرية بالدلتا ، وكذلك ميناء « القاهرة القديمة » الذى يقـع على بعد ٥ كم ونصف من مصدر المياه أو من بولاق يتعامل هذا الميناء مع الشئون البحرية لصعيد مصر . وبولاق هى كذلك الضاحية الصناعية للقاهرة ، فيما عدا المصانع الخاصة العديدة مثل مصنع الغاز ، والطواحين الفرنسية « داربلى » إلخ ... تجتمـع فى بولاق كثير من المصانع التى تمتلكها الحكومة . ونلاحظ فى بولاق مـدرسـة « المهن والفنون » (الفنون التطبيـقـيـة) التى يديرها السيـد / جينيـون بيه (الخلف المناسب للسيد/ «لانجلوا بيـه ») ويتخرج من هذه المدرسة العمال المهرة الذين « يعهد إليهم بأعمـال الميكانيكا التى كان يعـهد بها من قبل إلى أيادى الميكانيكيـين الأوروبيين ، ثم ورش السكة الحديد البديعـة التى تطورت سريعًا منذ فترة وجيزة . ويوجد ببـولاق كذلك مصنع كبير للورق ، ومطبعة قوميـة تأسست منذ ١٨٢٢م والتى يعمل القسم

الأوروبى منها بنفس كفاءة المطابع الكبرى من مثل هذا النوع فى أوروبا بفضل العناية النشطة لمديرها الحكيم السيد موريس عميد العاملين فى مجال الطباعة بمصر. وبجانب هذه المنشآت الصناعية ، يوجد أثر فريد على العالم لا ينسى جميع السائحين أن يزوره ، ونريد أن نتحدث عن هذا المتحف .

* * *



متحف بولاق

أسس مربيت باشا متحف بولاق للآثار المصرية القديمة للحفاظ على المجموعات الأثرية الثمينة التى تأتى من الحفريات المنفذة فى كل مصر ، ولخدمة الدراسة العملية لعلم المصريات . وتعد مصر أغنى بلاد العالم من ناحية الآثار القديمة ، ويعد هذا المتحف غير كامل ، فما زالت ضفاف النيل تخفى تحت رمالها أكثر من أثر يجب أن يلقى الضوء على كثير من نقاط التاريخ التى مازالت مظلمة حتى الآن .

ومات « مربيت باشا » بعد أن أصنته أعماله فى نهاية عام ١٨٨٠م وتم استدعاء السيد / ماسبيرو أحد أساتذة علم المصريات لاستكمال هذا العمل الثقيل . وفى الواقع هذا العمل ثقيل وغير معترف به فى أغلب الأحيان أو غير منتج . وتتطلب الصعوبات التى يجب التغلب عليها شجاعة عند كل تجربة ، وفى أغلب الأحيان تبيد هذه الصعاب قوى الرجل الأكثر صلابة . فطبيعة أعمال علم المصريات هى التجول فى الصحراء تحت أشعة الشمس الحارقة ، وسبر أغوار مساحات الأراضى عند كل خطوة ، ومهاجمة جرانيت الجبال أو التوغل فى الأروقة المنهارة للمعابد والمنشآت الموجودة تحت الأرض ، والتنقيب ، دائمًا التنقيب فىْ هذه الرمال الحارقة التى تسبب العمى ، التنقيب مع حماس وصبر العالم الذى يريد أن يخرج من هذه الأرض القديمة للفراعنة بعض آثار الماضى . وحتى الآن توجت أعمال التنقيب التى قام بها السيد / ماسبيرو فى مقابر ممفيس وفى طيبة توجت بنجاح باهر ، فلقد جاء اكتشاف الدير البحرى بصفة خاصة ليثرى التاريخ بالمستندات الثمينة ، وتثبيت الشكوك على بعض النقاط المشكوك فيها .

ومنذ اثنى عشر عامًا اكتشف العرب قبرًا ملكيًا كان يبيعون أثاثه (آثاره) إلى الأجانب الذين يمرون بطيبة أو الأقصر . ورؤية هذه القطع التى نقلت إلى أوروبا منذ عام ١٨٧٩م كانت قد أوحت للسيد/ ماسبيرو عن تأثير هذا الاكتشاف . ومنذ رحلته الأولى فى صعيد مصر فى مارس ١٨٨١م قام السيد/ ماسبيرو بمراقبة المتهمين بسرقة هذا الكنز ، وتطلب الأمر شهرين أو أكثر من الرفت والتهديد ، والوعود لتحديد واحد منهم للكشف عن المكان السرى . وأخيرًا فى يوليو تم معرفة المكان ، وتوغل السيد « إميل بروجش - بيه » الموظف المساعد الذى ترك له السيد ماسبيرو سلطاته فى المكان السرى مصطحبًا معه السيد/ أحمد أفندى كمال . فوجدا فى هذا المكان كنوزًا مخفية متراكمة بطريقة فوضوية ، وعلب من التماثيل الصغيرة الجنائزية ، وأكواب لشرب الخمر والنبيذ من البرونز منتشرة على الأرض . وفى آخر الخندق شوهدت الخيمة الجنائزية للملكة « إزيمحب » مثنية ومخدوشة كشىء لا قيمة له ، وألقاها أحد الكهنة بإهمال فى ركن بالخندق عند إسراعه بالخروج منه . « والتوابيت والمومياوات التى شوهدت بسرعة على ضوء شمعة كانت تحمل الأسماء التاريخية الآتية : آمينوفيس الأول ، تحتمس الثانى، أحمس الأول وابنه « سيامون » « سوكنورى » ، والملكة « أخوتبو»، أحمس ، نفرتارى، وآخرون . وفى الغرفة السفلية بلغت الفوضى منتهاها ، ولكننا نتعرف للوهلة الأولى على سيطرة الأسلوب الخاص بالأسرة العشرين . وبدلاً من الملوك الصغار غير المعرفين اكتشف العرب « جبانة » مليئة بتوابيت الفراعنة . ولكن أى فراعنة ! يمكن أن يكون أكثرهم شهرة فى تاريخ مصر ، مثل تحتمس الثالث ، وسيتى الأولى ، وأحمس المحرر ، ورمسيس الثانى الفاتح » .

واليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) جاءت هذه الكنوز لتأخذ مكانًا وسط آثار «متحف بولاق» . وهى تنقسم إلى مجموعتين ، تشمل المجموعة الأولى عشرين تابوتًا أغلبها مكسور أو مرمم ، ونتعرف من خلال النظرة الأولى للعين على أسلوب الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة . أما توابيت المجموعة الثانية فلها سمة منتظمة وتحمل خاتم الأسرة العشرين . ونلاحظ فى المجموعة الأولى الآثار التالية :

« رقـم ١ » : تابوت ضخم يتكون من أقمشـة سميكة توضع فوق بعضـها ومدهونة بدهان يشبه الرخام . وهو مدهون باللون الأصفر ، ويحمل كشريط رأسى « السجود » تشـريفًا للملكة « نفـرتارى » زوجـة الملك أحمس الأول ارتفـاع ٢ مـتـر و ١٧ سم ، بدون الريش الذى كانت الملكة تحمله على رأسـهـا والذى تكسـر . وتتلون كل من البـاروكـة وسمات الوجه والعقود باللون الأزرق .

« رقـم ١٢ » : تابوت مشـابه لتـابوت الملكة « نفـرتارى » لكن باسم الزوجة المالكة ، الملكة أم « أخوتيو » .

« رقم ١٣ » : تابوت تحتمس الأول الذى استولى عليه الملك بتوتمن وتم تغيير معالمه بالقوة .

« رقم ١٤ » : تابوت ذو خلفية بيضاء ، والرأس مدهونة بالأصفر والوجه ضاحك ، والبـاروكة سوداء . والكتابة باسم الملك « أخوبرنرى تحتمس هيجـائس » أى تحتمس الثانى .

« رقم ١٥ » : صندوق صغير من العاج ومن الخشب باسم الملكة « حتشبسوت » .

« رقـم ١٨ » : تابوت كـبيـر أبيض قطعت قـدمـاه قـديمًا . وتتلون السـمـات باللون الأسـود، وتدهن العيون باللون الأبيض ، ويوجـد على الصدر ثلاث كتـابات مؤرخة ذات أطوال مـختلفة . وتلتحف المومياء بقماش أصفـر سميك ولا تحمل أى كتابات ظاهرة . وطول المومياء متر و ٧٥ سم ، وهو تابوت الملك « سيتى الأول » .

« رقـم ١٩ » : تابوت من الخـشب غيـر المدهون على شكل « أوزيريس » ، والعيـون مدهونة بالأبيض ، والسمات مدهونة بالأسود ، وكل يد تقبض على قضيب . ومن أمام توجد ثلاث كتابات ، إحداها مسـحت بالإسفنجة ثم أعيد كتابتها ولكن مازال جـزء منها يمكن قراءته . وتوجد أعلى الرأس كتابة مقدسة خاصة بالكهنة ذات خط ردئ . ويوجد على الصدر برواز مكتـوب عليه بالحبر « رمسـيس الثـانى » أو « رمسيس الثانى عشر » .

ويقول السيد/ ماسبيرو : « لقد جعلنى كل من أسلوب الأثر وتفاصيل الكتابة إلى الأسرة العشرين ، فكان من الطبيعى إذن إن نقول أن الملك الوحيد من الأسرة العشرين الذى يحمل هذه البراويز أو الكتابات هو رمسيس الثانى عشر . ومع ذلك للتأكد من موضوع الشخصية اعتقدت أنه يجب على أن ارفع جزءًا من أربطة المومياء التى يبدو أنها ربطت بطريقة رديئة ، وجدت القماش الأصلى الذى يحمل فوق الصدر كتابة مقدسة بيد الكهنة ، وقطع هذا النص الشك باليقين أنه إذن جسد رمسيس الثانى الذى نمتلكه وليس جسد رمسيس الثانى عشر . فالتابوت الأصلى الذى كان الجسد موضوعًا فيه قد تحطم بسبب حدث عابر ، وقام ملك آخر من الأسرة العشرين بعمل تابوت جديد له ، وهذا ما يشرح سمة الأثر والكتابة على البراويز » .

« وتنتمى توابيت المجموعة الثانية إلى نوع معروف جدًا من الأسرة العشرين ، ألا وهى صندوقان وثلاثة أكفان لرأس إنسانية توضع واحدة فى الأخرى ، وباروكة غزيرة سوداء أو زرقاء ، والرأس واليدان مدهونة باللون الذهبى ، وباللون النحاسى للاقتصاد ، كما توجد رسومات عديدة بالريشة ويلصق بها دهان سميك أصفر يغطى كل الحوائط . والألوان لامعة واحتفظت بلمعانها بطريقة مدهشة وكذلك المومياوات . وللوهلة الأولى نستطيع أن نؤكد أن كل التوابيت تم تصنيعها فى نفس الورشة وفى آن واحد تقريبًا » .

لقد قرر الفراعنة الراحلون أن يدفنوا فى باطن الأرض حتى يأمنوا شر اللصوص. وكانوا يعتقدون أن بئرًا عمقها إحد عشر مترًا يتبعها ممر ضيق طوله سبعون مترًا سيحميهم من اللصوص ومن الازدراء بجثثهم ، وأثبتت التجربة أن حساباتهم صحيحة مادامت القرون التى مضت منذ اليوم الذى وضعت فيه هذه التوابيت حتى اليوم الذى اكتشف فيه عرب « الشيخ عبد القرنة » المخبأ . ولم يحدد بعد (حتى وقت كتابة هذا الكتاب) التاريخ الدقيق الذى نقلت فيه هذه التوابيت .

ووفقًا للتقييم العام قسمت الآثار المحفوظة فى متحف بولاق إلى أربع متواليات أو أربع مجموعات ، ألا وهى الآثار الدينية ، والآثار الجنائزية ، والآثار المدنية ، والآثار التاريخية .

والآثار الدينية هى تلك التى تأتى من المساكن الخاصة ، والقبور والمعابد . والأشياء التى نجدها فى المساكن الخاصة نادرة جدًا . وهى تتضمن تماثيل صغيرة للآلهة الوثنية التى يبدو أنها كانت تستخدم كأيقونات لتبعد الأشياء الشريرة عن حاملها، كما تستخدم كرموز من الممكن أن تعد جزءًا من زينة النساء . ولم يكن للمصريين دين خاص سوى دين آبائهم وأجدادهم . ولكونهم كانوا يعتقدون فى الأثر الخير للأنفس التى تقبل للتمتع بالتهانى العليا فكانوا يحتفظون فى وسطهم بتماثيل آبائهم ، ويجعلوها تلعب دور الآلهة الوثنية عند الرومانيين . فالآثار التى ظلت تتمسك بالطابع الدينى فقط على الرغم من وجودها فى القبور عددها قليل جدًا . والآثار الوحيدة التى نستطيع ذكرها هى تماثيل الآلهة الوثنية المصنوعة من كل المواد التى نجمعها من تجويف بصدور المومياوات .

والآثار التى تأتى من المعابد هى تلك السفن الصغيرة المقدسة التى كان المصريون القدماء يتنزهون فيها عند بعض أعياد الميلاد . وكان لكل معبد الكثير من هذه السفن المقدسة التى كانت تصنع فى أغلب الأحيان من الخشب الثمين ، وأحيانًا من الفضة أو من الذهب . ويرتفع وسطها قدس أقداس صغير الحجم أو « ناووس Naos » كان يوجد داخله صورة لأحد الآلهة الوثنيين كانت تغطى بستارة . وعند كل من مقدمة ومؤخرة السفينة كانت تعرض أشكال رمزية مصنوعة بسخاء مادى ، وأثناء الحفلات العامة كان الرصيف الخشبى الذى تقف فوقه هذه السفن يحمل فوق أكتاف الكهنة . وكانت «النواويس» أو القواعد تحتوى أحيانًا على حيوان مقدس ، وأحيانًا أخرى على شكل يسمع الناس أمامه بعض الصلوات . وكانت المعابد تمتلك ناووسات (جمع ناووس) من كل الأبعاد ومن مختلف المواد . وينتصب « الناووس » بامتياز فى خلفية قدس الأقداس وهو يتميز بأبعاده الضخمة . وأوانى الذهب والفضة والأشياء الثمينة الأخرى التى كانت تعتنى بها كنوز المعابد كانت أول الأشياء التى اختفت عند اضمحلال المدنية المصرية . وكذلك من النادر أن نجد هذه الأشياء ضمن الآثار المكتشفة . ومع ذلك يمتلك متحف بولاق خمس أوانٍ بديعة من الفضة يمكن أن تعد عينات جيدة لأوانٍ مقدسة . وتعد

مناضد القربان آثارًا تذكارية لتأسيس تقى قام به الشخص الذى تحمل اسمه . وهى تحكى فى أغلب الأحيان من خلال النحت الموجود على الواجهة الخارجية - تحكى عن المنح التى كان يتبرع بها المؤسس فى هيئة مواد طبيعية ، والأثر عبارة عن شرائح من الرخام على شكل مستطيل ، وتكون فى أغلب الأحيان مقوسة من أعلى . كان المصريون يستخدمونها لينحتوا الكتابات من كل نوع . وفى أغلب الأحيان لم تكن هذه الكتلة الرخامية سوى عمل للتضرع أو للتوسل لإحدى الآلهة الوثنية للمعبد الموضوعة فيه . وفى مرات أخرى كانت تحتوى على نصوص يراد سردها على الأجيال التى تأتى بعد ذلك. على سبيل المثال القصيدة التاريخية الدينية المنحوتة تشريفًا أو تخليدًا لانتصارات تحتمس الثالث . والتماثيل الصغيرة والكبيرة تنتشر بكتل غير منتظمة داخل أساسات المعبد أو داخل الرمل الذى يعد أرضية لها . وفى بعض الأحيان تتخذ هذه التماثيل أبعادًا ضخمة وتمثل - سواء الآلهة أو ملوكًا ترتدى أشياء مقدسة . ويمكن أن لا يوجد تمثال يمثل الإله الوثنى المطلق للمعبد تلميحًا للمؤسس . ويبدو أن الناووس هو الذى كان يمثل الإله الوثنى ، وكان يخفى بصفة عامة رؤية الرمز الحى أو الميت الذى كان ينظر إليه على أنه الممثل المباشر للإله الوثنى .

الآثار الجنائزية :

لقد أعلمنا كتاب التقليد القديم أن المصريين كانوا يهتمون اهتمامًا قليلاً بالمساكن التى يسكنونها أثناء حياتهم ، وأنهم على النقيض من ذلك يحيطون « المنازل الأبدية » التى سيرتاحون فيها بعد موتهم بكل عناية . وتتفق دراسة الآثار مع شهادة الكتاب اليونانيين واللاتينين . وكانت منازل المدينة صغيرة وضيقة ومبنية من الخشب أو من الطوب النى (الطينى) ، أما القبور فقد تحدت آثار القرون (الزمن) . وانتشر الأثاث الجنائزى الفخم بالمقابر مثل الأثاث الخشبى ، والتماثيل والمسلات والأيقونات . كل ذلك كان يتراكم حول الميت . وعلى النقيض من ذلك ما نعرفه عن المدن المصرية يسمح لنا بالتفكير بأن هذه المدن كانت مثل كل المدن الحديثة بالمشرق حيث تمنع الحياة فى الهواء الطلق القاسم الأعظم من الناس من البحث عن تزيين المدافن بهذا الثراء الذى تحتاجه

المدينة الحديثة ، وكان المبدأ الذى أرشد المصريين دائمًا فى اختيارهم للموقع المخصص للمدافن هو وضع الموتى بعيدًا عن أى فيضان (أو فى مكان لا يمكن لمياه أى فيضان أن تبلغه) . ولم تشكل القبور مطلقًا شيئًا متناسقًا ، ولا نستطيع أن نقول إنها بنيت على نمط منتظم غير متغير ، ومع ذلك أيًا كانت الفترة التى تنتمى إليها كان يوجد أثر جنائزى كامل منقسم إلى ثلاثة أقسام ، ألا وهى قدس الأقداس الخارجى ، والبئر ، والقبور المنحوتة فى الصخر .

وكان قدس الأقداس الخارجى يتكون من غرفة أو من عدة غرف مرتبطة مع بعضها كل الوقت ، وكانت العائلات تجتمع فيها لتشريف واحترام الميت ، كما كانت تقام بها الحفلات الجنائزية . ووفقًا لدرجة وغنى الميت كانت تسود فخامة كبيرة أو صغيرة على ترتيب الغرف التى يتكون منها قدس الأقداس . فهنا كانت توجد المسلات الجنائزية، ومناضد القربان والتماثيل الخاصة وسط بروز الحوائط والكتابات التى كانت الحوائط تتزين بها . كما كان يوجد بئر رأسى يهبط من قدس الأقداس إلى غرفة الدفن التى ترقد فيها المومياء ، ومعها كتب الطقوس ، وحشرات ذات أربعة أجنحة ، وتماثيل صغيرة ، وتماثيل جنائزية ، وأيقونات ، وأوانٍ وأسلحة وأثاث . وبعد الحفلة تملأ الآبار بكميات من الأحجار المختلطة بالرمل والطين ، وكل ذلك يكون مع الماء الذى يلقى عليه نوع من الأسمنت المتماسك الذى لا نستطيع اليوم أن نثقبه سوى بعد جهود كبيرة .

الآثار المدنية :

الأبحاث فى الهضاب التى تحدد مواقع المدن القديمة لم تؤد إلى شىء تقريبًا . ومع ذلك فإذا كانت بعض واجهات (فاترينات) متحف بولاق تمنح للزائر الذى يحب الاستطلاع عددًا معينًا من الأشياء التى تشهد لحضارة قدماء المصريين فإن هذه الأشياء تأتى من القبور . فتلك هى المجموعة الجميلة لتماثيل الإمبراطورية القديمة ، وتلك هى الأكواب (الأوانى) والأسلحة ، والأثاث والأدوات وكل متعلقات الحياة الخاصة التى تم جمعها من القبور المعاصرة (الأسرة الحادية عشرة) ومن البطالمة .

الآثار التاريخية :

لم يهتم شعب ما بذريته أو بأولاده وبأحفاده مثلما اهتم الشعب المصرى ، ولم يعمل شعب ما على نقل آثار لا تمحى من ماضيه للمستقبل مثلما عمل الشعب المصرى . فالمعابد ليست مجرد أبنية دينية . فتوجد بها لوحات عن المعارك ، وقصائد شعرية مؤلفة تشريفًا وتخليدًا لبعض الأبطال ، وقصص الحملات العسكرية تأخذ مكانها كذلك فى هذه المعابد ، وتصبح هكذا آثارًا يطلبها التاريخ . ففى القبور نفسها وبجانب الكتابات التى تتضرع وتصلى إلى الآلهة الوثنية الجنائزية تظهر فجأة قصص طويلة أو قصيرة . حيث يتحدث المتوفى ويكتب سيرته الذاتية . فالمسلات المربعة ، والتماثيل الضخمة ، والمسلات المستديرة ، والحوائط الكاملة لبعض المتاحف ، كل هذه الأشياء تعد آثارًا تاريخية . وتعد تماثيل الملوك التى وجدت فى المعابد هى الأكثر تعددًا والأكثر أهمية بالنسبة للعلم . ومن الطبيعى أن نفكر أن هؤلاء الملوك قد خصصوا هذه التماثيل بأنفسهم لتجميل المكان المقدس ، ولكى يجذبوا نحوهم بهذه الطريقة حماية الآلهة الوثنية .

ويتنافس متحف « بولاق » مع كل المتاحف الأوروبية الأخرى بالنسبة للآثار الملكية ذات الأبعاد الكبيرة التى يحتويها . كما يحتوى كذلك على تماثيل من مادة واحدة للملكات ، والمدافن (التى تحتوى على توابيت بدون جثث) من الجرانيت لأمراء الإمبراطورية القديمة . كما يمكن لهذا المتحف أن يظهر من هذه الأزمنة السحيقة فى القدم تمثال الملك « خفرع » (مؤسس هرم الجيزة الثانى) وهو من الأعمال الهامة التى لم يتعداها زمن آخر ، وقد دام حوالى ستة آلاف سنة .

ويظهر الهكسوس أنفسهم للمرة الأولى فى المتحف (متحف بولاق) عن طريق الآثار التى تعلمنا عن عرق هؤلاء الآسيويين وعن حضارتهم . ويعرض المتحف من الأسرة الثامنة عشرة كثيرًا من تماثيل أبو الهول ومن التماثيل النصفية لتحتمس الثالث. وتنتمى للملك تحتمس . كذلك مسلة مشهورة نحتت فوقها قصيدة غنائية تم تأليفها تشريفًا وتخليدًا لانتصارات هذا الملك الغازى . ونذكر من بين الآثار الأخرى :

- تمثال من الرخام الأبيض الشفاف للملكة « آمينيريتس » Améniritìes . ولعبت هذه الملكة دورًا هامًا فى شئون مصر وقت الاحتلال الأثيوبى لمصر (الأسرة الخامسة والعشرين) .

- وتمثال الإلهة « ثيئوريس » ولها رأس وجسم فرس النهر ، وأقدام ومخالب لبؤة . ووفقًا لمعلومة أمدنا بها « بلوترك » كانت « ثيئوريس » جارية « تيفون » . وجماعة الإلهة حاتور (التى تم تقديمها على شكل تمثال لبقرة) والإلهة أوزويس ، والإله إيزيس هذه التماثيل الثلاثة تم اكتشافها بسقارة .

- وتمثال من الخشب لشخص يسمى بين العامة « بشيخ البلد » ، ويقدم هذا التمثال وهو منتصب ويمسك فى يده عصا القيادة . وينتمى هذا الأثر للإمبراطورية القديمة . والرأس ذات تعبير أخاذ ، والعينان من الكوارتز الأبيض الباهت ، وفى الوسط قطعة من الكريستال تستخدم كإنسان العين .

- كما اكتشفت مجموعة من المجوهرات مع مومياء الملكة آه - حوتب ، ومنها غوايش ذهبية ، وحلقان ، وتيجان ، وعقود ، وخواتم ، وسلاسل ذهبية ، وأسلحة مدببة قصيرة ، وفئوس ، وسفينة صغيرة من الذهب مع جهازها ، إلخ .

- جدول سقارة منحوتًا على الواجهتين ، وخمس مسلات من الجرانيت آتية من «نباتا» (جبل بركل) .

- تمثالين بديعين تم اكتشافهما فى « ميدوم » ، ويمثل أحد التمثالين الأمير « را - حوتب » بينما يمثل التمثال الآخر امرأة تسمى « نفرتى » (الأسرة الثالثة) ، ومن نفس الفترة أو الحقبة رسم بالجواش (ألوان مائية) يمثل وزًا يأكل الحب .

- وتمثالين كبيرين لرمسيس الثانى . أحدهما منتصب يبلغ ارتفاعه ٣ متر و ٣٠ سم ، والآخر جالس يبلغ ارتفاعه ٢ متر و٦٠ سم .

- حجر « سان » ، وهو من الحجر الجيرى ارتفاعه ٢ متر و٢٢ سم ، ويحتوى على قانون مكتوب من ثلاث لغات . ألا وهى اللغة الهيروغليفية واللغة اليونانية واللغة الديموطيقية .

- تمثال الإسكندرية ، وهو أثر مصرى من البازلت الأسود من الفترة اليونانية .
- تمثال أمينوفيس الرابع من الحجر الجيرى .
- رؤوس التماثيل الملكية (أو تماثيل الملوك) لمنفتاح وتحتاح . إلخ .

بجانب كل هذه الآثار يجب أن نضع الحشرات ذات الأربعة أجنحة ، وبعض الأسلحة التى تحمل ذخيرة ، وأكواب مزينة بأسماء الملوك ، ومسلات تحكى ما يخص وفاة أحد الأشخاص وتاريخ جلوس أحد الملوك على العرش . والجواهر التى غطى بها الملك « أموزيس » مومياء الملكة آه - حوتب هى هذا النوع من الآثار ذات الأصل الجنائزى التى تصبح آثارًا تاريخية .

* * *



(٧٨)

جامع السنية

جامع السنية يسمى كذلك جامع بولاق الكبير وقد أسسه « سنان - باشا » حاكم مصر ووزيره « سليم بن سليمان » (سليم الثانى) الخليفة العثمانى . والجامع الكبير لا يبرر لقبه . فالواجهة الخارجية ذات سمة بسيطة جدًا وفقيرة تقريبًا . ويوجد باب صغير يفتح على حوش موحش كالصحراء ، ومرصوف بطريقة جيدة . وفى آخر الحوش على اليمين تفتح صالة فريدة ، تغطى أرضيتها من الحصير والسجاد ألا وهى محراب الجامع أو قبلة الجامع . وترتفع الحوائط أولاً فوق مربع طول ضلعه ١٥ مترًا ثم عند ارتفاع معين تقدم أو تشبه ستة عشر وجهًا ثمانية منها مثقوبة بزجاج دائرى ملون. والجزء العلوى يحفه صف من النوافذ الصغيرة أعلاها قوسين متقاطعين ، وهذه النوافذ متعددة الألوان تستدير أعلاها قبة منهارة خالية من أى زينة .

والقبلة المكسورة بأكملها بشرائح من الرخام يقف بجوار كل من جانبها الأيمن والأيسر عمودان ذوا قاعدة لها ثمانية أضلاع ، وأعلى الستائر التى تغطى المدخل توجد ضفائر جميلة على هيئة خطوط بيضاء على خلفية سوداء وحمراء ، والجزء المقوس يتكون كله من خطوط متقطعة سوداء وبيضاء بالتبادل . ولا يوجد بالمنبر شىء غير عادى ، وبعض التفاصيل التى كان يمكننا أن نلاحظها فى منحوتاته قد تلاشت تحت كتل طبقات من الدهان يدهن بها كل عام بأسلوب دينى عند اقتراب عيد الولى .

والدكة التى ترتكز على الحائط يسندها مسندان من الخشب على شكل حرف S ، وهى فى نفس الشروط الفنية المطابقة للشروط الفنية التى للمنبر الذى تواجهه .





جامع أبو العلا

نلاحظ عند الطرف تقريبًا للشارع الذى يبدأ عند غرب حديقة الأزبكية ويمتد ليتصل بالنيل عند بولاق . نلاحظ على اليسار جامعًا صغيرًا مثيرًا جدًا مخنوق وسط البيوت التى تجاوره . والقبة البديعة الفخمة التى تخفى منارة جميلة مكونة من رواق واحد . تخفى نصفها . وباب أخضر مزين بكتابات وأرابيسك ملون يخرج من جديد على حقل أزرق ، وشرفة كبيرة من الخشب المقطع مبنية على النمط الحديث ، وتغطى حوش المكان المقدس ، تلك هى الميزات الخارجية التى نتعرف منها أولاً على جامع أبو العلا .

والأسطح المقوسة بالداخل عبارة عن قوس له زاوية حادة يرتكز على أعمدة إسطوانية أو أعمدة ذات ثمانية أضلاع من الرخام الأبيض الذى يأتى من الأبنية الفرعونية القديمة مثل الأعمدة الأخرى الخاصة بباقى الآثار الدينية للقاهرة . وترتبط الأجزاء المقوسة فيما بينها بأربطة أو مزاليج من الخشب كان يعلوها فى السابق شريط برواز منحوت على شكل رخام وقد اختفى فى الوقت الحالى (زمن كتابة هذا الكتاب) وحل محله دهانات من الخزف الأحمر . والسقف مثقوب بملقف ، وهو نوع من المراوح الكبيرة يهدف إلى إيجاد تيار هواء مع الحوش الخلفى .

وترسم القبلة بين عمودين ضعيفين لكل منهما ثمانية أضلاع وعبر صفين من المصابيح المعلقة بسلاسل من حديد . وأعلى الرسومات المقومة التى على شكل خط

مستقيم ، والتى تزين خلفية القبلة توجد ثلاثة تجاويف صغيرة زرقاء مكتوب داخلها اسم النبى (ﷺ) . والمنبر جدير بالملاحظة ، فالجانبان يخطهما فى كل اتجاه ضفائر مغشاة أو مزينة بالعاج ذات عمل بديع . وبرواز الباب البارز ، والبرواز الذى يتوج المنبر تم إضافتهما فيما بعد بواسطة يد مجهولة ، والكتل الكلسية التى كان يراد تقليدها مقززة للنظر . وفى الحائط على يسار المحراب يوجد باب صغير من نفس النوع الذى تتصل به الواجهات الجانبية للمنبر مع صالة الدفن .

ويوجد مدخل هذه الصالة قبل الوصول إلى المحراب بقليل ، ويلاحظ أنه ذو جمال فريد ، وكل نجارة الأسوار الداخلية تم إحضارها من الهند . وتم تزيين الأماكن الداخلية بدقة متناهية ، والحوائط مكسوة بيافطات من الخشب يتحمل بروازها العديد من الكتابات أو الأشياء المعلقة على هيئة أمانى والمحاطة بعِصِىّ من ذهب على هيئة برواز . وتم تنفيذ الباب الخارجى للقبر بنفس ذوق الباب الداخلى الذى تحدثنا عنه . ويرقد فى هذه الصالة التى تضاء بأشعة الشمس فقط ولا يتوغل داخلها غير المؤمنين بسهولة ويرقد تحت قبة بديعة بكل تفاصيلها جسد سيدى أبو العلا الذى شيد هذا الجامع تشريفًا له أو تخليدًا لذكراه .

* * *



(٨٠)

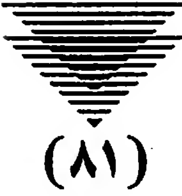
الجـــزيـرة

يقع قـصـر الجـزيـرة فى الجـزيرة التـى تواجه بولاق ، ويتم الوصـول إليـه عن طريق كوبرى قصر النيل بإتبـاع طريق جميلة تظللها الأشجار الكبيرة ، ويحفها النيل من الجهة الغربية ، ويحفها من الجهة الشرقية الأشجار الصغيرة والحدائق التى تحتوى على أنواع مختلفة من الأشجار والنباتات الأجنبية .

ويرتفع القصر على ضفة النهر ، وهذا الأثر المبنى حديثاً تم تشييده بإسلوب عربى له تأثيـر جميل ، ويجـانب الذوق الردىء أو يبـتعـد عن الذوق الـردىء الذى نقـابله فى كل القـصـور الحـديثـة تقـريبـاً . والقـسم الـداخلى ، وخـاصـة صـالة الرقص غنيـة بـالزينات المدهشة ، ويعـرض فيهـا الشقق الفخـمة التى سكنت فيها الإمبـراطورة « أو جينى » أثناء رحلتها إلى مصر ، فى فترة أفتتاح قناة السويس ، وبالقرب من القصـر يوجد كشك بديع يسـتحق الزيارة بسـبب أشكاله البـديعـة الفـخـمـة . والحـديقـة جـميلة جداً زرعت فـيهـا أشـجـار الفـاكـهـة الآتيـة من الهنـد بكثـرة ، وتمتـد الزهور والنبـاتات النادرة تحت أنظار الزوار وعبر أقفاص العصافير الكبيرة والمناجم أو الحفـر ، والشلالات والمجارى المائية ، والطرق التى تحف بالأرض المكسـوة بالحـشـائش والمزروعـة بأشـجـار تنتمى للأقـاليم الاسـتوائيـة والأحـواض التى يظلل بعضاً منهـا أشـجـار قصب السـكر الضـخـمـة وترتفع جذوعها إلى ارتفاع كبير . ومجموعة الحيوانات التى كانت أحد الأشياء الجميلة التى تثير حب الاستطلاع فى الحديقة غير موجودة اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) .

ويوجد غرب قصر الجزيرة حوض كبير للسمك وسط الحديقة يتهالك يوماً بعد يوم بسبب عدم الصيانة ، وحوض السمك نفسه مهجور تقريباً ، والأحواض جففت منذ فترة طويلة ، ولا تستخدم اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) سوى كمكان للراحة أو للتقابل بالنسبة لسكان القاهرة الذين يأتون للتنزه تحت الظلال الرطبة للشارع الدائرى بالجزيرة .





(٨١)

إمبـــابة

تمتد قرية إمبابة أمام بولاق على الضفة الشرقية للنيل وسط سهل من الخضرة التى تتجمع فى هذا المكان بين النهر والصحراء الغربية . ولا يوجد فى هذه القرية شئ مثير سوى الأحداث أو الوقائع التاريخية التى يذكرنا بها اسمها . ففى جنوب غرب إمبابة حدثت يوم ٢١ يوليو ١٧٩٨م الواقعة الدموية التى حملت الضربة الأولى للميشيا (المجموعة المسلحة) المماليك المتحمسة . وفتحت هذه الضربة أبواب القاهرة أمام «بونابرت» .

ومن النافع أن نذكر هنا قصة معركة الأهرامات على أرض الواقع حيث حدثت المعركة . ففى يوم ٢١ يوليو الموافق (٧ صفر ١٢١٣هـ) ترك الفرنسيون « أم دينار » . ففى الفجر أكتشف الجيش الذى كان يسير منذ خمسة عشر يوماً فى اتجاه القاهرة - اكتشف أخيراً على امتداد النيل وعلى الضفة الغربية لهذا النهر المنارات الكثيرة لهذه العاصمة الكبيرة ، وإلى الغرب منها أهرامات الجيزة التى تقف شامخة مرتفعة على حدود الصحراء والتى تلونها الأشعة الحمراء للشمس المشرقة باللون الذهبى . وعند رؤية هذه المبانى المشرقة توقف الجنود مشدوهين كما لو كانوا قد تملكهم الأعجاب وحب الاستطلاع ، وكل الجيش تقريباً صفق الأيادى تحية لهذه المبانى ، وكان وجه نابليون نفسه يشع حماساً . واسرع نابليون كعادته فى السيطرة على مشاعر السعادة والذهول التى بدأت تدب فى أنفس الجنود ، وسار معتليا فرسه أمام صفوف قواته التى بدأت تشعر بالخوف من المعركة القادمة فأراهم الآثار العظيمة للفراعنة القدماء وقال

لهم : « أيها الجنود ، فكروا أنه من أعلى هذه الأهرامات أربعون قرناً من الزمان تطل عليكم ...! »

وبعد وقفة قصيرة بدأ الجيش يسرع من خطواته لأنه كان يرى عند كل لحظة الأهرامات وهى تكبر ، ومبانى القاهرة وهى تتضاعف . ولم يتوقف الجيش سوى فى الساعة العاشرة عندما شاهد قرية إمبابة ، وقبل هذه القرية شاهد خطاً طويلاً من الذهب والنحاس يمثل العدو الذى أصطف للقتال . فمراد وإبراهيم رؤساء المماليك الذين توقعوا أن يهاجموا على ضفتى النيل فقسموا قواتهما إلى جيشين كان يربط بينهما أساطيل كثيرة صغيرة الحجم . فعلى الضفة الغربية للنيل كان إبراهيم معه ألفان من المماليك ، والباشا التركى « سيد ابو بكر » معه من اثنى عشر إلى خمسة عشر فارس إو رجل مدفعية ، وكانوا مسئولين عن تغطية حصون القاهرة أو بالأحرى أن يكونوا مستعدين للخروج مع زوجاتهم ، وعبيدهم وكنوزهم فى حالة الهزيمة للجوء إلى سورية . وعلى الضفة الشرقية كان مراد أكثر شجاعة واكثر جرأة وأكثر اندفاعاً للحرب من زميله . كما كان أكثر إصراراً للدفاع عن نفسه ، وكان يحتل هو والأربعون ألف رجل الذين كانوا معه السهل الذى يمتد بين النيل والهرامات .

للوهلة الأولى أعتقد نابليون أن استعداداته ممتازة لكن غير رأيه عندما استطاع التعرف على المعسكر الحصين للأعداء . وقسم جيشه إلى خمسة أجزاء مرتبة فى مربعات . وكان القسمان اللذان كان يقودهما كل من الجنرال ديسكى Desque والجنرال رينييه Reynier يشكلان الجانب الأيمن فى اتجاه الصحراء . وشكل قسم الجنرال «دوجا» «Dugua» الوسط ، وشكل قسما الجنرالان بون ومينو Menou , bon الجانب الأيسر بطول النيل . وكل مربع عبارة عن عمق من ستة صفوف . وقد وضعت المدفعية عند الزوايا ، ووضع الجنرالات والحقائب عند الوسط . وعند إعطاء الإشارة يتحرك الجنرال ديسكى Deseque أولاً ثم يتحرك بعده مربع الجنرال رينييه Reynier، ثم مربع الجنرال دوجا الذى يقف وسطه « بونابرت » وفى نفس الوقت يبدأ الجنرالان الآخران فى السير لمحاصرة إمبابة بعيداً عن مرمى المدفعية . ولكن مراد الذى شاهد انهيار كل

الأعمدة اتجه سريعاً إلى الأمام مع ثلثى فرسانه الكثيرين ، وترك الباقى لدعم المعسكر الحصين وتشجيع المدفعية ، وجاء ليحط كالعاصفة فوق المربعين الموجودين على الناحية اليمنى . وأنه لمشهد مخيف أن نرى هجومًا مكونًا من سبعة إلى ثمانية آلاف من هؤلاء المقاتلين الأشداء المخيفين ، وخيلهم البيضاء معرقة من المجهود ، وقد أثارهم فرسانهم وهم يقبضون على سيوفهم ، وعيونهم ملونة بلون الدم ، ويجعلون صوت تنفسهم المدوى يتردد فى الهواء ، فتلاشى الرجال والخيل فى عاصفة لا نهائية من التراب ، والأصوات تزأر وتلفظ بطاقة مخيفة فتلقى الرعب والخوف فى كل مكان ، وفيضان البارود المشتعل يسير بلا هوادة ولا رحمة ، ويهدد بقلب كل شئ يقف فى طريقه .

وجاءت كتلة المماليك لتصطدم عند مربع ديسكى ، وفشلت فى مواجهة صرامة المدفعية ، ففرسانه اللامعين الذين لا يخافون من أى خطر لم يكن لديهم أى علم عن المناورات الأوروبية ، ولم يعرفوا إلا الهجوم الفوضوى . وكان رجال المدفعية الفرنسية ينتظرونهم بثبات فاستقبلوهم بطلقات مخيفة من البنادق ثم بطلقات مفزعة من الأسلحة الأتوماتيكية . والمماليك الذين استقبلوا هكذا سقطوا جرحى بالآلاف عند بداية المربعات الفرنسية ، تلك الحصون الحية المشتعلة التى تعلوها أسوار الحديد التى لا تقتحم . والمماليك الذين تراجعوا انقضوا على قسم « رينييه » Reynier . فاستقبلوا بنفس الثبات وبنفس كمية النيران فأرادوا بحركة طبيعية أن يعودوا إلى النقطة التى انطلقوا منها ، ولكنهم وجدوا خلفهم قسم « دوجا » «Dugua» الذى حمله بونابرت فى اتجاه النيل فانهزموا هزيمة كاملة . ومع ذلك أعاد مراد المغطى بالدم والذى ذهل عندما رأى النصر يبتعد عنه ، أعاد توحيد قواته ، وبعد قليل أصبحت الفوضى عامة ، وكانت أكثر من سبعة آلاف جثة للمماليك تغطى الأرض ، وعندما تيقن مراد أخيرًا من عدم جدوى جهوده هرب إلى صعيد مصر . وعندما رأى كل من «إبراهيم» و « سيد أبو بكر » من جانبهم أن الفرنسيين سيطروا على ميدان المعركة جعلوا الأسطول المصرى يطلق النيران تمهيدًا للانسحاب ، واختفوا عبر سهول الصحراء التى تفصل بين سوريا ومصر .

ويوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨م بعد الظهر دخل بونابرت رسميًا إلى القاهرة . وخرج عدد كبير من السكان الذين أفاقوا من خوفهم البدائى بما أن تواضع الفرنسيين لا يشبه غرور سلوك المماليك واضطهادهم - خرجوا لمقابلة مسيرة المنتصرين . وكان كل شخص يريد أن يتأمل المنتصر على البهوات ، ورئيس هؤلاء الأجانب المتحمسين الذين اشتهروا بعلو إنجازاتهم . وكان هؤلاء السكان قد اعتادوا على رؤية أسيادهم القدماء وهم يمرون دائمًا وهم مقطبى الوجه ومهددين . لذلك ظل هؤلاء السكان الذين كانوا يتكونون من أشخاص من كل الطبقات ظلوا مندهشين عندما رأوا بونابرت والجنرالات الآخرين يتقدمون ببطء بينهم ، ويبتسمون لهم بكل محبة . ولكن الشىء الذى عقد ألسنتهم بصفة خاصة ، والذى قلب كل الأفكار التى أخذوها نسبيًا عن الفرنسيين هو أن هؤلاء الرجال الذين كان يحلم هؤلاء السكان بأن يروهم ببدل فخمة أنيقة وبأجهزة غالية الثمن ، وبسمات جسمانية مخيفة استطاعوا أن يظهروا شجاعتهم وهم يرتدون ملابس فقيرة متواضعة ، وأن يحققوا الإنجازات العظيمة بأسلحة بسيطة ، وأن يقاتلوا كالأسود مع كل السمات الرقيقة التى تبدو على وجوههم .

وذهب « بونابرت » ليقيم فى قصر « الألفى - بيه » الذيى يقع عند ميدان الأزبكية والذى تقع حديقته عند بداية الريف . ويوجد هذا القصر اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) بالقرب من الباب الغربى لحديقة الأزبكية ، عند زاوية شارع بولاق .





(٨٢)

سد النيل

قبل اكتشاف الأجهزة الأسطوانية والأبنية الخرسانية ذات الأشكال المختلفة المستخدمة فى التحكم فى المياه وتنظيم مستواها وانسيابها إراديًا ، ولم تستطع قنوات تحويل مجرى النيل سوى أن تمنح جزءًا بسيطًا من المزايا التى يسمح تطور العلم الهيدروليكى الآن (زمن كتابة هذا الكتاب) بالحصول عليها .

وبسبب انحدار النيل والقنوات صرنا مجبرين على استخدام عدة آلاف من الأبقار فى كل إقليم لرفع مياه النهر فوق الأراضى المجاورة . فالقطاعات والانحرافات التى تم صنعها فوق كل مجرى النيل تقلل من مياه النهر ، والملاحة لا تحدث خلال ستة أشهر سوى للبواخر ذات الحمولة القليلة . كما يكون سحب البواخر غير ممكن تقريبًا خلال هذه الأشهر الستة . وبسبب أن فرعى النيل بالقرب من مصبهما عند رشيد وعند دمياط تصير كمية المياه بهما قليلة ، فإن مياه البحر الأبيض المتوسط تصعد على مياه النيل فى معظم الأوقات ، وتفيض هذه المياه فى البحيرات وتجعل الشواطئ غير صحيحة وعقيمة وغير مسكونة تقريبًا . ولعلاج هذه العيوب تم بناء السدود . ويجب على هذه السدود أن تفى بثلاثة شروط رئيسية . أولاً : منع دخول المياه المالحة فى البحيرات القريبة من الشاطئ ، ثانيًا : تحسين الملاحة فى فرعى النيل وجعلها دائمة ومنتظمة وسهلة بالنسبة للسفن ذات الحمولة الكبيرة ، وأخيرًا : اقتياد المياه أو سحبها فوق كل مناطق مصر المنخفضة (الوجه البحرى) الأقل ارتفاعًا عن مستوى الفيضانات الكبرى أو المرتفعة ، وهكذا نضاعف المساحات المزروعة .

وتم اقتراح خطة أولى ، ألا وهى أن نقيم على كل فرع من المصب حتى ضواحى القاهرة أربعة سدود بها أبواب ومراوح لسحب المياه مع فتحات مزدوجة لمرور السفن ذات الحمولات المختلفة ، والمزيد من الأحواض والقناطر الجانبية ذات الأبواب الدائرية . فالسد الأول يحتفظ بمياه البحر ، ويعطى الغاطس الكافى للنيل لمرور السفن الكبرى أو ذات الحمولة الكبيرة ، ويسمح برى الحقول المجاورة . وكل سد يحدث انحدارًا فى المياه لذلك يتم استغلاله فى تحريك الماكينات المخصصة فى تجفيف البحيرات وجعلها صالحة للزراعة .

واقترح السيد « لينان دى بلفون » الذى سمى منذ ذلك الحين « لينان باشا » مشروعًا اختار فيه النقطة التى يتفرع عندها النيل إلى فرعين على أنها الأنسب لحفظ المياه وسكبها فوق الدلتا وفوق الأراضى التى تحيط بها . وتتكون الأعمال من سدين على هيئة كوبرى مع قناطر ومراوح لسحب المياه ومروحتين لسكب المياه بهما أبواب لقذف المياه الزائدة عن الحد ، وقناتين للملاحة مع فتحات ، وثلاث قنوات للرى ، ألا وهى واحدة للدلتا ، وأخرى لإقليم البحيرة ، والثالثة لإقليم الشرقية . وتقام السدود على نوعين من الأرض المحصورة بين منحنيات فروع النيل ، ويتم تنفيذ الأعمال والأرض خالية من المياه ، وبعد إنجاز هذه المشاريع نجعل المياه تتوغل فى مساراتها الصناعية .

وكوبرى السد لفرع رشيد يجب أن يكون له أربعة وعشرين قوسًا عرض كل منها عشرة أمتار . بالإضافة إلى قوس عرضه أربعة وثلاثون مترًا ، والوسط يظل مفتوحًا باستمرار ليعطى انسيابًا لكتلة المياه ، والمروحة التى تسحب المياه لديها تسعة وعشرون قوسًا عرض كل منها عشرة أمتار . وفرع دمياط له سد كوبرى مع ستة عشر قوسًا عرض كل منها عشرة أمتار ، بالإضافة إلى قوس فى الوسط لانسياب المياه ، والمروحة التى تسحب مياهه لديها خمسة وعشرون قوسًا عرض كل منها عشرة أمتار . وفى حالة المياه العالية (الفيضان العالى) يجب على السدود أن تظل مفتوحة ، فيما عدا القناطر التى تغلق قنوات الرى . وفى حالة المياه المنخفضة يجب أن تظل فتحات السدود التى

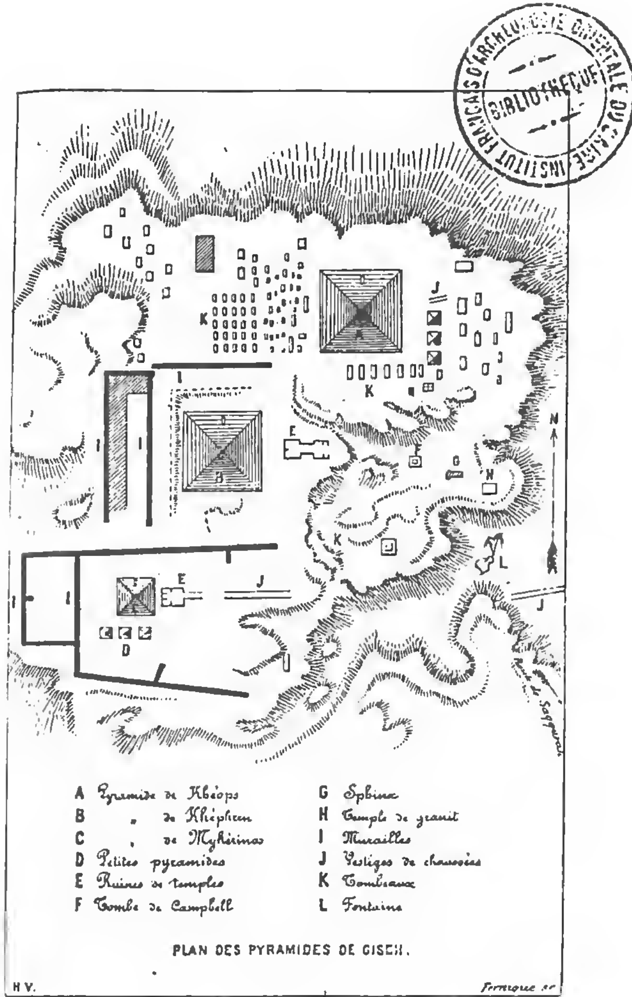
على شكل كوبرى والمراوح التى تسحب المياه - يجب أن تظل مغلقة فيما عدا الأقواس الكبيرة وقناطر الرى .

وقدم السيد « موجل - بيه » مشروعًا آخر ، وهو لا يختلف مطلقًا فى المبدأ عن المشروع السابق بل يختلف فقط فى طريقة التنفيذ ، فلقد وضع السيد « موجل » سده مباشرة على نفس فرعى النيل من كل جانب من جزيرة « شالاكان » بالقرب من الطرف البحرى لهذه الجزيرة . ولقد تم تبنى مشروعه وفى ١٨٤٧م وضع محمد على الحجر الأول لهذا العمل العملاق . وتكلفت الأعمال مبالغ باهظة . وللأسف لم يستكمل هذا المشروع العملاق . فالحرب والاهتمامات السياسية منعا إنجازه .

وهذا الكوبرى المزدوج الذى نشاهده من بعيد والأبراج المربعة التى تقف بجانب أطرافه مهجور اليوم . وإننا لنفاجأ بأنه بعد هذا العدد الكبير من التضحيات لا نتخذ الإجراءات للانتهاء من هذا العمل العملاق ، وهو أحد أكثر المفاهيم جسارة للعبقرية الإنسانية . ومع ذلك فهذه النتائج صارت « لانهائية » ، ولن يتم رى أقاليم الدلتا فقط بل كذلك الأقاليم الخارجية وجزء من الرمال التى تحوطها ، وسوف يستغنى عن استخدام عشرين ألف ساقية التى يتطلب كل منها العمل الثابت لرجل ولبقرة ، وتجعل القنوات التى تمتلئ دائمًا بالمياه صالحة للملاحة .

ويبدو أن مهندسى الحملة الفرنسية هم أول من فكروا فى بناء سدود لوقف مياه النيل . وكان نابليون قد قال فى الملاحظات التى كتبها سريعًا عن الانطباعات التى تركها له مروره بمصر : « العمل الذى سنقوم به يومًا ما سيكون إقامة حفر عند طرف الدلتا لسد فرعى رشيد ودمياط ، مما يؤدى إلى السماح بترك جميع مياه النيل تمر على التوالى وبإرادتنا وزيادة الفيضان منذ ذلك الحين .

ونصل إلى السد (القناطر) فى العادة بتأجير سفينة من بولاق . والطرق الأخرى للوصول للسد أو القناطر هى السكة الحديد حتى قليوب (ثم تقطع باقى المسافة سيرًا على الأقدام أو على ظهر حمار عبر الريف) أو كذلك السكة الحديد حتى صعيد مصر، من « بولاق الدكرور » حتى « محطة المنشية » (الضفة الشرقية) .



A - هـرم خـــوفـــو
B - هـرم خـــفـــرع
C - هـرم منقـــــرع
D - أهرامـات صـغـيـرة
E - أطـلال المعـــابـد
F - قـبـور ى كـامـفل
G - أبـو الـهـــــول
H - مـعـبـد الجـرانيت
I - الأســــــوار
J - أطلال مــرتـفـعـات
K - مــــــــدافـن
L - نــافــــــورات

خريطة أهرامات الجيزة



(٨٣)

الأهــــرامات

تقع الأهرامات على بعد حوالى اثنى عشر كيلو مترًا من ميدان « الأزبكية » وثمانية كيلو مترات ونصف من النيل . ويتم التوجه إليها بعبور حى الإسماعيلية الجديد ، وعبور النهر عند كوبرى قصر النيل . وبعد أن نمر أمام قصر الخليفة الذى يرتفع عند مدخل مدينة الجيزة الصغيرة عند مكان سكن رئيس المماليك القديم « مراد بيه » ثم نتبع على اليمين طريقًا بديعًا مزروعًا بالأشجار الساحلية ذات الورد الأصفر العطر ، وقد تم رصف هذا الطريق فى ١٨٦٨م من أجل هدف وحيد ، ألا وهو تسهيل ذهاب السياح إلى الأهرامات .

ويقول السيد مارييت : « من العدل أن نحيط الأهرامات بهالة من الإعجاب وأن نضعها من بين عجائب الدنيا السبع . ويجب أن نقول مع ذلك إن هذا الإعجاب لا يفرض على السائح عند وصوله إلى سفح هذه الآثار الشهيرة ، فالمساحة الشاسعة للصحراء المحيطة بها ، وعدم وجود نقطة للمقارنة تقلل فى الواقع من قيمة هذه الأهرامات وتمنع الحكم عليها بطريقة جيدة . ولكن مع التفكير والتأمل تكبر الأهرامات وتأخذ أبعادها الحقيقية . فنندهش حينئذ من ضخامة هذه المبانى . ونرى فيها الآثار الأكثر ديمومة والأكثر ارتفاعًا التى لم يبن مثلها أى إنسان من قبل تحت السماء . ويرجع تاريخ بناء الأهرامات إلى ستة أو سبعة آلاف عام من قبل ، ولكن لا يوجد أى سبب يمنعها من أن تظل بعد مائة الف عام كما نراها اليوم إلا إذا جاءت أيدى مجهولة أو مجرمة وساعدت على هدمها » .

ويمتد مجال الأهرامات من « أبو رواش » بالشمال وبالقرب من هضبة الجيزة حتى « إيلاهوم » فى الفيوم . كل هذه الأراضى الشاسعة تنتمى إلى مدافن ممفيس . وترتب الأهرامات فى مجموعات تزيد أو تنقص المسافة بينها وتتميز باسم القرى الحالية التى تجاورها أى عند الذهاب من الشمال إلى الجنوب « أبو رواش »، « جيزة »، « أبو صير »، سقارة ، داشور أو دهشور ، مطانية وميدوم . وبين كل هذه الآثار أكثرها عظمة وأكثرها شهرة هى أهرامات الجيزة الثلاثة . والحجر هو المادة المستخدمة للبناء فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة التى نقابلها عند دهشور وعند الفيوم وعند طيبة أو الأقصر . حيث توجد بعض الآثار المصنوعة من الطوب النى « اللبن » أو الطبيعى .

والأهرامات ليست سوى أبنية للقبور أو للدفن . وتم إعداد سطح معين فوق الصخر لتشييدها. مع الاهتمام بترك بروز صغير فى الوسط يجب أن يبدأ عليه المبنى. وغرفة الدفن كانت محفورة أولاً فى الصخر ثم تم تغطيتها بهرم صغير كان يضاف حوله عدة طبقات خارجية متتابعة ، وعن طريق كل بناء جديد كانت تزيد أبعاد الأثر ، وكان يراعى الاهتمام بالأروقة الداخلية مع ازدياد حجم الأثر ، وكانت الأعمال ترتبط بمدة حياة المؤسس ، وبعد وفاته مباشرة كان جثمانه يوضع فى الغرفة المعدة له ، ثم تملأ بعد ذلك الأروقة بكتل من الأحجار ، وينتهى الهرم بكسوة ناعمة تخفى المدخل . وفى أغلب الأحيان مع ازدياد الحرص والاهتمام وحتى تحمى المومياء بدرجة أحسن من كل سرقة وعنف كان المؤسس يهتم ببناء العديد من الممرات بالداخل المخصصة كبديل عن المدخل الخارجى إذا تم اكتشاف هذا المدخل الخارجى .

ولقد تحدثنا كثيرًا عن الغاية من بناء هذه الأهرامات ، وبدون أن نعرف السبب كان هرم خوفو دائمًا هو القاعدة ونقطة الانطلاق للافتراضات ، ومع ذلك لا يوجد سبب حتى يكون لهذا الأثر مادة أخرى غير « الستين » والمواد الأخرى التى تشبهه ما نجده فى مصر ، وكلها موجودة فى المدافن وتحتوى كلها على توابيت . وكثير من النظريات التى يعد بعضها أكثر خطأً من الآخر قد صدرت عن موضوع هذه الآثار العملاقة ، وكوّن بعض السياح رأيًا شخصيًا ونشروه . وكُتبت المراجع لتثبت أن

الأهرامات ، وخاصة الهرم الأكبر « كانت مخصصة لكى تستخدم كنموذج لكل القياسات المستخدمة عند المصريين ولتسهيل الملاحظات الفلكية » . وقد حاول البعض أن يثبت أن هذه الكتل العملاقة لم تبن سوى لكى توقف تقدم رمال الصحراء أو لكى ترشد القوافل وملاحى النيل » ... هذه الآراء المختلفة ، وخاصة الرأيان الأخيران ، هى خالية من الرأى السديد ولا تستحق النقض . لقد استطعنا فى السابق أن نجهل الهدف الحقيقى لهذه الأهرامات ، ولكن اليوم أو فى العصر الحديث اتفقت كل السلطات على الاعتراف بأن هذه الأهرامات عبارة عن قبور سميكة ، مغلقة بإحكام ، ولا شىء أكثر من ذلك . ولكل منها (أو على الأقل لتلك التى كانت تستخدم كقبر للملك) معبد خارجى يرتفع على بعد بضعة أمتار أمام الواجهة الشرقية . ويؤله الملك كنوع من التجسد الإلهى ، ويصلى له فى المعبد . ويقول مارييت : « إن الأهرامات عبارة عن غلاف ضخم غير قابل للتوغل للمومياء ، وأحد هذه الأهرامات أظهر بالداخل خطًا معبدًا ومنه يمكن القيام بالملاحظات الفلكية من خلفية أوقاع الآبار على سبيل المثال ، وهكذا يستخدم هذا الأثر فى هدف غير هدفه الحقيقى . والقول بأن الأوجه الأربعة التى لها اتجاه معين تشير إلى نية أو هدف فلكى قول باطل ، فالأوجه الأربعة تتجه اتجاهًا معينًا . لأنها مكرسة لأسباب أسطورية تجاه النقاط الجغرافية الأربع (الشمال ، الجنوب ، الشرق ، الغرب) وفى أثر معتنى به مثل الأهرام الوجه المكرس نحو الشمال على سبيل المثال لا يمكن أن يتجه إلى نقطة أخرى سوى إلى الشمال . فالأهرامات إذن ليست سوى قبور ، وكتلتهم الضخمة ليست حجة تناقض هذا الهدف ما دمنا نجد أهرامات لا يزيد ارتفاعها عن ستة أمتار . ونلاحظ كذلك أنه لا يوجد فى مصر هرم لا يمثل مركزًا للمدافن . ومن هنا تم التأكد تمامًا من خصائص هذه الآثار » .

ومن بين الأهرامات الكثيرة التى تغطى أرض مدافن ممفيس توجد واحدة فريدة فى بنائها فلها ست درجات ، ويبدو أن « أوينيفاس » من الأسرة الأولى قد قام ببنائها . وإذا كان الحال كذلك يصبح هذا الأثر أقدم الآثار المصرية والتاريخ العالمى .

ونميز من بين الأهرامات التى تم التعرف على الشخص الذى بناها الآتى :

١ - هرم ميدوم : له ثلاث درجات ويبلغ ارتفاعه ٨٠ مترًا (حوالى ثمانين مترًا) ، وبه قبر « سنفرو » من الأسرة الثالثة ، والاسم الهيروغليفى « خا » «Kha» « المشرق ، العيد ، التاج) .

٢ - هرم الجيزة الأول : وارتفاعه ١٤٢ مترًا ، وبه قبر « خوفو » من الأسرة الرابعة والاسم خوت «Khout» « الساطعة » (الساطع) .

٣ - هرم الجيزة الثانى : وارتفاعه ١٣٧ مترًا ، وبه قبر « خفرع » من الأسرة الرابعة واسم « أور - تى » (Ur- t) (الكبير أو الكبرى) .

ملحوظة : اسم هرم مؤنث باللغة الفرنسية ومذكر باللغة العربية .

٤ - هرم الجيزة الثالث : وارتفاعه ٦٦ مترًا وبه قبر « منقرع » من الأسرة الرابعة واسم « هر » « Her » « الفائق » .

٥ - هرم الجيزة الرابع : وبه قبر « هنت - سن » ابنة خوفو ، وهو الأكثر قربًا للجنوب من الأهرامات الثلاثة الصغيرة التى تقع بالقرب من هرم خوفو .

٦ - هرم أبو صير (الأول) : وارتفاعه أربعون مترًا وبه قبر « سفرس » (شاه - أورا) من الأسرة الخامسة باسم « خا - با » « قيادة الأنفس » .

٧ - هرم أبو صير (الثانى) : (الهرم الأوسط) وبه قبر « راتوس » من الأسرة الخامسة باسم « منو - تو » « الأكثر مقاومة » .

٨ - هرم سقارة : قبر « أوناس » الأسرة الخامسة .

٩ - مصطبة الفيوم : باسم « نفرسو - تو » المكان الجميل جدًا ، وبناء على الأعمال الحديثة للسيد « ماسبارو » .

نستطيع اليوم أن نحدد الموقع الدقيق لكل أهرامات مدافن ممفيس التى بناها الفرعون (الملك) « سنفرو » ومن آتى بعده من الفراعنة حتى نهاية الأسرة السادسة .

* * *



(٨٤)

هــرم خيـوبس (خــوفـو) Khéops

هو الشخصية الأكثر تميزًا للأسرة الرابعة . فمنذ أربعين قرنًا قبل عصرنا كان الملك خيوبس أو خوفو الذى تسميه النصوص المعاصرة « خوفو » يملك على مصر . فهو الذى شيد أكبر وأميز الأهرامات التى تمتلكها مصر لكى تستخدم كقبر له . وحارب خوفو العرب الرحل ودافع عن المنشآت العسكرية التى كان الفرعون « سنفرو » الذى ملك قبله كان قد أسسها فى شبه جزيرة سيناء . وانتصر خوفو على هؤلاء العرب الرحل . واستخدم أسرى هذه الحرب أو الحملة العسكرية كالعادة فى المساعدة فى أعمال الهرم الذى قام ببنائه .

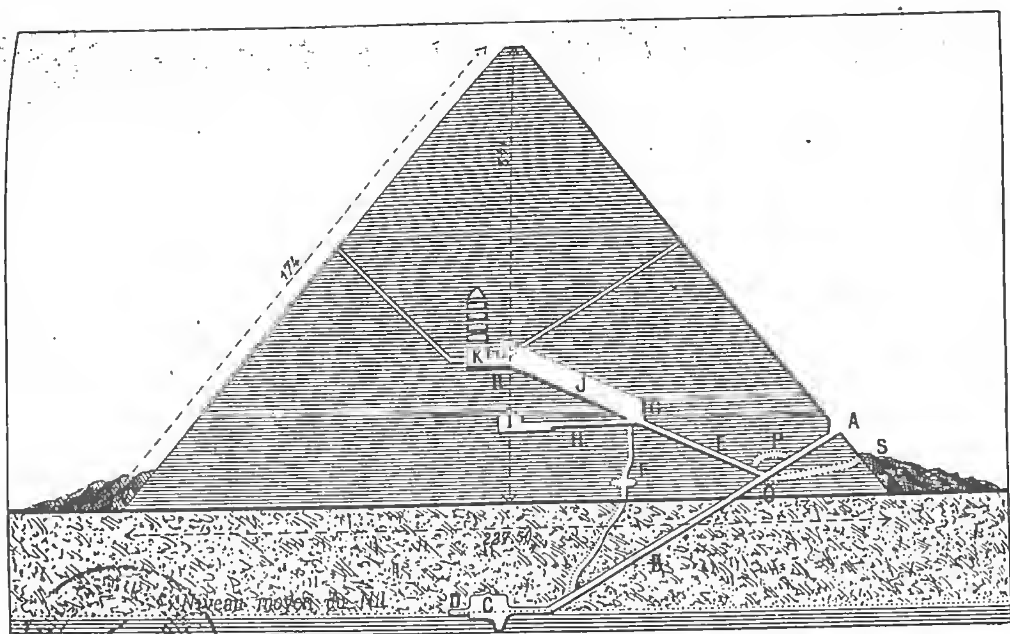
ويحكى « هيرودوت » الذى زار مصر منذ حوالى ثلاثة وعشرين قرنًا - يحكى أن خوفو (خيوبس) جعل الشعب المصرى يعانى كل أنواع الضيقات والضنك، وأن ذكرى هذه الآلام والمعاناة التى كانت ثمنًا لبناء الأهرامات ظلت محفوظة عبر العصور فى ذاكرة المصريين . كما يضيف « هيرودوت » أن خوفو (خيوبس) أغلق أولاً جميع المعابد ، ومنع تقديم القرابين ، ثم أجبر جميع المصريين على العمل من أجله . وفرض على بعض المصريين مهمة سحب الأحجار التى استخلصوها من السلسلة العربية (مناجم طره ومسره) حتى النيل . كما أمر الآخرين باقتياد هذه الأحجار حتى الجبل الليبى . وكانوا يعملون بلا هوادة ، وكان عدد العمال مائة ألف عامل ، ويتم تجديدهم كل ثلاثة أشهر . وأمضى الشعب المنهك عشرة سنوات فى بناء « المصطبة » التى ترفع عليها كتل الأحجار، وهو عمل يبدو لى أقل شدة من العمل بالهرم لأن طول المصطبة ٩٢٥ مترًا

وعرضها ١٨ مترًا وارتفاعها ١٥ متر و،الكل من الأحجار المقطعة المزينة بالأشكال المنحوتة . واستغرق بناء كل من هذه المصطبة والغرف المحفورة تحت الأرض (كأنفاق) فى الهضبة التى توجد بها الأهرامات حاليًا ، استغرق بناء كل ذلك عشرة أعوام إذن . كما تطلب بناء الهرم نفسه عشرون سنة ، وهذا الهرم له أربع زوايا ، ولكل من أوجهه الأربعة ثمانية حجارة عند القاعدة مع ارتفاع متساو ، وكل منها كتلة ناعمة ومضبوطة ضبطًا تامًا ، وليس لأى من هذه الكتل ضلع أقل من ثلاثين قدمًا ... والخصائص المصرية المنحوتة فوق الأثر تعلن عن قيمة المصاريف التى دفعت للعمال المستخدمين فى هذه الأعمال من كرنب ، وبصل وثوم ، وإذا كان لدى ذاكرة جيدة فلقد قال لى المترجم الذى ترجم الكتابة أن المبلغ الكلى المصروف على هذا الهرم يصل إلى ألف وستمائة عملة فضية . وإذا كان الحال كذلك فكم نكون قد صرفنا من حديد للآلات ، ومن غذاء وملابس بالنسبة للعمال ما دام البناء قد تطلب كل هذا الوقت الذى ذكرته من قبل ، والزمن الكبير الذى يبدو لى الذى تطلبه قطع الحجارة ونقلها وعمل الحفر والأنفاق بالأرض !

وبعد ذلك بأربعة قرون ونصف قال ديودور Diodore الصقلى عن هذه الأهرامات ما يلى : « إن المشاهد تمتلكه الدهشة أمام عظمة هذه الأعمال وضخامتها التى تطلب تنفيذها الكثير من الأذرع ، وهرم خوفر هو الأكبر ، وهو مبنى كله من الأحجار الثقيلة التى من الصعب قطعها ولكنها تدوم إلى الأبد . وفى الواقع منذ - على الأقل - ألف عام (والبعض يقبل أو يقول بثلاثة أو أربعة آلاف عام) حفظت هذه الأحجار حتى هذا اليوم ترتيبها الأصلى وهيأتها الأصلية . والشىء الذى يسبب المزيد من الدهشة هو أن هذا الأثر يوجد مرتفعًا وسط بلد صحراوى لا نرى فيه أى بقية من سقف أو أحجار مقطوعة ، لدرجة أن هذا الهرم لا يبدو أنه من عمل بشر أو إنسان ، ونعتقد أن أحد الآلهة قد بناه وسط بحر من الرمال . وبعض المصريين يحاولون شرح هذه المعجزة بقولهم أن الأسقف والمصاطب (جمع مصطبة) كانت تتكون من الملح والنترات وعندما وصلتها مياه النيل ذابت وهكذا تلاشت بدون مساعدة من يد إنسان » . وملك الفرعون خوفو (خيوبس) لمدة خمسين عامًا .

ويظهر مدخل هرم خوفو اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) على شكل فتحة مربعة تقريبًا توجد عند القاعدة الثالثة على بعد حوالى ١٨ متر من الأرض (انظر الرسم المقابل A) والممر B الذى ندلف إليه ارتفاعه متر واحد و ٢٠ سم وعرضه متر و ٦ سم ويهبط بميل رقيق بزاوية مقدارها ٢٦،٤١° . وعلى بعد ٧٧م من الفتحة الخارجية يصبح الممر أفقيًا مع احتفاظه بنفس أبعاده. ونتقدم بعد ذلك ٨ أمتار ونصل إلى غرفة مربعة C طول ضلعها ٦ أمتار وارتفاعها ٤ أمتار . وهذه الغرفة التى لا يوجد شىء يبين ما تستخدم فيه ، والتى يبدو أنها لم تستكمل ، هذه الغرفة تقع بالقرب من المحور الرأسى الكبير للهرم على ٣٢ مترًا أسفل القاعدة التى هى نفسها أعلى من متوسط مياه النيل بـ ٣٠ مترًا . وفى عمق وفى خلفية المدخل يفتح رواق أفقى جديد D يتجه نحو الجنوب بطول ١٦ مترًا ولكنه لا يؤدى إلى شىء . وفى ١٨٣٧م حفر فيه الكولونيل « ويز » بئرًا عند عمق ١١ متر دون اكتشاف أى شىء فى الأرض السفلى . وكما قال هيرودوت ، كانت مياه النيل تأتى إلى هذه الغرفة عن طريق قناة تحت الأرض ، وهذا ممكن مادامت الغرفة توجد على عمق ٢ متر أسفل مجرى النيل ، ويمكن أن تكون تلك هى نية (قصد) مؤسس الأهرام ، ولكن إذا فكرنا فى عدم انتظام أسوار المدفن فإن الأعمال تكون قد استكملت دون شك قبل بداية حفر القناة التى يجب أن توصل بمياه النيل .

والرواق الذى يؤدى إلى الغرفة السفلية الموجودة أسفل الأرض يمتلئ اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) بالرمال حتى النقطة O ، أى على بعد ٢٥ مترًا من المدخل . وفى هذا المكان توجد كتلة من الجرانيت تغلق فتحة الرواق الثانى E . وبما أنه لم يستطع أحد أن يضغط على هذه الكتلة فقد تم إدارتها (فى فترة غير معلومة) بعمل ممر P عبر نفس كتلة البناءين . وهكذا اكتشفنا ممرًا يصعد بطول ٣٥ مترًا . وعند النقطة G يصبح الممر أكثر اتساعًا وتظهر تفريعة جديدة . وباتباع الممر الأفقى H الذى له نفس طول الممر الذى تركناه منذ لحظة ، ونصل إلى الغرفة I التى يقال أنها للملكة الموضوعة على المحور الأفقى للهرم بالضبط ، وعلى بعد ٢٢ مترًا أعلى مستوى من الأرض ، وعلى الجانب الغربى لهذا الممر توجد فتحة لبئر مسدودة تمامًا وتوصل مع الممر B .



مقطع فى هرم خوفو (خيوبس)

وعند العودة إلى نقطة التفرع G ندلف فى الرواق الكبير J الذى بعد امتداد للممر E ونصل فيه بعد ارتفاع شاهق طوله ٥٠ مترًا إلى مصعد R كان مغلقًا من قبل بواسطة أربع كتل حجرية كبيرة من الجرانيت تنزلق فى « بروزات » طويلة وضيقة وتستخدم لإخفاء الغرف K التى يقال إنها للملك على بعد ٢١ مترًا ونصفًا أعلى من الغرفة السابقة . وهذه الغرفة ارتفاعها ٥ أمتار و ٨ سم وطولها ١٠ أمتار و٣٢ سم ، وعرضها ٥ أمتار و٤٣ سم ، ولا تحتوى سوى على تابوت من الجرانيت الأحمر بدون زينة أو كتابة هيروغليفية ، وهنا كانت المومياء الملكية موضوعة . وأعلى غرفة الدفن تم اكتشاف خمس غرف صغيرة موضوعة فوق بعضها ، ويبدو أنه ليس لها أى هدف سوى تخفيف ضغط البناء العلوى على سقف الغرفة الملكية . وهنا تم اكتشاف سلاح الملك خوفو وزيه العسكرى .

فى عام ٨٢٠ من ميلاد المسيح كان الهرم مازال محتفظًا بكسوته من الجرانيت التى تغطى أوجهه الأربعة كدرع مما كان يجعله حتى هذا الوقت محميًا ومصانًا ضد هجمات الزمن وهجمات الناس . وفى هذه الفترة أراد الخليفة عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد البحث عن مدخل الهرم . ويقول التقليد الذى تسنده رواية المؤرخين العرب . يقول أن « ساوريد » أو « سورس » ملك مصر كان قد بنى الأهرام . وكان هذا الملك يعيش قبل الطوفان (طوفان النبى نوح) بثلاثمائة عام . وكان « ساوريد » أميرًا كبيرًا مشهورًا فى كل الكون بعدله وإنسانيته . وفى ليلة ما حلم هذا الأمير حلمًا ، ورأى أثناء هدا الحلم أن السماء تنقلب على الأرض ، وكل الخليقة تضطرب وتهتز بعنف ، والكواكب تحوم بطريقة فوضوية غير منتظمة بين الناس الذين صرخوا صرخات مفزعة من الخوف ، وسقطوا بالآلاف ووجوههم متجهة نحو الأرض . وفهم ساوريد أن هذا الحلم يعلن له عن طوفان مرعب ، فجمع كل الكهنة والسحرة الموجودين بمملكته ، وتم استشارة الآلهة ، وأعلنوا للملك أن هذا الحلم المخيف ينبئ عن طوفان كونى سوف يتبعه بعد عدة قرون حريق عام حيث تباد الأرض كلها بالنيران . حينئذ أمر « ساوريد » ببناء الأهرامات لكى تدفن فيها جثث الملوك الذين سبقوه ، والوثائق ، وقوانين المملكة

المنحوتة فوق البرونز ، والجداول الفلكية للكهنة ، والأشياء الثمينة التى تزين التاج ، والكنز العام ، وبكلمة مختصرة كل ما تمتلكه مصر من أشياء نادرة وثمينة . وحفظ كل هذه الأشياء من غضب المياه . وبدأ العمل فى بناء الأهرام فى الحال ، ولإعطاء المزيد من الصلابة للآثار أحضروا من « سيان » عبر النيل أكبر الأحجار المشهورة بديمومتها . وعندما استكملت الأهرامات نقلت إليها كل الأشياء المراد الاحتفاظ بها . وكان الهرم الأكبر يحتوى بصفة خاصة على الأشياء الثمينة جدًا ، فكل ما أخفى فيه من أكواب ومن ذهب وفضة ، ومن مجوهرات ، ومن تماثيل ومن أحجار ثمينة كان لا يعد ولا يحصى ، كما كانت النقود الذهبية من كل نوع موضوعة فى الهرم على هيئة أعمدة ، وكل قطعة نقود كانت تساوى على الأقل ألف دينار (١٥٠٠٠ فرنك فرنسى) . وكان « الخليفة » مقتنعًا بوجود هذه الكنوز فأمر بفتح الهرم . فهجم المهندسون بحيوية ونشاط على منتصف الواجهة الشمالية باستخدام الحديد والنار والخل . ونجح هؤلاء المهندسون فى فتح ممر فى جزء كبير من الأثر ، عند النقطة S على بعد خطوات أعلى من القاعدة . وكان العمل شاقًا جدًا ، وتراجع العمال الذين ثبطت عزيمتهم عدة مرات عن استكمال العمل ، ولكن الوعود والعنف أعطيا مزيدًا من الحيوية للعمال . وكان الرواق يقع على عمق حوالى ثلاثين مترًا عندما أحدث السقوط الفجائى لبعض الأحجار صوتًا مكتومًا ومستمرًا كان يصدر من رواق مجاور علوى . وبعد قليل تم اكتشاف الممر الحقيقى مع مدخله A الذى يقع على بعد ٧ أمتار ونصف على يسار خط الوسط . ويقول أحد المهندسين : « حينئذ توغلنا عبر طريق صعب داخل غرفة من الجرانيت اللامع . وكانت الأرضية تتكون من ثمانى كتل من الحجارة ، والسقف كذلك من ثمانى كتل ، وهو عبارة عن سقف مقوس بارز ، وتتكون الأجناب من ست عشرة كتلة من الحجارة ، والكل مضبوط بحكمة لدرجة أنه كان من المحال إدخال نصل سكين من الفواصل . وكان يوجد فى خلف الحجرة حفرة كبيرة من الحجارة اعتقد الباحثون عن الكنوز أنها تحتوى على الكنوز التى سمعوا عنها ، ولكن كانت المفاجأة كبيرة بالنسبة لهم كما كان فقدانهم للأمل كبير كذلك عندما رأوا أن هذه الحفرة كانت فارغة وبدون

غطاء... وتمتم الشعب عندئذ ضد الخليفة ولام محبته الغبية للثراء التى عملوا من أجلها بلا جدوى . وعندما تعب المأمون من هذه الكلمات حمل سرًا بعض من قطع النقود تم إخفائها فى خلفية أحد الأروقة . ووجد العمال هذا الكنز المزيف ، وبسبب اعتقادهم الساذج أعلنوا فى كل مكان أنهم اكتشفوا كنوز الفراعنة » .

ويحكى مؤرخ عربى آخر يدعى ابن عبد الحكم : « إنه تم اكتشاف تمثال يشبه رجلاً فى القبر ، وإن هذا التمثال الذى يحتمل أن يكون صندوق المومياء كان يحتوى على جثة مع درع ذهبى مرصع بالمجوهرات يحمل كتابات مخططة بريشة ولا يفهمها أحد » . وهذه الترجمة مليئة بالأخطاء بلا شك . فمن المؤكد أن الهرم كان قد سرق من قبل عند دخول عمال الخليفة فيه مادام الرواق الذى اكتشفوه أعلى منهم كان يقودهم بلا صعوبة إلى مداخل غرفة الدفن . والشبكات المدببة من الجرانيت التى كانت تغلق المدخل كانت مكسورة ، والكتل التى كانت تسد الأروقة لم تكن موجودة ، والمسلة الضخمة التى كانت تعلم تفرع الأروقة B و E كان قد تم إدارتها عن طريق الممر P .

فى أى فترة انتهكت حرمة الهرم ؟ لا يعطى التاريخ شيئًا محددًا عن هذا الموضوع. فإذا رجعنا إلى ما قبل العصر الإسلامى لا شىء يدل أثناء العصور الرومانية واليونانية على عمل هدام مشابه. ألا يمكننا بالحرى اتهام « قمبيز Cambyse » بارتكاب مثل هذا الانتهاك ؟ عندما عاد الغازى الفارسى (قمبيز) من حملته التعسة الفاشلة فى أثيوبيا قام بتخريب معابد ممفيس وتوج أعماله الشنعاء بانتهاك حرمة مقابر الملوك القدماء . حيث شتت المومياوات ... » أيًا ما كان الأمر ، فالذين انتهكوا حرمة الهرم اعتنوا بغلق الفتحة الخارجية للأثر بطريقة لا تترك أثرًا ظاهرًا لفعلتهم الشنعاء . وذلك لأنهم كانوا يريدون أن يخفوا هذا العمل البربرى عن الأجيال التى تأتى من بعدهم .

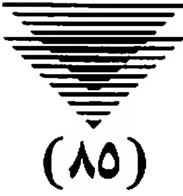
ومدخل الهرم مرتب بطريقة تسمح بتتبع أثر الذين يريدون خداعهم عن المكان الحقيقى للمومياء . وباتباع تفكير السيد مارييت فلنفترض أنه تم اكتشاف المدخل المخفى تحت الكسوة ، فإنه بعد ذلك يظهر عائق ألا وهو الكتل أو كتل الحجارة التى

تملأ الممر B . وإذا نجح المنتهكون فى كسر هذه الحجارة والعبور بجانبها فسيصلوا إلى داخل الغرفة C وعندما يدرك المنتهكون أن هذه الغرفة ليست الغرفة الحقيقية فيجب أن يجسوا الممر B فى كل أجزائه حتى يجدوا النقطة التى يتفرع عندها الممر الثانى الذى يعتقد أنه الممر الفعلى . ولكن هذه المرة يجب مهاجمة كتل من الجرانيت . أى حفر هذه الكتل . ووفقًا لترتيب الحجارة يعرف المنتهكون أو اللصوص أن المكان الذى يبحثون عنه موجود عند النقطة O . والمكان هنا ممنوع التوغل فيه بسبب وجود مسلة كبيرة ، وتكسير هذا العائق يؤدى إلى صعوبات لا يمكن التغلب عليها ، حينئذ يجب الالتفاف حول العائق بعمل طريق P عبر البناء الذى يحيط به ، ثم يجد المنتهكون أنفسهم فى الممر الصاعد E . وعند طرف هذا الممر المصعد G غير مرتب بالطريقة التى يترتب بها اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) فهو مسدود تمامًا وكذلك فتحة الآبار . وإذا ضغطنا الممر فمن الطبيعى الكتل الرخامية المنتظمة كدليل ، وعندئذ يدخل المنتهكون فى الممر H دون أن يدركوا أن هناك ممرًا آخر صاعدًا يقع فوق رؤوسهم . فيصلوا هكذا إلى الغرفة I . وعندما يدرك المنتهكون كذلك إن هذه الغرفة ليست الغرفة الحقيقية يفحصون بدقة كل أجزاء الممر ، وينتهون باكتشاف الرواق J الذى يؤدى هذه المرة إلى داخل الغرفة الحقيقية بعد تكسير الشبكات المدببة من الجرانيت التى تمنع الدخول . وطريقة فهم التوزيع الداخلى للأثر تفسر لنا سبب وجود البئر . وأثناء بناء الهرم تم وضع الكتل ذات أبعاد الممر E فى الرواق الكبير J . واستكمل البناء والمومياء فى مكانها. وبعد ذلك تركت كتل الحجارة تنزلق تحت تأثير وزنها فقط فى الممر E ، ثم يسد المصعد G ، ثم ينزل العمال عند البئر ويصعدون إلى الخارج عن طريق الممر B الذى يمتلئ بدوره بكتل الحجارة التى تدخل إليه عبر فتحته الخارجية .

وقمة الهرم الأكبر تمثل سقفًا مربعًا طول ضلعه تسعة أمتار . والبانوراما أو المشهد الذى نكتشفه من هذا المكان بديع مدهش ، فإلى الشرق نرى سهلاً واسعًا من الخضرة مشقوقًا بالعديد من القنوات وبعدها مباشرة يمر النيل بأمان فى مجراه ، ثم نرى كمية من القرى يظهر نصفها مختفيًا وسط أشجار النخيل ، وأبعد من ذلك نرى

القاهرة مع قلعتها حيث الجامع يرسم كنقطة مضيئة على الأجناب الحمراء للمقطم الذى يغلق الأفق . وإلى الجنوب موقع مدينة ممفيس مع سلسلة طويلة من الأهرامات تمتد حتى الفيوم . وإلى الشمال وإلى الغرب نشاهد الصحراء الغربية ، وهى صحراء بلا حدود ولا نهائية ، وبلا صوت ومخيفة ، وتفرد مثل ملاءة لا نهائية حتى حدود أفريقيا الغربية . وغالبًا ما نوصى السياح بمشاهدة شروق الشمس من أعلى الهرم الأكبر لأنه مشهد بديع ، ونحن (السياح) نرى أن النظرة ستكون بديعة ، ولكننا - نحن السياح - نفضل كثيرًا حضور تأثير الشمس وهى تغرب ، ففى الصباح النظر يظللنى - كسائح - من ناحية الشرق . لأن الأفق محدود بسبب الضباب الذى يغطى النيل ، بينما عند المساء يضاء الوادى كله مباشرة ، ويمكننا (نحن السياح) أن نميز كذلك فى سلسلة الجبال الشرقية ، الأماكن المكشوفة التى تستخرج منها الكتل التى تستخدم فى بناء الأهرامات . ثم هذه المدينة القديمة منذ العصور الأولى والتى تنام عند سفح المدافن المظلمة . وهذه الأهرامات التى ترتفع مثل مدافن ضخمة تذكرنا بالعديد من الأجيال التى تلاشت ، وهذه السهول القاحلة (غير المزروعة) التى تنطفى خلفها آخر أضواء اليوم . كل ذلك يدهش الروح ، ويحدث انطباعًا آخر غير الانطباع الذى يحدث عند رؤية الأشعة السعيدة للشمس المشرقة .

* * *



(٨٥)

هـرم خـفـرع

تاريـــخ

بعد موت « خيوبس » (خوفو) ورث أخوه خفرع العرش (خفرع ليس الخليفة المباشر ، ولكنه الخليفة الثانى لأخيه) . وعمل خفرع مثل خوفو فى كل شىء ، وبنى هرمًا لا تصل أبعاده إلى أبعاد الهرم الأول . لأننا قمنا نحن (السياح) بقياسه ... والهرمان موجودان فوق هضبة يبلغ ارتفاعها حوالى مائة قدم . ويقال إن خفرع ملك لمدة ستة وخمسين عامًا . فتحسب إذن مائة وستة أعوام عانى خلالها المصريون شتى أنواع الأحزان ، وأغلقت المعابد دون أن تفتح مرة واحدة . ويتجنب المصريون تسمية هذا المكان بسبب كراهيتهم لهما . وتصل حدة هذه الكراهية إلى درجة تسمية هرمى هذا المكان باسم الراعى « فليتيون » الذى كان يرعى قطيع أغنامه فى هذه الأماكن وفقًا لما قاله « هيرودوت » . ووفقًا للتقليد لم يتمتع كل من خوفو وخفرع بهذه المدافن التى كانوا قد بنوها بكثير من المعاناة والألم . فقد ثار الشعب من كثرة الغيظ واقتلع جثثهم من التوابيت وقطعها إربًا . (وفقًا لما رواه « ديودور الصقلى ») .

ويبلغ ارتفاع هرم خفرع مائة وسبعة وثلاثون مترًا ، (١٣٧م) ويبلغ طول كل من أوجهه ٢١٠ أمتار . والجزء العلوى مازال يحمل الكسوة الناعمة التى كانت تغطى الهرم كله فى الأصل . وفُتح هرم خفرع فى عام ١١٩٦م بواسطة السلطان العزيز عثمان ابن صلاح الدين وخليفته ، ونقلت هذه الواقعة فى كتابة عربية مخطوطة فوق حوائط

غرفة المدفن . وتم غلق الفتحة بطريقة تخفى أى أثر للانتهاك أو للسرقة . وهذا الهرم له مدخلان ، وهما مدخل عند نفس ارتفاع هرم خوفو ، والمدخل الآخر عند مستوى القاعدة . والممران يهبطان بزاوية ٢٥ درجة على طول يبلغ ٣٢ مترًا ويغلقان بواسطة كتل من الجرانيت . والممر الداخلى يتجه أفقيًا فى اتجاه غرفة طولها ١١ مترًا ونصفًا ، وعرضها ٣ أمتار و ٥٥ سم ، وارتفاعها ٣ أمتار ، ثم يستمر هذا الممر فى اتجاه متصاعد حتى يتلاقى مع الممر العلوى الذى يمتد أفقيًا حتى غرفة ثانية تقع عند محور الهرم ، وتبلغ أبعاد هذه الغرفة ١٥ مترًا طولاً ، و٥ أمتار عرضًا ، و٧ أمتار ارتفاعًا ، وتسمى غرفة بلزونى . وهو اسم الشخص الذى اكتشفها فى ١٨١٨م . وتحتوى هذه الغرفة على تابوت من الجرانيت الأحمر مدفونًا فى أرضية الغرفة ، وهو أكبر قليلاً من تابوت خوفو (خيوبس) وليس به أى نحت أو كتابات هيروغليفية مثله ، ووجد فيه « بلزونى » Belzoni عظام جاموس .

ويرتفع سور مزدوج من الأحجار غير المقطعة أمام الواجهة الغربية للهرم . وفوق الواجهة المقابلة توجد أطلال مبنى يحتمل أن تنتمى إلى معبد مكرس أمام قبر خفرع الذى كان يعبد كإله وفقًا لاعتقاد المصريين بأن كل فرعون كان أثناء حياته تجسيدًا للألوهية ، ورجع إلى طبيعته الإلهية بعد موته .

واكتشف السيد ماريت تمثالاً بديعًا لخفرع فى قاع بئر فى معبد الجرانيت الذى يقع بالقرب من أبى الهول . والملك يمثل جالسًا وفقًا للقوانين الدينية المصرية ، وخلف رأسه يقف نسر مفتوح الذراعين كعلامة للحماية . ونحتت على القاعدة كتابات لا تترك أى شك عن شخصية هذا الأثر . ويتميز هذا التمثال ككل ببعض الجلال الهادئ الذى يشد الانتباه ويثير الدهشة . والرأس مصانة بطريقة لا تصدق ، ويجب أن تحمل ملامح الملك خلال سنوات عمره الناضجة . وكل التفاصيل تعد علامة لبعض الأبحاث التى تتعدى كل ما أنتجه النحت المصرى .

* * *



هرم منقرع

تاريخ

يقول هيرودوت : « بعد خفرع صعد ابنه منقرع على العرش . ولم تعجبه أعمال أبيه ، فأعاد فتح المعابد وأرسل الشعب الذى كان يعانى من أقسى صنوف الفقر إلى أعياده الدينية وإلى أعماله ، وأخيرًا جعل العدالة أكثر عدلاً من كل الملوك الآخرين . والمصريون يمدحونه فى هذا الموضوع أكثر من كل الذين ملكوا على مصر ، لأنه لم يكن يحكم حكمًا عادلاً فقط ولكنه كان يعطى بعض الهدايا لمن يشكو من حكمه لمسح أحزانه . ومع ذلك فمنقرع الرقيق الذى يسعى للاهتمام بسعادة هذا الشعب هوجم بالتجارب والأوجاع التى بدأت بوفاة ابنته الوحيدة فوضع جثمانها فى تمثال بقرة صغيرة جدًا من الخشب المفرغ ووضعه فى سائيس Sais (نوع من الصناديق) فى مكان إقامة الملوك ... وهذه البقرة الشابة كانت تمثل وهى راقدة فوق ركبها وتحمل بين قرنيها قرصًا من الذهب . وكان هذا التمثال يخرج كل عام لكى يؤدى له الشعب التشريفات الإلهية » . وفكرة التقوى التى ألصقها التقليد الشعبى بحكم منقرع أكدتها شهادة هذه الآثار . ليس لأن هذا الملك (منقرع) قد أعاد فتح المعابد - كما يقال - لأننا نعلم اليوم أنها لم تغلق مطلقًا . بل لأنه أمر أحد أبنائه بالتجول فى معابد (قدس أقداس) مصر لكى يرمم دون شك المعابد الموجودة فى حالة رديئة ، وعمل معابد جديدة فى كل المدن . وخلال هذه الرحلة التفقدية (التفتيشية) اكتشف الأمير وفقًا

لبعض الوثائق فصلاً من الطقوس الجنائزية ، عند سيسون (هرموبوليس) أسفل الإله « توت » مكتوبًا باللون الأزرق على حجر من الرخام الشفاف .

وأثناء الأسرة السادسة قامت الملكة « نيتوكريس » بتوسيع هرم منقرع وأعطته هذه الكسوة (من السيانيت) التى أثارت إعجاب السياح اليونانيين والرومانيين والعرب . وفى مركز هذا الهرم عينه أعلى الغرفة التى كان يرقد فيها جثمان منقرع التقى والورع من أكثر من ثمانية قرون . وفى هذا المركز دفنت بدورها ، ووضع جثمانها فى تابوت بديع من البازلت الأزرق الذى تم اكتشاف أجزاء منه . وأدى ذلك فيما بعد إلى أن ينسب إليها بناء هذا الهرم كله سلبًا لحق البانى الحقيقى (منقرع) . وحول السياح اليونانيون الملكة « نيتوكريس » إلى فتاة سيئة السمعة أو ذات سلوك ردئ . وشبهوها بأمه تسمى «رودوبس» التى كانت العبدة الرفيقة للشاعر اليونانى « إيسوب » Esope الذى جاء إلى مصر حيث منحه سحرها بعض النجاح . ويقول « سترابون » «Strabon» : « يومًا ما كانت رودوبس تستحم فى النيل ، فحط نسر على فردة من صندلها أو حذائها وحملها فى اتجاه ممفيس ، وتركها تسقط فوق رجل الملك الذى كان يتنزه فى الهواء الطلق . وتعجب الملك من هذه المغامرة الفريدة ومن جمال الصندل أو فردة الحذاء وبحث فى كل البلاد عن المرأة التى تنتمى إليها هذه الفردة ، وهكذا أصبحت « رودوبس » ملكة لمصر . وعند موتها كان الهرم الثالث قبرًا لها . وحورت المسيحية والعرب الغزاة خصائص هذه الأسطورة مرة أخرى دون أن تمحو ذكرى نيتوكريس تمامًا .

« يقال أن روح الهرم الجنوبى لا تظهر مطلقًا بالخارج إلا على شكل امرأة عارية جميلة على الأقل ، وطرق سلوكها هى أنها عندما تريد أن تعطى الحب لشخص ما وتجعله يفقد الروح فإنها تضحك له ، وعندما يقترب منها تجذبه وتملأه من الحب ، لدرجة أنه يفقد روحه فى الحال ويجرى كالمشردين فى كل أنحاء البلاد . ولقد رآها كثير من الناس وهى تحوم حول الهرم من الناحية الجنوبية وفى وقت غروب الشمس تقريبًا » . إنها نيتوكريس التى تزور هذا الأثر الذى أكملت بناءه .

ويبلغ ارتفاع هرم منقرع ٦٦ مترًا ، وطول أوجهه عند القاعدة هو ١٠٥ أمتار . وهذا الهرم مصان أكثر من الهرمين السابقين ، ومازال يحمل عند جزئه الداخلي كسوته من الجرانيت حتى ارتفاع ١٢ مترًا . « وفي عام ١١٩٦م عندما هاجم عمال « العزيز » هرم خفرع بعض الأشخاص الخالين من الإحساس والشعور الجيد أقنعوا السلطان بهدم كل الأهرامات ، وأعطى السلطان الأمر بذلك في الحال . وبدأ العمال في هدم الهرم الثالث هرم منقرع الذي يسميه العرب الأحمر . فأرسل الكثير من عمال المناجم والحمالين وعدد كبير من العمال - أرسلوا إلى هضبة الجيزة تحت قيادة بعض أمراء البلاد وظلوا بالهضبة ثمانية أشهر كاملة ولم يستطيعوا سوى رفع حجر أو حجرين في اليوم الواحد من فرط العمل والإجهاد . وبعد استنفاد قوى العمال وصرف كل النقود المخصصة لهذا المشروع المجنون هجر الأمراء المثبطين الأعمال » . وذلك حسب رواية أحد المؤرخين العرب المعاصرين .

واكتشف « كافيجليا » مدخل الأثر . واستمرت الأعمال بقيادة الكولونيل ويز Wyse في ١٨٣٧م . والفتحة على ارتفاع ٤ أمتار ونصف من سطح الأرض ، ويهبط الممر بزاوية قدرها ٢٦° ٢َ على طول مقداره ٣٥م ، ويصل إلى المدخل الرئيسي الذي ينفصل عن الغرفة التي تسبقه بشبكات من الجرانيت المدبب والمسنن . وتقع هذه الغرفة على المحور الرئسي للهرم ، وطولها ١٥ مترًا وعرضها ٤ أمتار ، ويتم الوصول إليها باتباع ممر أفقي . وهنا تم اكتشاف بقايا تابوت من الخشب مع هذه الكتابة : « أيها الملك أوزوريس (منقرع) ملك مصر المنقسمة إلى اثنين فلتعش إلى الأبد ، مولودًا من السماء ! أمك نوت جعلتك إلهًا بإبادتها لأعدائك ، أيها الملك الكائن إلى الأبد ! » كما توجد غرفتان أخريان تحت الأولى ، وتحتوي إحدى هذه الغرف على تابوت بدون كتابة تم إرساله إلى إنجلترا ، ولكن السفينة التي كانت تنقله تحطمت فوق سواحل البرتغال ! وفي الغرفة الأخرى كانت توجد تجاويف منحوتة في حوائط لكي توضع فيها مومياوات كما هو محتمل .

وأمام الواجهة الشرقية للهرم عند طرف مصطبة من الحجارة ، نرى أطلال معبد كان مكرسًا أو مخصصًا من قبل لمنقرع . وعند الجنوب ترتفع ثلاثة أهرامات أخرى ذات أبعاد صغيرة وهى « مثل أجنة (صغار) الأهرامات » وفقًا لتعبير الدكتور «إيزمبار». ويشكل هرم منقرع من الأهرامات الثلاثة الصغيرة التى تقع جنوبه والمعبد الذى يقع شرقه - يشكل مجموعة محاطة عن بعد بأسوار مكونة من كتل من الحجارة غير مقطعة تشبه تلك التى لاحظناها إلى الغرب من هرم خفرع .





(٨٧)

الأهـرامات الصغرى

إلى الغـرب من الهـرم الكبيـر توجد ثلاثة أهـرامـات أخـرى صـغـيـرة جدًا ، ويقـول هيرودوت أن واحدًا منها يحتوى على بقايا (جثمان) ابنة خوفو (خيوبس) . وتأكدت هذه الشهادة باكتشاف السيد ماربيت لمسلة وجدها فى مبنى مهدم بالقرب من واحد من الأهرامات الثلاثة الصغار الأكثر قرباً لاتجاه الجنوب . وتعلمنا الكتابة أن خوفو قد بنى هرم الأميرة الملكة (ابنته) بالقرب من هرمه ومن معبد ايزيس ، وتم فحص وتجسس تجاويف الآثار ولكن لم يتم أكتشاف أى شئ .

الأهرامات الصغار التى ذكرنا أنها توجد جنوب هرم منقرع تمت زيارتها والتعرف على كل تفاصيلها . ففى غرفة أحدها يوجد تابوت من الجرانيت بدون كتابة يوجد بداخله شقان عميقان ينزلق فوقهما غطاء مثبت فى قطعة متحركة من الحديد . ووسط السقف نلاحظ اسم الملك منقرع مكتوباً باللون الرمادى . وتم بناء غرفة صغيرة أعلى السقف لحمايته من ضغط الحجارة العلوية للمبنى ، والقسم الداخلى للأثرين ليس به شئ هام .

* * *



(٨٨)

أبـو الهـول

على بعد خمسمائة متر إلى الشرق من هرم خفرع توجد صخرة طبيعية أعطى لها الشكل الخارجى منظر أسد مجعمز له رأس إنسـان . وتم تصحيح الأبعاد غير المنتظمة للصخـرة التى كان يراد الحفـاظ على كل أبعـادها بواسطة بناء متمكن حكيم أعـاد لها شكلها الأصلى . وتم نحت الرأس وحدها . ونسطيع أن نتعرف على أنها كانت مدهونة باللون الأحمر فى الأصل . والارتفاع الكلى للآثر مأخوذاً من أعلى الرمال المتراكمة التى تخفى الجزء الداخلى هو ١٩ مترًا و٨٠ سم ، كما يبلغ طول الوجه الذى أقتطع جزء منه من الذقن حتى أعلى الجبهة ، وعرض الوجه ٤ أمتار و١٥ سم ، والعين طولها متر و٤٠سم ، والفم ٢متر و٣سم ، والأنف متر و ٧٩سم ، والأذن متر و٩٧سم ، وطول التمثال ككل ٦٣ مترًا و٥٠ سم ، وفى ١٨١٦ قام الكابتن « كافيجليا » بتنظيف أبو الهول وكنس الرمال الموجودة حوله . وتم اكتشاف مذبح ومبنى صغير مكون من ثلاث مسلات وأسد مجعمز بين أرجل التمثال الضخم . والمسلة الموجودة فى الخلفية منحوتة من الجرانيت وارتفاعها ٤ أمتار ، وهى موضوعة فوق صدر أبى الهول ، وتحمل صورة الفرعون تحتمس الرابع من الأسرة الثامنة عشرة ، وهو يعطى من جانب البخور ، ومن جانب آخر كأسًا به خمر لصورة أبى الهول تمثل دون شك التمثال الضخم مع الذقن وكل صفات الإله . وتم وضع الأسد عند مدخل قدس الأقداس ، وكان ينظر إلى المسلة المركزية . ولا تحمل الصخرة أى أثر يمكننا من خلاله أن نقترح وجود ممر داخلى . وفى ١٨٥٣م كان السيد مارييت مسئولاً من قبل « الدوق دى لانز » « Duc de Lynes » وزير

الملك لويس الثالث عشر عن الاستمرار فى هذا العمل الذى استمر فيه حتى عام ١٨٥٤م بأمر من الحكومة الفرنسية ، وبعد ذلك بأربع سنوات استمر يعمل فيه لحساب الحكومة المصرية .

ويحكى « بلين » Pline (وهو كاتب من القرن الأول) فى وصف مطول عن أبى الهول أنه فى زمنه (القرن الأول) كان يعتقد أن هذا الأثر كان قبراً « لأموزيس » من الأسرة السادسة والعشرين ، ومنذ أن نظف « كافيجليا » « Caviglia » الأثر وكنس الرمال من حوله ، أقترح العديد من العلماء – بعد أن نسبوا أبا الهول لخفرع اقترحوا بأنه يجب أن يكون للتمثال بعض الروابط مع تحتمس الرابع الذى له تمثال على المسلة الكبيرة لقدس الأقداس . ولكن أبحاث السيد مارييت ، وخاصة أكتشاف المسلة التى لها ارتباط بابنه خوفو (خيوبس) والتى تحدثنا عنها من قبل ألقت على هذه المسألة المظلمة ضوءاً مفاجئاً . فالمسلة تحمل كتابات على الواجهة الرئيسية وعلى الجزء العلوى للقاعدة الذى يستدير إلى الأمام . وأولى هذه الكتابات حفظت حفظاً ممتازاً غير أن أسلوبها ردئ . بينما لا تبيح الكتابة الأخرى قراءة أى شئ فيما عدا بعض العلامات يستحيل إعطاؤها أى معنى . وتشبه الواجهة الرئيسية ناوساً أو حائطاً فقط ببروزه . والنص المنحوت على الشريحة اليمنى (الغربية) هو هكذا : « الحى حورس الذى ملك مصر العليا والواطئة (الوجه البحرى والقبلى) خوفو الحى قد رمم معبد إيزيس عميدة الهرم الموجود بالمكان الذى يوجد فيه أبو الهول عند الواجهة الشمالية الغربية لمعبد أوزوريس إله « روزاتو Rosatou » . وبنى هرمه فى المكان الذى يوجد فيه معبد هذه الألهة ، كما بنى هرم الأميرة « هنتزن » فى المكان الذى يوجد فيه هذا المعبد » .

ونقرأ على هذه الشريحة الشرقية : « حورس الحى الذى ملك مصر الواطئة والعليا ، خوفو الحى عمل هذا الأثر لأمه إيزيس الأم الإلهة التى تدعى هاتور عميدة «المنونيا Memnonia » التى أمرت بأن يكتب ذلك فوق مسلة . وقد جدد لهم (الأساسات) القرابين الألهية ، وبنى لهم معبده من الحجارة ، ومرة أخرى أسترجع إلهة (هذا المعبد) فى قدس أقداسه » .

أضف إلى ذلك أن أبا الهول يتمثل منحوتاً على المسلة ، وترافق صورته الكتابة التالية : « مكان تمثال أبو الهول « لحور-ام- خو » (هرماخيس Harmakhlis) هو جنوب معبد ايزيس عميدة الأهرام ، وإلى الشمال من معبد أوزوريس ، إله « روزاتو Rosato» . ودهانات الإله حور - أم - خو مطابقة للتعليمات والأوامر » . وينتج من هذا النص أن أبا الهول كان موجودًا فى زمن الملك خوفو (كتمثال) ، مادام كان يعد ضمن الآثار التى استعادها هذا الفرعون ونفهم من ذلك أن تمثال أبو الهول كان موجودًا منذ الأزمنة القديمة جدًا .

إن أبا الهول رمز يصل عمره لعدة قرون ، وهو يشخص مصر القديمة . وعلى الرغم من الاستقطاعات الموجودة بالوجه ، وهى تتجيس وازدراء سببه التعصب والجهل والخرافة ، وسمات وجه التمثال الضخم تم الحفاظ عليها فى مجملها ، وهذا الهدوء وهذه السكينة اللتان يميزان فن النحت المصرى . فماذا كان يمثل حقيقة فى فكر هذه الأزمنة السحيقة هذا التعشيق المدهش المذهل للنعمة (الهدوء) والقوة المتحدتان بشدة معًا لدرجة أنهما لا يشكلان سوى جسد واحد ؟ هل هو حلم فنان أو أحد شطحاته ؟ لا بالطبع فلا يوجد شىء أقل شطحًا من العبقرية المصرية ، وهى عبقرية تتميز بالفكر الواعى المميز ، وعبقرية ذات رموز ، ومفاهيمها التى تبدو غريبة للوهلة الأولى تخفى معنى عميقًا . إنه الإله « هرماخيس » أو « الشمس المشرقة » ... ولكن فى أى عصر نحت هذا الأثر الذى يبدو أنه يحرس الأهرامات ؟ وما هو الغرض الحقيقى من نحت هذا التمثال العملاق فى الصحراء ؟ النصوص لا تعطى إجابة على هذا السؤال . ويقول السيد أمبار Ampère : « إن هذا الشكل الكبير الذى اقتطع جزء منه له تأثير كبير جدًا، فهو مظهر أبدى . فهذا التمثال المبنى من الحجارة يبدو منتهيًا ، فيقال إنه يسمع وإنه ينظر . ويبدو أن أذنه الكبيرة تستقبل أصوات الماضى ، كما يبدو أن عينيه المستديرتين فى اتجاه الشرق تلاحظان المستقبل فى سرية تامة ، والنظرة لها عمق وحقيقة تذهبان عقل المشاهد . ونكتشف فوق هذا الشكل الذى نضفه تمثال ونصفه جبل ، نكتشف جلالاً قويدًا ، وسكينة كبرى ، ورقة كبرى كذلك » .

ويقول « عبد الرحمن بن خلدون » أحد الكتاب العرب « إن أبا الهول (سفنكس) كان ينظر إليه على أنه « حجاب » أو أيقونة تحمى المزروعات ضد غزو رمال الصحراء . وتم اقتطاع جزء منه أثناء حكم السلطان « برقوق » فى القرن الرابع عشر بواسطة أحد الشيوخ المتعصبين . ويضيف « عبد الرحمن » إنه حدث عندما كان الرجلان المسئولان عن قطع أنف هذا التمثال الكبير العملاق بكتل كبيرة من الحديد ، حدث أن هذين الرجلين سقطا على الأرض فوق كتل كبيرة من الحجارة المقطعة وقتلا ، وفى الحال هبت رياح الصحراء الساخنة . واعتقد الشعب أن التمثال الضخم ينتقم ، فلم يجرؤ أحد على لمسه خوفًا من غضبة » . ويتحدث المقريزى (فى القرن الخامس عشر) عن هذا التمثال بإعجاب شديد ويقول : « أحد المجانين . أحد الشيوخ (المسلمين) ويدعى محمد ويلقب « بصائم الدهر » (صائم القرن) فى حالة من الحماقة ، ولكى يتقرب إلى الله (وفقًا لرأيه) قد ضرب التمثال عدة ضربات بكتلة من الحديد ، وسبب له اقتطاعات لا يمكن ترميمها ، ويحمل التمثال الضخم أثرها حتى اليوم » . ويبدو أنه من المؤكد أن التمثال كان حتى القرن الثانى عشر مصانًا لم يقترب منه أحد . ويقول عبد اللطيف : إن شكل التمثال كان جميلاً ، وكان الفم رقيقًا ومبتسمًا . كما يضيف أن اللون الأحمر الذى كان يغطى الوجه كان ساطعًا وزاهيًا . والعرب يسمون « سفنكس » اليوم باسم « أبو الهول » ، أو « أبو الخوف والفزع » .

* * *



معبد الجرانيت

وبالقرب من « أبو الهول » من الناحية الجنوبية الشرقية يوجد أثر مميز اكتشفه السيد ماربيت وسمى معبد « أبو الهول » بصفة عامة . وتم بناء كل أجزاء هذا المعبد من الجرانيت ومن الرخام الشفاف ، وهو ذو شكل مستطيل ومفتوح من أعلى ، ويدلف إليه باتباع ممر ذى ميل طفيف (رقيق) من ناحية الجهة الشمالية . وينقسم الجزء الداخلى إلى ثلاثة أجزاء عن طريق أعمدة مربعة تحمل كتلاً مستعرضة ضخمة من الجرانيت ، والكتل لها أبعاد خيالية ، فالواحدة منها يبلغ طولها ستة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار ونصف . ومن ناحية الجهة الشرقية توجد غرفة ضيقة تنتهى عند طرفيها بغرفتين أخريين ، وهنا يوجد البئر الذى يستخدم للطهارة المقدسة ، واكتشف السيد ماربيت فى عمق هذا البئر تمثال خفرع الذى نعجب به اليوم فى متحف بولاق . وعند الزاوية الجنوبية الغربية من الجزء الأوسط للمبنى توجد غرفة مظلمة تحتوى على ستة تجاويف أحدها فوق الآخر ، وقد حفرت هذه التجاويف دون شك مثل تلك المحفورة داخل هرم منقرع لكى توضع فيها مومياوات .

ولا توجد أى كتابة أو أى زينة تبين أصل هذا البناء . وتصميمه لا يقدم فى مجمله أى خط يتسابه مع تصميم المعابد التى تم اكتشافها فى جميع أنحاء مصر . ولم تترك الإمبراطورية القديمة أى أثر من هذا النوع حتى يتسنى مقارنته مع هذا الأثر . هل هو معبد أو قبر ؟ هل هو معبد أوزوريس الذى كُتب عنه فوق مسلة خوفو ؟ هل هو معبد الإله « هارم - خو » « هرمخيس » الذى يمثله أبو الهول (سفنكس) أم أن هذا الإله

ليس سوى حارسًا أو حاميًا للمومياوات الموجودة فى القاعات الجنائزية للمعبد ؟ وهذان الأثران لهما بكل تأكيد بعض الارتباط فيما بينهما . وأسفرت أعمال التنقيب التى قام بها « ماريبت » عن اكتشاف « درومس » (جمل هجين) يربط بين أبو الهول ومعبد الجرانيت . وأسوار تحيط بهذين الأثرين . والقول بأن خفرع كان قد بنى هذا البناء الغريب ليستخدم كقبر لأفراد عائلته لا يمكن قبوله ، فتمثال هذا الفرعون والتماثيل الصغيرة الثمانية التى اكتشفت فى هذا المعبد وكلها منحوت عليها اسم خفرع ليست أسبابًا كافية . فمسلة خوفو كانت تبرهن بوضوح أن تمثال أبو الهول كان موجودًا قبل الأسرة الرابعة بفترة طويلة ، ومعبد الجرانيت يجب أن يكون موجودًا فى نفس الفترة التى وجد فيها تمثال أبو الهول . ومثل التمثال الكبير الذى يبدو أنه يحرسه سوف يطرح هذا المعبد أمام السائح أحجية (فزورة) لن تستطيع الأحجار الصامتة أن تكشف مطلقًا سرها دون شك . فيجب أن نكنس وننظف الأثر بصفة نهائية ليس فقط الجزء المحيط به ، ولكن حتى حوائط الطوب ولكى نمنع ارتفاع هذه الحوائط ، وعودة الرمال ، ويجب أن نعرى تمامًا - من أعلى إلى أسفل - الواجهات الأربع الخارجية للمبنى . وعند الزاوية الشمالية الغربية للمبنى يبدأ طريق نصفه مبنى ونصفه منحوت فى الصخر ، ويبدو هذا الطريق كأنه يتجه فى اتجاه أبو الهول . يجب أن نعرف سببًا لهذا الطريق . وطبيعة المشكلات التى يثيرها أبو الهول هى أن الإنسانية تستطيع أن تنتظر اكتشافات أكثر إثارة ، وفى الوقت الحالى لا نستطيع أن نتنبأ عن ماهية هذه الاكتشافات .

* * *



(٩٠)

القبـــور

هضبة الأهرامات مغطاة بالآثار الجنائزية من كل العصور . وأغلب المحاريب أو أقداس الأقداس التى ترافق هذه القبور كانت قد كنست ونظفت ودرست ثم دفنت مرة أخرى تحت الرمال بأمر من السيد مارييت حتى يجنبهم التآكل الذى يسببه لهم بعض السياح . وهذه الآثار لكل العصور ، ويبدو أن هذه الشخصيات من مختلف الأزمنة كانت تتمسك بأن تدفن عند ظلال الأهرامات . وقبور الإمبراطورية القديمة عددها كبير جدًا، وهى تتمثل بصفة عامة على شكل مصطبة ، وهى نوع من الهرم الناقص مكون من كتلتين كبيرتين ، وهو يغطى ككتلة سميكة البئر التى تؤدى إلى التجويف حيث ترقد المومياء .

فى سلسلة الصخور التى تكون المنحدر المائل الشرقى الذى يصعب صعوده لهضبة الأهرامات يوجد العديد من الخنادق الجنائزية التى تستخدم كمخابئ للسياح الذين يقضون الليل فى هذا الجزء من الصحراء . وأهم تلك الخنادق أو القبور هى تلك المعروفة باسم قبر الأعداد لأنها تحتوى على تعداد يثير الشغف من واحد حتى ألف لذكور المعيز ، والحيوانات ذات القرون والحمير التى جىء بها أمام الكتاب حتى يتم تسجيلها كجزء من ممتلكات الميت الذى يدعى « كافرا - إنخ » .

وخلف أبو الهول بمسافة قليلة يوجد أثر ذو شكل فريد يعرف باسم قبر « كامبل ». وهو يحتوى على حفرة على هيئة متوازى المستطيلات محفورة فى الصخر على عمق ١٦ مترًا ، وأجنابه طولها ٩ أمتار و ٣٠ مترًا ، و ٨ أمتار ارتفاعه ، كما توجد حفرة كبيرة

محفورة حول هذه الحفرة على هيئة شكل رباعى أطوال أضلاعه ٢٠ مترًا و٧٠سم على عمق ٢٢ مترًا و٢٥سم . وتتصل هذه الشريحة مع الجزء الأوسط عن طريق ممر محفور فى السور الغربى . والحوائط الداخلية مثقوبة بتجاويف نشاهد فيها توابيت بدون جثث. وفى القاع توجد كذلك جبانة من البازلت الأسود لشكل إنسانى راقدة فوق الأرض. ومن الناحية الجنوبية على طرف الهضبة توجد مجموعة من القبور وأحدها مصان صيانة جيدة ، ألا وهو قبر « أورخون » نبى هرم منقرع . ونلاحظ داخله مشاهد ملاحية وصورتين كبيرتين منحوتتين على الصخر . وإذا ابتعدنا قليلاً إلى الغرب من هذه القبور نرى كذلك بعض أجزاء مكسورة من طريق معبد يؤدى إلى الهرم الثالث ، وآثار هذا الطريق المعبد توجد كذلك بطول ٢٠٠ متر أسفل مجموعة من أشجار النخيل والجميز موجودة حول مصدر للمياه فوق الطرف الشرقى للهضبة . وإذا عدنا فى اتجاه الشمال الغربى - أى فى اتجاه الهرم الثانى نقابل منحدرًا نازلاً حفرت فيه قبور ترجع إلى كل من الأسرة الرابعة والخامسة . وفى الغرفة إذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال نجد على الأسوار منحوتات هامة لموسيقيين ، وراقصين ، وأشخاص يقودون الحيوانات المتوحشة ، وعلى الحائط الأخير نجد مشاهد الصيد وأعمال الحقل منحوتة عليه ، كما نشاهد عليه كذلك أسماك دولفن أو درافيل منحوتة من زجاج .

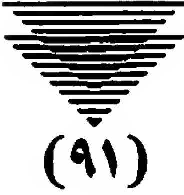
وفى الصخر المنحوت بالحديد المدبب ، ومن ناحية الواجهة الغربية لهرم خفرع يوجد صف من القبور يتميز أحدها بسقفه المنحوت على شكل جذوع أشجار النخيل لتقليد المساند التى توضع بجانب بعضها ، وهذه الغرفة هى الثالثة فى الاتجاه من الجنوب إلى الشمال . والجزء الشمالى من الصخر يحمل كتابة قصيرة لرمسيس الثانى .

وإلى الغرب من الهرم الأكبر يوجد العديد من المصاطب المرتبة ترتيبًا متماثلاً والقريبة جدًا من بعضها البعض ، وتنتمى هذه القبور إلى الأسر الإحدى عشرة الأوائل فقط . وأغلب هذه الآثار تستحق الفحص الدقيق . والمدخل يستدير دائمًا إلى اتجاه الشرق وفقًا للترتيب العادى للمصاطب . وفى بعض الأجزاء احتفظت الدهانات ببريق

مدهش . وتوجد مشاهد مختلفة منحوتة مثل الصيد ، والزراعة ، وتربية المواشى ، وإعداد الخمر ، وجمع الفاكهة ومهن مختلفة ، والرقصات ، والمغنين إلخ ... وفى أغلب الأحيان ينحت المتوفى نفسه وهو جالس وسط خدامه ، ويحضر العديد من مشاهد الحياة .

وأسفل الواجهة الجنوبية من الهرم الأكبر مازالت توجد مجموعة من القبور التى تحتوى على منحوتات هامة . ونلاحظ فيها سلاح الملك « ساهورا » من الأسرة الخامسة ، كما وجدنا داخل أحد التوابيت الذى لا يحتوى على جثث . وجدنا (نحن السياح) خاتمًا من ذهب باسم « خوفو » .

* * *



(٩١)

هـرم أبـو رواش

إلى الشمال الغربى من هضبة الجيزة ، وعلى مسافة حوالى ثمانية كيلو مترات يوجد هرم منهار يسمى بصفة عامة باسم « أبو رواش » أو « أبو ريوش » وهو اسم شيخ يقع قبره بالقرب من هذا الهرم . وهذا الهرم فى حالة انهيار مما يجعلنا (نحن السياح والباحثين) نعتقد أنه قد بنى قبل أهرامات الجيزة . وقاعدة الأثر يبلغ طول ضلعها ٩٨ مترًا ، ولم يتبق سوى خمسة أو ستة صفوف من الحجارة على هيئة قواعد ترتفع وسط كتل الحجارة المنتشرة على الأرض ، وغرفة الدفن محفورة فى الصخر . وبالقرب من الهرم من الناحية الغربية توجد أطلال يبدو أنها كانت جزءًا من مصطبة . وطريق مرصوف من الحجارة عرضه ١٠ أمتار وطوله ١٦٠ مترًا . والهضبة التى بنى فوقها هرم أبو رواش تتقدم كنقطة أو سهم مرتفع من الأرض وسط الصحراء وتقود هضبة الجيزة. وإذا صعدنا فوق الأثر يمتد نظرنا فوق كل الجزء الغربى من مدافن ممفيس . وإذا شاهدنا الأهرام من هذا الموقع فإنها تبدو ذات تأثير بديع عجيب .

وإذا عدنا فى اتجاه الجنوب الشرقى فإننا نقابل بالقرب من قرية « منشية - البكرى » كوبريين من الحجارة بناهما كل من الخليفة الناصر محمد ، والخليفة الأشرف فى القرنين الثالث عشر والخامس عشر .





أطلال ممفيس

قرية « ميت رهينة » هى إحدى النقاط الرئيسية التى تميز فى الوقت الحالى المكان الذى كانت ترتفع فيه من قبل قرية « ممفيس » ويتم الذهاب إلى هذه القرية بركوب قطار السكة الحديد المتجه لصعيد مصر من محطة القاهرة (محطة مصر) حتى المحطة الأولى (البدرشين على بعد ٢٣ كم من القاهرة) ومن البدرشين نتبع طريقًا يتجه إالى الغرب عبر الأراضى .

تاريخ

يشير التاريخ إلى أن الملك مينا ، وهو أول ملك فى قائمة الملوك الذين حكموا مصر ، وكان يعيش منذ حوالى خمسين قرنًا وقبل الميلاد ، ذلك الملك هو الذى كان قد أسس مدينة ممفيس . فبعد ما قلب مينا سيطرة الكهنة ووحد الأقاليم تحت عصا واحدة ، وأعطى للبلاد عاصمة جديدة قام بإنشائها على الضفة الشرقية للنيل ، على بعد بضعة كيلو مترات إلى الجنوب من نقطة تلاقى فرعى النيل عند بداية الدلتا . ويقول هيرودوت : « فى الماضى كان النيل ينساب فى اتجاه ليبيا بطول الجبل الرملى الذى يحد مصر عند الغرب . فردم مينا الذراع (فرع النيل) الذى كان يتجه فى اتجاه الجنوب ، وجفف هذا المجرى المائى ، وأجبر النهر على أن ينساب وسط الوادى . وأثناء حكم الفرس لمصر كان هذا الذراع (الفرع) الذى تم تحويله مثارًا لعناية نشيطة جدًا كل عام . فكان الفرس يحصنون هذا الفرع لأنه إذا قطع كانت ممفيس كلها ستواجه خطر الغرق . إذن فعندما قام مينا ملك مصر الأول بإحاطة قطعة من الأرض الصلبة بالمياه من كل ناحية ، بنى فى هذه الأرض الصلبة هذه المدينة التى تسمى اليوم ممفيس،

ثم أحاطها من الشمال ومن الغرب ببحيرة صناعية تتصل مع النيل الذى يحيط بالمدينة من جهة الشرق » .

ومجرى مينا مازال موجوداً حتى اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) ويسمى مجرى كوشييش Kocheisch ويستخدم فى الحفاظ على كل المياه التى تنساب من أحواض الفيضان بصعيد مصر . وسميت المدينة الجديدة « مانور » بمعنى « المكان الحسن » وترجمها « بلوتارك » بمعنى « ميناء الرجال الطيبين » ، وكرست هذه المدينة للإله «فتاح» الذى أعطاها اسمه المقدس « ها - كا - فتاح » أو مسكن « فتاح » وحول اليونانيون هذا الاسم إلى « مصر » .

وكانت ممفيس مزدهرة تحت حكم الأسر الخمس الأولى ، وبداية حكم الأسرة السادسة . ثم اختفت خلف العاصمة الجديدة « طيبة » أثناء فترة الإمبراطورية الوسطى ، ثم ظهرت من جديد مع كل من الملك أحمس والملك تحتمس الثالث أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة ، ثم استولى عليها الآشوريون وتم استعادتها ، واستولى عليها الأثيوبيون وتم استعادتها ، كما استولى عليها الفرس وتم استعادتها . وبدأ انهيار ممفيس مع تأسيس مدينة الإسكندرية ، غير أن العاصمة القديمة (ممفيس) مازال ينظر إليها على أنها العاصمة الدينية لمصر ، وكان ملوك أسرة « لاجيد » (من عام ٣٠٦ حتى عام ٣٠ قبل الميلاد) يتوجون فيها . وقبل الميلاد ببضعة أعوام قدم « سترابون » Strabon ممفيس على أنها مدينة كبيرة وبها عدد كبير من الناس . وقال عنها ديودور إنها كانت تمتد بطول نهر النيل ولا يقل طولها عن ٢٧ كم . ويحكى الكاتبان اليونانيان « ديودور » و « سترابون » أن قصور ممفيس كانت مهجورة ، ولكن معابدها كانت دائماً مفتوحة للصلاة وأكثرها شهرة كان معبد « فتاح » الذى تأسس فى عهد الملك مينا ، وكل من معبد حاتور ، وأبيس و « سيرابيس » . وعند نهاية القرن الرابع بعد الميلاد أحست ممفيس بتأثير المنشور الذى أصدره الإمبراطور ثيئودوثيوس Théodose أو « ثيئودوس » الذى أمر بهدم المعابد الوثنية . وفى زمن الغزو أو الفتح العربى لمصر ، كانت العاصمة القديمة (ممفيس) مازالت تتمتع ببعض الأهمية ، ووقع حاكمها المقوقس اتفاقية

تحالف مع القوات الإسلامية . وفى القرن العاشر أثناء تأسيس القاهرة ، تم قلب آثارها ونقلها قطعة قطعة لكى تستخدم فى بناء جوامع وقصور العاصمة الفاطمية .

ويحكى عبد اللطيف وهو طبيب من بغداد زار مصر فى ١١٩٠م- يحكى أن أنقاض ممفيس ، على الرغم من الجهود التى بذلتها الشعوب المختلفة لمحوها ، ومازالت تمنح الذين يتأملونها مجموعة من العجائب تذهب العقل ، ولا يستطيع الرجل الأكثر قدرة على الإقناع أن يصفها . ويقول السائح العربى « كلما تأملنا هذه المدينة زاد شعورنا بالإعجاب الذى توحى إلينا به ، وكل نظرة جديدة نلقيها على أطلالها تعد سببًا جديدًا للشعور بالنشوة ... فنشاهد دعامات التماثيل مقامة على قواعد ضخمة . والأحجار الناجمة عن هدم مبانيها تملأ كل مساحة أطلالها . ونجد فى بعض المواقع بعض بقايا من الأسوار مازالت قائمة . أيًا ما كان الأمر لم يتبق سوى الأساسات أو كتل من بقايا المبانى . وقد رأيت بها سقف باب مرتفع على شكل قوس ، ولم يكن الحائطان الجانبيان لهذا الباب يتكونان سوى من حجر واحد . والسقف العلوى الذى كان على شكل قوس مكون من كتلة واحدة كان قد سقط أمام الباب . أما بالنسبة لأشكال التماثيل التى نجدها وسط هذه الأنقاض . سواء إذا نظرنا إلى عددها أو احترمنا حجمها الضخم المهول . فهذا شىء ينأى عن كل وصف ولا نستطيع أن نعطى فكرة عنه . ولكن الشىء الذى مازال قادرًا على إثارة الإعجاب هو دقة تصميم هذه الأشكال وضبط نسبها ، وتتشابه هذه التماثيل مع الأشكال الطبيعية . وقد وجدنا تمثالاً بدون مسند يبلغ طوله أكثر من ثلاثين ذراعًا . وكان هذا التمثال من حجر واحد من الجرانيت الأحمر ، وكان قد تم دهانه باللون الأحمر ، ويبدو أن قدم هذا التمثال قد زاد هذا اللون لمعانًا وسطوعًا ... كما رأيت أسدين موضوعين أحدهما فى مواجهة الآخر وعلى مسافة قريبة منه ، ومنظرهما يوحى بالرعب . وعرف الفنانون القدماء بحقيقة الشكل الطبيعى وتناسب أبعاده على الرغم من ضخامة هذه التماثيل وأحجامها التى تزيد بمراحل عن أحجام الأسود الطبيعية . ولقد كسر هذان التمثالان وتمت تغطيتهما بالطين ... » وبعد قرن من الزمان قدم لنا أبو الفدا أطلال ممفيس على أنها ماتزال تحتل مساحة كبيرة ولكنها تتلاشى يومًا بعد يوم ، ومنذ هذه الفترة لم يذكر شىء عنها

. وأثناء الإدارة التركية لمصر ترك الإهمال الشديد للحكومات المجارى المائية التى كانت تحمى المدينة فى السابق تركها تسد ، فكل عام كان الفيضان يتصاعد رويداً رويداً على الأرض اليابسة حتى زالت آخر أطلال المدينة القديمة التى بناها الملك مينا .

واليوم كل ما يتبقى من ممفيس العاصمة القديمة لمصر - كما يمكن أن ممفيس كانت العاصمة القديمة للعالم ! - هو ما يلى بعض تلال من الطين ، وبعض أجزاء من الطوب التى تحولت إلى تراب ، وبعض التماثيل المقطعة التى ترقد بلا حراك على الأرض وسط كتل غير منتظمة من الحجارة . ففى المكان الذى لم يتوقف فيه صوت العمل البشرى لآلاف السنين بينما كان هذا الصوت متوقفًا فى مناطق أخرى . فى هذا المكان يسود هذه الأيام هدوء بدائى » . والمادة الرئيسية التى تجذب انتباه السائح هى تمثال ضخم مقلوب على الأرض أسفل أحد التلال التى نشاهدها عند الجنوب الشرقى لقرية « ميت رهينة » ، ويمثل هذا التمثال رمسيس الثانى - كما توضح ذلك كتابة ترافقه : ألا وهى « رمسيس ميعامون » إله الشمس ، حارس الحقيقة المدعمة من الشمس ، وهو شكل جميل ذو تعبير دقيق ورقيق وجليل . ويبلغ ارتفاع التمثال ١٠ أمتار و٣٠ سم ، وتم نحته فى كتلة من الحجر الجيرى الرملى . وبالقرب من هذا المكان وبجانب تل آخر يسمى « تل - منف » نشاهد كذلك بقايا أسوار ضخمة من السور تحيط بالأبنية المقدسة ، ويحتمل أن تحيط كذلك بمسكن « الثور أبيس » وهو معبد «فتاح» الذى أقامه الملك مينا ، وعند مدخله يجب أن يرتفع التمثال الضخم لرمسيس الثانى . وبالقرب من الناحية الشمالية يوجد تمثال ضخم آخر لنفس الفرعون من الجرانيت الوردى . ويرقد هذا التمثال بالقرب من المعبد المنهار الذى يرجع إلى عصر رمسيس الخامس ، تم اكتشافه بواسطة السيد مارييت . وعلى بعد بضعة أمتار إلى الجنوب توجد مسلة ضخمة من الحجر الجيرى الأبيض راقدة فوق ظهرها ، وهى من زمن « أبريس » (أوهابرا الأسرة السادسة والعشرين) . والفضاء الباهت الذى نلاحظه بالقرب من التمثال الضخم الثانى هو البحيرة المقدسة لمعبد الإله « فتاح » .

* * *



(٩٣)

ممفيس - سقارة

الجزء الأوسط لمدافن ممفيس يسمى باسم القرية الحالية « لسقارة » التى تجاوره. وفى الأصل كانت الآثار الجنائزية لسقارة تشكل شوارع ، وتقاطعات ، وميادين ، أما اليوم فقد أصبحت هذه المدافن أطلالاً . وصارت الرمال على مستوى الحوائط وغطت القبور . وبالإضافة إلى أسباب الهدم هذه تأتى أعمال التنقيب الشرسة التى قام بها فلاحو القرى المحيطة طوال خمسة عشر قرنًا من الزمان . وتبدو المدافن كأنها ضغطت على بعضها البعض . والحوائط تشققت ، والآبار المفتوحة تركت لتتسع فتحتها أكثر فأكثر ، والعظام البيضاء التى أخذت من المومياوات تنتشر فوق الأرض مختلطة مع الطوب المنتشر هنا وهناك ومع قطع الخزف المكسورة . فى كل مكان تسود فوضى مخيفة . وحقل الراحة والهدوء هذا أصبح حقلاً للتخريب والنهب . وإذا كانت مدافن « سقارة » قد خدمت سكان ممفيس طوال فترة الإمبراطورية المصرية ، فكل الفترات لا تمثل بالتساوى فى هذه المدافن . والقبور القديمة الموجودة بها أكثر عددًا وأكثر أهمية من الأخرى ، والقول الحق هو أن مدافن سقارة مثلها مثل مدافن الجيزة تنتمى إلى الإمبراطورية القديمة .





(٩٤)

الهرم المدرج

عدد أهرامات سقارة عشرة . وأكثر هذه الأهرامات جذبًا للانتباه هو الهرم المدرج. ويبلغ قياسه ١٢٠ مترًا على كل من الواجهة الشرقية والواجهة الغربية ، و ١٠٧ أمتار على كل من الواجهة الشمالية والواجهة الجنوبية . وعلى النقيض من القاعدة الكونية لهذه الآثار ، ولا يشكل هذا الهرم عند قاعدته مربعًا كاملاً ، وهذا الهرم هو الوحيد الذى لا يتجه فى اتجاه الشرق . فمحوره يميل على اتجاه الشرق بأكثر من أربع درجات . كما يرتفع هذا الهرم مكونًا ست درجات من السلالم كل درجة تمثل دورًا ، ويبلغ ارتفاعه ٦٥ مترًا ولا نجد فى مصر أو فى أى جزء من العالم مبنى آخر أقدم من هذا الهرم . والدراسة المقارنة لهذا الهرم . وللمسلات المكتشفة عند « السرابيم » والمعلومات التى أمدنا بها السيد « مانتون Manéthon » تجعلنا نعتقد بأن هذا الهرم أو هذه المقبرة قد شيدها « أوينفاس » Ouénéphès ، وهو الملك الرابع من الأسرة الأولى (حوالى ٤٨٠٠ قبل الميلاد) ويقول أحد المؤرخين المصريين وهو يتحدث عن هذا الفرعون: « لقد بنى هرمًا بالقرب من كو - كوميه » ، ولكن هذا الاسم كو - كوميه الذى شكله الهيروغليفى هو كا - كم « الثور الأسود » ، يوجد فى كثير من المسلات وفى بعض كتابات ضريح « أبيس » التى تسمى « أبيس » المائث باسم « حورس دى كا - كم » «بالقرب من هرم كا - كم» .

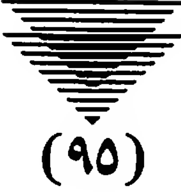
واعتقد المصريون أن أوزوريس قد نزل بعض مرات على الأرض فى شكل « ثور » ليكشف عن مهمة إلهية عن طريق بعض العلامات التى يحملها فوق جسمه . وعندما

كان يولد ثور وبه هذه العلامات كان يقال أن « أوزوريس » قد تجلى ، وكان يحمل هذا الثور إلى ممفيس حيث كان معبد أوزوريس ينتظره .

وعندما مات « أبيس » أصبح « سرابيس » بمعنى أنه عندما تشبه « بأوزوريس » الذى كان أحد أشكاله أخذ اسم « أوزوريس - أبيس » وباللغة المصرية « أوزرهابى » وسماه اليونانيون « سورابيس » أو « سيرابيس » ، ويسمى معبد الإله بممفيس « أبيوم » وقبره فى سقارة « سيرابيوم » .

ولهذا الهرم مدخلان. مدخل عند الشمال ومدخل عند الجنوب واليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) لا يستخدم هذان المدخلان بسبب الانهيارات (انهيار الأحجار) الحادثة بهذا الهرم . ووفقًا لما قاله السيد مارييت فإن لهذا الهرم مجموعة من الممرات الداخلية، والطرقات الأفقية ، والسلالم والغرف والحفر التى تجعل مجموعة هذه الممرات السفلية تشبه قصر التيه أو التيه نفسه . وهذا الهرم يقدم عند محوره غرفة عرضها ٢٠ قدمًا وارتفاعها ٨٠ قدمًا كنقطة مركزية لكل الطرق التى تصل إليها عند أدوار مختلفة ، ويوجد بين شرائح الرخام المرصوفة داخل هذه الغرفة كتلة ضخمة من الجرانيت منحوتة على شكل باب يسد هذه الغرفة بالضبط . ويمكن تحريك هذه الكتلة وعمل طريق للنزول إلى حفرة داخلية من الصعب تحديد الغرض منها مادامت هذه الحفرة صغيرة جدًا لدرجة لا تستطيع أن تحتوى على تابوت . فهل كان هذا الهرم قبرًا لأوينفاس Ouénéphès ؟ الكتابة التى ذكرناها من قبل ، وعظام الثور والعدد الكبير من المومياوات التى تم اكتشافها داخل هذا الهرم . كل ذلك يجعلنا نعتقد بأن هذا الأثر كان فى الأصل قبرًا للملك ، وفيما بعد أمكن استخدامه كقبر أو ضريح « لأبيس » . فالثيران الإلهية التى كانت تسكن معبد « فتاح » منذ ملك الفرعون كاكيو Kakéou (من الأسرة الثانية) كانت عند موتها تدفن مثل الملوك . وكتلة هذا الهرم مصمتة ، وحفرت ثلاثون حفرة فى الصخر داخله، ومدخل هذه الحفر يفتح عند مسافة ما وسط الرمال.

* * *



(٩٥)

السرابيوم Sérapéum

تاريخ

تم اكتشاف سرابيوم ممفيس فى ١٨٥٠ م بواسطة السيد مارييت . فأثناء تجول السيد مارييت بصحراء سقارة لاحظ جزءًا علويًا لرأس أبى الهول يطفو على سطح الرمال ، فقام فى الحال بكنس المكان واكتشف الجزء كله جالسًا على قاعدته . وكان تمثال أبى الهول يشبه التماثيل التى رآها السيد مارييت فى كثير من حدائق الإسكندرية والتى قيل له إنها تأتى من سقارة . وفهم السيد مارييت أن كل هذه التماثيل التى لأبى الهول كان يجب أن تكون جزءًا من هذه الشوارع الأثرية التى اعتاد المصريون على إقامتها على الطريق إلى المعابد. واستعاد فى الحال هذه الفقرة التى قالها « سترابون ». « إننا نجد فى ممفيس معبدًا لسرابيس فى مكان محاط بالرمال لدرجة أن الرياح تكون حول هذا المعبد كتلاً من الرمال نشاهد فيها تماثيل مدفونة لأبى الهول . أحد هذه التماثيل حتى منتصف الجسم ، والتماثيل الأخرى حتى إلى الرأس ، ومن هنا نستطيع أن نفترض أن الطريق إلى هذا المعبد لا يكون مطلقًا دون مخاطرة إذا فاجأتنا أحد الرياح العاصفة . وبدا السيد مارييت العمل بهمة وحماس لا يمكن وصفهما . وظهرت تماثيل أبى الهول الواحد تلو الآخر . وكان اكتشافها سريعًا فى بادئ الأمر لأنه لم يكن فوقها سوى أربعة أو خمسة أمتار من الرمال . وشاهدنا الشارع وهو يرتسم وسط حفرة مهددة فى كل لحظة بأن تغزوها الرمال .

وخلال شهرين من الزمان (شهرا نوفمبر وديسمبر عام ١٨٥٠م) تم قطع مسافة قدرها خمسمائة متر . كما تم اكتشاف مائة وأربعة وثلاثين تمثالاً لأبى الهول . ولكن الشارع الذى يستدير فى اتجاه الجنوب عقد الأعمال ، ولكن استمرت أعمال الحفر تحت السماء المكشوفة وسط صعوبات جمة . وقساوة الرمال المتراكمة والمكومة منذ قرون كانت لدرجة أننا استطعنا أن نعطى للحفرة أسوار رأسية تقريبًا تلتصق فوقها طرق ضيقة متعرجة كان يخرج منها الفلاحون ببطء حاملين على رؤوسهم قففًا ممتلئة . وكان يحدث غالبًا أنه فى الساعة التى تجفف عندها الشمس الندى الذى تسببه رطوبة الليل تنفصل كتل ضخمة من الرمال من حدود الحفرة التى يبلغ ارتفاعها من ٢٠ إلى ٢٥ مترًا ، وفى بعض الأحيان يبلغ ارتفاعها أكثر من ذلك فى بعض المواقع ، وتنساب هذه الرمال إلى قاع الحفرة مما يؤدى إلى سقوط العمال وإحداث جروح بأجسامهم . ويومًا ما كان يوجد لنا أحد عشر عاملاً مدفونين تحت هذه الكتل الرملية ، وتم سحبهم وهم أحياء بعد صعوبة بالغة . ويقول السيد مارييت : « كانت لدينا فكرة عن بطء أعمالنا بسبب نقص خبرة العمال ، وعدم وجود المعدات الكافية ، وطبيعة الرمال التى تواجهنا أثناء العمل ، لدرجة أنه كنا نتقدم مسافة متر واحد كل أسبوع ، وبعد أن كنسنا ١٤١ تمثالاً لأبى الهول وصلنا إلى قاعة على هيئة نصف دائرة بها تماثيل يونانية مصفوفة على حائط منخفض ، وتمثل الفلاسفة والكتاب الأكثر شهرة لليونان مع كل متعلقاتهم مثل الشاعر الغنائى « باندار » Pindar ، ورجل القانون ليسرج Lycurgue ، وسولون Solon رجل القانون وأحد حكماء اليونان السبعة (قديمًا) ، والشاعر الدرامى أوربيد Euripide ، وبروتاجورس Protagoras ، والفيلسوف بلاتون Platon ، وأبو التراجيديا اليونانية « أشيل Echyle » وهوميروس Homére معلم الإسكندر الأكبر . وفيما بين الصالة النصف دائرية وتمثالى أبو الهول الأخيرين من الطريق يوجد طريق آخر مرصوف بالرخام عرضه ١٤ مترًا ويؤدى إلى معبد « أبيس » على اليسار وقد بنى هذا المعبد « نكتانبو » سنة ٣٧٨ قبل الميلاد (الأسرة الثلاثين) ، كما يؤدى هذا الطريق على اليمين إلى البوابة الأولى (وهى كتلة ذات أربعة أوجه) أو البيلون للسرابيوم . وهذا الجزء من الطريق المرصوف بالرخام والذى يبلغ طوله حوالى ١٠٠ متر كان يحده من كل جانب حائط منخفض وعريض توضع فوقه تماثيل ضخمة مدهشة لحيوانات .

وعلى بعد حوالى ثلاثين مترًا من القاعة النصف دائرية ، وعلى الجانب الأيمن من الطريق المرصوف بالرخام كانت تفتح قدسا أقداس متلامسين ، قدس الأقداس الأول على النمط المصرى ، وقدس الأقداس الثانى على النمط اليونانى الخالص ، مع مجموعة من الأعمدة الكورنثية (أو رواق من الأعمدة الكورنثية مغلق من جانب من هذه الأعمدة المنعزلة ومن جانب آخر بحائط المبنى) . وهذا الرواق كان خاليًا من الأعمدة . لكن فى قدس الأقداس المصرى كان يقف تمثال « لأبيس » من الحجر حاملاً قرص الشمس بين قرونه . ويوم ١٢ نوفمبر ١٨٥١م تم اكتشاف مدخل المخابئ الواسعة التى كانت توضع فيها الثيران التى تشبه الثور « أبيس » بعد موتها . ففى هذه الفترة كان السيد مارييت الذى كان يسبب قلقًا للحكومة بسبب حفرياته ، وكان يراقبه جنود أتراك، كان يعمل سرًا أثناء الليل . ففى حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ظهر له مدخل مخبأ واسع جدًا تختفى فيه قبور الثيران التى على شكل « أبيس » ظهر له هذا المخبأ على شكل ثقب واسع ، وبعد تجسس أو دراسة سريعة للمكان وسط مناخ فاسد تعرف على فوضى لا مثيل لها لخراب عنيف ، فالحفر انتهكت وسرقت منها المومياوات ، والمسلات كسرت ، والتوابيت الخالية مفتوحة ! ... وتم إغلاق السرابيم Sérapéum بعناية بعد ذلك لكى لا يعاد فتحه سوى بعد ذلك بثلاثة أشهر عندما سهلت الإجراءات الميسرة للعمليات .

وأدى كنس وتنظيف السرابيم Sérapéum إلى اكتشاف سبعة آلاف أثر من بينها ثلاثة آلاف مرتبطة بطقوس صلاة لآلهة وثنية . ويوجد جزء كبير من هذه الاكتشافات الثمينة بمتحف اللوفر بباريس وبمتحف بولاق بالقاهرة . ووجدت أربعة قبور فقط سليمة للثيران التى على شكل « أبيس » من بين أربعة وستين قبرًا تم اكتشافها فى المخابئ . ويقول السيد مارييت « سنفهم حجم العمل الذى تم بالتوجه وسط فوضى لدرجة أنه للوهلة الأولى لم أتمكن من التعرف على أصدقائى فى العمل داخل المخبأ . وكان علينا أن نجمع بعناية بالغة العلامات التى حفظها الزمان ، وأن نستجمع أفكارنا عند رؤية هذه الأماكن ، وأن نتعرف على الطرق المختلفة للبناء ، وأن نسأل الكتابات التى مازالت فى مكانها ، وأن نقرب منها الآثار التى لها نفس الأسلوب ، والتى تم

اكتشافها فوق الأرض ، وأن نعد الغرف والتوابيت ، ومن كل ذلك نعيد تكوين القبر كما كان موجودًا فى زمن ازدهاره » . وأقدم قبر للثيران التى على شكل « أبيس » يرجع إلى زمن ملك الفرعون أمنحتب الثالث من الأسرة الثامنة والعشرين (قبل ميلاد المسيح بستة عشر قرنًا من الزمان) .

وكانت الرمال تغطى كل حدود « السرابيم » وطريق تماثيل « أبو الهول » (سفنكس Sphinx) . والمخبأ يتكون من خندقين واسعين . الخندق الأول له مدخل عند الجنوب ، ويتكون من رواق تفتح عليه عشرون غرفة (من الأسرة التاسعة عشرة حتى الأسرة السادسة والعشرين) مع توابيت فارغة وحوالى ١٢٠٠ مسلة منحوتة . والخندق الثانى هو الوحيد الذى نزوره الآن (زمن كتابة هذا الكتاب) ومدخله إلى الشرق . ونتوغل فيه عن طريق باب منخفض فى نهاية خندق . وعند المدخل تقريبًا يسد الممر جزئيًا بواسطة تابوت كبير مفتوح من الجرانيت . وعلى يمين وعلى يسار الأروقة تفتح غرف ذات أسقف مقوسة (من الأسرة السادسة والعشرين حتى الأسرة الرابعة والثلاثين) تحتوى على أربعة وعشرين تابوتًا كبيرًا من حجر واحد الا وهو جرانيت « سيان Syéne » الجميل ، وارتفاع هذه التوابيت من ٣ إلى ٤ أمتار ، وطولها من ٤,٥ حتى ٥ أمتار ، وعرضها ٣ أمتار ، وسمك الأسوار الداخلية ٦٠ سم ، وطول الخندق ١٩٥ مترًا .

وتوجد قبور أخرى للعجول التى تشبه « أبيس » فى المنطقة القريبة من هذا المخبأ المزدوج من الناحية الجنوبية ، وتلك القبور ترجع إلى الفترة التى تسبق رمسيس الثانى ولكن لا تتعدى مطلقًا فترة حكم أمنحتب الثالث . وخلال هذه الفترة كان لكل منها قبره الخاص الذى كان يتكون من غرفة أسفل الأرض يتم الوصول إليها عن طريق ممر مائل مفتوح إلى الشرق ، وأعلى الأرض كان يوجد قدس أقداس مزين بمسلات وبمنحوتات ذات بروز خفيف .

واكتشاف السرابيم Sérapéum جعلنا نعرف بدقة المكان الحقيقى لمفيس التى كان الناس قد نسوا تمامًا اسمها وذكرها . والسياح لم يجدوا آثارها خلال القرون الثلاثة الأخيرة .

* * *



قبر « تى »

أجمل كل المقابر التى تغطى مدافن سقارة هى مقبرة أحد كبار موظفى الدولة ويدعى « تى » ، « كما أنه أحد المعتادين على رؤية الملك ، وهو رئيس أبواب القصر ، ورئيس الكتابات الملكية ، وقائد الأنبياء الوثنيين » . وكان يعيش فى ممفيس أثناء حكم الأسرة السادسة . وكانت زوجته تدعى « نفر - حوتب » بمعنى « سعفة حب زوجها » أو « لذة حب زوجها » . ويسبق القبر حوش مربع مزين بالمنحوتات البديعة الراقية ومحاط باثنى عشر عموداً يبدو أنها تسند سقف رواق مغلق من جانب بواسطة بعض الأعمدة ومن جانب آخر بواسطة حائط المبنى . وعرف قدس الأقداس الجنائزى لمقبرة « تى » ، وهى الأكمل والأكثر أحتفاظاً بطباعها من كل تلك التى نزورها فى سقارة ، ويمكن أن تمد الزائر بأحسن فرصة لاستيعاب الروح أو الأجواء التى صممت فيها زينة هذه الغرف . ونلاحظ أولاً الغياب المطلق لكل تماثيل الألهة الوثنية . والطقوس الغامضة المليئة بالأشباح التى يجب على نفس الميت أن تحاربها لم تتوغل بعد داخل غرفة القبر التى يمكن للأحياء أن يدخلوها . وما تمثله الأسوار الداخلية هو نوع من الكتب تتكرر فصولها المختلفة فوق حوائط القبور الأخرى ، مع متغيرات لا تهم سوى بالأسماء ، وبألقاب الميت ، وأسماء أعضاء عائلته ، وهؤلاء الذين يخدمونه . ولضمان راحة نفسه ، وللتأكد من أنه أثناء تتابع طويل للأجيال سوف نأتى لنقوم بالطقوس التى تأمرنا بها الصلاة على الأموات فى الغرفة الخارجية ، فمن المفترض أن الميت قد قام أثناء حياته بأعمال صالحة تكون أساساً له بعد موته ، وأنه قد خصص بعضًا من أعماله للإنتاج ،

وللصيانة ولتجديد الهبات والعطايا من كل نوع ، تلك الهبات التى يجبر القانون الدينى الأحياء من الناس على وضعها فى غرفة خارجية للقبر فى بعض الأيام المعينة . وفى هذه الأيام الخاصة يجتمع والدا المتوفى فى هذه الغرفة ويضحيا ، ويأكلان ويشربان وسط مجموعة من معارف المتوفى . فكان يفترض أن الحياة المشتركة سوف تستمر هكذا عن طريق أحد هذه الخيالات النشيطة المعزية التى سرت داخل أخلاق سكان مصر الحديثة . ولكن ما تمثله اللوحات التى تغطى حوائط قبر « تى » هو مجالات العمل نفسها التى قام بها المتوفى أثناء حياته ، ففى الحياة الدنيا كان يقوم المتوفى ببذر البذور فى الحقول وجمع المحصول ، واقتياد الحيوانات إلى المرعى ، وبناء السفن ، كما يمارس الخدام ألعابًا شيقة فوق سطح الماء ، أو كان يقوم المتوفى نفسه بصيد السمك أو الحيوانات الأخرى من الأرض الموجودة بجانب النهر ، كما توجد فى اللوحات نساء واقفات يمسكن بالثيران والأبقار ، والغزلان ، ويضعن فوق رؤوسهن قفف كبيرة مليئة بالورود والفاكهة ترمز كل منها إلى الأراضى التى خصصها المتوفى لإعطاء العطايا والمنح الجنائزية التى تتغذى عليها نفسه بعد الموت .

تلك هى بصفة عامة زينات الغرف التى يتكون منها قدس الأقداس الخارجى لقبر « تى » ونشاهد نفس النسخة من هذه الزينات الأكثر تطورًا أو الأقل تطورًا على أسوار القبور الأخرى لسهل سقارة .





قبر فتاح - حوتب

لا يمنح هذا الأثر أى ترتيبات أخرى غير تلك الموجودة بقبر « تى » ، وهو مثل الآخرين كتلة مستطيلة، وهى تعد مصطبة بالمعنى الحقيقى ، كما أن هذا الأثر لا يحتوى سوى على غرفة واحدة تؤدى دور قدس الأقداس أعلى البئر الذى يؤدى إلى حفرة جنائزية . وتم ابتكار زينة الأسوار بنفس أسلوب الزينة التى لقبر « تى » . ونحن (الزوار) فوق المجالات المخصصة بواسطة « فتاح - حوتب » لخدمة التقدمات الجنائزية. ويوجد خدام تقوم أمام المتوفى (ولا نشاهد سوى العصى) الخاصة بأعمال الصيد بالشبكة ، وآخرون يدخلون إلى المزرعة حاملين معهم مختلف المنتجات ، ويعبرون قناة على متن مراكب حفيفة مصنوعة من قش الذرة . وحركة الأشخاص الذين يتصارعون مع بعضهم بالحراب من فوق المركب توقظ الانتباه . ويوصف فتاح حوتب بأنه كاهن كل من هرم « من - آسو لرانوزر » وهرم « موتر - آسو » لمنكاوهور .

ومن بين الشخصيات توجد ثلاث أو أربع تعلن العيوب الموجود بأشكال رؤوسهم - فرؤوسهم مستوية من أعلى - تعلن أولاً عن أنهم أجانب غير مصريين . وهم ذوو رؤوس ممدودة كما لو كانت الأشكال تشاهد من الجنب . والكراسى مدهونة بالأحمر مثل كراسى المصريين ، ولكن فى بعض الأحيان تكون هذه الكراسى مدهونة باللون الرمادى الغامق . وهذه الخاصية لا تقتصر على قبر « فتاح - حوتب » ، بل نجدها فى قدس الأقداس الجنائزى « لتى » ، وبصفة عامة فى كل القبور القديمة بسقارة . ويمكن أنه يجب أن نرى فى هؤلاء الأجانب أشخاص من عرق آخر كانوا يستخدمون كعبيد فى هذه الفترة .

* * *



(٩٨)

مصطبة الفيوم

إلى الجنوب من مقابر سقارة يرتفع بناء ضخم على شكل هرم ناقص ، ويبلغ قياسه ١٠٢ متر طولاً ، و ٧٢ مترًا عرضًا ، و ٢٠ مترًا ارتفاعًا . ويسميه العرب « مصطبة الفيوم » « مقر فرعون » .

وهذا الأثر عبارة عن قبر ملكى يذكرنا ترتيبه الداخلى بالترتيب الداخلى لهرم منقرع - أى نفس الممرات المائلة ، ونفس الغرف ، ونفس التجاويف الجانبية الكبيرة . وفوق كتلة باقية من الهرم وجدنا علامة المهنة مكتوبة بالخزف الأحمر ، ويبدو أن التجمع يشكل اسم أحد أواخر ملوك الأسرة الخامسة .

واكتشف « مارييت » مدخل مصطبة الفيوم فى عام ١٨٥٨م . ولا توجد أى كتابة فى القسم الداخلى من المصطبة . ووجد التابوت المخصص للمومياء الملكية مكسورًا . وبين الكتلتين كان يوجد شاكوش من الخشب قد نسى دون شك أثناء البناء . وتوضع هذه الآلة القديمة جدًا اليوم (زمن كتابة هذا الكتاب) من بين مجموعات « متحف بولاق » .

* * *



(٩٩)

اكتشافات جديدة بسقارة

افتتح ماريبت باشا قبل وفاته بعدة أسابيع ثلاثة أهرامات كانت قد ظلت مغلقة حتى وقت كتابة هذا الكتاب ، وأحد هذه الأهرامات كان فارغًا وصامتًا ، أما الاثنان الآخران فقد وهبا للعلم كتابات وتوابيت ملكية من الأسرة السادسة ، الا وهما « بابى » الثانى وابنه « مرنرى » .

وبالمثل جعل السيد « ماسبيرو Maspéro » من سهول سقارة حقلاً لتنقيباته ، ولم يكن أقل سعادة من سلفه ، فقد وجد فى أحد هذه الأهرامات الذى قام بافتتاحه . وجد قبر الملك « أوماس » من الأسرة الخامسة . وتوغل السيد « ماسبيرو » يوم ٨ مارس ١٨٨١ داخل هذا الأثر . وكان لصوص الفترة الرومانية - اليونانية والمنقبون العرب فى العصور الوسطى كانوا قد دخلوا هذا الهرم قبله ، وكان عليه أن يتبع نفس الطريق الذى سلكوه . وكان هناك ممر ضيق ارتفاعه قدمان وعرضه قدمان يؤدى خلف الشبكة الكبرى المدببة الأولى إلى غرفة أولى تملأ نصفها الرمال يفتح خلفها ممر يؤدى إلى الغرف الجنائزية . وهذا الممر الذى يبلغ طوله الكلى حوالى عشرين مترًا تقطعه ثلاث مرات شبكات مدببة مسلحة كبرى من الحجارة قام المنقبون بإدارتها . والممر الذى حفروه لهذا السبب ضيق لدرجة أن رجلاً أقوى قليلاً من الرجل العادى لا يستطيع المرور فى هذا الممر .

ولا يوجد هرم آخر مسالكه أصعب من هذا الهرم . كما أنه لا يوجد هرم آخر يكافئ المنقب عن تعبه غير هذا الهرم . وبعد عبور آخر الشبكات الكبرى المسلحة المسننة يستمر الممر ، أولاً من الجرانيت الناعم ، ثم من الحجر الجيرى المتماسك من جبل طره . والسوران الجانبيان مبنيان من الحجر الجيرى وتغطيهما كتابات هيروغليفية جميلة مدهونة باللون الأخضر ، والسقف مزروع برسومات لنجوم من نفس اللون . ويؤدى هذا الممر أخيرًا إلى غرفة يمتلئ نصفها بالأحجار المكسرة وتستمر الكتابة على حوائطها . وإلى اليسار يوجد رواق يؤدى إلى غرفة منخفضة بها ثلاثة تجاويف يجب أن تستخدم كسرداب لحفظ التماثيل ، وإلى اليمين يؤدى ممر آخر إلى غرفة التوابيت . والسرداب خال من أى كتابات ، ولكن غرفة التوابيت مغطاة بالكتابات الهيروغليفية مثل الغرفة السابقة فيما عدا الحائط المواجه للمدخل المغطى بزينات من ألوان ذات تأثير جميل . والتابوت من البازلت الأحمر وبدون أى كتابة ، والغطاء ملقى فى أحد زوايا الغرفة ، كما تم قلع الجثمان لنهبه وسرقة ملابسه . وأحد الذراعين كامل تقريبًا ، وقطع من الجمجمة وجانب من الملك أوناس جاءوا إلى متحف « بولاق » بجانب مومياء كل من الفرعون « بابى » والفرعون « مرنرى » .

والنصوص التى تغطى حوائط هذه الغرفة تتشابه فى جزء كبير منها مع النصوص التى تغطى حوائط غرفة قبر الملك « بابى » ، بل إن نصوص هذه الغرفة تتميز بأنها كاملة . وعرف السيد ماسبيرو فى الحال بعض الصياغات وبعض الجمل التى كانت قد أدهشته فى المرة الأولى . ووجود هذين النصين حتى فى غرفة الميت قد أكد بطريقة لا تدع مجالاً للشك النظريات التى كان السيد ماسبيرو قد عرضها لمدة أربع سنوات بكلية فرنسا عن ترتيبات القبور المصرية . أما بالنسبة للنصوص فهى تحتوى على موضوع إنشاء مشابه للموضوع الذى يغطى بعض القبور الموجودة بمدينة طيبة (الأقصر) الغير مشهورة ، وبدون أن تمثل صعوبات كبرى . وهى تتطلب دراسة ذكية يقوم بها الشخص الذى يريد فهمها .

ومن بين سبعة عشر هرمًا كان السيد ماسبيرو قد افتتحها بهضبة « سقارة » خمسة تحتوى على نصوص جنائزية ، أو عرض كامل للدين المتبع أو المعتنق فى زمن الإمبراطورية القديمة . وهذا الاكتشاف مهم جدًا بالنسبة للعلم لدرجة أنه حتى الوقت الحالى (وقت كتابة هذا الكتاب) لم يتم التعرف على سطر واحد من نص من هذا النوع . ومدخل هذه الأهرامات غير آمن لأنه غير متماسك ، لذلك فقد تم غلق هذا المدخل بعناية لتجنب وقوع أى حادث ، وهرم « أوناس » Ounas هو الوحيد الأكثر الأهمية ، وقد تم إعداده حتى يفتتح أمام الشعب منذ الأيام الأولى لعام ١٨٨٣م .

